ج . م . هسّى

العالم البيزنطي

ترجمة وتعليق وتقديم

دكتور رأفت عبد الحميد

دار المعارف

ج. م. هسى

العالم البيزنطى

ترجمة وتقديم وتعليق
دكتور رأفت عبد الحميد
كلية الآداب ـ جامعة عين شمس

الطبعة الثالثة
١٩٨٤

دار المعارف

الناشر : دار المعارف ـ ١١١٩ كورنيش النيـل ـ القـاهرة ج ٠ م ٠ ع

الى روح توفيق

ذكرى ووفاء ...

تقــدير وعرفان

« خالص تقـديرى وعرفانى أقـدمه الى أستاذى الفاضل الأستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف أستاذ تاريخ العصــور الوسطى بآداب الاسـكندرية لتشجيعه اياى على ترجمـة هـذا الكتـاب عنـدما عرضت الفـكرة على سيادته ، والأستاذ الدكتور فاروق شـلبى أستاذ ورئيس قسـم الاقتصاد بالجامعـة الأمريكية بالقاهرة ، وأسـتاذى الـكريم الدكتـور اسحق عبيـد أستاذ العصـور الوسطى بآداب عين شمس ، والزميلين الصـديقين الدكتور محمد حمـدى ابراهيم اسـتاذ مساعد الدراسـات اليونانيـة واللاتينية بآداب القـاهرة ، والدكتور احمـد عبد الرازق أستاذ مساعد التاريخ والحضارة الاسلامية بآداب عين شمس ، لما بذلوه من جهد فاق جهدى ، ودقة بالغـة صقلت فكرى ، حتى يخرج الكتاب فى الصـورة التى أملته عليها ورجوتها له » .

رأفت عبد الحميد

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الطبعة الثالثة

خلال الأعوام الثلاثة الماضية – شغلت عن بيزنطة .. بأوروبا .. وأغرقت نفسى فى صراعاتها العنيفة بين قوتيها المستبقتين إلى السيادة .. البابوية والإمبراطورية .. وقواها العديدة المتطلعة إلى المكانة المرموقة فى ظل نظام إقطاعى متميز ، عرفت به العصور الوسطى الأوروبية .. الملوك .. الأمراء .. رجال الاكليروس .. المدن التجارية . وقلبت فكرى بين الوثائق العديدة ، التى خلفها صانعو الأحداث خلال الفترة الممتدة من القرن التاسع إلى الثالث عشر . وتمخض ذلك عن بحوث ثلاثة حملت عناوين « المشكلة الإيطالية فى السياسة الألمانية » و « الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب » و « السمو البابوى بين النظرية والتطبيق » .

حتى إذا أفقت من هذا الاستغراق .. علمت بكل السعادة ، بنفاد الطبعة الثانية من كتاب « العالم البيزنطى » . وكان هذا دافعًا لى ، جذبنى من جديد إلى مراجعة ترجمتى وتقديمى للكتاب ، وإلى أن أعيش مرة أخرى داخل بيزنطة التى أحببتها ، وعلقت بها نفسى ، كى أقدم لقرائى الأعزاء هذا الكتاب فى طبعته الثالثة .

وإنى إذ أشكر للمهتمين بالدراسات البيزنطية ، شغفهم بـ « العالم البيزنطى » على هذا النحو .. أعدهم وعدًا حسنًا ، أن يكون هذا باعثًا لى على بذل مزيد من الجهد فى ميدان الدراسات البيزنطية ، التى تفتقر إليها المكتبة العربية .

والله أسأل التوفيق والسداد .

رأفت عبد الحميد

القاهرة

أغسطس ١٩٨٤

تقـديم الطبعة الثانية

عندما اتممت منذ خمس سنوات ترجمة هـــذا الكتاب الى العربية ، وقدمت له وعلقت عليه ، لم يكن يدور بخلدى ســاعتها انه سيلقى هـــذا الاستحسان من جانب المشتغلين بالدراسات البيزنطية ، ويعود هذا الشعور الى الصعوبة التى قد تكتنف طريق قارئه فى أصله الانجليزى ، اذ ان مؤلفته تكتب للمتخصصين جدا فى هذا الميدان ، لذا جاء الكتاب شديد الايجـاز ، خاليا من التفاصيل الدقيقة ، خاصة فى نصفه الأول الذى يتناول الجـانب السياسى على امتـــداد التاريخ البيزنطى الذى يمتد الى الف ومائة عـام وينيف • وهذا النصف يقع فى ثمانين صفحة من القطع المتوسط ، بينمـــا الصفحات الثمانون الأخرى ، التى تشكل النصف الثانى ، تعالج الجوانب الحضارية •

واذا كان الكتاب قد خلا من التفاصيل ، فقد امتلأ بالخطوط العريضة والآراء العميقة المتانية ، وتميز بالنظرة الفاحصة الدقيقة •

والكتاب بما يضمه بين دفتيه من معالجة النواحى السياسية والمظاهر الحضارية للعالم البيزنطى ، رغم العدد القليل لصفحاته ، كان بلا شك دافع الاقدام على ترجمتـه ، وفى الوقت نفســـه مبعث الاستحسان لدى دارسى التاريخ البيزنطى ، اذ تكاد المؤلفات التى صـدرت فى هـــذا المجـال ، يلقى مؤلفوها بثقلهم فى الجانب السياسى وحده ، ولم يخرج عن هــذه القاعدة الا نفـــر قليــــل فى مقدمتهم عالم البيزنطيات الأشــــهر « نورمان بينز » Norman Baynes فى مؤلفه The Byzantine Empire والمؤرخ الشهير « ستفن رانسيمان » Steven Runciman فى كتابه Byzantine civilization

وازاء هذا الايجاز الشديد وجدت لزاما على تفصيل ما غمض ، لـذا امتلأت صفحات الترجمة بالحواشي التوضيحية المفصلة ، فغدا الكتاب فى صورته العربية ضعف نسخته الأصـــلية فى الانجليزية ٠ واعتمدت فى ذلك على الكثير من المصادر والعديد من المراجع التى أمدتنى بالمـادة العلميـــة اللازمة لهذه التفاصيل ، والتى اثبتها فى آخر الكتاب ٠

وقد الحقت المؤلفة كتابها بمجموعة من المصادر والمراجع خاصـة بكل فصل من فصول الكتاب ، عمدت فى الترجمة العربية الى الحاق كل فصـــل على حدة بما يخصه من هذه القائمة ، واعدت ترتيبها ابجديا حتى يسهل على الباحث مراجعتها متى عن له ذلك ٠

ولما كانت بداية التاريخ البيزنطى تمثل لدى الدارسين مشكلة من أعقد المشكلات ، وتثير بينهم جدلا ما يزال قائمـــا ، فقـد عرضت على الصفحات الأربعين الأولي من تقـــديمى للطبعة الأولى ، لـكل الآراء التى ابداهـــا المؤرخون ، من اصحاب المدرسة التقليدية ، والمجددون ، وتناولتها بالتحليل والنقد والمناقشة ، وبينت فى نهاية الأمر وجهـــة النظر التى يمكن أن نركن اليها ٠

واذ اقدم الآن الطبعة الثانية « للعالم البيزنطى » أرجو أن تكون هـــذه الترجمة اسهاما فى اثراء المكتبة العربية التى مازالت تحتاج الى الكثير من جهود الباحثين فى هذا الميدان ٠

رافت عبد الحميد

القاهرة ـ مدينة نصر

مارس ١٩٨٢

تقـــديم

يختلف الدارسون اختلافا كثيرا حول نقطة البدء فى التاريخ البيزنطى ، ويذهبون فى ذلك مذاهب شتى ، متخـــذين من سنوات بعينها ، وقعت فيها حادثات معينة ، منطلقا الى هذا التاريخ ، وكل يقدم أدلته والبراهين ليثبت بها صدق رأيه وصواب دعواه ·

ستفن رنسيمان Steven Runciman يعتبر سنة ٣٣٠ « خير تاريخ نتخذ منه بداية للتاريخ البيزنطى(١) » · حيث احتفل الامبراطور قسطنطين Constantinus فى الحادى عشر من مايو من العـــام ، بتدشين العاصـــمة الجديدة للامبراطورية ، وأطلق عليها « روما الجديدة » وأبت هى الا أن تخلد ذكرى مؤسسها فحملت طـــوال تاريخها فى العصـــور الوســطى اســـم القسطنطينية · ومع هذا فقد ظل اسم المدينة الاغريقية القديمة « بيزنطـة » Byzantium عالقا بالأذهان ، بل لقد فرض نفسه على عصر بأكمله ·

وحتى أواخر القرن التاسع عشر كان المؤرخون يعطون أهمية خاصـة لعام ٤٧٦ لما حسبوه سقوطا للامبراطورية الرومانية (٢) ، وذلك عندما قام القائد الاسكيرى الجرمانى أودواكر Flavius Odoacer بتنحية رومولوس أوغسطولوس Romulus Augustulus آخر الأباطرة فى الغرب ، والاستيلاء على السلطة فى ايطاليا · ويرتبون على ذلك انتهـاء الامبراطورية الرومانية هناك ، وبقاء الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وهم يبدون هذه الآراء على

---

(١) انظر الحضارة البيزنطية ص ٦ ·

(٢) انظر Oman, The Dark Ages, pp. 2 - 3 ويتخذ منها أومان بداية لدراسة العصور الوسطى حيث يقول : « اذا كان من الضرورى اختيار خط فاصل بين التاريخ القديم والعصور الوسطى فمن المستحيل أن نجد خيرا من عام ٤٧٦ » ·

اساس الاعتقاد الذى ساد بينهم من وجود امبراطوريتين رومانيتين فى سنة ٣٩٥ ، عقب وفاة الامبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I ، وتقسيم الامبراطورية بين ولــديه ، اركاديوس Arcadius فى الشرق وهونوريوس Honorius فى الغرب ٠

غير أن هذه المفاهيم التى حملها الدارسون فى القرن الماضى ، لم تعد تجد من يتصدى لتأييدها الآن ، فالتقسيم الذى حدث عام ٣٩٥ ، كان تقسيما لادارة الحكم فى الامبراطورية الرومانية ولم يكن انقساما لها ، « فقد كان كل من الحــاكمين يعترف بنفس القــوانين ومبادىء الحــكومة والتقــاليد الرومانية (٣) » ٠

ولم يكن ما وقع سنة ٤٧٦ ظاهرة فريدة فى الامبراطورية ولا نكبة حلت بها ، ذلك أن الأمر لم يزد عن خضــوع اقليم آخــر لسيادة حاكم جرمانى ٠ لعلها فى الواقع كانت صدمة كبيرة أن تقوم هذه المملكة الجرمانية الجــديدة فى ايطاليا ، المركز الرئيسى والأصلى للامبراطورية ، ولكن حتى هذه الناحية كانت لها سوابق معينة ٠ فقد كانت السيادة فى ايطاليا للجرمان ، منذ زمن يعود الى أيام ستليكو Stilicho بل اننا نجد سنوات بعينها ، قبل عام ٤٧٦ ، خلا فيها العرش فى الغرب من وجود امبراطور ، وكانت روما وايطاليا قد أخذتا تفقدان اهميتهما تدريجيا منذ ثلاثة قرون خلت ، خاصة عندما اقام قســطنطين عاصــمته الجديدة على شــطآن البسفور ٠ لقد كان عصب الامبراطورية فى القرن الخامس فى الشرق ، ولم ينقص ذلك الاجــراء الذى اقدم عليه أودواكر شيئا من سلطان امبراطور القسطنطينية ٠ ولم يشعر أحد أن الامبراطورية قد انتهت بها الحيــاة عند سنة ٤٧٦ ، أو أن ايطاليا كانت خارج نطاق الامبراطورية بعد هــذا التاريخ (٤) ٠ ولعله مما يدعم ذلك أن امبراطور القسطنطينية استقبل فى عام ٤٧٧ وفدا يمثــل أودواكر والسناتو الرومانى ، يخبره أن الغرب لم يعــد بحاجة الى وجــود امبراطور ، وأن

---

(٣) بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ترجمــة الدكتور حسين مؤنس ومحمود زايد ، ص ٠ ى ٠

(٤) Strayer & Munro, The Middle Ages, 395 - 1500. pp. 39 - 40.

الامبراطور الرومانى فى الشرق كاف لبسط حمايته على الشرق والغرب معا ، كما كان واقعا فى عهدى قسطنطين وثيودوسيوس • ويضع عند قدمه تاج رومولوس وعباءته الامبراطورية • ويطلب اليه أن ينعم على أودواكر باللقب الرومانى « بطريق » ، ويعتبره نائبا عنه فى حكم ايطاليا (٥) • ومع أن الامبراطور زينون Zeno لم يوافق على منح أودواكر ، لقب التشريف الرومانى هذا ، فقد راح القائد الجرمانى يحكم ايطاليا كملك ، دون أن يحصل على أعتراف من الامبراطور ،وان لم يكن أمام زينون الا أن يغمض عينه عن ذلك (٦) •

يضاف الى هذا انه حوالى ذلك الوقت ، كانت الأجزاء التى تكون الشطر الغربى من الامبراطورية ، قد أصبحت تحت السيادة الفعلية للجرمان• فجايزريك Gaiseric ملك الوندال ، كان قد بسط سيادته على كل الولايات الافريقية وسردينيا وكورسيكا وجزر البليار ، عقب وفاة فالنتينيان الثالث Valentinianus III ثم صقلية سنة ٤٦٨ ، بينما مد البرجنديون سلطانهم حتى الراين الأعلى فى الشمال والساءون والرون فى الغرب • وشملت مملكة الفيزيقوط معظم اسبانيا وجنوب غربى غالة ، ما بين اللوار والرونوالساءون شمالا وجبل طارق جنوبا • وما تبقى من اسبانيا ، فيما يعرف بمنطقة غاليسيا ، قامت فيه مملكة السويفى Sueves رغم الهزيمة الساحقة التى منوا بها سنة ٤٥٥/٤٥٦ على يد ثيودوريك الثانى ملك القوط الغربيين Visigoths • أما أمراء الفرنجة فقد كانوا يحكمون المناطق الواقعة على

---

(٥) Oman, op. cit., pp. 1 - 2.
وانظر ايضا Stephenson, Mediaeval history, p. 56

(٦) Jonse, The decline of the Ancient World, p. 92.
وانظر لنفس المؤلف أيضا The Later Roman Empire, I. p. 245
وقد جرت عادة ملوك الجرمان آنذاك على أن يقرنوا لقب ملك الذى يحملونه بالقبيلة التى ينتمون اليها ، فقد كان يوريك Euric يعرف بملك القوط الغربيين Visigoths لا ملك اسبانيا ، وكذلك كان جايزريك Gaiseric هو ملك الوندال وليس ملك افريقيا • ومن ثم لم يدع أودواكر نفسه ملك ايطاليا ، خاصة وأن التعريف الاقليمى لمثل هذا النوع من الملكية لم يكن معروفا •
انظر Oman, op. cit., p. 4 وقارن Davis, Medieval Europe, p. 26

الميز والموزيل والراين الأدنى (٧) • وعلى حين كانت الامبراطورية قد تخلت طواعية عن بريطانيا ، عندما أقدمت على سحب حامياتها من هناك فى عام ٤٤٢ لمواجهة الأخطار التى تتعرض لها الامبراطورية فى غالة(٨) • وهكذا ندرك أن ضياع السيادة الرومانية من ايطاليا كذلك لم يكن أمرا مستحدثا • ومن ثم يصبح القول بسقوط الامبراطورية الرومانية سـنة ٤٧٦ بعيدا عن الحقيقة • فلقد كانت هناك دائما امبراطورية رومانية واحدة ، سـواء كان على عرشها امبراطور واحد أو اثنان أو حتى ستة (٩) . وظلت نظرية الدولة الواحدة قائمة دون تغيير ، وعادت الوحـدة القديمـة الى ما كانت عليه ، وانتقلت حقوق الحـاكم الغربى من تلقـاء نفسها الى صـاحب العرش فى القسطنطينية ، وجمع السلطان كله مرة أخرى فى يد واحـدة ، ورغـم أن السلطة الفعلية كانت فى يد الجرمان ، الا أن كل رومانى ، وبصفة خاصـة الأباطرة فى القسطنطينية ، كانوا يعتبرون الامبراطورية الواحـدة مازالت قائمـة • (١٠) وهـذه الحقيقة نلمسها بوضوح فى تلك الجهود الكبيرة التى بذلهـا الامبراطور جوستنيان Justinianus (٥٢٧ ـ ٥٦٥) ، على امتداد ما يقرب من ربع قرن ، لاستعادة الأراضى التى استولى عليها الجرمان فى الغرب الامبراطورى • فقد كان جوسـتنيان بالقلب رومانيا وبالقالب • يباهى باللاتينية لسانا ، وبتاريخ الرومان ، ويبعث الى الحيـاة من جديد

---

(٧) Davis, op. cit., p. 26; Jones, The Later Roman Empire, I, p. 245 - 247, Oman, op. cit., p. 5.

(٨) Thompson & Johnson, An introduction to Medieval Europe, 300 - 1500, p. 96, 107.

(٩) بعد أن اعتزل دقلديانوس وزميله ماكسيميان الحكم سنة ٣٠٥ ، تعرضت الامبراطورية الرومانية لحروب اهليـة استمرت حتى عام ٣٢٣ ، نتيجة لانهيار نظام الحكم الرباعى الذى وضعه دقلديانوس ، بسبب طموح خلفائه• حتى اذا جاء عام ٣٠٨ كان على عرش الامبراطورية ستة أباطرة هم• جاليريوس وليكينيوس وقسطنطين وماكسيمين دازا وماكسنتيوس وماكسيميان انظر للمترجم : الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى ، الفصل الثانى •

(١٠) بينز ، الامبراطورية البيزنطيـة ، ص • ى وانظـر ايضـا
Stephenson, op. cit., p. 56
وراجع Scott, Medieval Europe, p. 5
وكذلك Thompson & Johnson, op. cit.. p. 117

مناصب الأقــدمين ، البرايتور والكويستور وغيرهما · حتى حــق للمؤرخ نورمان بينز أن يقول عنه « انه كان آخر الأباطرة الرومان ولم يصبح بعــد بيزنطيا (١١) » · وليس أدل على ذلك من أن مجموعة القوانين والتشريعات الجوستنيانية ، سواء المقننة Codex Justinianus أو الجامع (١٢) Digesta أو مبادىء القانون (١٣) Institutiones ، صدرت كلها باللغة اللاتينية ، وان كانت المتجددات Novellae قد جاءت باليونانية ·

وللمؤرخ جيبون Gibbon رأى يبدو الآن طريفــا ، فهو يعتبر الامبراطورية الرومانية ممتدة حتى سنة ١٤٥٣ ، عندما استولى الأتــراك العثمانيون على القسطنطينية ، على عهد محمد الفاتح · ولــكن الطريف فى هــذا الرأى أن جيبون يعتبر تاريخ الامبراطورية الطويل على هذا النحو ، ليس الا حركة تدهور وانحطاط مستمر بدأت منذ القرن الثانى الميلادى حتى

---

(١١) الامبراطورية البيزنطية ، ص · ى أيضا Painter, A history of the Middle Ages, pp. 34 - 35. وهو نفس القول الذى ذكرته المؤلفة عند حديثها عن جوستنيان ومحاولة استعادة الأراضى الرومانية أنظر بعده ·

(١٢) درجت كــل الكتب العربية التى تتناول التاريخ البيزنطى على ترجمة Digesta بـ « المختصر » ، وهذه الترجمة تعبر عن المعنى اللغوى لهذا اللفظ · غير أنى فضلت استخدام كلمة « الجامع » ترجمة لهذه الكلمة ، تعبيرا عن المدلول الواقعى للعمل الذى أقدم عليه جوستنيان فمن غير المعقول أن نطلق على مجموعة قانونية تتكون من خمسين كتابا اسم « المختصر » ، ذلك أن الدايجستا هى محصلة العمل الذى استمر ثلاث سنوات (٥٣٠ — ٥٣٣) تحت رئاسة تريبونيان وكانت مهمة اللجنة التى أخرجتها تنحصر فى فحص ما خلفه الفقهاء الكلاسيكيون جميعا ، واستخلاص مقتطفات منهــا ، مستبعدة كل ما أصبح غير ذى موضوع · ومن ثم كان على اللجنة أن تقرأ حوالى ثلاثة ملايين سطر تضم الأحكام القضائية والآراء الفقهية والتطورات التشريعية التى تعود الى الرومان الأقدمين · ومن ثم آثرت استخدام كلمة « الجامع » بدلا من « المختصر » ·

(١٣) فضلت أيضا استخدام « مبادىء القانون » بــدلا من « النظم » وهى الترجمة الحرفية التى تستخدمها أيضــا الكتب العربية ، وكان ميلى « لمبادىء القانون » انطلاقا من أن هذا العمل هو عبارة عن كتاب فى أربعة أجزاء يحتوى على أهــم مبادىء القانون المدنى التى جاءت فى المقننــة والدايجستا ، وقد حرص جوستنيان على اصداره تيسيرا لطلاب القانون فى دراستهم ·

القرن الخامس عشر ، حيث عملت الثوارت والانتفاضات المتلاحقة التى حدثت على امتداد ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، على تقويض دعائم السمو الانسانى والقضاء عليها تماما فى نهاية الأمر • ويقسم جيبون هذه القرون الى ثلاث فترات •

الفترة الأولى يمكن تبين ملامحها فى عهـــود تراجان والأنطونيين ، حيث راحت الامبراطورية الرومانية ، وهى فى أوج قوتها ، تهوى الى غيابات الانحلال ، ثم الدمار بفعل القبائل الجرمانية والاسكيزية المتبربرة ، حتى اذا كانت بداية القرن السادس الميلادى ، خضعت روما لسلطان فاتح قوطى •

اما الفترة الثانية فى انحلال روما وسقوطها ، فيفترض جيبون بدايتها فى عهد جوستنيان ، الذى كانت جهـوده فى ميــدان القانون وانتصاراته العسكرية ، سببا فى أن تعيد للامبراطورية الشرقية بريقا خاطفا لمجد غابر ، وقد شهدت هذه الفترة الغزو اللومباردى لايطاليا ، وعتح المسلمين للولايات الآسـيوية والأفريقية ، وثورة الشعب الرومانى على حـكامه الضعاف فى القسطنطينية ، وتنصيب شارلمان امبراطورا ، وهو الذى اقام فى سنة ٨٠٠ الامبراطورية الثانية فى الغرب أو الامبراطورية الجرمانية •

وتطول الفترة الثالثة حتى تبلغ ستة قرون ونصف ، وهى أطول الفترات الثلاث على الاطلاق ، وهى تمتد من احياء الامبراطورية الغربية حتى الفتح التركى للقسطنطينية ، وانقراض سلالة الأمراء المنحلين الذين مافتئوا يخلعون على أنفسهم القاب « القيصر » و « الأوغسطس » حتى بعد أن انحسر سلطانهم الى حدود مدينة واحدة ، جر فيها النسيان ذيوله منذ زمن بعيد على الرومان الأقدمين وطرائق حياتهم • وعلى الكاتب الذى يتصدى لأحداث هذه الفترة ، أن يخوض فى التاريخ العــام للحروب الصليبية ، على نحـــو يتناسب مع ما أسهمت به فى تحطيم الامبراطورية اليونانية ، وكذلك الحال الذى تردت فيه مدينة روما ابان فوضى العصور الوسطى وظلامها (١٤) •

---

(١٤) انظر المقــدمة التى كتبها جيبون لمؤلفــه « اضمحلال وســقوط الامبراطورية الرومانية » فى الطبعة التى اشرف على اخراجها العلامة بيورى• وراجع أيضا تقديم الترجمة العربية للمختصر بقلم احمد نجيب هاشم •

واذا كان كتاب جيبون عن اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية ، قد حظى ـ كما تقول ج · م · هسى ، مؤلفة هذا الكتاب الذى نقـدم له ، بالاعجاب ، الا أن قصة الامبراطورية البيزنطية ليست « نمطية » او « مملة » كما اعتقد جيبون (١٥) · ولا غرو فقد نشر جيبون مؤنفه هـذا فى اخريات القرن الثامن عشر (١٧٧٦ ـ ١٧٨٨) ورغم انه قد بنى آراءه على ما توافر لديه من المصادر الأصـلية ، الا ان المصـادر والوثائق التى تتناول تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، تم الكشف عنها فى القـرن التالى لصـدور مؤلف جيبون · وقد ادرك هو نفسه هذا القصور ، ونلمس ذلك فيما كتبه من تعليقات فى صفحات الطبعة الثانية ·

على أن الشيء الذى لا يمكن اغفاله ، أن جيبون يقدم لنا بهذا الكتاب درسا فى وحدة التاريخ ، وهذا أمر يسهل ادراكه للوهلة الأولى من العنوان الذى اختاره جيبون لمؤلفه ، حيث تتضح الحقيقة الأساسية بأن الامبراطورية التى اقامها أوغسطس سقطت فى أوائل النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، وأن كل التغييرات التى حولت أوروبا ماركوس أوريليوس (١٦١ ـ ١٨٠) الى أوروبا ارازمس (١٦) Erasmus لم تمح اسم الامبراطورية وذكراها · ومهما تكن النعوت التى خلعها جيبون على الامبراطورية ، تحمل الازدراء والسخرية ، مثـل « الامبراطورية السـفلى » أو « الامبراطورية

---

(١٥) انظر مقدمة المؤلفة ·

(١٦) يعتبر أعظم علمـاء الانسانيات فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر · ولـد حوالى عام ١٤٦٩ فى روتردام ، واكره على الانخراط فى سلك الرهبنة بعد وفاة أبيه ، ثم تركها مرغمـا الى الوظائف الكهنوتية ، عندما رسم قسيسا عام ١٤٩٢ ، وكان نهما للقراءة ، نهل من اليونانية واللاتينية · وقد أخذ يتنقل بين فرنسا وانجلترا وايطاليا ، ويعيش فى كثير من الأحيان حياة لاهية ، وفضل أن يعيش حرا طليقا ورفض أن يقبل قيود الوظائف العامة أو الكهنوتية ، معتمـدا على ما يرتزق به من قلمه · وأن كان قد عانى من جراء ذلك الفاقة لولا مساعدة تلاميـذه وأصـدقائه · ويعتبر كتابه « امتداح الطيش » Enconium moriae أشهر مؤلفاته · وقد نشر فى باريس سنة ١٥١١ ، وطبـع فى حيـاته اربعين طبعة ، وترجـم الى اثنتى عشرة لغة · وحمل فيه على التعقل الذى يحجب الشجاعة ، والجـدل العقيم ، والنساك ، وأعضاء محكمة التفتيش والكرادلة والبابوات · وفى عام

اليونانية » ، فان عنوان كتابه قد صحح أى انطباع خاطىء قد توحى به مثل هذه التسميات ، ذلك أن وحدة مؤلفه تعتمد على استمرارية الامبراطورية الرومانية (١٧) ٠

ويذهب العلامة بيورى أيضا الى القول باستمرار الامبراطورية الرومانية من القرن الأول حتى القرن الخامس عشر ، ويستشهد على ذلك بتتابع الأباطرة دون انقطاع منذ أوغسطس أوكتافيوس حتى قسطنطين الحادى عشر باليولوغوس ٠ ورغم ما يذكره من أن عهد قسطنطين العظيم كان فاتحة عصر جديد فى كثير من النواحى ، بشكل يفوق عصر أوغسطس مؤسس الامبراطورية نفسه ، الا أنه يرفض القول ببداية لامبراطورية بيزنطية ، « فالامبراطورية الرومانية لم تنته الا فى عام ١٤٥٣ ، واذا كان من الممكن أن نتحدث عن « فن بيزنطى » أو « حضارة بيزنطية » ، فان الحديث

١٥١٤ نشر سلسلة من محاوراته بعنوان « أشكال الحديث المألوف » Familiarium colloquirum formulae وصفها أحد الكتاب الانجليز فى القرن الثامن عشر بأنها تكاد تهدم تماما كل الآراء والأوهام البابوية بأسلوب تعليمى شائق ٠ على أن أهم أعماله كانت المراجعة النقدية للنص اليونانى للعهد الجديد مرفقا بترجمة لاتينية وتفسير ٠ ونشر فى عام ١٥١٦ ، ولقى هجوما عنيفا من رجال الدين المتزمتين الذين أعلنوا أن النسخة اللاتينية الأصلية من الكتاب المقدس هى نسخة القديس جيروم ٠ وكان ارازمس شديد الميل للمذهب العقلى ، وسعى الى التنسيق بين ما كان يحلم به عن « فلسفة المسيح » وبين رأى كبار الوثنيين ، ووصف أفلاطون وشيشرون وسينكا بعبارات « ملهم من الله » ٠ وقد اعتبره علماء اللاهوت المتزمتون ملهما لمارتن لوثر ، رغم أنه حاول أن يتخذ موقفا معتدلا ٠ وعندما اتهمه الرهبان بأنه وضع البيضة التى فقست تحت لوثر ، أجابهم « ان البيضة التى وضعتها خرجت منها دجاجة ٠ أما البيضة التى فقست تحت لوثر فقد خرج منها أحد ديوك المصارعة » ٠ وقد مات ارازمس سنة ١٥٣٦ ٠ انظر ول ديورنت : قصة الحضارة المجلد السادس جـ ٢ ص ١٨٠ ـ ٢١٠ ، جـ ٣ ص ١٥٢ ـ ١٦٩
وكذلك Thompson & Johnson, op. cit., pp. 1010 - 1017 - 1035
وأيضا Pirenne, A history of Europe. pp. 502. 42. 78. 611
وراجع C. M. H. vol. VIII, pp. 712 - 15, 777. 786

(١٧) انظر المقدمة التى كتبها بيورى لتاريخ جيبون فى الطبعة التى أشرف على اخراجها فى سبعة أجزاء (لندن ١٩٠٩) ٠

عن الدولة التى اتخذت من مدينة قسطنطين عاصمة لها ، لا نجد خيرا من مصطلح « الامبراطورية الرومانية » للتعبير به عنها ٠

وكان بيورى قد نشر فى عام ١٨٨٩ مجلدين بعنوان History of he Later Roman Empire from Arcadius ta Irene تحدث فيهما عن تاريخ الامبراطورية منـــذ عام ٣٩٥ ، عندما تم تقسيم ادارة الحـــكم فى الامبراطورية بين ولدى ثيودوسيوس ، ولم يغفل الأحـداث التى وقعت فى الغرب أيضا ابان هذه الفترة ، تأكيـــدا لفكرته عن وحـــدة الامبراطورية واستمراريتها ، وقـد انتهى فى المجلد الثانى من هـــذا الكتاب الى عهـد الامبراطورة ايرين آخـــر أباطرة الأسرة الايزورية ، والتى عاصرت حادثة تتويج شارل العظيم Carouls Magnus (Charlemgne) امبراطورا فى الغرب على يد البابا ليو الثالث فى ليلة عيد الميلاد لعام ٨٠٠ ٠ وقد أعـاد طبع هذين المجلدين مرة ثانية سنة ١٩٢٣ ، ولكنه وقف بالأحداث فى المجلد الثانى عند سنة ٥٦٥ ، أى نهاية عهد الامبراطور جوستنيان ٠

وفى سنة ١٩١٢ ، نشر الجزء الثالث من هذا المؤلف وجعل عنوانه : History of the Eastern Roman Empire from the fall of Irene to The Accession of Basil وهو يشمل تاريخ الامبراطورية منذ مطلع القرن التاسع ، الذى افتتحه نقفور الأول Nicephorus I (٨٠٢ ــ ٨١١) بالثورة على ايرين ، ثم قيام الاسرة العمورية أو الفريجية على يد ميخائيل الثانى ، حتى مقتل ميخائيل الثالث واعتلاء باســـل الأول مؤسس الأسرة المقدونية ، عرش الامبراطورية ٠

وهذا التقسيم الذى لجأ اليه بيورى عند وضع هذه الاجزاء الثلاثة ، قصد اليه المؤلف عمدا ، فهو يقف بأحداث المجلد الثانى عند سنة ٨٠٠ ، أو بتعبير آخر عند تتويج شارلمان امبراطورا فى الغرب ٠ ومن ثم يمكن التمييز هنا بين امبراطوريتين أحدهما فى الشرق والأخرى فى الغرب ٠ ولهذا نجـد الكتابين الأولين يحمـلان عنـوان « الامبراطورية الرومانيـة المتأخرة » ،

أما الكتاب الثالث فقد جعل عنوانه « الامبراطورية الرومانية الشرقية » (١٨)

ومن المعروف أن تتويج شارلمان امبرطورا فى الغرب ، جاء وسط ظروف سياسية معقدة ومتشابكة فى الغرب والشرق على السواء · فقد كانت العلاقات تزداد سوءا بشكل مستمر بين ملوك اللومبارديين فى ايطاليا والبابوية فى روما مما دفع البابوات الى الاتجاه ناحية مملكة الفرنجة الكارولنجيين فى غالة للاستعانة بها ضد أعدائها اللومبارديين ، فى نفس الوقت الذى كانت قوة الدولة الكارولنجية آخذة فى الازدياد ، وحدودها فى الاتساع ، وجهودها التبشيرية بين الفريزيين والسكسون تمضى قدما · وكان تحول الفرنجة الى المسيحية الكاثوليكية منذ البداية ، دون بقية الشعوب الجرمانية الأخرى ، عاملا هاما فى توطيد أواصر المودة بين البابوية وملوك الفرنجة · وساعد على هذا الاتجاه لدى البابوية أيضا ، انصراف أباطرة القسطنطينية الى التصدى للأخطار التى تحيط بهم على الحدود الشرقية من جانب الدولة الاسلامية والبلغار فى البلقان · وانغماسهم فى ذلك الجدل العقيدى الذى بدا ولا نهاية له حول طبيعة المسيح ، وازدياد الأمر سوءا باتساع هوة الخلاف المذهبى بين روما والقسطنطينية ، وخاصة فى المشكلة الأخيرة التى شغلت قرابة نصف القرن الثامن فى مرحلتها الأولى ، ودارت من حول الايقونات ، واتخذ ليو الثالث الايزورى وابنه قسطنطين الخامس ، موقفا متشددا من تقديس المسيح والعذراء والشهداء والقديسين ، بينما وقفت البابوية فى جانب الأيقونيين ، وأعلنت أن الأيقونة هى انجيل العامى ، يرى فيها مالا يقدر على فهمه من الكتاب المقدس !! وقام ليو الثالث بفصل مناطق جنوب ايطاليا وصقلية ، ذات الصيغة اليونانية ، عن السيادة البابوية وجعلها خاضعة مباشرة لسلطة أسقف القسطنطينية ·

وعلى الرغم من أن الامبراطورة ايرين اقدمت على نبذ السياسة

---

(٨) انظر Bury, History of the Later Roman Empire, I, pp. VII - IX, 1 - 4.
وايضا Byzantium, edited by Baynes & Moss, p. XV
وكذلك Vasiliev, history of the Byzantine Empire, I, p. 21-23
وراجع مقدمة المؤلفة ·

اللا ايقونية والعودة الى تقديس الايقونات فى المجمع المسكونى السابع الذى عقد فى مدينة نيقية سنة ٧٨٧ ، الا أن ذلك لم يؤد الى تحسن العلاقات مع البابوية التى أقدمت على تتويج شارلمان فى ٢٥ ديسمبر ٧٩٩ ٠

وقد أثارت حادثة التتويج هذه ردود فعل عنيفة ، ومناقشات طويلة ماتزال أصداؤها تتردد فى الكتابات التاريخية والسياسية الحديثة ٠ ولكن الشىء الذى ينبغى أن نضعه فى اعتبارنا ، أن الطرفين الرئيسيين فى تلك الحادثه ، وهما البابا ليو الثالث وشارلمان ، لم يدر بخلدهما ، عندما أقدما على ذلك ، فكرة بعث الامبراطورية الرومانية القديمة ، أو بتعبير أكثر دقة ، الشطر الغربى منها الذى ظل قائما منذ وفاة ثيودوسيوس الأول سنة ٣٩٥ حتى عزل رومولوس أوغسطولوس على يد أودواكر سنة ٤٧٦ ٠ بل ان هذه الفكرة لم ترد على بال أحد من مستشاريهما ٠ فقد نظروا جميعا ، كما جرت بذلك سنة أسلافهم ، الى الامبراطورية الرومانية باعتبارها امبراطورية واحدة لا تقبل التقسيم ، ولم يكن الهدف الذى سعوا اليه بخلع التاج على ملك الفرنجة ، فصل الغرب عن الشرق ، لكن العودة بروما القديمة — على عكس ما فعل قسطنطين — الى سابق عهدها بكونها عاصمة الامبراطورية التى تحمل اسمها ٠ ولما كان عملهم هذا يفتقر الى الشرعية ، فقد سعوا جهدهم لاضفاء الصفة القانونية عليه ، فاعترفوا واعتقدوا — الى حد ما — أنهم لم يتمردوا أو يعلنوا الثورة على الحاكم الجالس على عرش القسطنطينية ولكنهم استخدموا حقهم الشرعى القديم بملء هذا الكرسى الذى شغر بعزل قسطنطين السادس بيد أمه ايرين ، التى قفزت الى العرش بدلا منه ٠ ومن ثم اعتبر شارلمان خليفة للامبراطور قسطنطين السادس وأبيه ليو الرابع وهرقل وجوستنيان وأركاديوس وكل اباطرة القسطنطينية ، وليس خلفا لرومولوس أوغسطولوس ٠ وهكذا جاء ترتيب قسطنطين السادس فى الحوليات الامبراطور السابع والستين ابتداء بأوغسطس ، وشارلمان الثامن والستين ، دون انقطاع فى سلسلة الأباطرة (١٩) ٠

وعلى هذا النحو يمكن القول أن أحداث ليلة عيد الميلاد لسنة ٨٠٠ قد

---

(١٩) انظر Bryce, The Holy Roman Empire, pp. 62 - 64

جرت ضمن اطار الامبراطورية للرومانية القائمة ، التى كانت روما ما تزال جزءا أساسيا منها ، وكان كل ما تم عمله هو انتخاب امبراطور جديد فى ذات الامبراطورية القائمة . وعلى الرغم من أن شارلمان كان امبرطورا رومانيا ، من وجهة نظر الذين اختاروه ، الا أنه لم يكن هناك حق فى أن يخلفه أحد من أبنائه ، ولم يصبح هو بطبيعة الحال الامبراطور الأوحـــد ، فغالبا ما كان هناك امبراطور آخر يفوقه فى المكانة والمرتبة ، هو الامبراطور البيزنطى ٠

وكان من الطبيعى أن ترفض الحكومة الامبراطورية فى القسطنطينية الاعتراف بالامبراطور الجديد ، الذى بدا فى نظرها مدعيا ومغتصبا ٠ بل ان شارل نفسه شعر بالمأزق الذى تورط فيه ، وظل لمدة ثلاثة أشهر بعد تتويجه يستخدم لقبه الملكى القديم ، حتى اذا مضت خمسة أشهر على حفل التتويج ، اهتدى الى عبارة مبهمة غير دقيقة أطلقها على نفسه ، « شارل ، أوغسطس الشديد الوقار ، المتوج بفضل الله ، الامبراطور العظيم ، المحب للسلام ، حاكم الامبراطورية الرومانية » ٠

غير أن الاحداث التى وقعت حوالى ذلك الوقت ، من استيلاء شارلمان على استريا وعدد من مدن الساحل الدلماشى والبندقية ، وما لقيه البيزنطيون من هزيمة ساحقة عام ٨١١ على أيدى البلغار ، كل هـــذا دفـــع الامبراطور ميخائيل الأول رانجابى الى فتح باب المفاوضات مع شارلمان لاسترداد بعض ما فقدته الامبراطورية البيزنطية ٠ ومن ثم فانه فى الرابع من أبريل سنة ٨١٣ وصل الى بلاط شـــارلمان سفراء ميخائيل ، وخاطبوا شـــارلمان بوصفه « امبراطورا وملكا » «emperor and basileus» ٠ وعد هذا عندئذ اعترافا من الامبراطور الرومانى الشرعى بامبراطور الغرب ٠

ويتساءل باراكلاف ، على أى شىء كان شارلمان امبراطورا ؟ ويجيب أنه كان امبراطورا على لا شىء ٠ ويضيف ، حقا ان شـــارلمان كتب خطابا مفعما الى ميخائيل فى سنة ٨١٣ يعرب فيه عن اغتباطه بحلول السلام أخيرا بين الامبراطوريتين « الشرقية » و « الغربية » ٠ ولكنه كان فى ذلك يجـــاوز نطاق سلطته ، حيث أن فكرة وجود امبراطورية « غربية » لم يكن لها محل فى المفاوضات الرسمية ٠ لقد كان مفروضا أن يكون شـــارلمان « امبراطورا وملكا » ، وهو لقب شخصى ، ولكنه لم يكن امبراطورا على بلد ما ، وأبعد

ما يكون امبراطورا رومانيا • ومنذ ذلك التاريخ اسقط هو نفسه ، بحـكم طبيعته ، من لقبه الصيغة العجيبة « حاكم الامبراطورية الرومانية » •

فاذا اضفنا الى ذلك ، أن احدا من خلفاء شارلمان ، باستثناء لويس الثانى لأشهر قلائل ، او أوتو الأول ، لم يفكر فى استخدام لقب « الامبراطور الرومانى » ، وأن شارلمان قد مات قبل التصديق على معاهدة سنة ٨١٢ التى جرت المفاوضات بشأنها بينه وبين الامبراطور البيزنطى ، وأن أباطرة بيزنطة بعد ميخائيل الأول أغفلوا تماما هذه الخطوة التى أقدم عليها هذا الأخير ، وأن ما حدث عام ٨٠٠ لم يكن ، حسب تعبير باراكلاف ، الا انقلابا سياسيا فاشلا(٢٠) ادركنا على الفور انه من الصعب الوقوف عند تلك الحادثة لنتخذ منها بداية لتاريخ الامبراطورية البيزنطية •

واذا كان بيورى قد رفض القـــول ببداية لامبراطورية بيزنطية ، فان توينبى A. Toynbee يقف على النقيض من ذلك تمـاما • اذا يفترض أن الامبراطورية الرومانية قد ماتت خلال السنوات الأخيرة من القرن السادس ، وأن « شبح » تلك الامبراطورية هـــو الـذى كان يشغل مؤخـــرا العرش الامبراطورى ، وأن القرن السابع شهد ميلاد امبراطورية جـديدة أبانت عن نفسها بوضوح عندما اعتلى ليو الثالث عرشها ليؤسس الأسرة الايزورية ، ويضيف أن هذه الامبراطورية الجديدة تمثل رد فعل المسيحية الشرقية تجـاه التهديد الاسلامى • وسوف تصبح الدرع الواقى الذى ستصقله المقـــاومة العنيدة ضد هجمات المسلمين ، وهذه الامبراطورية الجديدة ليست استمرارا

---

(٢٠) انظر البحث القيم الذى كتبه ج بارا كلاف G. Barraclough عن The Mediaeveal Empire : Idea and Reality وقام بترجمته الى العربية الدكتور جوزيف نسيم يوسف فى كتابه « الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى » . ص ١٨٣ ــ ١٨٩ ، وراجع المقدمة التى كتبها الدكتور جوزيف لكتابه هذا ص ٣٨ ــ ٤٢ وانظر ايضا : ديفز ، شـــارلمان ، ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى ، ص ١٧٢ ــ ١٨٧ وكذلك Einhard, The life of Charlemagne, trans by Lewis Thorpe, (Two lives of Charlemagne, by Einhard and Notker the Stammerer) pp. 80 - 81
وراجع Stephenson, op. cit., 158 وايضـا C.M.H. II, pp. 622 - 624
وكذلك Thompson & Johnson, op. cit., 246

للامبراطورية الرومانية القديمة او امتدادا لها ، الا فى الحفاظ على الحكم الامبراطورى المطلق ، والادارة المركزية لمواجهة الظروف المتغيرة (٢١) ٠

ولكن القول بفناء الامبراطورية فى اخريات القرن السادس لا يمكن الأخذ به على غلاته ؛ ذلك ان النصف الأول من القرن السادس ، شهد تلك الجهود الكبرة التى بذلها الامبراطور جوستنيان من اجل استعادة الأراضى التى اغتصبها الجرمان فى الشطر الغربى من الامبراطورية ٠ وقد نجح الامبراطور بالفعل فى استرداد ايطاليا وصقلية وسردينيا وكورسيكا ردلماشيا وافريقيا وجزر البليار وبضع اسبانيا ٠ وهكذا كانت الامبراطورية عند وفاة جوستنيان سنة ٥٦٥ ، تكاد تسيطر على الأراضى الرومانيـــة القديمة فى الغرب ، اذا استثنينا غالة وبريطانيا ومعظم اسبانيا ٠ واذا كانت العناصر اللومباردية قد تمكنت من اجتياح شمال ايطاليا بعد ثلاث سنوات فقط من وفاة جوستنيان ، الا ان اباطرة القسطنطينية ظلت لهم السيادة ، ولو من الناحية النظرية ، على ايطاليا ممثلة فى ارخونية رافنا Ravenna ، وفى التبعية البابوية الاسمية حتى منتصف القرن الثامن عندما ولى البابوات وجوهم شطر مملكة الفرنجة فى غالة ، كما أن الامبراطورية ظلت لها أملاكها فى منطقة جنوب ايطاليا حتى منتصف القرن الحادى عشر ٠ بل ان الامبراطور قنسطانز الثانى Constans II (٦٤٢ ــ ٦٦٨) ، تضى السنوات الخمس الأخيرة من حكمه متنقلا ما بين صقلية وايطاليا بعد أن راودته فكرة اتخاذ سيراكوز عاصمة له (٢٢) ٠

---

(٢١) انظر Toynbee, A study of history, vol: IV, p. 320—sqq:
وراجع : كولنجوود ، فكرة التاريخ ٠ ص ٢٨٥ ــ ٢٩٤ ٠

(٢٢) تذكر الروايات أن قنسطانز الثانى طوعت له نفسه قتل أخيه ثيودوسيوس ، فقتله ، فاصبح من النادمين ٠ من أجل ذلك تملكته الهواجس ولعبت به الظنون ، فامست القسطنطينية له جحيما لا يطاق ، يطارده دم أخيه ويؤرق جفنيه ، فارتحل غربا وقد عقد العزم على أن يجعل من صقلية مستقرا ومقاما ، ولكن التطورات السياسية والعسكرية قد تلقى الضوء بشكل اوضح على هــذه الناحيــة : فقد رأى قنسطانز الولايات الشرقية قد افلتت من يــد الامبراطورية ، وأن أعين المسلمين تتجه الآن صوب الغرب ، بعد أن تأكدت سيادتهم على مصر وراحوا يرسلون جيوشهم الى برقة ٠ وتسلط أمل الحفاظ

ورغم أن حروب الاسـترداد الجوستنيانية الطويلة قد ارهقت الخزانة الامبراطورية من أمرها عسرا ، بهذا النفقات الباهظة التى تطلبتها ، بالاضافة الى الجزية السوية التى كان على الامبراطورية ان تدفعها للملك الفارسى حتى تضمن هدوء الجبهة الشرقية لتتفرغ للحرب فى الميدان الغربى ، الى جانب الروح المعنـوية السيئة التى انتشرت بين الجنود بسبب طـول مـدة الحرب ، وتأخـر رواتبهم ، وتكوين الجيش من عناصر رومانية وجرمانية متنافرة بطبيعتها · رغم كل ذلك الا أن الامبراطورية كانت قادرة فى اخريات القرن السادس على أن تواصل القتال ضد العناصر الآفارية والصقلبية فى البلقان ، والدولة الفارسـية على جبهـــة الفرات ، والزود عن الســيادة الامبراطورية فى ايطاليا ضد اللومبارديين ·

فقد قام الامبراطور موريس Mauricius (٥٨٢ ـ ٦٠٢) باغراء ملك الفرنجة شيلدبرت Childebert بالهجوم على اللومبارديين ، لقاء خمسين الف صوليدى · وقد قبل الملك الفرنجى ذلك العرض ، وغزا شمالى ايطاليا فى عامى ٥٨٤ ، ٥٩٠ وقدم له حكام هذه المنطقة فروض الطـاعة والولاء · وفى ســنة ٥٩١ اضــطر كسرى أبرويز ملك فارس للهروب الى قرقيسية Circesium ووضع نفسه تحت حماية امبراطور القسطنطينية ، وذلك بعـد وفاة أبيه هورميزدا وقيام فاران Varanes بالثورة ضده · وقد عرض كسرى على موريس أن يتنازل له عن ميافارقين Martyropolis ودارا Dara وان يتخلى عن ادعاءاته فى ارمينيا وأرزانينى (٢٣) Arzanene فى مقابل عونه لاسترداد عرشه · وقد وافق موريس على ذلك ونجـح فى هزيمـــة فاران

=

على منطقة شمال افريقيا بعيدا عن أيدى العرب ، ولن يتأتى له ذلك الا اذا كان على مقربة من هذه المنطقة · ومن ثم لابد ان يكون قد دار بفكره أن يتخذ من سيراكوز عاصمة له · وقد انتاب الضيق اهالى القسطنطينية لما حسبوه تجريداً لمكانة مدينتهم وسموها · ومن ثم لم يلبث قنسطانز ان اغتيل بعــد خمس سنوات قضاها فى الغرب على يد خادم حمامه اندريا Anderias ، فافاقت العاصمة من وسواسها ·

انظر Vasiliev, op. cit., 1, pp. 220 - 221

(٢٣) على الحدود الجنوبية لارمينيا الفارسية ·

واعادة السلطة الى كسرى الذى اوفى بما عاهد عليه الامبراطورية · وبهذا السلام الذى تحقق فى الشرق ، تمكن موريس من نقــل قواته الى الجبهة الغربية ، فوقع الأفار ســنة ٦٠٠ معاهــدة مع الامبراطورية ، اصبح نهر الدانوب بمقتضاها حدا فاصلا بين الطرفين ، وســمح للجيش الامبراطورى بعبور الأراضى الآفارية لمطاردة العناصر الصقلبية ·

هذه هى الصورة التى كانت عليها الامبراطورية أواخر القرن السادس، فقد صمدت لمتطلبات الحرب المتزايدة بنجاح باد · حقيقة فقدت اجــزاء من ايطــاليا وحتى ما بقى منهــا فى أيــدى الامبراطورية افقرته اغــارات اللومبارديين ، ولكن الأحوال فى افريقيا أخذت تميل الى الهدوء ، واخــذت هذه الولاية تسترد بعض الشىء رخاءها القديم ، وامتد الأمان ليشمل ايضا الجزر الواقعة غربى المتوسط وولاية اسبانيا القصية · وعلى الرغم من أن الليريا وتراقيا تبدت للعيان قاعا صفصفا بفعل التدمير الذى لم ينقطع لعدة اجيال متعاقبة ، الا أن موريس قام هنا باعمال عسكرية رادعة احــرز فيها كثيرا من التقدم فى سنى عمره الأخيرة ، التى هى بالتالى آخر سنى القرن السادس ، امن بها جبهة الدانوب وكبح جماح الآفار · وفوق هذا وذاك يكفى أن الجبهة الشرقية قد اصطبرت بعناد فى مواجهه قوى الفرس المتجــددة · وبقيت الولايات الزاهرة ، آســيا الصغرى وســوريا ومصر التى تضــع الامبراطورية عليها جل اعتمادها ، تحت سيادة الامبراطور · هذا على حين شهد العقدان الاول والثانى مـ القــرن السابع ، تصــدعا هائلا فى أركان الامبراطورية ، وتقلصا شديدا فى اطرافها ·

فقد اجتــاح الآفار منطقة البلقان وحطــوا رحالهم عند اســوار القسطنطينية ، منتهزين فرصة الفوضى التى اعقبت مقتل الامبراطور موريس وتولى فوقاس Phocas (٦٠٢ ــ ٦١٠) خلفا له ثم انتقــال العرش الى اسرة جديدة هى الأسرة الهرقلية · واستولى الفرس على الولايات الشرقية ، سوريا وفلسطين ومصر وآسيا الصغرى ، واشعلوا نيرانهم على شــاطىء البسفور المقابل للقسطنطينية · وهكذا لم يبق من « بيزنطــة » الامبراطورية الا « بيزنطة » المدينة · مما دفع الملك الفارسى الى أن يكتب الى الامبراطور هرقل رسالة جاء فيها « من كسرى اعظم الآلهة وسيد العالم كله الى هرقل

عبده الفاجر عديم الاحساس • ألم أقض على الاغريق ؟ انك تقول انك تثق فى الهـك ، فلمـاذا اذن لم يخلص من يدى قيسـارية وبيت المقـدس والاسكندرية ؟ وهل أنا لن أخرب القسطنطينية أيضا ؟ على أننى ساغفر لك جميع ذنوبك اذا ما دمت الى ومعك زوجتك وأطفالك ، وسأمنحك الأراضى على مدى نصف قرن (٢٣٥ ـ ٢٨٤) لأزمة طاحنة كادت تودى بها • وشملت بأملك الخائب فى ذلك المسيح الذى لم يستطع حتى أن ينقذ نفسه من اليهود الذين قتلوه وصلبوه » (٢٤) • غير أن الامبراطور هرقل استطاع بعد ما يقرب من عشر سنوات من الحرب ومحاولة السلام مع الفرس والآفار ، أن يحقق نصره النهائى على الفرس فى سنة ٦٢٧ عند أطلال مدينة نينوى القديمـة ، بينما كان الآفار قد رفعوا حصارهم عن القسطنطينية فى العام السابق ، امام صمود حامية المدينة وحماسة البطريرك سرجيوس • ولن يمضى على ذلـك خمسة عشر عاما حتى يكون المسلمون قد فتحوا هـذه الولايات وأخضعوها لسلطانهم •

ولعلنا الآن ندرك أن الامبراطورية الرومانية القديمة لم تقف بها الحياة عند سنى القرن السادس الأخيرة ، لتولد امبراطورية جديدة فى القرن السابع كرد فعل للخطر الاسلامى ، على حد تعبير توينبى • فالفرس كانوا يمثلون الأعداء التقليديين للامبراطورية الرومانية لقرون طـويلة ، فلما تخلصـت الامبراطورية من هذا العدو ، بيد المسلمين لابيدها ، حلت الدولة الاسـلامية الجديدة محل الفرس فى العداء للامبراطورية ، رغـم اختـلاف الأسـباب والظروف •

واذا كان لابد من الحديث ـ تجاوزا ـ عن فترة ماتت فيها الامبراطورية الرومانية ، فانها سـوف تكون عند البعض ، كمـا يفترض نورمان بينز ، النصف الثانى من القرن الثالث (٢٥) فقد تعرضت الامبراطورية الرومانية على مدى نصف قرن (٢٣٥ ـ ٢٨٤) لأزمة طاحنـة تودى بها • وشملت الأزمة جميع أوجه النشاط السياسى والاقتصادى والادارى • وانعكست هذه

---

(٢٤) أومان ، الامبراطورية البيزنطية • ص ١٠٣ •

(٢٥) Byzantium, ed. by N.H. Baynes & H. st. L. B. Moss, p. XVII.

الفوضى بصورة مباشرة على العرش الامبراطورى ، فقد تولى الحكم فى هذه الفترة ستة وعشرون امبراطورا ، لم يمت منهم الا امبراطور واحد ميتة طبيعية ، وشهدت غالة وحدها بين سنتى ٢٥٧ ، ٢٧٣ خمسة أباطرة • وكان ذلك نتيجة للحروب الأهلية التى سادت بين قواد الفرق الرومانية فى الولايات المختلفة ، تطلعا الى العرش • وتعقدت الأمور بغزوات الجرمان من الشمال والغرب ، والفرس من الشرق ، وازدياد متطلبات ألامبراطورية واحتياجاتها لمواجهة تلك الأخطار ، ونقص عدد السكان باستمرار نتيجة تفشى الأمراض والأوبئة والطواعين ،وانحطاط الزراعة وتدهور الصناعة وكساد التجارة وانخفاض قيمة العملة • ولقد لخص المؤرخ جونز ذلك كله فى عبارة موجزة بليغة ودقيقة بقوله « لقد ضاع كل شىء (٢٦) » • ورغم أن الأمور وقد جرت على هذا النحو فى القرن الثالث ، قد ساقت الامبراطورية الرومانية الى حافة الضياع ، ورغم أن الجهود التى قام بها الامبراطور دقلديانوس Diocletianus (٢٨٤ ـ ٣٠٥) واكملها الامبراطور قسطنطين (٣٠٦ ـ ٣٣٧) ، قد بعثت الحياة فى الامبراطورية من جديد ومكنت لها فى الأرض فترة امتدت احد عشر قرنا من الزمان ، الا ان القول بقيام امبراطورية جديدة لا صلة لها بسابقتها انذاك ، يعد امرا بعيدا عن الحقيقة •

والدول والحضارات لا تولد من عدم ، ولا تنشأ فى فراغ • ولا هى منبتة الصلة بما سبقها او ما حولها ، ولا بما هو من بعد فى علم الغيب ات • فهى تأخذ مما سبقها وتتفاعل مع ما حولها ، وتؤثر قدر اصالتها فيما بعدها • وليس فى التاريخ حادثات بعينها نقف عندها جامدين نبدىء بها عصرا أو ننهى بها آخر• فالتاريخ شأن الكائن الحى ، وكما انه يبدو عسيرا ان نضع ايدينا بدقة على سن معينة فى عمر الانسان نفصل به الطفولة عن الصبا وهذه عن الشباب او الأخيرة عن الشيخوخة وهكذا ، فكذلك عصور التاريخ ، وكما ان الانتقال من مرحلة الى أخرى فى عمر الكائن الحى لا يتم دفعة

---

(٢٦) انظر Boak, A history of Rome to 565 A.D. p. 403.

وانظر Jones, Constantine and the Conversion of Europe, pp. 2 - 3, 11, Later Roman Empire, I, pp. 22 sqq.

وأيضا Cantor, Medieval history, p. 28

وكذلك راجع للمترجم ، الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى • ص ٣٥ ـ ٣٨ •

واحدة ، فجأة وبلا مقدمات ، كذلك فان فترات التحول التى تفصل وتصل بين عصر وآخر قد تمتد الى عدة قرون ، وما حادثات التاريخ فى عصور النقلة هذه الا علامات ومؤشرات على ذلك التحول ، أو هى مؤثرات فيه تدفع عجلة التاريخ الى عصر جديد ٠

والامبراطورية البيزنطية ليست استثناء من ذلك ٠ فالمتتبع لتاريخ الامبراطورية الرومانية خلال القرون الثلاثة الأخيرة من الرابع الى السابع، يستطيع تبيين عناصر جديدة ومؤثرات مختلفة وتفاعلات تركت بصماتها بوضوح على أوجه الحياة السياسية والادارية والاقتصادية والاجتماعية والفنية والعقيدية ، واستغرقت عملية التفاعل هذه من عمر الزمن القرون الثلاثة ، حتى اذا كان القرن السابع أمكن التعرف على الملامح الجديدة دون عناء ٠

ففى خلال أزمة القرن الثالث الطاحنة التى اعتصرت الامبراطورية ، فقد السناتو الرومانى كل ما كان قد تبقى له من سلطة سياسية باهتة ، حقيقة أن مجلس الشيوخ كان قد أصبح منذ بداية العهد الامبراطورى مجرد رمز للعصر الجمهورى الرومانى ، بعد أن استطاع أوغسطس بذكائه أن يقلم أظافره ، وراح الزمن طيلة القرنين التاليين يقضم هذه الأظافر ، حتى اذا أقدم القرن الثالث أمست يد السناتو عاجزة تماما ٠ وانتقل ميزان القوى تدريجيا ، مع الضعف الذى انتاب الأباطرة ، الى الفرق العسكرية الرومانية ، وليس أدل على ذلك من تلك النصيحة التى أسداها الامبراطور سبتميوس سفروس Septimius Severus (١٩٣ ــ ٢١١) لونديه قبل وفاته ، « أجزلا العطاء للجند ولا تلقيا بالا للآخرين » ٠ وكان هو نفسه قد التزم هذا الشعار ابان فترة حكمه ، فاغدق على الجنود الكثير من الامتيازات والمنح ، بل أن السنة الشهيرة للأباطرة الأربعة عام ٦٩ ، علمت الجنود أن الامبراطور يمكن أن يوجد فى أى مكان خارج روما ، دون انتظار لترشيح السناتو ، وعلى الرغم من أن النظام الجمهورى فى روما قد انتهى رسميا بقيام الامبراطورية فى سنة ٢٧ ق ٠ م ٠ الا أن الرومان كانوا يميلون الى التمسك ، ولو من الناحية النظرية ، بالتقاليد الجمهورية ٠ ففى وسط فوضى القرن الثالث ، تقدم الجنود الى السناتو ، بعد مقتل الامبراطور أورليان Aurelianus

فى سنة ٢٧٥ ، يطلبون اليه ممارسة حقه فى ترشيح الامبراطور الجـديد ٠ ويبدو أن السناتو قد سئم هذه اللعبة ، فتباطأ فى الأمر ثم أقدم على اختيار أكبر أعضائه سنا وهو تاكيتوس Tacitus ٠ وحتى عهد كاروس Karus (٢٨٢ - ٢٨٤) كان الأباطـرة يعترفون بحق السناتو فى الانعـــام عليهم بالسلطات اللازمة للحـــكم مثل الامبريوم وغيرها من ألقاب الشرف ، بغض النظر عما اذا كان السناتو يفعل ذلك مختارا أم طائعا ٠ أما كاروس فقد أعلن أنه حصل على السلطة الامبراطورية بمقتضى اعلان الجيش له امبراطورا ، وأخبر السناتو بهذا القرار على سبيل المعرفة ٠ وتضخمت شخصية الأباطرة حتى أصبحوا يحملون لقب الاله رسميا على المسكوكات وفى النقوش ، وظهر هذا واضحا على عهد الامبراطور أوريليان الذى استعمل الأكليل المقدس رمز السلطة الالهية فى العالم القديم ، وأعلن فى جحافله أن الله وحده ، دونهم ، هو الذى يختار الامبراطور ويحدد فترة حكمه وجرى ذكـــره على هـــذا النحو (٢٧) Deus Aureliaums, Imperator Deus et Dominus Aurelianus Augustus

ولم يكن دقلديانوس أقل من سلفه ايمانا بالأوتوقراطية ، وساعده على ذلك أن هذه الفوضى التى تهلك الامبراطورية ، تحتاج الى يد قوية وحازمة ، ومن ثم عمـــد دقلديانوس الى أن يضفى على منصب الامبراطور نوعا من المهابة والقداسة تثير الرهبة فى نفوس رعاياه ٠ فنظر الى اختيار الجنود له على أنه تنفيذ لمشيئة الاله جوبيتر ٠ ووجد البذخ الشرقى والطقوس الحافلة طريقها الى بلاطه ، وكان على رعاياه اذا ما سمح لهم بالمثول بين يديه ، أن يخروا سجدا قبل أن تجرؤ عيونهم على أن ترمق صاحب الجلالة ٠ لقد كان لكل ما يخص الامبراطور قداســة ، كلماته ، بلاطه ، خزانته ، اذ كان هـــو نفسه مقدسا ٠ وهكذا ثبت دقلديانوس يقينا الأوتوقراطية فى شكلها القريب من الطاغوت الشرقى ، وباتت واحدة من العلامات المميزة فى البناء الحكومى

---

(٢٧) أنظر Boak, op.cit., pp. 416 - 417 وأيضـا Dudley, The Civilization of Rome, pp. 209 - 210 وكذلك ، ر ٠ هـ ٠ بارو ، الرومان ترجمـــة عبد الرازق يسرى ، ص ١٧٧ وراجع كذلك Vasiliev, op. cit., 1. pp. 61 - 62

للامبراطورية البيزنطية (٢٨) ولعل أروع منجزات دقلديانوس ـ على حد تعبير المؤرخ جونز ـ انه استطاع أن يحكم احدى وعشرين سنة متواصلة ، وأن يعتزل فى النهاية طواعية ، اذا ما قورن ذلك بالفوضى التى سادت الامبراطورية فى القرن الثالث ٠ (٢٩) ٠

ولا شك أن دقلديانوس قد أفاد كثيرا من وجوده فى الشطر الشرقى من الامبراطورية على مقربة من الحكم الساسانى الأوتوقراطى فى فارس ، ووسط الولايات الشرقية التى كانت تمثل الممالك الهلنستية القديمة فى مصر البطلمية وسوريا السلوقية وبرجامة الأتالية ٠ وهى التى جرت ، وخاصة مصر بالذات ، على عادة تأليه ملوكها فى عصريها الفرعونى والبطلمى ٠ ولهذا لم يجد عناء فى أن يحكم الامبراطورية على هذا النحو ٠ ولا شك أن هذا أيضا كان من بين العوامل العديدة التى دفعت دقلديانوس ، ومن بعده قسطنطين الى الاتجاه ناحية النصف الشرقى من الامبراطورية واقامة العاصمة الامبراطورية فيه ٠ ولا شك أن هذا الحكم الأوتواقراطى كان يتطلب، لتكتمل صورته ، ادارة مركزية صارمة ومجموعة كبيرة من الموظفين التابعين للامبراطور مباشرة ٠ ومن ثم فقد أقدم دقلديانوس على الغاء التمييز بين الولايات السناتورية والولايات الامبراطورية ، وأصبحت الولايات كلها تتبع الامبراطور تبعية مباشرة ، ووضعها تحت ادارة ولاة لم تكن تتجاوز سلطاتهم دائرة النواحى المدنية فقط ٠ وقام بانقاص حجم الولايات وزيادة عددها حتى يحول دون استغلال ولاتها لضخامة الولاية ومواردها فى التمرد على الحكومة المركزية ٠ وهذه هى الصورة التى تميزت بها الامبراطورية البيزنطية حتى عام ١٢٠٤ عن البلاد الواقعة خلف حدودها ٠ (٣٠)

---

(٢٨) Vasiliev, op. cit. I, pp. 61-62 وأنظر كذلك بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٤ ـ ٥ ٠

(٢٩) انظر Jones, The Later Roman Empire, 1, p. 40
وله أيضا The decline of the Ancient world, pp. 28 - 32.

(٣٠) انظر بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٤٧ ـ ١٥٤ وأيضا رنسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ص ٨٨ ـ ١٢٢ وراجع كذلك البحث الذى كتبه هارتمان L.M. Hartmann تحت عنوان: The Early Mediaeval state: Byzantium, Italy and the West - وقام بترجمته الى العربية والتقديم له

وكان خلفاء دقلديانوس أكثر منه حرصا على الأوتوقراطية وأشد تمسكا بها . وساعد على ذلك أيضا تحول الدولة فى القرن الرابع الى المسيحية ، فأخذت العبادة الامبراطورية فى شكلها الوثنى ، صورة جديدة ، فبعد أن كان الامبراطور مؤلها ، أصبح الآن خليفة الله فى أرضه ، نائبا عن المسيح فى حكم رعيته · وقد أطلق قسطنطين على نفسه « رجل الله » و « مبعوث العناية الالهية » ورفعه شيخ مؤرخى الكنيسة يوساب القيسارى Eusebius of Caesarea الى مصاف الرسل ، اذ جعل منه الحوارى الثالث عشر للمسيح · واذا كان قسطنطين قد حرص على ان يكون فى عاصمته الجديدة مجلس للسناتو شبيه بما كان قائما فى روما التيبر · فلم يعد هذا المجلس كونه نوعا من « الديكور » ·· اذا صح هذا التعبير — أراد قسطنطين أن يزين به « روماه » الجديدة ·

وقد ظل الأباطرة المسيحيون يحملون اللقب الوثنى « الكاهن الأعظم » Pontifex Maximus باعتبار الامبراطور الرئيس الدينى الأعلى ، حتى تخلى عنه الامبراطور جراتيان Gratianus (٣٧٥ — ٣٨٣) · ومع أن هذا اللقب كان مسألة شرفية تقليدية زمن الامبراطورية الوثنية ، الا انه تحول الى حقيقة عملية مع تحول الامبراطورية الى المسيحية ، فقد أصبح الامبراطور يمثل فعلا رأس الكنيسة ، بيده مقاليد الأمور فى الدين والدولة بعد أن تم التزاوج بين الدولة والكنيسة فى مطلع القرن الرابع على يد الامبراطور قسطنطين ، الذى يعد أول من رسم لخلفائه من بعده طريق القيصرية البابوية Caesaropapism التى اخذ الأباطرة يعملون جاهدين على تعميق جذورها ، حتى أصبحت تمثل عند بداية القرن الثامن سمة بازرة من أهم سمات الحكم فى الامبراطورية البيزنطية · فالامبراطور قسطنطيوس ، ابن قسطنطين وخليفته ، يقول لأساقفة مجمع ميلانو سنة ٣٥٥ وهو يحاورهم ، وقد راحوا يحاجون ويجادلون حول شرعية محاكمة اثناسيوس التى جرت فى صور قبل

=

والتعليق عليه الدكتور جوزيف نسيم يوسف فى كتابه « الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى » ص ٨٣ — ٨٥ ، ٩١ — ٩٣ — حاشية ١ ص ٩٠

ذلك بعشرين عاما ، « ارادتى هى القانون » (٣١) • وسار جوستنيان خطوات بعيدة على الطريق ، وتكشف متجدداته Novellae التى أصدرها لتنظيم الأمور الكنسية ، عن مدى رغبته الجامحة وايمانه العميق بسيادته على الكنيسة ، بل لقد كان يؤمن تماما بأن من حقه أن يختار لرعيته العقيدة التى يجب عليها اتباعها دون مناقشة • فالناس عنده على دين ملوكهم (٣٢) • فلما كان عهد ليو الثالث الايزورى ، بلغت القيصرية البابوية شأوا عظيما ، دل على ذلك سياسته تجاه الايقونيين، وما أقدم عليه من فصل مناطق جنوب ايطاليا وصقلية عن سلطة البابا واخضاعها لأسقف القسطنطينية ، ثم كشف عن ذلك بجلاء فى الرسالة التى بعث بها الى البابا جريجورى الثانى ، يقول له فيها أنه ــ أى ليو الثالث ــ « امبراطور وقس » • وقد ظل أباطرة بيزنطة ينهجون نفس النهج حتى آخر العهد بهم • وهكذا يمكن أن نتبين بوضوح أن هذه القرون الثلاثة ، من الرابع الى السابع ، كانت تحمل فى طياتها دلائل التحول الى عصر جديد ذى سمات متميزة •

ولا شك أن تحول الامبراطورية الى المسيحية كان عاملا هاما وفعالا فى احداث هذا التغيير ، وظهر دوره بصورة مباشرة ابان مرحلة الانتقال هذه • منذ أصبح على الامبراطورية فى مطلع القرن الرابع ، أن تختار أحد طريقين فى علاقتها بالمسيحيين • اما أن تسير قدما فى سياستها التعسفية التى انتهجتها على مدى ثلاثة قرون تجاه الجماعة المسيحية ، واثبتت الأحداث فشلها . واما أن تفتح ذراعيها لتحتوى هذه العقيدة الجديدة وتفيد

---

(٣١) انظر للمترجم ، الدولة والكنيسة ، الجزء الثالث (أثناسيوس) • الفصل السادس وراجع أيضا الملحق الأول من نفس الكتاب ، الذى يتضمن الحوار الذى دار بين قسطنطيوس والبابا ليبريوس حول محاكمة أثناثيوس وادانته •

(٣٢) راجع بعض هذه المتجددات الخاصة بالكنيسة فى :

P.N. Ure, Justinian and his Age, pp. 150 - 154.

وقارن

T. Ware, The Orthodox Church. pp. 49 - 50

وعن سياسة جوستنيان الدينية انظر :

Vasiliev, op. cit., I. pp. 148 - 154, Bury, op. cit., II pp. 372 - 393

وأيضا

Jones, Later Roman Empire I, pp. 296 - 98

من جهود عبادها ، وهذا هو الطريق الذى سلكه الامبراطور قسطنطين منذ التقى فى ميلانو سنة ٣١٣ مع حليفه اللدود ليكينيوس ٠

وكان لابد أن تحدث المبادىء الجديدة التى حملتها المسيحية معها الى الامبراطورية ، هزة كبيرة ، فى أركان المجتمع الرومانى ، وليس بخاف على أحد ذلك الأثر الواضح الذى تركته المسيحية على مختلف ميادين الفكر والفن والحياة الاجتماعية داخل الامبراطورية الرومانية ، الى الحد الذى دفع المؤرخ جيبون الى أن يبنى نظريته فى انهيار الامبراطورية وسقوطها ، فى جانب كبير منها ، على هذه المبادىء المسيحية (٣٢) ٠ وهذه الآراء رددها

---

(٣٢) يقول جيبون انه « لما كانت سعادة الحياة الآخرة هى الهدف العظيم للدين ، فقد لاندهش أو نخجل اذا سمعنا أن المسيحية ، أو على الاقل اساءة استغلالها ، كان لها بعض الاثر فى تدهور الامبراطورية الرومانية وسقوطها ٠ فقد نجح رجال الدين فى تلقين الناس أصول الصبر والاستكانة ، وقوبلت الفضائل الايجابية فى المجتمع بالتثبيط ، ودفنت بقايا الروح العسكرية فى الاديرة ، وخصص جزء كبير من الثروة العامة والخاصة لمطالب الصدقة والعبادة المظهرية ، وبعثرت رواتب الجنود على الجماهير العديمة النفع من الجنسين ، وهى الجماهير التى لم يكن فى مقدورها الا الدفاع عن مزايا التقشف والعفة ٠ وأشعل الايمان والغيرة وحب الاستطلاع وعواطف الحياة الدنيا من حقد وطمع ، نار النزاع اللاهوتى ٠ وغرقت الكنيسة ، بل والدولة ، فى ذلك الصراع العقيدى الذى لم تخب ناره بين الفرق الدينية ٠ وتحول اهتمام الأباطرة من المعسكرات الى المجامع الكنسية ، وناء العالم الرومانى تحت نير نوع جديد من الطغيان، وأصبحت الطوائف المضطهدة عدوا خفيا لبلادها ٠ وغرس الاساقفة واجب الخضوع السلبى لحاكم أرثوذكسى ، وقد سلم جيل متخنث ذليل ، فى ورع وتقرى ، بحياة الكسل المتسم بالقدسية التى يحياها الرهبان ٠ ولكن ، لو أن الخرافة لم تجذب أبناء ذلك العصر الى العزلة بقصد التعبد ، لكانت هذه الرذائل نفسها قد أغرت الرومان التافهين على التخلى عن علم الدولة ٠ مدفوعين فى ذلك بدوافع أكثر دناءة وحقارة ٠ والتعاليم الدينية يمكن أن تطاع فى يسر وسهولة اذا سمحت بالميول الطبيعية للمتعلقين بها ، وأضفت عليها نوعا من القدسية ٠٠٠ واذا كان تحول قسطنطين الى المسيحية قد عجل باضمحلال الامبراطورية الرومانية ، فان هذه الديانة الظافرة قد كسرت حدة سقوطها ، وخففت من شراسة طبائع الغزاة » ٠ انظر ٠

Decline and Fall of the Roman Empire. vol. III. ch. XXXVIII

وقارن الترجمة العربية للمختصر ، الجزء الثانى ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥ ٠

المؤرخون الوثنيون قديما وفى مقدمتهم زوسيموس (٣٤) Zosimus الذى عاش فى القرن الخامس وأوائل السادس · واذا كانت آراء جيبون قد تعرضت الآن لكثير من النقد من جانب المؤرخين المحدثين ، الا أن هذا لا يمنع من القول بأن المسيحية تركت بصماتها واضحة على المجتمع الرومانى ·

ويتمثل ذلك الى حد بعيد جدا فى مجال الفكر ، فقد كان على المسيحية حتما مقضيا بعد أن خرجت من دائرة اليهودية ومضت الى طريق أمم ، أن تهجر كارهة أسلوب التبشير بمعجزات المسيح جذبا لليهود ، الى الدعوة عن طريق الاقتناع العقلى واعمال الفكر لاجتذاب الوثنيين · ومن ثم كان على المسيحية أن تتفلسف ، أو بتغيير آخر ، ترتدى ثياب الفلسفة ، فظهرت فى منتصف القرن الثالث والقرن الرابع مسيحية مفلسفة · ولايمنع هذا من وجود آراء من هذا القبيل فى القرن الثانى الميلادى · وكان الهدف من وراء ذلك هو ارساء العقيدة المسيحية على أسس عقلانية ، كى تواجه التيارات الفلسفية السائدة من رواقية وأفلاطونية محدثة وفيثاغورية جديدة · واستقر ذلك فى النهاية فى تيارين رئيسيين عبرت عنهما مدرسة اللاهوت الانطاكى لتفسير الكتاب المقدس على أساس عقلى ، مهتدية فى ذلك بالمنهاج الأرسطى المنطقى ، والمدرسة اللاهوتية السكندرية التى استخدمت التفسير المجازى ، أو الصوفى ان جاز هذا التعبير الأخير ، ومزجته باللاهوت العلمى الافلاطونى(٣٥) · ويمثل القرنان الرابع والخامس قمة

---

(٣٤) هو آخر المؤرخين الوثنيين فى الامبراطورية · ألف كتابا أسماه « التاريخ الجديد » وقف بالأحداث فيه عند سقوط روما فى يد ألاريك سنة ٤١٠ م · وقد كان وثنيا متحمسا لعبادة الأرباب ، ومن ثم فقد أرجع سقوط روما الى غضب الأرباب نتيجة هجران الرومان لها ، ويوجه اللوم العنيف الى قسطنطين باعتباره السبب فى ذلك · ولا غرابة اذن أن يمتدح الامبراطور جوليان · وتذكر الدراسات الحديثة أن زوسيموس لم يكن مجرد مؤرخ فحسب بل أحد علماء النظريات السياسية الذين تولوا الدفاع عن الجمهورية ، حتى لقد كان « الجمهورى » الوحيد فى القرن الخامس · انظر Baynes & Moss, Byzantium, p. 222 وأيضا Vasiliev, op cit., I, p. 125 وكذلك Bury, op. cit., I, p 301

(٣٥) David knowles, The evolution of Medieval thought,

الصراع الكريستولوجي بين الفرق المسيحية المتناحرة وصولا الى قول فصل فى طبيعة المسيح • واذا كان هذا الصراع العقيدى قد أثرى الفكر ، الا أنه بلا شك أهلك العقيدة ، بتلك الخلافات الجذرية التى تفصل بين كنائس الشرق والغرب ، وأدار معه فى هـــذا التيــه رؤوس الأباطرة ودواوين الحــكومة والجنود وفرق المضمار والجموع على اختلاف طبقاتها(٣٦) •

وساعد على اشتداد هــذا التيــار ، ما زخر به الشــرق الرومانى من

=

F. Copleston, A history of philosophy, Vol. 2 وأيضا pp. 16 - 32
M. L. W. Laistner, وكذلك Mediaeval philosophy, part I, p. 29
Thought and Letters in Western Europe pp. 46, 64 - 65
Ch. Dawson, Religion and the rise of Western culture, p. 29 وراجع
G. Left, Medieval thought from S. Augustine to وكذلك
Ockham, p. 29 وللمزيد من التفاصيل عق مدرسة الاسكندرية اللاهوتية انظر للمترجم الجزء الثالث من كتاب الدولة والكنيسة ، الفصل الأول •

(٣٦) يصــف اللاهوتى الكبادوكى الشهير ، جريجورى أسقف نيسا Nyssa الحالة فى القسطنطينية فى القرن الرابع بقوله : « لقد امتلأ كل شيء بأولئك الذين يتحدثون بغوامض الــكلم ، وازدحمت بهم الطرقات والأسواق والأزقة • فاذا ما سألت عما يجب أن أدفعه ثمنا لشيء ، فلسفوا لى الاجابة حــــول المولود والمخلوق • واذا مارغبت فى الوقوف على ثمن الخبز ، أجابنى البائع بأن الآب أعظم من الابن ، واذا ما بحث عمـــا اذا كان حمامى قد أعد ، جاءتنى الاجابة تقــول ان الأبن خلق من العدم » • ومن المعروف أن الخلاف بين الكنائس وصــل ذروته فى القــرن الخــامس الميلادى ، فى مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ ، وهو المجمع المسكونى الرابع ، وانتهى الأمر بانفصال كنيسة الاسكندرية عن كنيستى القسطنطينية وروما ، ولم يلبث أن تم حدوث الشقاق بين الأخيرتين فى القرن التاسع ابان ما عرف بفتنة فوطيوس ، الى أن وقع الشقاق الأعظم بنهما ســـنة ١٠٥٤ • وتدين كنيسة الاسكندرية الأرثوذكسية بما ذهب اليه أسقفاها كيراس وديوسقورس من القول بطبيعة واحدة للمسيح من طبيعتين ، أو بتعبير آخر « طبيعة واحدة للــكلمة المتجســدة » • بينما تقوم الأرثوكسية اليونانية على الاعتراف بأن المسيح شخص واحد أو اقنوم واحــد فى طبيعتين متحدتين ، مستقلتين غير منفصلين • وتوافقهم الرأى كنيسة روما ، بناء على رسالة البابا ليو الأول الى مجمــع خلقيدونية • وان كان الخــلاف قد وقــع بين الكنيستين بسبب اضــافة روما تعبير « والأبن » filioque على قانون الايمان فيما يتعلق بانبثاق الروح القدس •

مدارس الفكر والفلسفة اليونانية فى الاسكندرية وايطاليا وآسيا الصغرى ، ثم اثينا فى بلاد اليونان نفسها ، بينما نعم الغرب بجهالة ترتبت على خلوه من مثل هذه المدارس ، ونجا من الخوض فى تلك المتاهات العقيدية ، الى حد أن اشهر آباء الكنيسة فيه فى القرن الرابع ، هيلارى Hilarius اسقف بواتييه Poitiers ظل لمدة ثلاثين عاما بعد مجمع نيقية (٣٢٥) لايعرف شيئا عن مصطلح « الهوموسية » Homoousius (Consubstantial) « مساواة الابن للآدب فى الجوهر » ، وهى العقيدة التى أصبحت قاعدة الايمان الأرثوذكسى بعد ذلك . ولم يشهد الشطر الغربى من الامبراطورية نيران هذا الصراع الا فى عامى ٣٥٣ ، ٣٥٥ عندما حاول الامبراطور قسطنطيوس ، أن يفرض عليه العقيدة الآريوسية فى مجمعى آرل وميلانو(٣٧) . ولم يعكر صفو سلام الكنيسة فى الغرب بعد ذلك ، وحتى وضع مارتن لوثر احتجاجه ضد الكنيسة وتصرفاتها ، على باب كنيسة فيتنبرج سنة ١٥١٧ ، الا الجدل العقيدى الذى أثاره بلاجيوس Pelagius ، حول أهمية الارادة الانسانية فيما يتعلق بالغفران(٣٨) . ولكن هذا لا يمنع

---

(٣٧) انظر Hilarius, De synodis, 91 والمقدمة الرائعة التى كتبها عنه وتناول فيها أعماله بالتحليل ، E. W. Watson ضمن مجموعة — Nicene and post Nicene Fathers of the Christian Church, vol. IX, pp. i—xcvi راجع أيضا للمترجم ، الجزء الثالث من الدولة والكنيسة ، الفصل السادس .

(٣٨) بلاجيوس هو احد رهبان بريطانيا فى القرن الخامس ، جهر بآرائه التى تقول بأن من الخطورة الاعتراف بأن الطبيعة البشرية قد فسدت الى الحد الذى أصبحت فيه مسلوبة الارادة تماما ، فالانسان مسئول عن كل كل خطيئة يقدم عليها ، وخطيئة آدم الأولى لايمكن أن يتحملها بنوه وأن يولدوا بها ، ومن ثم فهو يرتب على ذلك عدم اهمية طقس العماد بالنسبة للمولود ، وينكر القول بأن الغفران لايتحقق الا بنعمة اللـه فقط ، ويؤكد دور الارادة الانسانية فى هذا السبيل . وقد لقيت مبادئه رواجا واسعا فى ايطاليا وبريطانيا ، وان كانت قد قوبلت بعدم الارتياح فى أفريقيا . نتيجة لجهود القديس اوغسطين فى مقاومتها . فقد ادين تلميذه كايلستوس Caelestius فى مجمع قرطاجة سنة ٤١١ ، وان كان بلاجيوس نفسه قد برئت ساحته فى مجمع عقد فى مدينة اللد Diosopolis عام ٤١٥ .

من وجود بعض الآراء الاخرى التى نعتتها كنيســـة روما بالهرطقة ، وان كانت قد ظهرت أولا كاحتجاج على فســاد رجال الدين وســوء خلقهم ، ثم تضمنت فيما بعد أفكارا عقيدية(٣٩) · وساعد الغرب على ذلك ، الى جوار

ولكن البابوية أدانت الآراء البلاجية رسميا · انظر Hefele, History of the Councils of the Church, vol. 11, pp. 466 - 80 وايضا H. Chadwick The early Church, pp. 228 - 232.

(٣٩) ظهرت هذه الآراء بصفة خاصــة فى القرنين الثـــانى عشــر والثالث عشر ، وقد دارت كلها حول محاربة الفساد والانحلال الذى تردى فيه رجال الاكليروس ، وتشير بعض المصادر المعاصرة أن عدد هذه الطوائف قد بلغ فى القرن الثالث عشــر قرابة مائة وخمسين فرقة ؛ على أن الكثير منها لم يكن له أهمية تذكر ؛ ولم يتعد خطره البقعة التى ظهر فيها · بينما حظى عــدد منهــا بالذيوع والانتشار مثـــل « المتضعين » Humiliati و « المتلعثمين » Beguines نسبة الى لامبرت الأرتم Lambert le Begue فى ايطاليا والأراضى المنخفضة على التوالى · على أن أهم هذه الفرق على الاطـــلاق انحصرت فى اثنتين ـ الولدونين Waldonsians والأطهـــار Cathari أما الطائفة الأولى فتنسب الى بطرس ولدو Peter waldo وهو أحد التجار الاثرياء فى ليون Lyons ، أقــدم فى سنة ١١٧٣ على التنازل عن ثروته ووزعها على ذوى الحاجة ، واسسى جماعة تعرف باسم « فقراء ليون » هجــروا دورهم · وسار كل اثنين منهم حفــاة · فى ثياب خشنة ، ليس لأحدهم ملكية فردية فالملكية يجب أن تكون مشاعا · ولم يكن لهم على هذا النحو آراء يمكن أن تدينها الكنيسة ، بل ان بطرس ولدو زار روما فى سنــة ١١٧٩ وحصل من البــابا اسكندر الثالث على اعتــراف به وبجماعته ، وعلى الاذن لهم بالتبشير · وعلى ذلك انتشرت الآراء الولدوية فى جنوب فرنسا واسبانيا ولمبارديا والأراضى المنخفضة وبوهيميا والمجر · واتحدت مع بعض الفرق المنتشرة فى هـــذه المناطق · ولمــا احست الكنيسة بأسها أصدرت قرارا بادانتها فى عام ١١٨٤ مع الطوائف الأخرى فى مجمع فيرونا Verona .

أما الطائفة الثانيــة وهى طائفــة الطهــار ، فقــد ذاع صيتها باسم الألبيجنيين Albigensians وانتشرت فى مقاطعة بروفانس Provence ولانجدوك Languedoc وخاصة مدن مونتبابيه وناربون وتولوز ومرسيليا وأجن ومونتوبان ، ولما كانوا يتركزون فى منطقة البى Albi فقــد عرفوا بذلك الاسم نسبة لتلك المنطقة · وهم يستقون عقيدتهم فى المانوية ؛ ويقسمون العالم الى قسمين ، الخير وهو اللــه ، والشر وهو الشيطان او المــادة ·

خلوه من المدارس الفلسفية ، أن لغته اللاتينيــة لم تكن لتسمح له بممارسة هذا الجدل ، اذ كانت تفتقد الديوية التي تتمتع بها اللغة اليونانية ٠

أما الشرق الروماني فقــد قدم بفكر رجال اللاهوت فيه وآباء الكنيسة آراء عديدة من حول طبيعة المسيح ، فقد اكتوى القرن الرابع بنيران الجدل الذي دار بين الاريوسية وخصومهـــا ، أو بين الاريوسيين وأنفسهم(٤٠) ،

=

والشيطان هو الذي خلق العالم المـادي ،ومن ثم فالمادة كلها شر محض بما فيها الصليب والقربان المقدس ٠ ويشيع عنهم خصومهم القــول بأن المسيح ليس الها ، وانهم يرفضون العشاء الرباني والقـــداس وتعظيم الايقونات والتثليث ٠ ولما كانوا يوقنون بأنه من المستحيل أن يطنبوا الى كل اتباعهم أن يحققوا أعلى مراتب الرهبانية ، فقد قسموا أنفسهم الى مرتبتين ، المؤمنون Credentes والـكمل Perfecti ٠ وكـل ما كان يطلب من المؤمنين أن يطلقوا الكنيسة ، وأن يجلوا الكمل ويوقروهم ، وأن يتلقوا قبل الموت السر المقدس Consolamentun الذي يسمح لهم بالارتقاء الى مرتبة الكمل ٠ ، الى هذا الحد لم تلق لهم الكنيسة بالا ، فلما أخـــذوا يصوبون سهامهم نحوها ، سيرت ضدهم حملات عسكرية ، وصفت بأنها صليبية ٠ فقد سخروا من هذه الأموال الطائلة التي يكنزها البابوات والأساقفة ، ونددوا بالدعوة للحروب الصليبية وأبدوا استهزاءهم بصكوك الغفران ٠ وقد أصدر البابا انوسنت الثالث Innocent III ضدهم قرار الحـرمان ، وأوقع القرار أيضا على الأراضي التي يسيطرون عليها ٠ ثم سير ضـدهم حملات عسكرية جمعها من المتطوعين الأوروبيين ٠ وقد استمرت هذه الحرب حوالي ثلاثين سنة ، الى أن انتهت سنة ١٢٢٩ بالقضاء على الالبيجنيين ٠ انظر عن هذه الطوائف Thompson & Jonson, op. cit., pp. 1002, 624-629
وأيضا Stephenson, op. cit., 420 - 22 وكذلك Davis, op. cit., 350 sqq.
وراجع Strayer & Munro, op. cit., pp. 316 - 18, 320
وأيضا Mundy, Europe in the high Middle Ages, 1150 - 1309,
C. M. H. vol. VI. pp. 342, 345. sqq., 702 - 716

(٤٠) للمزيد من التفاصيل عن الأريوسية الأصلية والفرق الأريوسية الجديدة ٠
انظر Gwatkin, The Arian Controversy ولنفس المؤلف أيضا Arianism ضمن مجمـوعة C. M. H. vol. 1 وانظر كـذلك Neander, Lectures on the history of Christian Dogmas. 2. vols. ولنفس المؤلف راجع أيضا General history of the Christian Religion and Church. 9 vols

ثم الماكيدونيـــة(٤١) . حتى اذا كان القرن الخامس ، سعرت نيران ذلك الجدل ، واشتد لهيبها عندما سيطرت عليها حمى التنافس بين كنائس روما والقسطنطينية والاسكندرية وانطاكية من أجل الزعامة . فظهرت النسطورية واليوطاخيــة التى اقتربت منهـــا المونوفيزية ، ثم الديوفيزية أو ماذاعت شهرتها بالخلقيدونية واصطلح على تسميتها بالأرثوذكسية الحكومية . ولعبت الأسكندرية طيلة هذا الصراع دورا بارزا ، وكسبت منه ثلاث جولات ، الى أن تكاتفت عليها فى منتصف القرن الخامس روما والقسطنطينية . ولم تعرف الامبراطورية الهدوء فيما يتعلق بالمسألة الكريستولوجية الا فى القرن الرابع الميلادى ، بعد أن فقدت ولاياتها الشرقيــة عندما فتحها المسلمون . ليتخــذ الجدل العقيدى أشكالا أخرى فى القرون التالية . ولاشك أن هذا الصراع الفكرى صبغ الامبراطورية بصبغة مميزة فى حينها والى هـــذا الزمان ، حتى أصبح تعبير « الجدل البيزنطى » دليلا على كل جدل طويل وعقيم . واذا كانت العصور الوسطى قد اقترنت فى الأذهان بعصور الايمان ، فان بيزنطة تعد التجسيد الحى لهذا المصطلح .

وظهر اثر المسيحية كذلك جليـــا فى الناحيـــة التشريعية ، ولمـا كانت مسألة التقنين تمس كثيرا من جوانب الحياة فى المجتمع ، فقد اقتضى ذلك

وانظر للمترجم الدولة والكنيسة . الجزء الثـانى الفصل الخامس . والجزء الثالث : الفصل السابع . والمعروف أن الآريوسية انقسمت على نفسها الى فرق عديدة . ما بين الآريوسيين الأصليين الذين يقولون بخلق المسيح وعدم مساواته مع الآب فى الجوهر . وأنصاف الآريوسيين Semi-Arians الـــذين يقولون بالهومويوسية Homoiousiun أى التشابه بين الابن والآب فى الجوهر . والأنومويين Anomoeans الذين ينكرون أى شبه بين الآب والابن . والهـومويين Homoeans الذين يقولون بالشـبه فقط دون تحـــديد .

(٤١) نسبة الى ماكيدونيوس Macedonius وقد تأثر بآراء آريوس فى خلق المسيح ونادى بخلق الروح القدس . وقــد دين هـــذا الرأى فى المجمع المسكونى الثانى الذى عقـد بالقسطنطينية سنـة ٣٨١ على عهـد الامبراطور ثيودسيوس الأول . وجاء فى قانون المجمع اقرار الايمان بالروح القـــدس « الرب المحيى ، المنبثق من الآب ، والمسـاوى فى الجوهر للآب والابن ، مسجود له ، وممجد الناطق بالأنبياء » .

قرنا آخر حتى تصدر القوانين وقد تشبعت بالروح المسيحية ، ومن ثم فان تشريعات القرن الثامن هى أصدق الأدلة على ما نذهب اليه • فقد اعتمد الامبراطور ثيودسيوس الثانى (٤٠٨ ـ ٤٥٠) على المجموعتين القانونيتين اللتين وجدهما على عهده ، وهما المجموعة الجريجورية Codex Gregorianus والمجموعة الهرموجينية Codex Hermogenianus ،وهما تضمان القوانين التى صدرت منذ عهد الامبراطور هادريان (١١٧ ـ ١٣٨) حتى بداية النصف الثانى من القرن الرابع • وقد نهج ثيودوسيوس الثانى فى مقننته Codex Theodosianus التى صدرت سنة ٤٣٨ على غرار هاتين المجموعتين ، ونلمس فيهما الأثر المسيحى وان كان مايزال بسيطا • فلما كان القرن السادس ، وأصدر الامبراطور جوستنيان مجموعته القانونية ، ظهر تأثير المسيحية فيها بصورة واضحة اكثر من سابقتها • بل أن جوستنيان كان يعتقد يقينا أن الله هو الذى يمنح الأباطرة حق سن وتفسير القوانين • ومن ثم فالامبراطور هو الشارع ، ويباركه الرب فى الأعالى ، حتى اذا اعتلت الأسرة الايزورية عرش الامبراطورية ، أقدم ليو الثالث على اصدار الاكاوجا (المختارات) التى جاءت فى نصها وروحها متمشية الى حد كبير مع المبادىء المسيحية ، فهى تتميز بوفرة الاسناد الى الكتاب المقدس لتأكيد مختلف المبادىء القانونية • وجاء فى مقدمتها عند الحديث على القضاء ، أن الخزانة الامبراطورية يجب أن تدفع لهم مرتباتهم حتى لايتقاضوا ممن يقاضونهم شيئا ، خشية أن تقع نبوءة النبى « لأنهم باعوا البار بالفضة والبائس لاجل نعلين فتسلط علينا الرب بتجاوز وصاياه » • (عاموس ٢ : ٦) •

ويعتبر الفن البيزنطى المرآة الحقيقية لهذا التحول الذى تم خلال القرون الثلاثة ، من الرابع الى السابع • فالفن المسيحى المتقدم لم يكن ، خلال القرنين أو القرون الثلاثة الاولى من تاريخه ، الا تطويرا أو حتى تفريعا للفن الرومانى المتأخر • ففى الاعمال الفنية التى ظهرت فى الامبراطورية الرومانية المتأخرة ، أو عصر الامبراطور قسطنطين نجد استباقا للسمات الاساسية للفن المسيحى المتقدم ، كنزوعه الى الروحانية والتجريد ، وايثاره للأشكال المسطحة التى هى أشبه بظلال لاجسم لها ، والتسلسل فى مراتب الناس ، وعدم اكتراثه بالحياة العضوية بما فيها من

لحم ودم · وعدم اهتمامه بما هـو شخصى مميز المفـرد والنوع · فهو فن تظهر فيه الرغبة غير الكلاسيكية فى تصوير الجـانب الروحى لا الحسى ، وتظهر بجلاء فى صور القبور ، وأعمـال الفسيفساء بالكنائس الرومانية ، والمخطوطات المسيحية الأولى · ولما كانت القيصرية البابوية ـ كما أسلفنا ـ هى عصب الحياة السياسية فى نظر الاباطرة ، ولما كانت هذه الاوتوقراطية الروحية الزمنية التى يتمتع بهـا الامبراطور ، فى حاجة الى الى تعرض على الملأ من أجل اثارة الخيال الشعبى ، ولما كان المسيح قـد اتخذ بصفته المخلص ، هيئة الانسان وطبيعته البشـرية ، فاضفى بذلك على الذات قيمة لاتقدر ، كان الفن البيزنطى يمثل القمة فى محاولة تقـديم صورة رائعة للشخصيات الرسمية التى كانت تطالب باحترام الناس وتبجيلهم · فالمسيح يصور فى بيزنطة كما لو كان ملكا ، والعـذراء كما لو كانت ملـكة ، وهما يلبسان أردية ملكية نفيسه ، ويجلسان على عرشيهما فى وقار وتحفظ دون أن يعبر وجههمـا عن شىء · ويقترب منهما صف طـويل من الحـواريين والقديسين بايقاعات بطيئة يعلوها الوقار · وتحول الشعائر الصارمة بين أشخاص الصورة وبين التحرك بحرية ، أو الخروج عن الصف المنتظم ، أو حتى النظر الى جانبهم · فـكل شىء يبعث على الشعور بالهيبة فى جـلاله الملوكى ·

ولعـل أروع تعبير فنى عن الروح الشعائرية هى أعمـال الفسيفساء المهداة الى كنيسة القديس فيتالى St Vitale فى رافنا والتى تعـود الى القرن السادس ، وهى أعمـال لم تشهد العصور التاليـة لها نظيرا فى هذه الناحية ، فلم تنجح أى حركة كلاسيكية ، أو مقلدة لهـا ، أو أى فن مثالى أو تجريدى ، فى التعبير عن الشكل والايقاع بمثل هـذه الطريقة المباشرة الخالصـة · كما أن كنيسة أيا صوفيـا التى شيدها جوستنيان فى القرن السادس فى القسطنطينية تعد بحق أعظم انجاز فنى فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية على الاطـلاق ، فهى على حـد تعبير شارل ديل ، عنوان الفن البيزنطى ، وأن أحدا لايمكنه مطلقا أن يفهم أو يقـدر قيمـة الفن المسيحى الشرقى وأصالته ، قبل أن يشـد الرحال ، بادىء ذى بدء الى هـذا البناء الرائع ، « الكنيسة الكبرى » الاسم الذى عرفت به فى الشرق ابان العصور

الوسطى(٤٢) ٠

وتقدم اللغة دليلا هاما ، الى جوار كل ما تقدم ، على التحول الذى عاينته تلك القرون الثلاثة ٠ فقد كانت اللاتينية هى اللغة الرسمية فى الامبراطورية بطبيعة سيادة روما ، وان كان الشرق الرومانى قد ظل محتفظا بلغته اليونانية ، التى كانت لسان الصلوات والقداسات فى كنائس الشطر الشرقى من الامبراطورية ٠ وقد حرص الامبراطور قسطنطين على أن يلقى خطابه فى افتتاح مجمع نيقية سنة ٣٢٥ باللاتينية ، على الرغم من أن أساقفة المجمع كلهم ، عدا الثمانية الذين يمثلون كنائس الغرب ، يتحدثون اليونانية ٠ ويبدو هذا أمر طبيعيا يتفق وقلة المامه باليونانية ، كما يشير الى ذلك المؤرخان الكنسيان يوساب القيسارى وسوزومين الغزاوى Sozomenos ، وان كان المؤرخ جونز يعلق على هذا بقوله ان قسطنطين فعل ذلك ، لا لجهله باليونانية ، ولكن لأنه وجدها الفرصة السانحة ليؤكد رسمية اللغة اللاتينية فى الامبراطورية(٤٣) ٠ وكان طبيعيا أن تكون اللاتينية فى تلك الفترة هى لغة الفكرة والثقافة ، حتى أن كثرين من كتاب ذلك العصر الذين ينتمون لأصول شرقية ، وضعوا أعمالهم باللاتينية ، ومن أشهر هؤلاء مؤرخ القرن الرابع الوثنى ، اميانوس ماركللينوس Ammianus Marcellinus الذى ولد فى انطاكية ، ويعتبره شتاين Stein أعظم عبقرية أدبية فى العالم بين المؤرخ الرومانى تاكيتوس

---

(٤٢) انظر : أرنولد هاوزر Arnold Hauser ، الفن والمجتمع عبر التاريخ ٠ ترجمة الدكتور فؤاد زكريا ٠ الجزء الأول ٠ ص ١٤٥ — ١٦٦ ٠

وأيضا Ch. Diehl, Byzantine Art فى Byzantium, ed. by Baynes & Moss, pp. 166 - 199 وكذلك بينز ٠ الامبراطورية البيزنطية ٠ ص ٢٢٣ — ٢٢٥ ٠

وراجع رنسيمان ٠ الحضارة البيزنطية ٠ ص ٣٠٩ — ٣٣٩ ٠

وأيضا Vasiliev, op. cit.. 1, pp. 187 - 92

وكذلك C. M. H. vol. I, pp. 598 - 614, vol. IV.

(٤٣) EVSEB, vita Const. 111. 13, SOZOM. hist. eccl. 1. 20

وراجع Jons, Constantine and the Conversion of Europe. p 156

وانظر أيضا للمترجم الدولة والكنيسة ٠ الجزء الثانى ٠ الفصل الخامس ٠

Tacitus وشاعر الكوميديا الالهية دانتى Dante • ويعده نورمان بينز آخر مؤرخى روما العظام •

وكان طبيعيا مع انتقال مركز الثقل فى الامبراطورية الى الشرق ، بانتقال العاصمة ، ثم فقدان النصف الغربى من الامبراطورية نتيجة الغزوات الجرمانية فى القرن الخامس ، بحيث أصبحت المناطق التى تسيطر عليها الامبراطورية كلها تتحدث اليونانية • ولهذا أخذت اللاتينية تتوارى تدريجيا ، لتحل محلها اليونانية • وليس أدل على ذلك من أن الامبراطور جوستنيان عندما أصدر فى النصف الأول من القرن السادس ، مجموعته القانونية (المقننة والجامع والمبادىء) باللغة اللاتينية ، لم يستطع أن يفعل ذلك فى المتجددات Novellae، ومن ثم فقد جاءت هذه النوفلات باليونانية • ولا شك أن هذا يعد اعترافا ضمنيا من جوستنيان بذلك التحول الذى تشهده الدولة • يضاف الى هذا أن مؤرخ تلك الحقبة الشهير ، بروكوبيوس Procopius كتب مؤلفاته العديدة ، من حروب جوستنيان وأعماله الانشائية باللغة اليونانية ، بل انه كان يجهل اللاتينية بصورة فاضحة • وباليونانية أيضا كتب معظم كتاب عصر النقلة ذاك ، بطرس البطريق ، وأجاثياس Agathias ونونوسوس Nonnosus وهزيكيوس Hesychius المليتى ، ويوحنا ملالاس John Malalas الانطاكى ، ويوحنا الافسوسى John of Ephesos ولكن هذا لا يمنع من بقاء اللاتينية سبيلا الى الترقى فى سلك الوظائف الحكومية • كما يخبر بذلك عن نفسه يوحنا الليدياوى Iohannes Lydus الذى أمضى معظم حياته ضمن الهيئة القضائية للنائب الامبراطورى فى الشرق •

على أنه بمقدم القرن السابع ، أصبحت السيادة للغة اليونانية ، وتجلى ذلك فيما أقدم عليه الامبراطور هرقل سنة ٦٢٩ ، بعد انتصاره الحاسم على الفرس فى نينوى من اتخاذ لقب Basileus ويعلق بيورى على ذلك بقوله « طالما كان هناك بازيليوس عظيم مستقل خارج حدود الامبراطورية (يعنى ملك فارس) . أحجم الأباطرة عن حمل لقب يشاركهم عاهل آخر • فلما أذل هذا العاهل الأجنبى ، ولم يعد هناك مكان لبازيليوس آخر ، دلل الامبراطور على هذه الأحداث بأن خلع على نفسه رسميا ذلك اللقب » •

وأخذت اليونانية تمكن لنفسها فى البلاط الامبراطورى ودواوين الحكومة والمكاتبات الرسمية والدوائر القضائيـة والتشريعية ، حتى أضحت اللغـة الرسمية للامبراطورية ، وعلى هـــذا النحو صـدرت الاكلوجا والباريليقا والقوانين المكملة فيما بعـد • كما وضع أباطرة الأسـرة المقدونيـة كتبهم عن الادارة الامبراطورية ومراسم البلاط وفنون الحرب باللغة اليونانية •

ولعله مما ساعد على تدعيم هـذا الاتجاه أيضا ، ان الأباطرة الذين تولوا العرش بعـد وفاة جوستنيان وحتى سيطرت الأسـرة المقدونيـة على شئون البـلاد ، قدموا من آسيا الصغرى ، وحملوا معهم أهم الدلائل على ذلك ، فالأسرة الهرقلية تعود الى أصـول أرمينيـة ، والأيزوريون ينتسبون الى مرتفعات ايزوريا فى الطرف الجنـوبى الشـرقى لآسـيا الصغرى ، والعموريون يعودون الى منطقة فريجيا • بل ان كبار القـادة العسكريين ، الذين حكموا كأباطرة مشاركين ثم أباطرة ، فى الأسـرة المقدونية ، جاءوا من طبقة كبار الملاك فى تلك المنطقة • ثم الأسرات الى حكمت بعد ذلك حتى النهـاية •

وكان ضياع النصف الغربى اللاتينى من الامبراطورية ، وقيـام الممالك الجرمانية فيه ، واكتساح العناصر الآفارية والصقلبية لمنطقـة البلقان ، ثم فتح المسلمين لسوريا ومصـــر وشمال افريقيا من أهم العوامل التى قوت من هذا الاتجاه ، بحيث أصبحت الامبراطورية تتمركز فى المناطق اليونانية الخالصة •

وليس بخـاف على أحـد أن بنـاء مدينـة القسطنطينية ، كعاصمـة للامبراطورية الرومانيـة ، وسط العـالم اليونانى بفكره وحضارته ولغتـه وثقافته ، قد أدى الى تأصل ذلك التحول الذى شهده عصر الانتقال • وكان لنجاح القسطنطينية ، بموقعها الحصين ، فى التصدى للاغارات الجرمانية ، والسياسة الذكية التى اتبعها أباطرتها فى القرن الخامس ، أثرهما الفعال فى ابعاد النفوذ والطابع الجرمانى ، الذى كانت له آثاره البعيدة فى الغرب ، عن النصف الشـــرقى من الامبراطورية • ومن ثم كانت القسطنطينية هى البوتقة التى انصهرت فيها كل هـذه العوامل المختلفة التى عرضنا لهـا ، وأبرزها التراث اليونانى والتقاليد الرومانية والمبـادىء المسيحية ، لتخرج

لنا مع القرن السابع الامبراطورية فى ثوب جديد ، ليس من العسير أن نتبين فيـــه خيوط الامبراطورية الرومانية ، بحيث يمــكن اعتبار مرحلة الانتقال هــذه ، التى استغرقت القرون من الرابع الى السابع ، عصـــرا رومانيا متأخرا أو عصرا بيزنطيا متقدما ٠

لهذا يصطلح كثير من المؤرخين(٤٤) على اتخـاذ القـرن السابع ، بما ظهر فيـــه من ملامح متميزة ، بداية طبيعية لمـا عـرف بالامبراطورية البيزنطية ، وتنحو جـ ٠ م ٠ هسى بدورها هـــذا المنحى ، ويتضح ذلك فى النهج الذى اختارته عند تأليفها لهذا الكتاب ٠ فهى تتناول الفتـرة الممتدة من قسطنطين حتى هرقل ، أو التى اعتبرناها عصــــر انتقـــال فى تاريخ الامبراطورية ، لتضع لها عنوانا هو The Byzantine Empire takes Shape وهـــذا يعنى أنهـا أخذت تتشكل خـلال هــــذه القرون الثلاثة ، وتشير الى عاملين رئيسيين وراء الاختلاف بين عالمى القـرن الأول والقـرن الرابع ، يكمنان فيما جلبته المسيحية على روما الجديدة ، بحكم موقعها ، من خلافات عقيـدية ، والأخطار الخارجيـة التى تعرضت لهـا الامبراطورية من جانب الفرس والجرمان ٠ وكيف أودى الأخيرون بالشطر الغربى وأن اطلاق تعبير « عصـــر رومانى متأخر أو بيزنطى متقدم » ، يعد أمرا لاغرابة فيــه ، اذا أدركنا مـــدى ارتباط الامبراطورية الثقافى بالعالم الهللنستى ، وأن اتخاذ جانب المسيحية لايعنى نبـذ الحضارة الوثنية ، فيما يتعلق بنظـام الحـكم وسلطان الامبراطور الفـرد ، وازدياد السلطـــة المركزية ، ونمـو الادارة المدنيـــة ٠

---

(٤٤) انظر Baynes & Moss, Byzantium, XV - XXXI ولنورمان بينز الامبراطورية البيزنطية ٠ ص ، ك٠ ل٠ وكذلك Vasiliev, op. cit., 1. pp. 43, Ostrogorsky, history of the Byzantine State, p. 78
وراجع Jones, The Later Roman Empire 3 vols. وهو يتناول فيه مرحلة الانتقال هذه ويؤرخ العصر الرومانى المتأخر ما بين ٢٨٤ ــ ٧٠٢ ٠
ويؤكد هذا المعنى أيضا فى كتابه The decline of the Ancient World
وقارن Thompson & Johnson, op. cit., pp. 117 - 152
وايضا Stephenson op. cit., pp. 99 - 108, 178
وكذلك Boak op. cit., p. 521, Strayer & Munro op. cit., p. 138

والكتاب الذى بين أيدينا يقع ـ فى أصله الانجليزى ـ فى مائة واحدى وستين صفحة من القطع المتوسط ، وينقسم الى قسمين متكافئين تماما من حيث عدد الصفحات • خصت المؤلفة القسم الأول منهما بعرض سريع لتاريخ الامبراطورية السياسى منذ قسطنطين حتى دخول الأتراك العثمانين القسطنطينية فى منتصف القرن الخامس عشر • وهى لاتعالج التاريخ السياسى من حيث أحداثه ووقائعه ، ولكنها تعرض لأهم الملامح السياسية البارزة على امتداد التاريخ البيزنطى ، الذى تقسمه الى أربع فترات • تتحدث فى الأولى منها عن فترة تشكيل الامبراطورية خلال عصر الانتقال ، وتقارن بين شطرى الامبراطورية حيث يتميز النصف الشرقى بكثافته السكانية ووفرة موارده ونجاته من الخطر الجرمانى ، ومن ثم اصبح يمثل مركز الثقل فى الامبراطورية منذ القرن الثالث للميلاد • بينما نجح الجرمان فى اقامة ممالك متعددة لهم فى الغرب • ولكن مكمن الخطورة فى الشطر الشرقى تمثل فى تلك النزعات الانفصالية التى جنحت اليها بعض الولايات ، لا من الناحية السياسية ،ولكن ظهر ذلك واضحا فى الأدب واللغة . وازداد بعدا يتباعد هذه الولايات ، خاصة مصر ، عن القسطنطينية فى المسألة العقيدية ، ومحاولة الاباطرة فرض الأرثوذكسية الحكومية ، أو المذهب الذى يرتضيه الامبراطور ، قسرا على أهالى تلك الولايات • بالاضافة الى ما ذهب اليه الأباطرة أيضا من تفضيل كنيسة على أخرى ، بناء على قرارات المجامع المسكونية ، مما أثار الحقد بين هذه الكنائس الرسولية ، وأصاب المسيحيين بخيبة أمل بالغة ـ نتيجة مما تحقق لديهم من أن اعتمادهم على الدولة لم يحقق للكنيسة الوحدة أو السلام •

وتدافع المؤلفة عن جوستنيان ضد ما يتهمه به المؤرخون ، من أنه جلب الكوارث على الدولة نتيجة سياسته الخارجية ، ولكن جوستنيان كان يصدر فى سياسته هذه ، لاستعادة الاراضى التى سيطر عليها الجرمان ، عن النظرية السياسية الرومانية ، التى تقوم على أساس العالمية ، ووجود امبراطورية واحدة لاتقبل التجزئة • ومن ثم فقد كان جوستنيان بحق آخر الأباطرة الرومان . بحيث تحدد أعماله الزاهرة نهاية هذه الفترة الرومانية المتأخرة أو البيزنطية المتقدمة • ولهذا لم يكن غريبا أن يفسح له شاعر عصر النهضة الشهير دانتى اليجيرى مكانا فى « الفردوس » •

ولاشك أن خلفاء جوستنيان كانوا على قدر كبير من الواقعية ، عندما ابدوا مقـدرتهم على التكيف مع الأوضاع الجـديدة التى تعرضت لهـا الامبراطورية بعد وفاة جوستنيان ، وحتى بواكير القرن السابع ، وأدت الى تقلص مساحة الامبراطورية فى الشـرق والغرب على السـواء · ومن بين هؤلاء جميعا يبرز الامبراطور موريس الذى جعـل الامبراطورية تستنشق ، ولو من بعيد ، عبير جوستنيان ، وأقام ــ للحفـاظ على ماتبقى من أمـلاك الامبراطورية ــ أرخونيتى رافنا وقرطاجة ، حيث عهـد بادارة كل من هاتين المنطقتين الى حاكم عسكرى هو الأرخـون أو الأكزارك ، ومنحـه سلطات مطلقة ، لمجابهة الامور المتردية فى ايطاليا وأفريقيا ، ولاعادة الهيبة الى الادارة الامبراطورية فيهما ·

وتجعل المؤلفة كلا من هرقل وباسل الثانى أعظم الأباطرة البيزنطيين ، على الرغم من التفاوت فى الظروف التى واجهتهما · فبينما اعتلى هرقل عرش الامبراطورية ، والأنواء تكاد تعصف بها من الشرق ممثلة فى الزحف الفارسى السائر قـدما ، ومن الغرب الآفار · وفى الداخـل ذكرى مذابح فوقاس وعهده المقيت · تسلم باسل الثانى أزمه الأمـور وسـط فيض من الانتصارات الخارجية التى حققها أسلافه ، والانتعاش الاقتصادى والرواج المالى فى الداخل · ومع ذلك فقد أدت الأسرة الهرقليـة دورها بارزا فى تشكيل الامبراطورية الرومانية فى العصور الوسطى ·

أما الفترة الثانية فتتحدث عن هذه النقطة ، وهى تاريخ الامبراطورية الرومانية فى العصور الوسطى ، منذ اعتلاء الايزوريين العرش الامبراطورى، حتى نهاية العصر الذهبى للامبراطورية بانتهاء آخـر أفراد البيت المقدونى سنة ١٠٥٦ ·

وقد شهدت بداية هذه الفترة القسطنطينية وهى قاب قوسين أو أدنى من السقوط فى أيدى المسلمين ، ولكن جهود الامبراطور ليـو الثالث حالت دون ذلك ، ومن ثم فقد كان من أعظم منجزات الأسـرة الايزورية فى عهد أول أباطرتهـا ، انقـاذ العاصمة وبالتالى الامبراطورية من السـقوط ، ولا تقتصر أهميـة ما فعله الأيزوريون على ذلك فحسب ، بل ان نجاحهم فى صـد المسلمين عن القسطنطينية ، يفـوق بكثير ما فعله شـارل مارتل فى

الغرب سنة ٧٢٤ من وقف الزحف الاسلامى من التوغل فى أوروبا ؛ ذلك أن منطقة البلقان كانت تموج آنذاك بالشعوب الصقلبية التى كانت ماتزال على الوثنية ،وكان من اليسير تحويلهم الى الاسلام ، اذا ما قدر للمسلمين فتح القسطنطينية فى أوائل القرن الثامن ٠

ولم يكن دور الأيزوريين قاصرا على مواجهة المسلمين فى الشرق ، ومحاربة البلغار فى الغرب ، بل انهم أكملوا ذلك الجهد الضخم الذى بدأه أباطرة القسطنطينية منذ القرن الخامس على عهد ثيودسيوس الثانى ، ثم القرن السادس زمن جوستنيان ، فيما يتعلق بالناحية القانونية ، فأصدر ليو الثالث ،وقد أشرك معه ابنه قسطنطين الخامس ، الا كلوجا التى ظهرت مصطبغة بالمبادىء المسيحية ٠ ورغم أن المقدونيين من بعدهم هجروها ، وأعادوا قوانين جوستنيان ، الا أن ذلك لا يقلل من قيمتها شيئا ، ولايبخس الايزوريين أعمالهم ٠

على أن الايزوريين قد ذهبوا فى التاريخ بشهرة واسعة نتيجة موقفهم من تقديس الصورة أو الايقونة Icon ، فقد أعلن ليو الثالث ومن بعده ابنه قسطنطين الخامس الحرب السافرة على تقديس الايقونات الى حد الخلط بين ما يجب تقديمه لله من وجوه العبادة ، وما يقدم لهذه الايقونات ٠ وعقد قسطنطين الخامس مجمع هيريا سنة ٧٥٤ ليضفى على موقفه رضاء كنسيا ، ووقفت كنائس الغرب فى بلاد اليونان وروما موقفا عدائيا من القسطنطينية ، واقدم ليو الثالث على فصل منطقتى كالابريا وصقلية عن السيادة البابوية واخضعهما لسلطان أسقف القسطنطينية مباشرة ٠ وكان الرهبان هم أكثر الفئات احساسا بخطورة هذه السياسة التى يتبعها الايزوريون ، لأن الأديرة كانت تمتلىء بالكثير من هذه الايقونات الرائعة ، وزاد الامر سوءا استيلاء الحكومة على عدد من هذه الاديرة وتحويلها الى مرافق عامة ٠ ومن ثم فقد تزعم الرهبان حركة مضادة لسياسة الايزوريين ، وكان على رأس هؤلاء يوحنا الدمشقى وثيودور رئيس دير ستوديون ، وأذاع أولهما آراءه التى كانت تنادى بالفصل بين السلطتين الزمنية والروحية ٠ وقال : « نحن نطيع الامبراطور فيما يتعلق بحياتنا اليومية ، أى فى الولاء والضرائب وما يحق له [illegible]

الكنيسة فلنا القسيسون والمبشرون بالكتاب المقـدس ، وشارحو القوانين الكنسية . فالتنظيم السـياسى من اختصـــاص الامبراطور ، أما التنظيم الكنسى فهو من اختصاص القسيسين ، وليس تجريدهم منــه الا من قبيل اللصوصية » .

وكان اقــدام الأســرة الايزورية على ذلك نابعا من اعتقادهم بوجوب تطهير المسيحية مما شابها عبر هــذه القرون الطويلة ، ولاشك أن الأباطرة اللايقونيين قد تأثروا الى حــد كبير بالمفاهيم الاسلامية ؛ والآراء التطهرية التى ظهرت فى آسيا الصغرى خاصة فى القرن الرابع ، ولايخفى علينا أن هؤلاء الأباطرة قد قدموا من تلك المنطقــة . واذا كانت الامبراطورة ايرين قد قضت على الجهود التى بذلهــا ليو الثالث وقسطنطين الخامس ، طيلة نصف قرن (٧٢٦ ــ ٧٧٥) ، وذلك بما تم عليه الاتفاق فى المجمع المسكونى السابع الذى عقــد فى نيقيــة سنة ٧٨٧ ، الا أن أباطرة الاســرة العمورية وخاصـــة ثيوفيلوس Theophilus (٨٢٩ ــ ٨٤٢) قـــد عــادوا الى معاداة الايقونية مرة ثانيــة ، بل ان سياستهم كانت أشــد عنفا وضــراوة مما اتبعه الايزوريون ، وربما يعود ذلك الى أن أنصـــار الايقونات كانوا قد جمعوا كلمتهم ووحدوا جهودهم وتصــدو للأباطرة أشــد من ذى قبل . حتى استطاعت الايقونات فى النهاية أن تعــود سيرتها الاولى بعــد وفاة تيوفيلوس . ولا شك أن حرب الايقونات الاولى والثانيـــة قد تركت آثارها الواضحة على مختلف نواحى الحياة فى الامبراطورية ، سياسيا وعسكريا واقتصاديا ، وبرز ذلك بصفة خاصة فى الناحية الفنية(٤٥) .

---

(٤٥) « أدت الحروب ضــد الايقونات الى اتجــاه جديد فى ممارسة الفن . بحيث أصبح مفرطا فى الشكلية ومتكررا . فقــد أدت الاتجــاهات الزخرفية البحتة التى أصبح المصورون يقتصرون عليها الآن الى العــودة الى الأسلوب الزخرفى الهلنستى . واستطاعت هــذه الاتجاهات بعــد ان اصبحت متحررة من الأهداف الكنسية . ان تتيح معالجـــة الموضــوعات الطبيعية بطريقة أقوى مما كان مسموحا به من قبل . وعندما تطورت هذه الموضوعات بعد ذلك الى مناظر للصيد والبساتين . أصبحت الهيئة البشرية بدورها تصور أقل جمودا . وبمزيد من الحرية . وعلى نحو أقل تسطيحا وأقل التجاء الى أسلوب « المواجهة » . وعلى ذلك فان العصر الذهبى الثانى

وبانتقال العرش الى الاسرة المقدونية ، عاشت الامبراطورية البيزنطية عصرها الذهبى ؛ فقد حظيت بنوع من الاباطرة الادباء والفلاسفة ، وبعدد من القادة العسكريين ، ومنهم من اعتلى عرش الامبراطورية ، رد عليها اعتبارها . ورغم ما كان يبدو لاول وهلة ، من أنها تعانى من الاباطرة الاحداث ، الا أن نظام الاباطرة المشاركين قد خلص الامبراطورية من العواقب الوخيمة التى كان الممكن وقوعها .

امتدت حدود الامبراطورية البيزنطية فى القرن العاشر كثيرا باتجاه الشرق فقد توغلت القوات الامبراطورية الى الدجلة والفرات ، واصطدمت بالحمدانيين فى بلاد الشام ، مستغلة فى ذلك فرصة انقسام العالم الاسلامى بين خلافتى بغداد العباسية ، والقاهرة الفاطمية ، وتصارع كل منهما على السيادة على بلاد الشام . وربما تكون الحروب التى شنتها بيزنطة على العالم الاسلامى قد صحبها نوع من الحماسة الدينية ، حتى أننا لنجد الامبراطور نقفور فوقاس يعلن ، أن كل من يقتل فى الحرب المقدسة سوف يحشر فى زمرة الشهداء . وعلى الرغم من أن الجيوش البيزنطية وصلت الى فلسطين ، الا أنه لم يتحقق لها أبدا الاستيلاء على بيت المقدس ، حتى أنه ليحلو لبعض الدارسين ، أن يعتبروا هذه الحملات ارهاصات بالحروب الصليبية . ولكن الطريف أنه لم يدر بخلد البيزنطيين أنه بعد قرابة قرن من الزمان ، سوف تقوم أوروبا اللاتينية ، بما كان هدفا لنقفور وتزيمسكس من الاستيلاء على بيت المقدس .

وفى الناحية الغربية ، كان الصراع قائما بين الامبراطورية والعناصر الصقلبية خاصة المملكة البلغارية ، وهى حروب طويلة تعود الى زمن بعيد . وقد أخذ أباطرة الأسرة المقدونية على عاتقهم مهمة مواصلة هذه الحرب ،

=

للفن البيزنطى فى القرنين التاسع والعاشر ، وهو الذى واصل السير فى اتجاه نزعة محاكاة الطبيعة السائد فى هذه الفترة الدنيوية ، وطبق على التصوير الكنسى ، هذا العصر يمكن أن يعد بحق نتيجة لحركة تحطيم الصور . أنظر أرنولد هلوزر . الفن والمجتمع عبر التاريخ ص ١٦٥ ــ ١٦٦ .

الى أن تمكن باسل الثانى من اخضـاع مملكة البلغار لسلطانه ، وأصبحت جـزءا من الامبراطورية طيلة ما يقـرب من مائة وخمسين عاما . ونتيجـة للقسوة التى استخدمها باسـل فى حربه ضـد البلغار ، ذاعت شهرته فى التـاريخ باسم سـفاح البلغار Bulgaroctonus وكان النشـاط التبشيرى البيزنطى يسير فى ركاب الحملات العسكرية ، ووصلت جهـود المبشرين البيزنطيين الى الصـرب والكرواتيين وامارة كييف الروسية . وان كانت هذه المناطق قد أصبحت ميدانا للصراع الكنسى بين روما والقسطنطينية ، وهى نغمة عرف ملوك البلغار بالذات كيف يفيدون منهـا فى الحصول على استقلال الكنيسة البلغارية ، بل وعلى بعض التنازلات فى أمـر العقيـدة من أجـل الحصول على ولائهم للكنيسـة الأرثوذكسية فى القسطنطينية أو الكاثوليكية فى روما .

وفى هذا العصر الزاهر ، تم احياء الامبراطورية فى الغرب من جديد على يد أوتو الأول سنة ٩٦٢ ، ولكن أباطرة القسطنطينية لم يتغاضوا مطلقا عن اعتبار امبراطوريتهم هى الامبراطورية الرومانية الحقيقية . ولكن هذا لم يمنع من حدوث بعض التقـارب بين الامبراطوريتين عنـدما اقدم أوتو الثانى على الزواج من الأميرة البيزنطية ثيوفانو Theophano ، وانجبت هذه الزيجة أوتو الثالث الذى امتلأ عقله وقلبه بحب الامبراطورية الرومانية ، وعمل على اعادة المجـد الضـائع لروما القديمة . ولـكن قـدره لم يمهله لاتمام ذلك .

ولا شك أن هذا النجـاح الذى تحقق للامبراطورية فى الخارج ، يعود الى استقرار الأحوال الداخليـة ، وتدعيم السلطة الامبراطورية القـوية ، وتنشيط الجهـاز الادارى الضخم ، بالاضافة الى المجموعات القانونية التى أصدرها الامبراطور باسل الأول ، مؤسس الأسرة المقدونية ، والامبراطور ليو السادس الحكيم . وكذلك نجاح الأباطرة فى الحد ـ ولو قليـلا ـ من نفوذ العائلات الكبيرة ، وكبـار ملاك الأراضى ، الذين ازداد سلطانهم كثيرا فى القرن الحادى عشر الميلادى . بل ان نقفور فوقاس نفسـه ، كان ابنـا لواحدة من تلك الأسر الكبيرة .

وكان انكسار حـدة الجدل العقيـدى ، اذا ما قورن بالقرنين الرابع

والخامس عاملا هاما فى استقرار الأمور فى الكنيسة وازدهارها وازدياد نفوذها ، ويعبر عن ذلك بوضوح ما قاله يوحنا تزيمسكس « لا يسعنى الا أن أعترف أن فى العالم قوتين ٠٠ الكنيسة والامبراطورية » ٠ ولكن يبدو أن صفحة من صفحات الصراع بين الكنيستين الشرقية والغربية ، كانت قد بقيت مفتوحة لم تطو بعد ، ذلك أن العداء بين روما والقسطنطينية كان يزداد بمرور الأيام شدة ، وساعدت الاحداث فى الشرق والغرب على السواء ، على تصعيد هذا الخلاف ، حتى اذا كان عام ١٠٥٤ وقع الانفصال التام بين الكنيستين فيما عرف فى تاريخهما بالانشقاق الأعظم ٠ وكانت هذه الحادثة هى آخر ما شهدته الأسرة المقدونية قبل نهايتها بعامين ٠

وتعطى المؤلفة اهتماما خاصا للفترة التى اعقبت وفاة باسل الثانى المقدونى سنة ١٠٢٥ وحتى اعتلاء الكسيوس كومننوس العرش عام ١٠٨١ ، أى حوالى نصف قرن تقريبا ٠ على اعتبار أنها شهدت تغييرات جوهرية فى الدولة من النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية ٠ وكان السبب الرئيسى فى حدوث هذه التغيرات ، الضعف الذى كان عليه الأباطرة الذين خلفوا باسل الثانى ، وخاصة ابان ذلك الحكم الثانى العجيب الذى شهدته الامبراطورية بين الأختين زوى Zoe وثيودورا ٠

ومع هذا الضعف الذى كان عليه الأباطرة ، فقد جمعوا الى جوار ذلك أيضا التبذير والاسراف الذى وصل الى حد السفه ، حتى أن المؤرخ المعاصر القريب من البلاط ، ميخائيل بسللوس Michael Psellus يذكر أن ذلك الطيش المهلك كان نقطة التحول فى قدر الدولة ٠ وقد لجأ الأباطرة الى أسلوب غاية فى الخطورة لمعالجة هذه الأوضاع الاقتصادية المتردية ، فأقدموا على تخفيض قيمة العملة بصفة مستمرة ، وكان هذا الاجراء يعنى فى حد ذاته تخريب الاقتصاد البيزنطى ٠

وقد أصبحت الدولة عاجزة عن حماية صغار المزارعين من جور الملكيات الكبيرة أو هجمات المغيرين ، مما أدى بالتالى الى أن يتحول الفلاح الحر الى مجرد مستأجر ، وكان التشجيع الامبراطورى المستمر لصغار الملاك منذ القرن السابع وما تلاه ،من أهم العوامل فى تجديد شباب الدولة ، ولهذا فان فقدان هذا العنصر او اختفاءه كان له أثره على الناحيتين المالية

والدفاعيـة ، كما أنه أدى الى احـــداث تغييرات فى التركيب الاجتماعى للامبراطورية • ذلك أنه بهذا الضعف الذى انتاب السلطة المركزية ، أخـذت الأسـر الثرية وكبـار ملاك الأراضى فى فرض وصايتهم على صغار الملاك والفلاحين الأحرار ، مما أدى الى ازدياد نفـــوذ هـذه العائلات ، وبصفة خاصـة فى آسيا الصغرى ، ودار الصــراع على السلطة واضحـــا بين العسكريين والمـدنيين ، وكان اعتـــلاء الكسيوس كومننوس العرش يعنى انتصار الطبقة العسكرية •

وزاد الأمر سوءا ابان هـذه الفترة أيضا ، الاخطـار الخارجية التى تعرضت لها الامبراطورية ، وتمثلت فى قبـائل البشناق والـــكومان على الدانوب • وكان تحطيم المملكة البلغـــارية وتحويلهـــا الى ولاية تابعـة للامبراطورية سنة ١٠١٨ • متنفسا لهذه القبـائل التى لم تعد تجـــد من يتصدى لها ، فى وقت ضعفت فيه القـوة العسكرية البيزنطية ، وانخفضت موارد الخزانة من جـراء السياسة غير الحكيمة التى اتبعها خلفـاء باسل الثانى • ومن ناحية أخرى فقـد أبدت بلغاريا هى الأخرى تبرمها من هذا الاذلال الذى تعرضت له ، وأصبحت تتحين الفرصة المناسبـة ، بالاشتراك مع الامارات الصقلبية الأخرى ، لمواجهة الامبراطورية ، وبينما هـذا يجرى فى الغرب والداخل ، كانت الجبهـة الشرقية تشير الى وقوع صـدام عنيف بين البيزنطيين ، وبين عنصـــر اسلامى جديد أخـــذ يظهر فى الساحة منذ دخوله بغداد فى أواخـر النصف الأول من القـرن الحادى عشـر ، نعنى الأتراك السلاجقـة ، وسرعان ما دارت رحى معـركة حاسمة بين الطرفين فى مانزكرت (ملاذكرد) عام ١٠٧١ ، حيث لقيت الامبراطورية هزيمة مروعة ، أسر فيها الامبراطور رومانوس الرابع ديوجينس • وكانت خطورة هـــذه الموقعة تتمثل فى اجتياح السلاجقة لآسيا الصغرى ، فخسرت بيزنطة بذلك نبع الجند ، أو المورد الأساسى الذى كانت تعتمد عليه فى تجييش جيوشها • وقد تكالبت المصائب على الامبراطورية فى آن واحد ، ففى نفس العام فقدت الامبراطورية آخر موطىء قدم لها فى اطاليا ، عنـــدما استولى النورمان على مدينة بارى • وكان التعليق الذى ذكره بسللوس حول هـــذه الأحداث قوله : « ان الأمور قد وصلت الى الدرك الأسفل من الانحطاط » •

غير أنه فى عام ١٠٨١ اخـذت الامبراطورية تفيق من كبوتهـا ، حيث عمـل الامبراطور الكسيوس كومننوس على عـلاج الأوضاع الاقتصـادية المنهارة فى الداخل ، واعادة الهيبـة الى الامبراطورية فى أعين جيرانها ، حتى أن جهـوده كانت السبب فى تأخير سقوط الامبراطورية الى اكثر من قرن من الزمان . ولعلنا ندرك هذه الناحيـة للوهلة الأولى . ففترة نصف القرن السابقـة شـهدت على عرش الامبراطورية أحـــد عشـر امبراطورا وامبراطورتين ، أما الكسيوس فقـــد ظل يشغل العرش الامبراطورى طيلة سبع وثلاثين سنة .

وكانت الناحية العسكرية أهم ما يشغل بال الكسيوس ، خاصة وقـد راح النورمان يعدون مشروعاتهم لغزو القسطنطينية . ولم يجد الامبراطور أمامه الا الوسائل الدبلوماسية لمسألة السلاجقـة ليتفرغ للنورمان . وقـد ساعدته الأقـدار بموت روبرت جويسكارد الزعيم النورمانى ، وهزيمـــة البشناق ، وانقسام الاتراك السلاجقـة على أنفسهم ، فتمكنت الامبراطورية بذلك من التقاط أنفاسهـا . واتجـه الامبراطور الى البندقية لمساعـدته فى تحسين الأسطول البيزنطى ، فى مقـابل منحهـا امتيازات تجـارية ضخمة فى القسطنطينية . وان كانت هـــذه السياسة قـد تركت آثارها الواضحـة فيما بعد على العلاقات بين البيزنطيين واللاتين ، بحيث أخذت حـدة العداء تنمو تجاه المدن التجارية الايطالية والتجار المقيمين فى القسطنطينية ، الى حد تعرضهم للمذابح من جانب البيزنطيين الذين اعتبروهم دخلاء متطفلين شاركوهم أرزاقهم .

وتتناول المؤلفة أهم أحداث هذه الفترة المتمثلة فى الحركة الصليبية ، وتلقى الضوء على ذلك التفاوت الكبير فى المستوى الحضارى بين الغرب اللاتينى الذى قـدم منـه الصليبيون ، والامبراطورية البيزنطية ، وعلاقات التوجس والريبة التى كانت قائمة بين القسطنطينية وأمراء الحملات الصليبية الذين كانت لهم أطماعهم الشخصية فى الشـــرق ، بل وفى الامبراطورية نفســها ، ومن أشهرهم بوهمند النورماندى . الذى غـادر امارة انطاكيـة الصليبية الى ايطاليا . ليقوم بهجوم فاشل على بلاد اليونان سنة ١١٠٧ .

وعلى عهـــدى يوحنـــا ومانويل . تمثـــل الخطـر الغـــربى على

الامبراطورية البيزنطية فى الامبراطورية الغربيـــة زمن فردريك بربارosa وهنرى السادس ، حتى أن الامبراطور الألمـانى فردريك أعان سلطان قونية السلجوقى ليوقع الهزيمة بمانويل سنـة ١١٧٦ ، بالاضـافة الى مشروعات هنرى السـادس للاستيلاء على القسطنطينية ، وان كان لم يقـدر لهـا أن توضع فى حيـز التنفيذ • ورغم العـداء الذى كان قائمـا بين البيزنطيين واللاتين ، الا أن مانويل حرص على أن تظل علاقته بهم وطيـدة ، يدفعه الى ذلك المصلحة الامبراطورية التى فرضت عليه نوعا من التعايش السلمى مع الغرب ، بدليل حرصه على ابقاء الصـداقة مع كونراد الثالث ملك المانيا ، بعد فشل الحملة الصليبية الثانية •

ولقـد كان مانويل رجـل دولة وحاكما بارعا ، جنديا ، ودبلوماسيا ، يؤمن بالسيادة العالمية للامبراطورية وأصالة العرف الامبراطورى ، راودته أحـلام استعادة ايطاليا • غير أن مشروعاته لم يكتب لهـا النجـاح بسبب الظروف السياسية المعاصرة ، وان كانت الدبلوماسية قد لعبت دورا ما فى عهده بكفاءة •

وقد حرصت أسرة كومنين على أن تكون صاحبة السيادة فى علاقتها مع الامارات الصليبية ، فقد نجح يوحنا فى تأكيد سيادته على انطاكية سنة ١١٣٧ ،التى لم تلبث أن سقطت فى عام ١١٤٤ ، فلما كان عهـــد مانويل مد نفوذ دولته الى بيت المقدس • ولكن على الرغم من كل ذلك ، فقد اثبتت الأحداث أن الزمن قد عفا على هــذه الامبراطورية ، ذلك انها لم تستطع أن تصمد أمام التحديات التى واجهتها بعد وفاة مانويل • فازدادت قـوة كبار الملاك ، وقامت الثورة فى بلغاريا ، وتم اختيار ملك جديد لها ، وتضاعفت غزوات النورمان لبلاد اليونان ، فى نفس الوقت الذى جاءت فيــه الحملة الصليبية الثالثة التى اشترك فيهـــا اقوى ملوك اوربا • فردريك بربارosa الألمـانى ، وفيليب اوغسطس ملك فرنسا ، وريتشارد ملك انجلتـرا • وقد انتهت هذه الحملة بالفشل ، وكان فشلها نذير سوء للامبراطورية البيزنطية ، اذا أخذت الآراء تدور حول مسئولية القسطنطينية بنصيب كبير فى فشـل الحمـلات الصليبية ، ومن ثم أخذت الآراء تتجـه الى مهاجمة القسطنطينية نفسها ، وسرعان ما تولت الحملة الصليبية الرابعة تنفيذ هذه المهمة •

والآن تصل بنا المؤلفة الى الفترة الرابعة والأخيرة فى التأريخ السياسى للامبراطورية البيزنطية • وهى الفترة التى تمتد الى قرنين ونصف (١٢٠٤ ـ ١٤٥٣) • وشهدت سقوط القسطنطينية لأول مرة فى تاريخها ، ثم للمرة الأخيرة أيضا •

ونحن نرى منذ بداية الحركة الصليبية تلك الأطماع الخاصة الكامنة فى نفوس الأمراء ، والتى ظهرت لأول وهلة عند عبورهم البسفور ، ولم تكن فكرة الاستيلاء على القسطنطينية جديدة على الفكر اللاتينى أو مستحدثة ، فهذا شىء لا يثير الغرابة ، ولكن الذى يدعو الى الدهشة ، هو تأخر وقوع ذلك الى بداية القرن الثالث عشر • وقد لعبت البندقية فى ذلك دوراً بارزاً ، مستغلة ما كانت تعانيه أسرة انجيلوس من الضعف • وعلى ذلك فقد تم تحويل وجهة الحملة الصليبية الرابعة من مصر الى القسطنطينية • وفى سنة ١٢٠٤ استولى الصليبيون على العاصمة البيزنطية واقاموا امبراطورية لاتينية استمرت نصف قرن وينيف (١٢٠٤ ـ ١٢٦١) •

وقد انتقل النظام الاقطاعى بنظمه المعروفة فى أوروبا الى بلاد اليونان ، فى هذه الامارات اللاتينية التى قامت على انقاض الامبراطورية ، وبقى الأمراء على تبعيتهم الفصلية لملوك أوروبا • وان كانت حركة التجارة قد شهدت رواجا واسعا بفضل جهود البندقية وهؤلاء الأمراء ، وبسبب سيطرتهم على كثير من الجزر والموانىء الاستراتيجية الهامة •

أما الامبراطورية البيزنطية فانها ، بالرغم من سقوط القسطنطينية ، فقد ظلت قائمة ، وان كانت منقسمة على نفسها ، متناحرة فيما بينها • مملكة ابيروس فى الشمال الغربى لبلاد يونان ، ومملكة نيقية فى الشمال الغربى لآسيا الصغرى ، ومملكة طرابيزون جنوب شرقى البحر الأسود ، وهذا الانقسام فى حد ذاته دليل على النزعات الأسرية الانفصالية التى كانت كامنة فى الامبراطورية • على أن مملكة نيقية كانت اقوى هذه الاقسام جميعا ، وعمل حكامها من اسرة لاسكاريس على تنمية مواردها الداخلية ، بحيث استطاعت فى النهاية تحت قيادة ميخائيل باليولوغوس(٤٦)

---

(٤٦) للمزيد من التفاصيل عن ميخائيل باليولوغوس ، وكيفية

Michael VIII Palaeologus من توسيع دائرة سلطانها ، واسترداد القسطنطينية سنة ١٢٦١ ، وقدر لأسرته أن تظل فى حكم الامبراطورية بعد استردادها قرنين تاليين ٠

غير أن قيام سلطة مركزية قوية مرة ثانية ، لم يعد ممكنا ، واضطر آل باليولوغوس أن يلجأوا الى نظام الهبات الاقطاعية ، والاعتماد على الولايات الثغرية (الثيمات) فى الناحية الدفاعية ، والمرتزقة فى تكوين الجيش ٠ أما الأسطول البيزنطى فقد توارى الى الظل ، وأخذت حال الفلاحين فى الانحطاط ، وضعفت الموارد المالية للخزانة ، وكانت هذه الأخيرة فى أهم المشاكل التى واجهت الامبراطورية بعد عام ١٢٦١ ٠

ولكن على الرغم من كل ذلك فقد استطاع ميخائيل الثامن أن يحقق لبيزنطة مكانة دولية طيبة ٠ اذ نجح فى احباط المحاولة التى قام بها شارل دوق انجو ، والذى أصبح ملكا لصقلية بعد سقوط أسرة الهوهنشاوفن ، لتكوين حلف ضد الامبراطورية ٠ وحاول التقرب الى الكنيسة الكاثوليكية فى روما ، وأن كان هذا الاتجاه قد لقى معارضة شديدة فى الداخل ، ولكن هذا الوضع الذى حققته بيزنطة لم يستمر طويلا بعد وفاة ميخائيل الثامن ، فقد شهد العرش الامبراطورى صراعا أسريا ، وشهدت الامبراطورية حربا أهلية ، فى الوقت الذى ازدادت فيه قوة الصرب فى الغرب ، الى حد أن ملك صربيا راح يدعو نفسه « سيد كل الامبراطورية الرومانية تقريبا » ، والأتراك العثمانيين فى آسيا الصغرى ، الذين أخذوا يتدخلون فى الحرب الأهلية البيزنطية ، ويوسعون دائرة نفوذهم فى الغرب على حساب صربيا وبيزنطة على السواء ، ونقلوا مركزهم الى أدريانوبل فى تراقيا ابتداء من عام ١٣٦٥ ٠

وأمام هذه الأخطار لم يجد يوحنا الخامس بدا من الارتماء فى أحضان روما واعتناق الكاثوليكية ، لعل ذلك يشفع له فى طلب العون من الغرب ،

=

استرداده للقسطنطينية ، وعلاقة بيزنطة بمصر زمن المماليك ، وكذلك باللاتين فى بلاد اليونان ، وما دار فى مجمع ليون الثانى سنة ١٢٧٤ ، راجع : دكتور اسحق عبيد : الدولة البيزنطية فى عصر باليولوغوس ٠

ولكنه لم ينـل سوى وعودا جوفاء ، بينما اشتد تيار المعارضة ضد اتجاهه الكاثوليكى فى الداخل من جانب الكنيسة والجموع • وقـد اخـذت حدود الامبراطورية تتضاءل حتى أن مانويل الثانى كان يحكم بين عامى ١٣٩١ ــ ١٤٢٥ ، امبراطورية تتكون من القسطنطينية وحـدها !! حتى أن السلطان العثمانى خاطبه بقوله : « اغلق عليك أبواب المدينة واحـكم داخلها ، فكل ما وراء الأســوار ملك لى » • وان كانت الخطــوة الاخيـرة للقفز على القسطنطينية قد تأخرت قليلا ، بسبب الصــراع التركى المغولى بين بايزيد العثمانى وتيمورلنك •

وقد اتبع مانويل نفس سياسة سلفه فى التجول فى الغرب طلبا للعون ، وأعلن فى سنة ١٤٣٩ وحدة الكنيستين ، ولكن هذا لم يجلب عليه الا المزيد من الاستياء من جانب البيزنطيين والشعوب الصقلبية الأرثوذكسية • وظل أهالى القسطنطينية يرفضون حتى النهاية أى تآلف مع روما ، وشاعت هذه القالة أنهم يفضلون أن يروا عمائم المسلمين وسط العاصمة على أن يشهدوا قلنســوات اللاتين • وفى ٢٩ مــايو ١٤٥٣ سقطت القسطنطينية وسقطت معهـا الامبراطورية فى يد الاتراك العثمانيين ، وكان لهــذه الحادثة رنة فرح واسى عند الشرق الاسلامى والغرب المسيحى • وقبــل نهـــاية القرن الخـامس عشـر كان العثمانيون قـــد فرضـوا سيادتهم تقريبـا على كل الامبراطورية البيزنطية القديمة •

أما النصف الثانى من الكتاب ، فقد تحدثت فيــه ج • م هسى عن النواحى الثقافية والحضـارية للامبراطورية البيزنطية • وخصت الحيـاة الكنسية والرهبانية بالنصيب الأكبر ، ثم تناولت بعـد ذلك الحياة اليومية ، والتعليم والأدب ، والفن البيزنطى ، ثم عقـدت الفصـل الأخير من الكتاب للحديث عن العلاقة بين بيزنطة والعالم المجاور لهـا . وفضلها الذى لاينكر على ذلك العالم •

والحضـارة البيزنطية نجـد جـذورها فى تراث العـالم اليـونانى الرومانى ، فهى ليست منفصلة عن هذا التراث ، كما أنهـا لم تكن منعزلة عن الحضارات الشرقية القديمة وان كانت مؤثراتها قـد جاءتها عن طريق التراث الرومانى • يضاف الى هذا أن المسيحية قد صبغت هـذه الحضارة

بصيغة خاصة ، كان لها أثرها الواضح فى مختلف النواحى • ويظهر هذا باديء ذى بدء فى السلطة الامبراطورية • فالامبراطور كان يعتبر نائبا عن المسيح فى حكم الامبراطورية ، وهذه الناحية يبرزها كتاب « المراسم » الذى تركه الامبراطور قسطنطين السابع ، حيث يبين مـدى ارتبـاط الامبراطور بالمسيح • مما أعطى للامبراطور وضعا متميزا عن أى علمانى آخر • وبهذه الكيفية كان لابد أن يابشـر الامبراطور البيزنطى نوعا من السـيادة على الكنيسة ، حتى غدت الكنيسـة فى الشـرق جزءا من الدولة أو دائرة من دوائرها الحكومية • فالامبراطور له السيادة فى الناحيـة التنظيمية ، وهو الذى يدعو الى عقد المجامع الكنسية ، المكانيـة والمسكونيـة ، ويترأسـها ويدير دفـة الحوار فيها ، ويصدق على قراراتها • وتميل المؤلفة الى عـدم استخـدام مصطلح « القيصـرية البابوية » فى التعبير عن العـلاقة بين الامبراطور والبطريرك ، وتفضل اعتبارها نوعا من « المصلحة المشتركة » ، أو بتعبير آخر مثل الروح والجسد ، كما ورد ذلك فى كتـاب « المدخـل » Epanogoge فى القـانون الذى ظهر فى القـرن التاسع • ورغم هـذه السلطة المطلقة للامبراطور ، الا انه كانت هناك حدود معينـة لايجب عليـه تجاوزها ، والا تعرض شأن أحد رعاياه للحـرم الكنسى • ولاشك اننا نجد الاختلاف واسعا ، فيما يتصل بعلاقة الدولة بالكنيسة بين الشرق والغرب • فبينما كانت الصورة فى الشرق على هذا النحو الذى رأيناه ، كان الصراع يدور سافرا فى الغرب بين البابوية والامبراطورية حول السيادة ، متخذة من مشكلة التقليد العلمانى ستارا(٤٧) •

وقد جرت العادة منذ القرن الخامس بتتويج الامبراطور على يد أسقف القسطنطينية •وان كان هذا مجرد تقليد للدلالة على أن الامبراطور يباشر حكمه بنعمة من الله وفضل • بينما أخذت العهود والمواثيق على الامبراطور باتباع الأرثوذكسية وعدم الخروج عليها ، وجاء هذا رد فعل لما حدث على عهود أعداء الأيقونات(٤٨) • وقـد أدى ذلك بالتـالى الى ازدياد سلطان الأساقفة ، خاصة بعد أن تحقق النصر لأنصار الأيقونات •

---

(٤٧) راجع مقدمة الجزء الثانى من الدولة والكنيسة للمترجم •

(٤٨) ربما تعود مسألة المواثيق تى كانت تؤخذ على الأباطرة باتباع

وكانت السمة البـارزة فى السياسة الداخليـة للأباطرة البيزنطيين ، تتمثل فى اهتمامهم بالقانون ، ولم يكن هذا شيئا غريبا على الفكر الرومانى ، الذى برع فى زمن الامبراطورية القديمـة فى سن التشـريعات واصـــدار القوانين ، التى تمكنت بها الامبراطورية من أن تحقق السلام لرعاياها على اختلاف طبائعهم وتفاوتهم الحضـارى · وكان هـذا أيضـا ديدن أباطرة القسطنطينية ، نلمسه بوضوح فى تلك المقننات والكتب القانونية التى صدرت على عهود ثيودوسيوس الثانى وجوستنيان وليـو الثـالث وباسـل الأول وقسطنطين السابع وغيرهم من الأباطرة · وكان لابد أن يتبع هـذا أيضـا الاهتمام بالمحاكم وساحات القضاء ، الكنسية منها والمدنية ·

وباعتبار الامبراطور مسئولا عن السياسة وتوجيـه الادارة ، فقد كان يمثـل رأس الجهاز المركزى ، وهـو الذى يمنح الألقـاب التشريعية لـكبار الموظفين ، ولمن أدى للدولة خدمات معينة · ورغم التعقيد الذى كانت عليه الادارة البيزنطية الا انها تميزت بالكفاءة والمقدرة والمرونة ·

وقد تمتعت الدبلوماسية البيزنطية بقدر كبير من الذكاء ، خاصة وأن أعداء الدولة كانوا يحيطون بهـا من كل جانب وفى كل حين على امتـداد عمرها الطويل · ولهذا فان سـلاح الحرب وحـــده كان كفيـلا بأن يورد الامبراطورية مورد الهـلاك ومن ثم لعبت ادارة الخارجيـة البيزنطية دورا بارزا فى التعامل مع الدول والجماعات الأجنبية · ويفصح كتـاب الادارة الامبراطورية الذى وضع منتصف القرن العاشر ، عن أساليب الدبلوماسية البيزنطية الذكية ، كمنح الألقاب التشريفية على بعض الزعماء ، أو تحريض

=

العقيدة الأرثوذكسية الى زمن متقدم أعنى قرب نهاية القرن الخامس · فقد حدث عند اختيار انسطاسيوس الأول للعرش الامبراطورى (٤٩١ ــ ٥١٨) ، أن رفض البطريرك يوفيميوس Euphemius أن يباشـــر مراسم تتويج الامبراطور ، لما عرف عنه من ميل الى العقيـدة المونوفيزية ، ولم يقـــدم البطريرك على اتمام اجراءات التتويج الا بعد أن حصـل على وثيقة رسمية وقعهـا انسطاسيوس يتعهد فيهـا باتباع الأرثوذكسية الخلقيدونية · انظر Jones, Later Roman Empire. I.p. 232 ولجونز أيضا The decline of the Ancient world, p. 94 وانظر كذلك Vasiliev, op. cit., I, p. 109

جماعة على أخرى ، أو الزيجات السياسية وما الى ذلك ، وقد نجحت بيزنطة فى هذا الميدان نجاحا بعيدا ٠

ولا شك أن الامبراطور كان يتحمل المسئولية الكبرى فى تكوين الجيش وبناء الأسطول ، ولما كان الجيش يعتبر بحق عصب الامبراطورية البيزنطية بسبب الاخطار التى كانت تتهددها دائما ، كان الاباطرة يحرصون على أن تظل قواتهم على أعلى قدر من الكفاءة والمقدرة العسكرية ٠ وليس بخاف على أحد ذلك الدور الكبير الذى لعبه الجيش والاسطول فى حماية الاراضى والسواحل البيزنطية ، والدفاع عن الامبراطورية طوال هذه القرون ٠ وكان مما يشد أزر الجنود اعتقادهم انهم يحاربون من أجل نصرة قضية المسيحية واعلاء كلمة المسيح ، ومن ثم كان يغمرهم دائما تيار الحماسة الدينية ٠ بل ان الاباطرة أنفسهم ، أو على الاقل بعض منهم ، شاركوا جنودهم هذه العاطفة(٤٩) ٠

ولو حاولنا أن نلقى نظرة على التنظيمات الكنسية ، لوجدنا أن الكنيسة قد تمثلت الدولة فى بادىء الأمر وراحت تخطو على نحو منها ٠ مبتدئة بالكراسى الرسولية التى تعود الكنيسة بتأسيسها الى احد الرسل الأثنى عشر ، وكان لهذه الكنائس التقدمة على غيرها من الكنائس الأخرى ٠ ويأتى فى مقدمة هذه الكراسى روما والاسكندرية وانطاكية ، ثم زاحمتهم القسطنطينية فى القرن الرابع ، وحاولت أن تعود بأصلها الى القديس أندرأوس ولقيت العون فى ذلك من جانب الأباطرة الذين حرصوا على أن

---

(٤٩) صحبت الحملات العسكرية التى قام بها هرقل لاستعادة الولايات الشرقية التى استولى عليها الفرس فى مطلع القرن السابع ، حالة من الحماسة الدينية شملت الامبراطورية وتركزت فى العاصمة ، وتمثلت فى الخطب والعظات الدينية التى كان يقوم بها البطريرك سرجيوس واكليروسه ٠ بل ان هرقل نفسه ، بعد فشل حملاته الأولى ، اعتزل بعض الوقت فى أحد الأديرة يناجى العذراء ويتطهر ،وحمل معه ايقونة العذراء عند خروجه الثانى للحرب ، مما جعل الناس يعزون انتصاره على الفرس الى هذه الصورة . ودفع نفرا من المؤرخين الى اعتبار هذه الحروب نوعا من الحرب الصليبية ٠ انظر : أومان : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٠٥ وايضا دكتور أسد رستم : الروم حـ ١ ص ٢٢٥ ٠ وكذلك C. M. H, p. 292 .

يعلو كعب أسقفيـة العاصمة على سائر الكراسى الرسوليـة الأخـــرى ، فتضمنت قوانين بعض المجامع المسكونيـة (الثــانى ٣٨١ والرابع ٤٥١) النص على أنهــا تلى كنيسة روما فى المرتبــة مباشرة باعتبــارها « روما الجديدة » ٠

وقــد أخذت هــوة الخـــلاف تتسع بين كل من روما والقسطنطينية ٠ وازدادت على مر القرون عمقا وتباعدا ، بفعل اختــلاف الفـكرى واللغوى والعقيدى ، وما يتعلق بالنظام الكنسى ٠ ثم تدخلت المسألة السياسية فزادت النار ضراما خاصة ابان الحرب ضد الايقونات ، واستباق الكنيستين على الاستئثار بمنطقة البلقــان ، وبلغــاريا بالذات ، واتجاه روما الى مملـكة الفرنجة ، وتتويج شارلمــان وأوتو أباطرة فى الغــرب ، الى أن انتهى الأمر بحدوث الشقاق الأعظم بينهما سنة ١٠٥٤ ، والذى جاء نتيجة طبيعية لسلسلة من الأحداث المتلاحقة عبر القرون الطويلة ٠

ومما لا شك فيه أن القسطنطينية قــد أفادت الى حــد كبير من جراء بعض هذه الأحداث ، فأقدم أسقفها فى نهــاية القرن السادس على اتخــاذ لقب « مسكونى » ، وان كان هــذا لم يعن السيادة العالميــة ٠ كما أن فقدان الامبراطورية لولاياتها الشرقية فى القرن السابع ، قد خلص القسطنطينية من منافسة الاسكندرية وأنطاكية ، وهى منافسة طالما ضاقت بها العاصمة ٠ وأصبحت كنيسة القسطنطينية هى كنيسة المجامع المسكونية السبعة(٥٠) ٠

---

(٥٠) كان قسطنطين هو أول من ابتــدع سنة عقــد هـــذه المجامع المسكونية ، وقد عرفت الكنيسة قبــل ذلك المجامع المكانيــة ، ولكن المجامع المسكونية لم يكن من السهل تحقيقها فى ظل السياسة العدائيــة التى كانت تنتهجها الدولة الوثنية ٠ وكان أول هذه المجامع فى نيقية سنة ٣٢٥ لمناقشة العقيدة الآريوسية ، والثانى فى القسطنطينية سنة ٣٨١ على عهد الامبراطور ثيودوسيوس الأول ،وكان من بين مهـــامه بحث الاراء الماكيدونيــة ٠ وفى عام ٤٣١ عقد المجمع المسكونى الثالث فى افسوس زمن ثيودوسيوس الثانى للرد على أفكار نسطور ، بينما دعا الامبراطور مارقيان سنة ٤٥١ الى عقد المجمع المسكونى الرابع فى خلقيدونيــة ، الذى أقـــر مذهب الطبيعتين فى المسيح ٠ فلما كان عهد جوستنيان عقد المجمع الخامس ٥٥٣ للتوصل الى حل حول الجدل العقيدى بين المنــافزة والديافزة ٠ أما المجمع المســكونى

ولم تكن هذا المجامع المسكونية قاصرة على مناقشة الآراء العقيدية ٠ بل عمل بعضها أيضا على بحث مسائل التنظيم الكنسى الى جوار الناحية العقيدية(٥١) ٠ وكانت الكنيسة تضم عددا كبيرا من رجال الاكليروس ، وأوضح مثال على ذلك كنيسة أياصوفيا ، التى اضطر أسقف العاصمة فى القرن السابع زمن هرقل أن يستغنى عن كثير جدا من اكليروسها ٠ وكان الزواج مسموحا به لمن هم دون مرتبة الأسقفية ٠ وفى بعض الأحيان كان يفضل الرهبان لشغل المناصب الكهنوتية ، وان لم يكن هذا تقليدا ثابتا ٠ وقد حرصت الكنيسة دوما أن تظل غنية بمواردها ، وازداد فعلا ثراء الكنيسة بما كانت تمنحه الدولة لها والمؤسسات والأفراد ٠

وكانت الكنيسة اليونانية تتسم فى نظر البعض بالجمود أو المحافظة، ولكن بقاء الكنيسة اليونانية قائمة ، هو فى حد ذاته رد على هذا الاتهام ، ذلك أن التقاليد لكى تبقى فلا بد أن تتطور وهى تنتقل من جيل الى آخر ٠ ولا مجال للشك فى أن الكنيسة اليونانية قد حفظت للعالم المسيحى تراث الآباء اللاهوتيين ، ومحاوراتهم للتوصل الى تعريف دقيق للايمان الارثوذكسى ٠

وقد لعبت كنيسة القسطنطينية دورا كبيرا فى الحركة التبشيرية بين الجماعات الوثنية ، ولعل أقوى الادلة على ذلك ، الجهود التى بذلتها بين الجماعات الصقلبية أو القبائل الخزرية ٠ ولا يقل عن هذا دور رجال الدين فى الداخل لرعاية شعب الكنيسة ، وتعليم المسيحيين شئون دينهم ٠ ويعتبر

=

السادس فقد التأم عقده سنة ٦٨٠/٦٨١ ، لاقرار التخلى عن المونوثيلية (الارادة الواحدة) الذى ابتدعه هرقل فى محاولة لاسترضاء الولايات الشرقية ٠ وكان هذا المجمع على عهد الامبراطور قسطنطين الرابع ٠ أما المجمع السابع والأخير فقد دعت اليه الامبراطوره ايرين سنة ٧٨٧ لشجب الآراء اللاايقونية ، واعادة الصور الى قداستها ٠

(٥١) للوقوف على تفاصيل القوانين الكنسية الخاصة بالناحية التنظيمية انظر ٠

H. Perrcival, The Seven Ecumenical Councils, (Nicene and post-Nicence Fathers, Second series). Vol. XIV

وراجع أيضا ٠ Hefele, History of the Councils of the Church, 5 Vols.

البيزنطيون أعظم كتاب العظات فى العالم المسيحى · وقد اهتموا اهتماما بالغا بالقداسات الكنسية ، فيما يختص بالالحان الموسيقية والترانيم والتسابيح · وكان قداس القديس باسل وقداس القديس يوحنا ذهبى الفم ، هما العماد الرئيسى الذى استقى منه البيزنطيون قداسهم الكنسى ·

ولا سبيل الى الشك فى أن الكنيسة فى بيزنطة قد تمكنت من حياة الناس ، فتعلقوا بها الى حد كبير ، وزاد من تعلقهم ايمانهم العميق بما شاع عن اتيان القديسين للمعجزات ، فسعوا الى أن ينالوا البركات على أيديهم · وحظى الرهبان فى هذا المجال بالنصيب الاوفر ·

وتعتبر مصر صاحبة الفضل الأول على العالم المسيحى فى الحياة الرهبانية ، فهى التى قدمت الى دنيا المسيحية هذا الأسلوب فى الزهد والنسكية بنمطيه التوحدى والديرانى · فالقديس أنطونيوس يعد رائد الرهبانية فى مصر والعالم بشكلها التوحدى فى أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع · والقديس باخوم هو صاحب اول مجتمع ديرانى فى القرن الرابع · ومن مصر انتقلت الرهبنة الى مختلف أنحاء الامبراطورية بين الجماعات المسيحية خلال ذلك القرن ، فعبرت البحر الى غالة وايطاليا وأسبانيا ، ثم اتجهت الى فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى وبلاد اليونان · حتى اذا كانت الامبراطورية فى العصور الوسطى ، لم يكن هناك مكان يخلو من الرهبان ، واصبحت الرهبانية عنصرا مكملا للحياة البيزنطية · ومن أشهر هذه الأمكنة فى فترة العصور الوسطى ، جبل أوليمبوس بالقرب من بروسا ، وجبل لاتروس فى أقصى جنوب آسيا الصغرى ، والجبل المقدس الكلابرى ، ثم جبل آثوس على مقربة من سالونيك ، وهو أشهرها جميعا · فقد اجتذب اليه الرهبان من جميع أنحاء العالم المسيحى ، وحظى بالاحترام العميق والحماية الامبراطورية · ورغم الانحلال السياسى الذى أصاب الامبراطورية فى القرنين الأخيرين من عمرها ، فان الجبل على العكس من ذلك تزداد قوته ، وكانت حركة الزهد الصامت خير دليل على هذه المكانة التى بلغها ·

وتعتبر الأديرة الباسيلية ، التى تنسب الى القديس باسل أسقف قيسارية الكبادوك ، فى آسيا الصغرى ، النظام الذى ارتضته الرهبنة

البيزنطية منذ القرن الرابع • فقد آثر الديرانية على التوحد ، وسار على نهجه ثيودور الاستوديى ، رئيس دير ستوديوس فى القسطنطينية ، وأبرز الديرانيين فى الامبراطورية فى عصورها الوسطى وقد اختط نهج سلفه فى القرن الرابع باسل الكبادوكى ، وترك كثيرا من العظات والخطب للسائرين على هداه • وكانت القدرة على التفكير الواضح ـ كما هى عند يوحنا الدمشقى ـ تعنى عنده الفهم العميق لكتاب المقدس وآراء آباء الكنيسة ومجابهة الهراطقة •

ولما كانت الحركة الرهبانية قد نشأت فى اطار الكنيسة ، فقد اهتمت هذه على أن تفيد من هذه الطاقة قدر الطاقة ، وظهر ذلك واضحا فى الدور الذى لعبه الرهبان فى المجامع الكنسية ، ووقوفهم وراء الأساقفة فى التصدى للآراء التى تنعتها الكنيسة بالهرطقة ، مما دفع بعض المجامع الكنسية الى تنظيم الاطار الرهبانى وتحديد نشاط الرهبان ومهامهم ، واتضح هذا بشكل ظاهر فى المجمع المسكونى الرابع الذى عقد فى خلقيدونية عام ٤٥١ • وعلى أية حال فان القرن التاسع يعتبر الفترة التى اكتملت فيها النظم الأساسية للحياة الديرانية • بحيث أصبح من اليسير على العالمين اللاتينى والصقلبى أن يقفا على أسرارها وأن يفيدا منها •

وقد بلغت الأديرة فى كثير من الأحيان قدرا كبيرا من القوة والنفوذ ، وازدادت قوتها بفعل الثراء الذى وجدت نفسها غارقة فيه ، نتيجة للهبات والأوقاف التى كانت الدولة أو الأفراد يقدمونها اليها ، وقد أحست الدولة بخطورة هذه الناحية على الموارد المالية للخزانة الامبراطورية ، فتدخل الاباطرة للحد من بناء الاديرة ، أو لتحديد الهبات الموقوفة عليها ، كما حدث فى القرن العاشر • وعلى الرغم مما تعرضت له الأديرة من العسف زمن الاباطرة اللايقونيين الا أنها ما لبثت أن استعادت نفوذها وقوتها مرة ثانية بعد هزيمة أعداء الايقونات ، ولم تجد محاولات الاباطرة التالين للحد من سلطانهم • ولا شك أن هذا الثراء الذى كانت عليه الاديرة ، قد أدى الى خروجها عن مهمتها ورسالتها الاساسية • ولهذا نجد كثيرين من المصلحين ـ العلمانيين والاكليروسيين على السواء ـ يرفعون أصواتهم بضرورة الاصلاح ، وعودة الاديرة الى وظيفتها وطبيعتها الاولى • وقد

كتب يوستاتيوس Eustathius رئيس أساقفة سالونيك فى القرن الثانى عشر ، نقدا لاذعا لما كانت عليه الحياة الرهبانية آنذاك ، وعلى نفس المنوال كتب يوحنا السلمى John Climacus وثيودور الاستوديى ٠

وقد تسابقت الدولة والافراد فى تأسيس الاديرة ، وكان لكل دير يقام وثيقة تأسيس تضم الالتزامات الخاصة بالطقوس ، كالصلاة وقواعد الصيام والاحتفالات الدينية ، وعدد الأفراد الذين يستوعبهم الدير ، والهبات الموقوفة عليه ٠ ورغم ذلك فقد كان هناك بعض الاديرة التى تتمتع بالاستقلال الكامل عن أى سلطة علمانية أو كنسية ، ولاتخضع حتى لمؤسسها ، وكانت هناك كذلك قوانين تنظيم عملية دخول الافراد الدير ، وتضمنت مراسيم الأباطرة الكثير من هذه القوانين المنظمة ، من أهمها فترة الاختبار التى قد تمتد الى ثلاثة أعوام للوقوف على مدى جدية الراغبين فى أن يسلكوا هذا السبيل ، وان كانت هناك استثناءات من هذه القاعدة ، لمن عرف عنهم منذ الصغر الورع والتقوى ٠ وكان الانتقال من دير الى آخر يمثل أهم المشاكل التى تواجه ادارة الدير المستقبل ، لما يترتب على هذا الانتقال من مسائل خاصة بالانتماء والملكية ٠ ولهذا كان ينظر الى هذه الناحية بشىء من الامتعاض ٠ وكيفما كان الامر فان الدير يعتبر البداية الطبيعية لهذه الحياة المشتركة ٠ ولكن بعض الرهبان كان يختط طريقا أكثر صعوبة ، كالمتوحدين أو الذين يحيون على عمود أو داخل الكهوف أو تجاويف الاشجار ٠

ولا ريب أن حركة الرهبنة قد أدت للدولة البيزنطية خدمات متعددة فى مجالات شتىء ، أهمها بطبيعة الحال النواحى الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ، وقام الرهبان بدور كبير فى الدفاع عن العقيدة الارثوذكسية ٠ ولهذا لا غرابة فى أن يصبح الرهبان عمد العالم البيزنطى ، الذين تعلقت بهم أفئدة الجموع ، وراحوا يطلبون اليهم قضاء حوائجهم وتحقيق الآمال ٠ وهكذا احتل الرهبان مكانة فريدة فى الشرق الرومانى ٠

وفى فصل ممتع ، قدمت المؤلفة تصويرا رائعا للحياة اليومية فى الامبراطورية والقسطنطينية بصفة خاصة ٠ فالاسرة هى محور الحياة

الاجتماعية ، ولهـــذا كان طبيعيـا ان يحظى الزواج بالمرتبـــة الاولى فى التشريعات البيزنطيـة ، بينما كان الزواج للمرة الثانية أمـرا غير مرغوب فيه ، اما الزيجة الرابعة فقد كانت ملعونة ، ومن هنـــا ندرك تلك المشاكل التى واجهت الامبراطور ليو السادس لزواجه المتكرر ٠ وكان الطــلاق شيئا كريها ٠ على الرغم من شيوعه ، وعلى الرغم من حرص القــانون البيزنطى على أن يضيق عليه الخناق ٠ وكان للمراة وضعها اللائق فى هــذا القانون وفى المجتمع ايضا ، وقامت الكثيرات من النســاء بدور سياسى له خطورته بصورة مباشرة او من وراء ستار ٠ ففضل ثيودورا على جوستنيان لا يمكن التغافل عنه ، والجهـد الذى بذلتـه كل من الامبراطورة ايرين زوجـة ليو الرابع والامبراطورة ثيودورا زوجـة ثيوفيلوس ، فى القضـــاء على كل محاولات رجــال الاسرتين الايزورية والعمورية المعــادين للايقونات ، كان السبب الرئيسى فى انتصار الايقونيين ٠

وكانت الطقوس المسيحية هى السمة المشـتركة التى تجمع كل أفـراد المجتمع البيزنطى ، من الامبراطور حتى أدنى الادنياء ٠ على أن القسطنطينية كانت ترتدى أحلى ما عندها لتبـدو فى أبهى زينــة ، اذا كان الطقس يتعلق بأفـراد البيت الامبراطورى ، كتنـاول أحـدهم سـر المعمودية ٠ ولا شك أن القسطنطينية كانت مركزا للحيــاة خـــلال العصر البيزنطى الزاهر زمن المقدونيين ٠

ورغم أن هيئة التركيب الاجتماعى للمجتمع البيزنطى قـد تحـددت بصورة دقيقة ، الا أن الانتقال من طبقة لأخرى لم يكن عسيرا ٠ فقد اعتلى العرش اباطرة كثيرون يعودن فى أصولهم الى الفلاحة او الجنـدية ٠ هذا على حين كانت للخصيان أهميـة خاصة ، وبلغ بعضهم أعلى المناصب فى الدولة ٠

وتتناول المصـادر المعاصـرة ، وفى مقدمتهـا كتاب المراسم وكتاب الوالى ، الحياة الأسرية للأباطرة داخل قصورهم ، وحيـــاة النـاس فى دورهم ، وأنواع الأطعمة والشراب عند سراة القوم وعلى موائد الكنيسة والأديرة ، ووجبـات أصحاب المهن المختلفـة والحـرفيين ، وقوانين تنظيم الاسعار . وقصـور الامراء والنبـلاء وبيوت الاثرياء . وملابسهم وكيفيـة

تنوعها ، والأدوات المنزلية على اختلافها · ولقـد كان الجيش البيزنطى يضم بين جنبيه الطرفين المتناقضين · الثراء الكامل والفقر المدقع · وبينما كان المترفون يرفلون فى حلل النعيم ، كانت حياة الأدنياء بئيسة مهلكة ، لم تجد معها محاولات العون من جانب المؤسسات الخيرية الديرانية ، التى كان من اهم واجباتهـا ، كمـا يتضمن ميثـاق تأسيسهـا ، رعـاية ذوى المسغبة والمتـربة ·

وقـد ازدهرت الصـناعات فى القسطنطينية وغيـرها من مـدن الامبراطورية مثل سالونيك وطرابيزون ، وفى مقدمتها الصناعات الحريرية والصوفية ، التى بلغت قدرا كبير من الرقة والدقة عنـدما كان الامر يتعلق بثبات البيت الامبراطورى ، بل كانت هناك مصانع اقتصر انتاجها فقط على الأسرة الحاكمة · اما الحيـاة فى الريف فيصورها لنـا ما عرف بقانون الفلاح ،وهو القانون الذى تختلف الآراء حول تاريخه ما بين اخريات القرن السابع والقرن الثامن ، وكيف كان مجتمع القرية يتكون من الملاك الاحرار والفلاحين والعبيد · كما أن هذا القانون تضمن أيضـا العقوبات اللازمة لمواجهة كافة الاحتمالات · ولكن الصورة العـامة التى كان عليهـا الفلاح كانت تدعو الى القنوط ؛ فقد كان يعيش على هامش الحيـاة ، ومن الصعب عليه أن يفى بالتزاماته الضريبية تجاه الحكومة فى كثير من الاحيان ·

ولما كان للامبراطورية سواحلها الطويلة ، كان طبيعيا أن يتجه أهلوها للاشتغال بالاعمال البحرية ، سواء على الاسطول العسكرى ، أو التجارى ، أو بالصيد ، وكان لابد كذلك ان توجد القوانين التى تنظم حركة التجارة ، كالقانون البحرى الرودوسى ، الذى وضع من أجـل حمـاية سفن صغار التجار · ومن الطريف أن هـذه القوانين نصت على المساحة التى يجب أن يحتلها المسافر على السفينة ، وما يجب عليــه فعله أو تركه ، كعدم قلى السمك أو اشعال النيران وهكذا ·

وكان الشعب البيزنطى بطبيعته يميل الى الجـدل والنقـاش ، وكانت الحمامات العامة تمثل له متنفسا طبيعيا لاشباع فضوله فى هذه الناحية ، وربما يقضى البيزنطى يومه كاملا فى الحمام أو ذاك يتجاذب ورفاقه اطراف الحديث فى مختلف الموضوعات ، وفى الجانب الآخـر ، كان التردد عـلى

مزارات القديسين بصفة مستمرة يمثل مسالة حيوية للبيزنطيين المتدينين ، حتى أن كثيرا من العقود التجارية والاتفاقات كانت تتم اثناء هذه الزيارات ·

وقد انتشرت الخرافات والخزعبلات وأعمال السحر والشعوذة فى المجتمع ، وساعد على ذلك ما ترسب فى تقاليدهم من التراث اليونانى ـ الرومانى القديم وما خالطه من مؤثرات شرقية ، بالاضافة الى ايمانهم العميق بقدرة القديسين والرهبان على الاتيان بالمعجزات · ولم ينس المجتمع البيزنطى وسط متاهات جدله من حول العقيدة ، وتعلقه برهبانه وقديسيه ، أن يوفر لنفسه الكثير من وسائل اللهو والتسلية ، فكانت هناك فرق الاكروبات ، والحواة والمهرجون ، والعروض الموسيقية · وان كانت بيزنطة قد افتقرت الى ما يمكن أن يرقى الى مستوى الدراما الاغريقية القديمة ، التى تقدم فى أسلوب جاد ، يجتذب اليه جمهور النظارة بكل الاهتمام والانتباه ·

وكان اهم ما يميز روح البيزنطى السخرية اللاذعة بكل شىء بالأطباء ورجال القانون ، والاكليروس ، ورغم الكوارث التى تحيق بالمجتمع البيزنطى على امتداد عمره ، وحياة الفاقة التي كان يحياها الكثيرون ، الا أن البيزنطى كان ينظر الى كل ذلك باعتباره تجربة من السماء ، اراد الله أن يبتليه بها ، وما عليه الا أن يصطبر عليها ليرى الله قدر ايمانه وتقواه » ·

ورغم ما ساد بين الجموع من الخرافات والخزعبلات ، الا أن المجتمع البيزنطى يعد من المجتمعات المثقفة ، تعود جذور ثقافته الى العالمين اليونانى والرومانى ، حيث كانت الامبراطورية البيزنطية هى الوريث الشرعى للامبراطورية الرومانية المتأخرة ، فقد كان ينظر الى التعليم نظرة تقدير واحترام باعتباره أمرا ساميا ، وينعكس هذا على المعلمين الذين كانوا يلقون التكريم ، العام منهم والخاص ، ويتضح ذلك بصورة جلية ، فى الاهتمام الذى أولته الدولة للعملية التعليمية حتى فى أحلك الأوقات التى كانت تمر بها الامبراطورية ابان الغزو اللاتينى ·

ومن الأمور المسلم بها أن التعليم كان أمرا لامندوحة عنه بالنسبة لذوى اليسار ولم يكن مقصورا على البنين وحدهم دون البنات ، بل لقد نبغت كثيرات من بنات الطبقة الراقية . وكانت حلقات المناقشة التى يشتركون

فيها ، تعود بالبعض ، حسب تعبير أحدهم ، الى ذكرى فلاسفة الاغريق الأقدمين • ويبدأ التعليم الابتدائى فى القرية أو المدينة ، ويحتوى على الكثير من كتابات المفكرين الكلاسيكيين ، ثم تأتى المرحلة التالية بعد ذلك فى مدارس المدن الكبرى كأثينا وبيروت والاسكندرية وانطاكية والقسطنطينية • وقد ازدهرت جامعة القسطنطينية بطبيعة الحال للاهتمام الذى أولاها اياه الأباطرة ، حتى اذا كان القرن السادس ، علا كعبها بعد أن أقدم جوستنيان سنة ٥٢٩ على اغلاق جامعة أثينا ، ثم ازدادت شهرتها بعد أن خضعت مصر وسوريا للمسلمين فى القرن السابع • ورغم الجدل العقيدى الذى اتسم به المجتمع البيزنطى ، الا أن جامعة القسطنطينية لم يكن بها كرسى للدراسات اللاهوتية ، فقد كانت هناك مدارس لاهوتية خاصة ملحقة بالكاتدرائيات الكبرى ، وان كان هذا لا يمنع من القول بأن الكثيرين من أساتذة جامعة القسطنطينية كانوا من علماء اللاهوت •

ولقد شهدت بيزنطة تقدما مرموقا فى مختلف نواحى المعرفة الانسانية ، وكان فى مقدمة العلوم التى برعت فيها الراضيات والفلك ، وكانت الفلسفة ترتبط بالرياضيات فى كثير من الأحيان ، الى الحد الذى أبدى البعض أسفه لعدم الاهتمام بالفلسفة فى حد ذاتها فى فترة متأخرة من تاريخ الامبراطورية • واذا كانت الفلسفة قد ارتبطت أحيانا بالرياضيات ، فقد كان ارتباطها باللاهوت مسألة حتمية ، حيث كان ينظر اليها باعتبارها رياضة فكرية ، وكان على آباء الكنيسة أن يعكفوا على دراستها حتى يمكنهم مواجهة تحديات الفلاسفة للعقيدة المسيحية ، وظهر الاهتمام بصورة واضحة بأعمال افلاطون وأرسطو ، وظهرت مؤلفات عديدة تناولت كتاباتهم بالتحليل والتفسير والتعليق • ولم يكن الاهتمام بالأدب اليونانى القديم يقل عن قرينته الفلسفة كثيرا ، وخاصة الأعمال الفيلولوجية والنصوص •

ولما كان البيان هو الخطوة الأولى والأساسية فى تفوق أى كاتب أو أديب ، كان لابد أن يحظى بقدر عظيم من الرعاية والاهتمام • وهذا شىء كان من أهم ما ورثته بيزنطة عن أسلافها ، ولم يجد الكتاب الذين يفتقدون القدرة البلاغية على التعبير الا الازدراء ، ولم يقدر لأعمالهم النجاح • واذا كان الأدب البيزنطى قد تعرض للنقد لأنه يشتمل على أعمال بلاغية لفظية ، فذلك راجع بلا شك الى أن النقاد كانوا يقارنون الأدب

البيزنطى بالأدب الكلاسيكى الزاهر ، مما أوجد هذا الرأى لديهم · وعلى اية حال فقد اهتم الشعر بالنـواحى التصويرية والوفاء والشـعر الغنائى وقصائد الحب والفروسية او الشعر الحماسى ·

على أن الدارسين لا يمكنهم اغفال نواحى التفوق الذى حققته بيزنطة فى ميدانين رئيسيين ، هما الكتـابات التاريخيـة والعقيـدة · حقيقـة لم يستطع البيزنطيون محاكاة هيرودوت او ثوكيديدس او اكسنوفون فى ميدان التاريخ ،ولكنهم قدموا نماذج جيدة من المؤرخين الـذين ذاع صيتهم بفضل كتاباتهم ، فاذا استثنينا المؤرخين الكنسيين فى القرنين الرابع والخامس ، كان لدينا عـــدد غير قليـل من المؤرخين فى فتـرات لاحقة مثلى اجاثيـا وبروكوبيوس وليو الشماس واناكومننا ونقفور جريجور ·

اما الكتابات اللاهوتية فقد كانت بلا ريب ميـدانهم الفسيح والساحة الرئيسية التى ليس من السهل على احد أن يباريهم فيها · ويعود ذلك الى الولاء الكامل للعقيدة المسيحية ، والحرص على التوصل الى تعريف دقيق للاقنوم الثانى فى الثالوث ، الابن او المسيح ، الكلمة المتجسدة ، وساعدهم على ذلك ما افادوه من دراسة الفلسفة اليونانية القديمة بمدارسها المختلفة واتجاهاتها الفكرية المتباينة · وقـد قدمت بيزنطـة الكثيـر من مشـاهير اللاهوتيين الى عالم المسيحية فى مقدمتهم اباء كبادوكيا الثلاثة ، جريجورى النازيانزى Gregorius Nazianzenus وجريجورى النيساوى Gregorius Nysaeus والقديس باسل اسقف قيسارية ، وهؤلاء الثلاثة عاشوا فى القرن الرابع ، ثم هناك ايضا سيمون اللاهوتى الجديد كما اشتهر بذلك ، فى القرن الحادى عشر ، وهو الذى تكشف ترانيمه وعظاته عن الطبيعة الخلاقة فى الفكر الدينى البيزنطى ·

ولا شك ان هـذا التنوع فى نواحى التعليم والأدب ، هو دليل صدق على ثراء اللغة اليونانية ، وما كانت تتمتع به من الحيوية ، بحيث أصبحت اداة طيعـة فى يد ابنائها المقتدرين عليهـا ، وليقدموا بهـا صنوف الأدب الـــوانا ·

ولم يكن الفن البيزنطى اقل ثراء من قرينه الأدب · وهو شان التاريخ البيزنطي يعود في جذوره الى العالم اليونانى الرومانى ، وان كان اكثر

من الأدب تأثرا بالجيران الشرقيين ، وكانت مرحلة الانتقال الممتدة من القرن الرابع الى السابع هى الفترة التى تشكل فيها الفن البيزنطى والعمارة بصفة خاصة ، ولهذا فقد تحددت سماته واضحة بالتقاليد الامبراطورية والعقيدة المسيحية • ومن ثم كان لابد أن يظهر فى أسلوب جديد ليعبر عما أصبحت عليه الامبراطورية ، وان كان التقليد القديم قد ظل ساريا ، وهو الفن فى خدمة الحاكم ، حيث راحت اللوحات الفسيفسائية تمجد الأوتوقراطور والبانتوقراطور ، يشاركها فى ذلك التحف العاجية والعملة والمنسوجات • واتخذ الفن سبيله فى مدرستين بارزتين ، المدرسة السكندرية بتأكيدها على الواقعية والأبعاد الثلاثة ، ومدرسة آسيا الصغرى وسوريا وتركيزها على صورة البعدين الرمزية • وهذان النمطان يتمثلان بوضوح فى فسيفساء القرنين الرابع والخامس فى ايطاليا •

واذ كانت القصور التى اقامها الأباطرة قد درست ، ولم يعد من السهل تصورها الا عن طريق ماورد فى المصادر الأدبية ، فان الكنائس التى شيدت مازالت باقية ، فقد اقاموها لتبقى مابقيت العقيدة التى اقيمت من اجلها • ويتضح منها مدى الاهتمام البالغ بتزيين الكنائس ، والأدوات اللازمة لاتمام القداسات كالملابس والأردية الكهنونية والأوانى المقدسة • وهناك اختلاف واضح بين الفن الذى امتازت به الكنيسة البيزنطية ، عن الفن الكنسى فى الغرب • فعلى حين كان الأول يقصد به تفسير الايمان وتوضيحه ، الى الحد الذى اعتبر فيه جزءا من عمل شعب الكنيسة فيما يتصل بالعبادة ، كان الفن فى الغرب يقتصر على اثارة مشاعر الرائين •

وكانت القباب هى أهم ما يميز الفن المعمارى البيزنطى ، ورغم أن القبة كانت شائعة فى فارس وما بين النهرين ، حيث تندر الأخشاب ، ويصبح الآجر هو الوسيلة الطبيعية للبناء ، الا ان البيزنطيين اضافوا اليها من ابداعهم الفنى • وبلغ الفن البيزنطى أعظم مراتب ارتقائه فى الزخرفة الداخلية للكنائس بالفسيفساء والفريسك • وعرف الفنانون كيف ينتزعون الاحساس الصادق من نفوس العابدين اذا ماراحوا يتأملون هذه الفسيفساء على مسافة معينة وسط الكنيسة • وكان انتشار اللوحات الفسيفسائية دليلا على ازدهار الدولة البيزنطية وثرائها ، نظرا للتكاليف

الباهظة التى تقتضيها تلك الصــور ، فلمــا تعرضت الامبراطورية للضعف والانحــلال ، ونضبت مواردها وجدت فى الصــــور الجصية (الفريسك) عوضــا عن الفسيفساء • وان كان الفريسك قد وجد فى فتــرة مبــكرة من تاريخ الامبراطورية ولكن بصورة بدائية •

ولا يخفى علينــا أن الحــروب التى شنها الايزوريون والعموريون على الايقونات وتقديسها ، قد تركت دون ريب آثارها الواضحــة على النواحى الفنية(٥٢) ولكن الفن سرعان ما عاد سيرته الأولى وان كان بصورة متطورة بعد انتهاء هذه الحــروب ، وانتصار الايقونيين • واتبع الفنانون والصناع المنهــاج الايقونوجرافى الجديد الذى يهــدف اساسا الى خــدمة الأغراض اللاهوتيــة ، حيث يهتم بالتثليث وخــلاص العــالم بواسطة المسيح ، حتى اصبحت الكنيسة من الداخل وكأنها تستحضر الكون ، بالاله والقبة الزرقاء والفردوس والمسكونة •

ولم تكن الزخرفة قصــــرا على الكنــائس أو القصــور ، بل حظيت المخطوطات هى الأخرى بالاهتمام الفنى ، حيث كان بعضها يكتب بالفضة على نسيج أرجوانى ومازالت هناك الى الآن خطيات نادرة من هــذا النمط للكتاب المقــدس او كتاب المزامير ، مع الخطيــات التى تتناول الموضوعات العلمانية • يضاف الى هــذا ماظهر من مخطوطات مصــورة كانت تستخدم فى حملات التشهير السياسى أو الدينى •

وقد طرق الفنانون البيزنطيون كل مجــالات الزخرفة ، واستخدموا كل ما اتيح لهم من وســـائل فى التزيين ، فبرعوا فى صــــناعة المينــــاء ، والعاجيات ، والتحف المعدنية ، والمنسوجات وتتناول كلها مختلف الاغراض الدينية والدنيوية •

ولاشك أن الهزة العنيفــة التى أصــابت كل شىء فى الامبراطورية ، نتيجة سقوط القسطنطينية سنــة ١٢٠٤ على يــد اللاتين ، قد اثرت بصورة مباشــرة على الناحية الفنيـــة ، فاستخدم الفريسك بدلا من الفسيفساء ، وندرت الأعمال الفنية الدقيقة • ولكن الحركة الفنيــة مع ذلك لم تتوقف •

---

(٥٢) انظر قبله ص ٤٧ ـ ٤٨ •

ويعتبر التصوير الدينى على الجدران أروع منجزات هذه الفترة المتأخرة ، خاصة ما وجد منه فى منطقة البلقان يعود الى القرنين الثانى عشر والثالث عشـر ٠

هـذه الحضـارة الزاهرة التى اتسمت بها الامبراطورية البيزنطية ، خلافا لما جرى به الاعتقاد آنفا عند بعض المؤرخين ، امتدادا لعالم اليونان والرومان ، وتفاعلا مع بعض العناصر الحضـارية الشرقيـة ، كان لابد ، بحكم الموقع الـذى تحتله الامبراطورية ، أن تفرض عليها نوعا معينـا من التعامل مع الجيران ٠ الذين يختلفون معها حضاريا وفكريا ٠ خاصة فى الشمال والغرب ٠ وكان لابد ايضا أن يفيـد هؤلاء الجيران من الحضـارة بيزنطية قـدر طاقتهم ، فى الادارة والأدب والفن ، وقبـل هـذا وذاك ، العقيدة ٠

وعلى حين كانت العلاقات البيزنطية الاسلاميـة تقوم ـ بغض النظر عن النـواحى السياسية والعسكرية ـ على أساس الاحتـرام والتقـدير الحضـارى ، فان الموقف فى البلقـان وعند الدانوب كان يختلف عن ذلك تماما ، حيث تنزل عناصر سكانية متباينـة ، تنظر الى الحضارة البيزنطية والامبراطورية بعين المهـابة بل التقديس ، ابتـداء من الجرمان فى القرنين الرابع والخامس(٥٣) وحتى الصقالبة فى القرون من الثامن الى العاشر ٠ وقد اتضحت مقدرة الامبراطورية فى استيعاب معظم هذه القبائل ٠

---

(٥٣) لعل خير مثـال على ذلك هـو ثيودوريك Theodoric زعيم القوط الشرقيين ، الذى قاد قبيله واتجه الى ايطاليا ، بموافقة الامبراطور زينون ،وتمكن من السيادة عليهـا سنة ٤٩٣ بعد هزيمته لأودواكر ٠ وكان ثيودوريك من أشد المعجبين بالحضارة الرومانيـة ، فعندما زار روما وقف مشدوها أمام آثارها الرائعة ، واعتـرف صراحة انه كان يشـاهد فى كل يوم وفى عجب شديد عمود تراجان الشاهق ٠ واظهر اهتماما كبيرا بالناحية الثقافية ، فحاول تشجيع الأدباء والمفكرين الرومان على القدوم الى بلاطه ، وكان كاسيودور Cassiodorus الذى يعـد من أعظم المثقفين فى أيامه مستشارا له ، بينما كان بوئيثيوس Boethius فيلسوف عصـره أقرب الرومان الى قلبه ، قبـل أن يعـدمه ، ورغم اريوسيته فقد أعطى للكنيسة الرومانية كل التقدير والاحترام ٠ انظر Strayer & Munro, op. cit., p. 42

اما فى الغرب ، فقـــد كان للعلاقات بين بيزنطة وامبراطورية الغرب طابعها الخاص نتيجة التباين الحضارى والتفاوت الفـكرى ، ثم الاقتناع الكامل لدى اباطرة بيزنطة بالامبراطورية الواحدة ، وانهم وحدهم الأباطرة الرومان ، مما ادى بالتالى الى تعارض المصالح السياسية فى ايطاليا بالذات، وادعاءات السيادة عند كل من الامبراطوريتين · حتى اذا كان القرن الحادى عشر ، قدر للدبلوماسية البيزنطية أن تواجه تحديات جديدة لم تعرفها من قبل فى عمرها الأول وتمثلت هـذه التحـديات فى استـيلاء النورمان على جنــوب ايطاليا وصقليــة ؛ ومشروعاتهم المستمرة لغــزو القسطنطينية ، واعتداءاتهم التى لاتنقطع على بلاد اليونان ، ثم نمــو الحيـــاة المدنية فى ايطاليا الذى اقترن بالنشاط الاقتصادى المتزايد · وكذلك قيـــام الحروب الصليبية وما فرضته من ضرورة تعامل الامبراطورية مع هـــذه العناصر اللاتينية · يضاف الى ذلك ازدياد الاعـداد والاغارات الصقلبية فى منطقة البلقان وتهديد العاصمة فى كثير من الاحيان ، كما حدث على يد البلغار · وتجدد الخطر الشرقى مرة اخـرى ممثـلا فى الأتراك العثمانيين فى آسيا الصغرى · وقد تكاتفت هـذه الاخطـار فى وقت كانت القـــوة العسكرية البيزنطيــة تريد ان تنقض ايذانا بالانهيــار ، ومن ثم تحملت الدبلوماسية النصيب الاكبر من هذا العبء الكبير ·

ولاشك أن الدول التى قامت فى العصور الوسطى ، وخاصة فى البلقان وعند الدانوب والبحر الأسود ، تدين للامبراطورية البيزنطية بالكثير ، ومن بين هذه الدول الصــرب والبوسنة وبلغاريا والمملكة الموسكوفيــة ومملكة كييف · فقد استقت من بيزنطة التصور الدقيق عن مفهوم الدولة ، والتقاليد الامبراطورية ، ومراسم البــلاط ، والنظم الادارية ، والمبــادىء الفقهيــة الرومانيــة التى تضمها مقننــات الأباطرة وتشريعاتهم كجوستنيان وليــو الثالث وباسل الأول وغيرهم ·

---

* وكذلك Davis, op. cit., p. 40 وايضا Thompson and Johnson, op. cit., Pirenne, op. cit., p. 38; pp. 85 - 103. راجع كذلك جيبون · اضمحلال وسقوط الأمبراطورية الرومانية ، جـ٢ ص ٣٧٢ ·

وكان للامبراطورية أيضـا علاقاتها البعيدة مع أقصى الغـرب ، فقد توطدت أواصر الصداقة بين البيتين الحاكمين فى كل من بيزنطة وبريطانيا ، عن طريق المصاهرات السياسية ، وتبـادل السفراء والهــدايا ، بالاضافة الى الحرس الامبراطورى الخاص الذى عرف أفراده بالورنك Varangian وكان يتكون فى معظمه فى القرن الثانى عشر من الانجليز ، دلت على ذلك الرسائل المتبادلة بين الامبراطور مانويل كومننوس وهنرى الثانى ·

على أن العلاقات مع الغـرب بصفة عامة ، كان يحول دون كمالها ، ذلك الخـلاف العقيدى القـائم بين كنيستى روما والقسطنطينية ، فكلتاهما اختطت لنفسها طريقا عقائديا مخالفا ، وأدخلت احداهما الأخرى فى عداد الهراطقة · وساعدت الأحداث السياسية ، كما أسلفنا ، على تعميق هوة الخلاف واتساع الصدع · وكانت الشعوب الصقلبيـة بدورها عاملا هاما فى التباعد بين الكنيستين الشرقية والغربيـة ، حيث كانت ميـدانا فسيحا للتنافس بينهما · وهنـا لايمكن انكار ذلك الـدور الذى قامت به الكنيسـة الأرثوذكسية فى مجال التبشير بين هـذه الجماعات الصقلبيـة ، واتضح التأثير البيزنطى خاصة فى القداسات ، والألحان الكنسية · ونظرا للصلات السياسية والعائلية التى كانت قائمة بين القسطنطينية والكنيسة الهنغارية ، فقـد أفاد المجيـار من ذلك كثيرا ، وأقيمت الأديرة اليونانيـة فى هنغاريا ، وكانت تخضع بصفة مباشرة لبطريرك القسطنطينية · ففى كثير من الاحيان كان يتبع العملية التبشيرية الضم الادارى ، وتصبح معظم الهيئة الكهنوتية العليا فى منطقة التبشير من بين رجال الدين البيزنطيين ·وقد أفادت هذه الشعوب من الكتابات التى تركها الهاجيوجرافيون عن سير القديسين منذ القرون الأولى للمسيحية · هـذا بالاضـافة الى العلوم والآداب ، وبصفة خاصة المنطق الذى كان الأداة الضرورية لمعالجة القضايا اللاهوتية ·

واذا كانت الحملة الصليبية الرابعة قد انتهت بسقوط القسطنطينية ، واقامة امبراطورية لاتينية ، وزادت من حمى العداء بين اللاتين واليونان ، الا انها كانت فى الوقت ذاته وسيلة للتقارب بين الشرق اليونانى والغرب اللاتينى · فقد وقف الغرب عن كثب على الحضارة البيزنطية الزاهرة ، وتمت بعض الزيجـات بين الطرفين . وأدرك الغرب قيمة ما قدمتـه بيزنطة لعالم

المسيحية من أياد بيضاء فى كثير من نواحى الفكر والفن ، وما قامت به من جهود للحفاظ على العقيدة المسيحية ضد زحف المسلمين من الشرق ، واريوسية الجرمان ، ووثنية الصقالبة ٠

وبعد ٠٠ ترى ما السر وراء بقاء الامبراطورية البيزنطية طيلة ما يزيد على الف ومائة عام ، اذا ادخلنا فى حسابنا العصر البيزنطى المتقدم ، رغم ماتعرضت له الامبراطورية من هزات عنيفة كادت تعصف بها فى كثير من الأحيان ؟ وهو تساؤل طرح نفسه على كثير من الدارسين ، وتعددت فيه الآراء ، خاصة بعد أن استقرت فى اذهان المؤرخين لفترة ليست بالقصيرة نظرية جيبون حول الانهيار الذى لازم الامبراطورية منذ القرن الثانى ٠ على انه يمكننا أن نرى عوامل هذا البقاء فى نقاط معينة ٠ وان كان هذا لا ينفى تعددها وتنوعها ٠

تاتى القسطنطينية فى مقدمة العوامل التى منحت الامبراطورية هذا العمر المديد ، فقد اختار قسطنطين موقعا استراتيجيا ممتازا ، فوق أطلال المدينة الاغريقية القديمة بيزنطة ، تحمية المياه من ثلاث جهات ؛ القرن الذهبى من الشمال والبسفور وبحر مرمره من الشرق والجنوب ٠ أما الجهة الغربية فقد اقام فيها سورا ، فاضحت « روما الجديدة » بذلك قلعة حصينة ، وازداد هذا السور البرى مناعة على يد خلفائه(٥٤) ٠ ولاشك أن قسطنطين كان يبتسم فى قبره وهو يرى مدينته تتصدى لكل الهجمات التى حاولت النيل من الامبراطورية ٠ وقد اثبتت الأحداث التاريخية أن قسطنطين كان نافذ البصر ذكيا ٠ ففى عام ٣٧٨ لقيت الامبراطورية هزيمة

---

(٥٤) يقول المؤرخ أومان فى حديثه عن مدينة بيزنطة ، التى بنيت القسطنطينية فى موضعها انه من وجهة النظر الحربية والتجارية على السواء ، لاتستطيع مدينة اخرى أن تفاخرها من ناحية موقعها ٠ وهى تشرف من اقصى نقطة شرقية فى تراقيا ،وتقف أوربا كلها خلفها وآسيا جميعها امامها ٠ ولذلك فان موقعها جعلها صالحة كل الصلاحية لتكون قلعة الحدود التى تدافع عن حدود الأولى ، أو قاعدة العمليات الحربية للقيام بالغزو من الثانية ٠ وفى تاريخ بيزنطة القديم كله لانجد انها سقطت بالقوة أبدا ٠ وفى الحالات القليلة التى سقطت فيها كانت المجاعة أو الخيانة هى التى أدت الى ذلك السقوط ٠ انظر ٠ الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥ ٠

مروعة عند آدريانوبل ، خر فيها الامبراطور فالنز صريعا على يد الفيزيقوط (القوط الغربيين) ، واندفعت هذه الجحافل تخرب تراقيا ولم تفق من نشوة نصرها الا عندما اصطدمت بأسوار القسطنطينية ، فوقف القوط أمامها عاجزين ٠ وعلى امتداد القرن التالى كانت البلقان تموج بشتى القبائل الجرمانية ، وكلها تشتهى القسطنطينية ، ولكن المدينة وقفت عائقا دون تسرب هذه القبائل الى الشرق الرومانى ٠

وكان عام ٦٢٦ يمثل كارثة محققة للامبراطورية ، فالقوات الرومانية تتقدم باتجاه الأراضى الفارسية عند أرمينيا والفرات ، فى الوقت الذى أحدقت فيه الجيوش الفارسية بالعاصمة حيث عسكرت على الساحل الأسيوى للبسفور بينما راحت جحافل الآفار تطوق العاصمة من الغرب ، وقد خلت القسطنطينية الا من حامية صغيرة ٠ ورغم ذلك فقد تمكنت من رفع حصار الآفار ، بينما راح هرقل يتعامل مع الفرس فى الشرق ، فنجت العاصمة من السقوط ٠ وقد تمكنت القسطنطينية من رد الحصار الاسلامى الذى فرض عليها ثلاث مرات(٥٥) ٠ ولم يستطع البلغار أن ينالوا منها شيئا ، بل لقد أصبحت المملكة البلغارية نفسها ولاية بيزنطية فى أوائل القرن الحادى عشر ٠ وذهبت سدى محاولات النورمان الاستيلاء عليها ، وتبخر مشروع هنرى السادس الامبراطور الغربى فى القفز اليها ٠

وفى عام ١٢٠٤ سقطت الامبراطورية للمرة الأولى فى تاريخها ، أى بعد تسعة قرون الا قليلا ، بعد انشائها ٠ وجاء هذا السقوط نتيجة الصراع على العرش فى الداخل ، واستنجاد الكسيوس الرابع بالصليبيين لاعادته وأبيه اسحق الثانى انجيلوس الى العرش وما تبع ذلك من فوضى انتهت بمقتلهما ٠ ورغم سقوط القسطنطينية فقد بقيت الامبراطورية البيزنطية فى نيقية وطرابيزون وابيروس ، الى أن نجح أباطرة نيقية فى استعادة

---

(٥٥) وقع هذا الحصار الاسلامى للقسطنطينية زمن الأمويين ، المرتان الأولى والثانية على عهد معاوية بن ابى سفيان (٦٦٩ ، ٦٧٣) ، والثانية أيام سليمان بن عبد الملك (٧١٧) ٠ للمزيد من التفاصيل انظر دكتور ابراهيم العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ١٦٢ ــ ١٦٦ ، ١٧٢ ــ ١٧٤ ٠

القسطنطينية ثانيــة ، لتعيش الامبراطورية من بعــد قرنين تاليين • أما فى عام ١٤٥٣ ، فكانت الامبراطورية قد هرمت ، ولم يبق منها الا القسطنطينية فقط ، فقد أحاط بها العثمانيون من الشرق والغرب • ولم تكن الامبراطورية خلال القرنين الاخيرين من عمـــرها من الناحيتين السياسية والعسكرية ، الا ظلا باهتــا للامبراطورية فى عصــورها الزاهرة • ومن ثم كان لابد أن تسقط القسطنطينية بعد أحد عشر قرنا من الزمان •

وكانت الفوضى التى عمت الامبراطورية فى النصف الثانى من القرن الثالث قد علمت الأباطرة من بعــد أن يبحثو عن أسلوب للحــكم يضمن الاستقرار • وكانت آفة النظــام السياسى الامبراطورى آنذاك ، انه لم يكن هناك نظام ثابت لوراثة العرش ، لأن روما الامبراطورية ـ حتى بعد أن فقدت كل سمات الجمهورية ـ كانت تمقت مسألة الوراثة رغم انها كانت تعيشها ، ومن ثم كان لابد أن تحدث هذه الفوضى السياسية خاصة بعد أن غلت أيدى السناتو عن التدخل فى اختيار الاباطرة ، وبعــد أن أصبحت الفرق العسكرية الرومانية هى صاحبة الحــول والطول فى الامبراطورية • بل ان دقلديانوس نفسه الذى أعاد للمنصب الامبراطورى هيبته ، بل اضفى عليـــه نوعا من القداسة ، رفض مبدأ الوراثة فى حكومته الرباعية ، واقر مبدأ التبنى(٥٦) • واكن لابد أن تعصف مطامح خلفائه بنظام الحكومة الرباعية ، وأن تكتوى الامبراطورية بنيران حرب أهلية دامت ثمانية عشر عاما (٣٠٦ ـ ـ٣٢٣) ، أسفرت فى النهاية عن انفراد قسطنطين بحــكم الامبراطورية • ولم يفعــل قسطنطين أكثر من أنــه جعل الأمــر الواقع ـ أعنى مبــدأ وراثة العرش ـ حقيقة مؤكدة بصورة سافرة ، فاقدم قبل وفاته سنة ٣٣٧ على تقسيم ادارة الحكم فى الامبراطورية بين ابنائه الثلاثة • قسطنطين الثانى وقسطنطيوس

---

(٥٦) اختار دقلديانوس زميله لحكم الغرب وهو ماكسيميان ، وقيصرين هما جاليريوس وقسطنطيوس • ورفض ان يعين ماكسنتيوس ابن ماكسيميان، أو قسطنطين ابن قسطنطيوس قيصرين سنة ٢٩٣ • وأكد هذا الرفض سنة ٣٠٥ عند اعتزاله وزميله ، ووافق على اختيار سفروس وماكسيمين دازا ، اللذين رشحهما جاليريوس • للمزيد من التفاصيل انظر :
LACTANTIUS. de mort. pers. 18 وانظـــر للمتـــرجم : الـــدولة والكنيسة ، الجزء الثانى ، ص ٦١ ، ٦٢ •

وقنسطانز · وسار خلفاؤه على سنة سلفهم ، فعرف العرش الامبراطورى الاستقرار ، بعد أن اصبحت مسألة الوراثة امرا ثابتا ، واعتلى العرش البيزنطى عدد من الأسرات ، توالى افرادها على كرسيه · ولم تشهد الامبراطورية منذ عهد قسطنطين الأول فى القرن الرابع ، حتى قسطنطين الحادى عشر فى القرن الخامس عشر ، آخر أباطرتها ، حربا اهلية من أجل العرش الا النذر اليسير كان اخرها تلك التى أودت بحياة الامبراطور قنسطانز سنة ٣٥٠ على يد ماجننتيوس Magnentius الذى نصب نفسه امبراطورا فى غالة ، وقيام كل من فترانيو Vetranio ونبوتيانوس Nepotianus باعلان نفسيهما امبراطورين فى الليريا وروما · وقد استمرت الحرب الأهلية ثلاث سنوات حتى تمكن قسطنطيوس من أن يحكم الامبراطورية منفردا سنة ٣٥٣ ·

وكان الأباطرة يحظون بالولاء الكامل من جانب رعاياهم ، وليس أدل على ذلك من أنه فى اشد الأوقات حرجا ، وعندما يكون الامبراطور الجالس على العرش ضعيفا واهنا ، كما حدث مثلا فى نهاية الأسرة المقدونية بعد وفاة باسل ثانى ، زمن الامبراطورة زوى Zoe التى جلبت على نفسها بسلوكها سمعة سيئة ، لم يحدث أن اطيح بها تقديرا لما ادته الأسرة المقدونية للامبراطورية من جلائل الأعمال · ولا شك أن هذا الاستقرار السياسى ، بالاضافة الى اعتبار الامبرطوار نائبا عن المسيح فى حكم الامبراطورية ، كان له بطبيعة الحال عند شعب متدين ، آثاره الواضحة التى تجلت فى بقاء الامبراطورية هذه القرون الطويلة ·

ويرتبط بهذا العامل نقطتان هامتان · اولاهما الدبلوماسية البيزنطية الذكية التى تمكنت من تحقيق نجاح منقطع النظير ، فخففت عن الجيش العبء الكبير الذى ناء بحمله ، بل وافلحت فى أن تقوم بدورها كاملا فى الوقت الذى اخذت قواه العسكرية فيه تترنح من كرة ماوجه اليها من ضربات ، أما الثانية فهى النظام الادارى الكفء الذى امتازت به الامبراطورية البيزنطية · فقد حظيت بادارة مركزية قوية ، يتربع على قمة جهازها الامبراطور ، ويتبعه جيش كبير من الموظفين فى العاصمة ومختلف الولايات · ورغم ما اعترىهذا الجهاز الادارى منالتعقيد ، الا انها لم تكن لتفتقد المرونة ·ولعل

الكتاب الذى وضع فى منتصف القرن العاشر ، بقلم امبراطورى ، دليل واضح على مدى ما يمكن أن تحققه الادارة الناجحة من خدمات ·

ولا شك أن الجيش البيزنطى كان العماد الرئيسى لقوة الامبراطورية وبقائها ، فالمتتبع لتاريخ الامبراطورية منذ القرن الرابع ، وحتى سقوطها فى منتصف القرن خامس عشر ، يدرك للوهلة الأولى ، أن الامبراطورية ظلت فى حرب مستمرة طيلة هذه القرون الأحد عشر · وأنها لا تكاد تتخلص من عدو حتى تبتلى بأعداد جدد ، وتمثل ذلك فى الفرس والمسلمين الأوائل والجرمان والهون والصقالبة والنورمان والسلاجقة والصليبيين والاتراك العثمانيين · لهذا لم يكن غريبا أن يكتب رنسيمان قائلا « لقد قضت الضرورة على البيزنطيين ان يصوغوا أنفسهم على أسس عسكرية ، وأن يولوا للشئون العسكرية كل التفاتهم وعلمهم · وكان ذلك فى صالحهم · ولهذا كانت بيزنطة هى البلد الوحيد طوال العصور الوسطى ، الذى كان يدرس فيه أدوات القتال ووسائل تنظيم الجيش والفنون الاستراتيجية بعناية واتزان » · ويضيف نورمان بينز « لا يمكن اعتبار بيزنطة وريثا لروما فى شىء بقدر ما يصدق فيما يختص بسياستها العسكرية · لقد بنيت الإمبراطورية وأمنت بفضل كتائبها »(٥٧) ·

والحقيقة أن الجيش البيزنطى كان بمثابة الذراع الطويلة للامبراطورية ، اذا جاز استخدام هذا التعبير ، تستطيع أن تمدها فى أى وقت وفى أى اتجاه · حقيقة أنها تداولت النصر والهزيمة فى كثير من الأحيان مع جيرانها فى الشرق والغرب ولكنها كانت قادرة بجيشها على أن تحتفظ بحدودها التى رضيت بها منذ القرن السابع حتى الحادى عشر · ولهذا كانت هزيمتها سنة ١٠٧١ فى منزكرت على يد الاتراك السلاجقة ،

---

(٥٧) لدينا الكثير من الكتابات العسكرية التى قدمها كتاب متخصصون أو جاءت على أقلام بعض المؤرخين المعروفين ، فهناك فيجينوس فى القرن الرابع ، وبروكوبيوس فى القرن السادس والامبراطور موريس ، وكذلك ليو السادس · انظر : رنسيمان ، الحضارة البيزنطية ص ١٥٨ ، ١٥٩ وأيضا بينز ، الامبراطورية البيزنطية ص ١٧١ · وكذلك ·
Vasiliev, op. cit., pp. 180 - 181.

ضـربة قاصمة نزلت بهـا ، لأن الاتراك اسـتولوا على آسـيا الصغرى ، فحرموا الامبراطورية بذلك من المصـــدر الرئيسى الذى تعتمد عليـه فى تكوين جيشها • ومن ثم نجـد أن الامبراطورية البيزنطية لم تسترد قوتهـا العسكرية ابدا بعد هذه الهزيمـة ، ولم تعـد الى ما كانت عليه قبلها حتى سقطت فى عام ١٤٥٣ •

واذا كنت عظمة الامبراطورية الرومانية القديمـة تتجسد فى القانون ، بحيث نجحت فى أن تفرض سلطانها لعــدة قرون على مساحـة هائلة من الأرض تمتـد من الفرات الى بريطانيا ، ومن الدانوب الى النوبة ، وتحتوى شعوبا بلغ التفاوت الحضارى بينها حد التضاد ، فمن شعوب ذات حضارات رائعـة كالمصـريين واليونان ، الى جماعات ضارية فى التخلف كالغـــال والكلت • ومع ذلك فقد جاءت التشريعات الرومانيـة تتفق وطبائع كل من هؤلاء جميعا • ولهـذا كان القــانون الرومانى بحق عنـوانا صادقا على عظمة الامبراطورية الرومانية القديمة • ولما كان البيزنطيون ورثة الرومان ، فان جهود اباطرة القسطنطينية التشريعية كانت امتدادا لما تركه اسلافهم • فقد نجح فقهاء القانون البيزنطيون والمشـرعون ، فى أن يجعلوا تشريعاتهم تلاحق باستمرار تلك التغيرات التى تعرضت لها الدولة عبر هـذه القرون ، وأن تستجيب للعناصر والمؤثرات الجديدة فى الامبراطورية وفى مقـدمتها المسيحية • ولهـذا فان اهم سمات القـــانون فى الامبراطورية البيزنطية ، المرونة والتكيف ، وهـذا امر يمكن التوصـل اليه من دراسـة مجمـوعات القوانين التى صـدرت تباعا فى عهـود ثيودسيوس الثـــانى وجوستنيان وليو الثالث وباسل الأول ، كما يمكن ادراكه أيضـا من المتجددات • وعلى هـذا النحو كان القــانون عاملا مساعدا على تهيئـة الاستقرار السياسى والاجتماعى للامبراطورية البيزنطية •

ولا ريب ان التزاوج الذى تم بين الدولة والكنيسة فى بواكير القــرن الرابع ، كان له اكبر الأثر فى هـذه الاستمرارية التى حظيت بها بيزنطة • فقـد افلحت الدولة فى احتواء الكنيسة حتى أصبحت دائرة من دوائرها الحكوميـــة ، وأصبح أسقف القسطنطينية موظفا كبيرا عنـد الامبراطور •

وان كان هــذا قــد كلف الدولة كثيرا ، حيث تمكنت الكنيسة من أن تورطها في متاهات الجدل العقيدى الذى اتسم به الشــرق الرومانى • ولــكن رغم هذا فقد اصبحت الأمــور السياسية والكنيسة تمثــل خطين متوازين ، ان لم يكن خطا واحــدا • وهـــذه الحقيقة أدركها مؤرخ الكنيسة فى القــرن الخامس ، سقراط ؛ عندما ذكر فى تاريخه الكنيسى انه من الصعب على أى انسان أن يرسم خطا فاصــلا بين أمــور الدنيــا وشئون الــدين ، فاذا ما اضطربت أمور الدولة ، بدت شئون الكنيسة أشد تعقيدا • ولهــذا يندر أن نجد أسقف القسطنطينية يتخذ موقفا معارضا للامبراطور ، بل لقد تعاونت الكنيسة فى كل الأمور تقريبــا ، حتى العسكرية منهـــا مع الامبراطور • وهكذا نجت الامبراطورية البيزنطية مما ابتليت به الامبراطورية فى الغرب • فقد دار الصراع سافرا بين البابوية والامبراطورية حول السيادة ، واتخذ هذا الصراع من مشكلة التقليد العلمانى ستارا له ، حتى اذا كانت اتفاقية وورمز سنــة ١١٢٢ بين الامبراطور هنــرى الخــامس والبابا كالكستوس الثانى Calixtus II ، كشف هذا الصراع عن نفســه سافرا ، لمن تكون السـيادة ؟ للبــابا أم للامبراطور ؟ وزيفت فى ذلك النظريات ، واستند كل فريق الى حجج قانونية أو حتى من الكتاب المقدس لتدعيم رأيه • ولقد بلغ الصراع فى بعض مراحلة حد المذلة والمهانة للامبراطورية فى شخص هنرى الرابع الذى جرى اذلاله فى كانوسا سنة ١٠٧٦ على يد البابا جريجورى السابع • وقد ظل هذا الصــراع قائمـــا حتى تمكنت البابوية من تحطيم الامبراطورية فى النهاية سنة ١٢٦٨ •

هكذا عاشت الامبراطورية البيزنطية طيلة ألف ومائة عام ، بما فيها العصر البيزنطى المتقــدم ، تحمــل تراث عالم اليونان والرومان ، وتحفظ المسيحية الشرقية ، وتهدى فى البلقان وعلى الدانوب خطى الحائرين •

ذلك مبلغى من العلم ، فان أصبت فمن الله ، وأن اخطأت فمن نفسى •

مدينة نصر ــ القاهرة

رأفت عبد الحميد

أول ديسمبر ١٩٧٦

العـــالم البيزنطى

مقدمة

كانت بيزنطة اسما للمستعمرة الاغريقية القديمة ، التى اضحت فى زمن تال مدينة قسطنطين ، والكلمة التى ظلت تستخدم طوال عدة قرون للدلالة على ما كان يظن انه انحلال وتدهور الامبراطورية الرومانية فى العصور الوسطى • وقد رفض بيورى J. B. Bury ذلك وفضل أن يتحدث عن « امبراطورية رومانية شرقية » ، وآثر تعبير « شرقية » ليفرق بين هذه بعاصمتها القسطنطينية ، والامبراطورية « الغربية » فى العصر الوسيط ، وابقى على لفظة « رومانية » لاعتقاده أنها ماتزال فى جوهرها الامبراطورية الرومانية • غير انه مهما كانتقوة الروابط التى تصلها بماضيها اليونانى ـ الرومانى ، الا انها حققت لنفسها خصائص مميزة ، واصبح من اللائق استخدام كلمتى « بيزنطى » و « بيزنطة » دون أن يتضمن ذلك أى انتقاص لشأنها • وقد مكننا الدارسون خلال نصف القرن الأخير أو ينيف ، واعتمادا على الأسس التى أرساها رواد القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ومن بينهم دى كانج Du Cange ، من أن ننظر الى تاريخ وحضارة الامبراطورية الرومانية الشرقية بصورة اكثر موضوعية ، وأن ندرك بعض منجزاتها الخلاقة ،وان نقدر مدى ما يدين به لها جيرانها دانيهم والقاصى •

ولقد بدأ المؤرخون يحررون أنفسهم من سحر جيبون Gibbon ، ورغم أنهم اغتبطوا كثيرا « بالاضمحلال والسقوط » ، الا أنه قد تحقق لديهم أن قصة الامبراطورية البيزنطية ليست « نمطية » ولا « مملة » ، كما اعتقد جيبون •

وانى لأعترف بكل الامتنان ، بما أدين به لمؤرخى التاريخ البيزنطى ، القدامى والمحدثين ،واخص بالذكر الأستاذ نورمان بينز Norman Baynes الذى يعد هاديا ملهما فى ارتياد عالم روما الشرقية • اليه اهدى هذا الكتاب الصغير بكل المحبة والعرفان •

ج• م• هـ ابريل ١٩٥٧

الفصل الأول

تكوين الامبراطورية البيزنطية

٣٢٤ ـ ٧١٧

١ ـ قسطنطين العظيم وظهور امبراطورية مسيحية ٠

٢ ـ غزوات البرابرة ونجاة نصف الامبراطورية الشرقى ٠

٣ ـ الامبراطور جوستنيان والقرن السادس٠

٤ ـ الصراع من اجل البقاء فى القرن السابع : مشاكل الأسرة الهرقلية ٠

الفصل الأول

تـكوين الامبراطورية البيزنطية

٣٢٤ ـ ٧١٧

١ ــ قسطنطين العظيم وظهور امبراطورية مسيحية :

في عام ٣٢٤ وقـع اختيـــار الامبراطور الروماني قسطنطين العظيم Constantine the Great على بيزنطة Byzantium المستعمرة الاغريقية القديمة(١) ، التي تحتل مثلثا من اليابسة تحيط به ميـاه القـرن الذهبي والبسفور وبحر مرمره ، ليقيم في مكانها مدينـــة جديدة تغـــدو حاضرة الامبراطورية في الشرق (٢) • وقد تم الاحتفال بتدشين مدينـــة قسطنطين

---

(١) في منتصف القرن السابع قبل الميـلاد ، قام جماعة من اغريق ميجارا بالارتحـــال شرقا ، بحثا عن مكان يقيمون فيه مستعمرة لهم • ولما راحوا يستلهمون وحي الاله ابوللو ، ارشـــدهم الى بناء مدينتهم في المكان المقابل لمدينة العميـان • وهو يعني بذلك تلك المنطقة الواقعـة على الشاطىء الأوربي للبسفور ، والمحصورة بين مياه القرن الذهبي والبسفور وبحر مرمره ، ويقصـد بالعميان أولئك الاغريق الذين خرجوا قبل ذلك من اليونان ونزلوا على الشـــاطىء الآسـيوي ، واقاموا مدينـــة خلقيدونية Chalcedon . وعميت ابصـــارهم عن هذه المنطقة الحصينة • ولـما كان قائد هذه الجماعة الميجارية يدعى بيزاس Byzas فقد حملت المدينة اســـمه فعرفت ببيزنطة • انظر Vasiliev. op. cit., 1, p. 57 وايضا A. V. Millingen, Constantinople, p. 10 وكـــذلك أومــــان : الامبراطورية البيزنطيـــة ، ص ـ ٥ • المترجم •

(٢) لم يكن قسطنطين اول الأباطرة الرومان الذين ولوا روما دبرهم متحرفا الى الشرق ، فقد سبقه اباطرة القرن الثالث وآخرهم دقلديانوس ، يدفعهم الى ذلك أن الأفكار التي باتت تتهـدد الامبراطورية ، اصبحت تتركز شمالا عند الدانوب ، وشرقا على الفرات • ومن ثم أصبحت روما بموقعها البعيــد على ضـــفاف التيبر ، عاجزة عن أن تدفع بقواتهـــا بســـرعة لانقـــاذ اقاليم الحـدود ، في الوقت الذي اضحى الثقيـــل الســـياسي والاقتصاد للامبراطورية يتركز في نصفها الشرقي ، هذا بالاضافة الى رغبة

رسميا فى مايو ٣٣٠ باعتبارها مستقرا له ومقاما وواحدة بين العواصم ٠ ورغم أنه سبق اختيار عدد من المدن فى الشرق لهذا الغرض ، الا ان هذه المدينة اثبتت على مر الزمن ، بموقعها الجغرافى الممتاز ، انها واسطة العقد بين أوروبا وآسيا ، بين البحر الأسود بهذه الاراضى البكر الفسيحة التى تمتد وراء شطآنه ، والبحرين الايجى والمتوسط مفتاحى الطرق الى الشرقين الأوسط والاقصى ٠ ويحدد تاسيس هذه العاصمة الشرقية ، مستقر الامبراطور الأوحد ، الطريق الى العصور الوسطى ، عندما كانت

=

دقلديانوس وقسطنطين فى الابتعاد عن روما بتقاليدها الجمهورية ، حتى وان كانت مجرد شبح للماضى ٠ وقد اتخذ دقلديانوس من نيقوميديا Nicomedia فى آسيا الصغرى عاصمة له ، اما قسطنطين فقد راح يقلب النظر فى كثير من المدن ، قبل أن يهديه تفكيره الى موقع مدينة بيزنطة ٠ ومن بين هذه المدن كانت مدينة نيش Naissus فى صربيا ، وهى مسقط راس الامبراطور ، وقلب البلقان ، الا انه تخلى عنها بحجة أن خطوط المواصلات اليها عسيرة ، وبقدر قربها من الحدود بقدر بعدها عن البحر ٠ وتراءت له كذلك سرديكا Sardica (حاليا صوفيا عاصمة بلغاريا) وسالونيك Thessalonica ٠ وربما أيضا شرع قسطنطين فى بناء عاصمته على مقربة من طرواده القديمة ، تحت تاثير ما تذكره الأساطير عن انحدار الشعب الرومانى من أصل طروادى ٠ كما أن مدينة نيقوميديا لم تحظ باهتمام قسطنطين ، ولفت نظره ذلك الموقع الممتاز الذى تحتله مدينة بيزنطة الأغريقية القديمة ، فشرع فى بنائها فى عام ٣٢٤ بعد أن أصبح الامبراطور الأوحد عقب انتصاره على ليكينيوس ٠ وتذكر الروايات أن قسطنطين راح يخط بحربته على الأرض حدود مدينته الجديدة وحاشيته تلهث من حوله ، ولما سالوه متى يتوقف : أجاب ٠ « على ان امضى حتى يتوقف ذلك الذى يسير أمامى ! ولعل هذه القالة التى وردت فى مصادر متأخرة تشير الى قصة اهتداء قسطنطين الى المسيحية كما تصورها كتب التاريخ الكنسى ٠ ولم يتوقف قسطنطين الا بعد ان أدخل فى مدينته التلال السبعة التى تضمها المنطقة الواقعة بين بحر مرمرة والقرن الذهبى ٠ انظر : اومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٤ ـ ١٧ وايضا Jones, Later Roman Empire, 1, pp. 83-84 وكذلك Millingen, op. cit. p. 18 وانظر ايضا SOCRATES, historia Ecclesiastica, I, 16 وكذلك الكتاب الأول من الانيادة للشاعر الرومانى فرجيليوس والمقدمة التى وضعت لترجمتها ص ٤٨ ٠ وتاريخ الرومان تأليف الدكتور ابراهيم نصحى ، الجزء الأول ص ٧٧ ٠ وكذلك Boak, op. cit., p. 39 المترجم ٠

تمثل النصف الشرقى للامبراطورية الرومانية الذى حبـا دون أن يتعرض لثلمة طوال تاريخه • ولعله ليس جوهريا أن نطلق على فترة التكوين هـذه التى بدأها قسـطنطين العظيم ، عصرا بيزنطيا مبكرا أو رومانيا متأخرا ، فلم تزل فى جوهرها الامبراطورية الرومانية ، تسـودها الثقافة اليونانية وتأثيرات شرقية واضـحة •• تلك كانت حقيقة الامبراطورية الرومانية أيام القديس بولس St Paul وزمن القديس أمبروز (٣) St Ambrose ومع ذلك فان الخلاف بين عالمى بولس الطرسوسى وأمبروز الميلانى ، لا يكمن فى نسيج البنيان الامبراطورى ، أو طبيعة الحضارة اليونانية الرومانية ، ولكن فى تغيرين أساسيين : أولهمـا داخلى ، اذ تمثـل الاهتمام المتزايد بالشرق ومذاهبه العقيدية بشـكل جلى فى روما الجديدة التى أقيمت على شطآن البسفور ، مدينـة أول امبراطور مسيحى ، والآخـر خارجى يتعلق بالأخطار الناجمة عن ضغط الامبراطورية الفارسية المنافسـة ، والتهديد المتزايد للقبائل النازحة من الشـمال ، مما أدى الى اضـعاف المـوارد الامبراطورية • وبيما كان الشـرق بمنأى عن ذلك ، فان هـذه الاخطار قد عرضت النصف الغربى من الامبراطورية الرومانية للتفسـخ السياسى ، وقيام ممالك جديدة مستقلة تحت سيادة الغزاة الجرمان •

ولم تكن معالم ذلك التفكك المرتقب الشـطر الغربى من الامبراطورية الرومانية قد وضحت بعد على عهد قسطنطين العظيم • ولكن الشىء الذى أثار بعضـا من دهشـة ، هو اقدام الامبراطور على اتخـاذ جانب المسيحية (٤) ، وما تبع ذلك من تسامح ورعاية للكنيسـة المسيحية ، ذلك

---

(٣) أسقف ميلانو الشهير (٣٧٤ ـ ٣٩٧) وأحد أعمدة الكنيسـة الغربية ، وله مواقف مشهودة مع الامبراطور ثيودوسيوس الأول • أنظر Dect. de theol. وكذلك Nicene and post Nicene Fathers, vol. X. وأيضا Cath. art. Amb. vol. I E. K. Rand, Founders of the Middle Ages, pp. 69 - 101 للمزيد من التفاصيل أنظر للمترجم ، الدولة والكنيسة الجزء الرابع « المترجم » •

(٤) أثارت مسيحية قسطنطين وما تزال كثيرا من الجدل والنقاش ، وانقسمت الآراء بين قائل بأن قسطنطين قـد اعتنق المسيحيـة عن اقتناع ويقين ، وهذا الرأى ردده مؤرخو الكنيسـة قديما وعلى رأسـهم شيخهم

التسامح الذى لن يلبث أن يتحـول مع نهـاية القرن الرابع الى الاعتراف بالمسيحية دينا رســـميا ، واضطهاد كل العقائد الأخرى • ومع ذلك فان الطقوس الوثنية لم تذهب دفعة واحدة ، ولكنها اثاقلت متباطئـة عبر اجيال عديدة ، بل الى قرون طــويلة ، وان كان من العبث أن يدافـــع المرء عن التسامح ، أو الزعم بأنه يمكن التوصل الى مثل هـذه الحقيقة الواضـحة خلال طريق واحد فقط • ومهما تكن طبيعة « التحول » الذى اقــدم عليه قسطنطين ، فان اعتقاده فى اله المسيحية وايمانه بالارث الرومانى ، دفعاه الى الاقتناع بأن عليه أن يأخذ زمام المبادرة لايجاد وحدة عقيدية وتنظيمية داخل الكنيسة المسيحية • ولهذا فقد دعا وتراس اول مجمع مسكونى عرفته الكنيسة فى مدينة نيقية (٥) Nicaea سنة ٣٢٥ • وعلى هذا النحو جسد

=

يوساب Eusebius أسقف قيسارية فلسطين وتابعهم فى ذلك عـــدد من الدارسين المحدثين • والرأى الآخر يرفض هذا ويذكر أن قسطنطين كان سياسيا أريبا عرف كيف يستغل الأوضـــاع التى ترددت فيهــا المسيحية فى أوائل القرن الرابع لتحقيق مآربه السياسة فى وحدة الامبراطورية وخضوع الجميع لسلطانه ، وفى مقدمة هؤلاء بوركهارت J. Burckhardt الذى يصفه بأنه رجل « لادينى » • عن مسيحية قسطنطين والآراء التى دارت حولهـــا انظر للمترجم • الدولة والكنيسة • الجزء الثانى • الفصل الثالث • المترجم •

(٥) فى سنة ٣١٨ جهر آريوس أحد قساوسة الاسكندرية بآرائه فى الأقنوم الثانى فى الثالوث ، المسيح • وخلاصتها أن الآب هو الاله الحـق فى مقابل الابن الذى ليس الها حقا ، فهما يتعارضان بالضرورة على أساس التعارض بين غير المخلوق والمخلوق ، ومن ثم فليس هناك الهان لامتناهيان ، والابن ليس غير مولود وليس جـــزاء من غير المولود ولا يستمد كيانه من مادة • والله لم يكن دوما أبا ، لأنه كان وحيدا ، ولم يكن اللوجوس قد وجد بعد ، ثم أراد الله أن يخلق موجودا معينا اســـماه اللوجوس ، الحكمة ، الابن ، حتى يمكن أن يخلقنا بواسطته • ولهذا توجد حكمتان : حكمة خاصة بالله وأخرى يشارك فيها الابن • كما أن فى الله لوجوس أخرى غير الابن ، وقد سمى الابن باللوجوس تكريما • ولله قـوة طبيعية ليس كمثلها شىء ، سرمدية • أما المسيح فهو ليس القوة الحقيقية لله ، وانما هو احدى هـذه القوى ، وفى علاقتـه بالمخلوقات خالق ، أما علاقتـه بالآب فهو مخلوق ، وآلة للخلق وأداة • والآريوسيون فى ذلك يتصـــورون مسافة شاسعة بين

. . . .

=

الله والمخلوقات ، الأمر الذى يلزم منه أن الخلق المباشر محـــال • ومعرفة الابن بالله معـــرفة غير كاملة ، وذلك لأن الآب غير منظـور للابن ، فالابن لا يتأمـــل ولا يعرف تماما الآب • وما يراه الابن وما يعرفه فانمـــا يعرفه بالنسبة لقواه ، ان الابن لا يعرف حتى طبيعته هو • وقد رفض اســـكندر اســقف الاسكندرية هــذه الآراء • وعقد مجمعين فى ســنتى ٣١٩ و ٣٢١ ادان فهمـا آريوس وآراءه ، وقد انتشرت الأفكار الآريوسية فى فلســطين وسوريا ، ولقيت هناك رواجا وتشجيعا خاصة من يوساب أسقف نيقوميديا ، الذى كان زميلا لآريوس فى المدرســة الأنطاكيــة • وكان طبيعيا أن تسود العقيدة الآريوسية هناك حيث كانت مدرسة انطاكية تتبع المنهاج الارسطى العقلى فى تفسير الكتاب المقدس ، رغم أن الفكرة الآريوسية تقترب من الفكر الافلاطونى • ولما اصبح قسـطنطين حاكم الامبراطورية الفرد ، أرســل مستشاره الدينى هوسيوس Hosius اسقف قرطبة الى الاسكندرية لحل هذا الخلاف وحمله رسالة الى اسكندر وآريوس تفصح عن مدى سطحية قسطنطين فى الأمور اللاهوتية • وقد فشــل هوسيوس فى مهمته ، فدعا الامبراطور الى عقد مجمع عام يضم اســاقفة الامبراطورية ليكون قراره ملزما لجميع الاطراف ، مستفيدا فى ذلك بتجربته مع الدوناتيين فى شــمال افريقيا • وكان هذا المجمع هو أول مجمع مسكونى عرفته الكنيسة ، حضره حوالى ٣١٨ أسقفا يمثلون كنائس الامبراطورية ، واصـدر المجمع قراره فى النهاية ، بعد مناقشات طويلة ، بادانة الآريوسية ، وجاء فى مرسوم الايمان الصادر عنه أن الابن « مساو للآب فى الجوهر » أو ما عـرف بالهوموسية Homoousius وأنه « مولود غير مخلوق » • واصبح هذا المرســوم هو قاعدة الايمان الأرثوذكسى للكنيسة الجامعة فيما بعد وان كان مصطلح الهوموسية قد فتح باب الجدل اللاهوتى على مصراعيه بعد ذلك •

انظر EVSEB, vita Const. 11, 61, 65 - 66, 69 - 72, 111, 6 - 8, 10 - 13

وكذلك SOCRAT. hist. eccl. 1, 5, 7 - 8, 10, 13

و SOZOM. hist. eccl. 1, 15 - 17, 19, 24, 26

و THEOD. hist. eccl. 1, 3 - 5, 7, 11

و ATHANAS. depos. Ar., hist. Arian. 66, de decr. 11, 3, 111, 6.

وراجع Dict. theol. Cath. 1. 2. col. 1784 - 86

وأيضا A dictionary of Christian biography, art. Arianism

وكذلك Duchesne, histoire ancienne de l'eglise, 11, p. 144,

و Hefele, op. cit., pp. 231 - 349

وللمترجم : الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى الفصل الخامس • المترجم •

قسطنطين التفاهم بين الكنيسة والدولة الذى يميز الامبراطورية الرومانية فى العصور الوسطى • ولقد وضع مؤرخه الأسقف يوساب (٦) Eusebius أسس نظرية السيادة المسيحية ، مؤكدا لا على الاختلاف القائم بين المدينتين ، أو ما هو لله وما هو لقيصر ، ولكن على الامبراطورية المسيحية باعتبارها حقا زمنية ، وان كانت فى الوقت ذاته مقدسة لكونها اداة الهية ، يحكمها امبراطور يعد نائبا للمسيح على الأرض • ومن ثم فان لقبى « الحوارى الثالث عشر » أو « قرين الرسل » يعبران بصدق عن مكانة قسطنطين العظيم فى دولة العصور الوسطى •

---

(٦) أسقف قيسارية فلسطين (حوالى ٣١٣ ـ ٣٤٠) ، كان تلميذا لبامفيليوس Pamphilius أشهر شيوخ كنيسة قيسارية فى نهاية القرن الثالث وأوائل الرابع ، شديد التعلق به ، حتى غلب عليه اسم أستاذه • شهد بعينى رأسه فترتين من أهم الفترات فى تاريخ الكنيسة ، مرحلة الاضطهاد الاعظم ، ثم ميل الدولة الى المسيحية زمن قسطنطين ، وأعرب عن سعادته بهذا التزاوج بين الدولة والكنيسة فى أوائل القرن الرابع • وضع كتابين هما • تاريخ الكنيسة Historia Ecclesiastica تناول فيه أحداثها منذ المسيح حتى موقعة خريسوبوليس Chrysopolis سنة ٣٢٣ التى انتصر فيها قسطنطين على منافسه ليكينيوس وامتدح فى نهايته الامبراطور ، وهلل لهذا النصر الذى حسبه انتصارا للكنيسة المسيحية • أما الكتاب الثانى وهو « حياة قسطنطين » Vita Constantini فيعتبر قصيدة نظمها فى مدح الامبراطور ، وذكر ذلك بنفسه فى مقدمة الكتاب حيث أعلن انه سوف يحدث فقط عن فضائل الامبراطور ، ورفع قسطنطين بهذا الكتاب الى عليين حتى بلغ مصاف الحواريين • ولما كان يمثل جانب الاعتدال ابان احتدام الجدل الآريوسى ، فقد كان من اخلص أصدقاء الامبراطور ، خاصة بعد أن رفض ترسيمه أسقفا لأنطاكية خلفا ليوستاثيوس Eustathius الذى عزله اليوسابيون حتى لا يساعد على اشعال نيران الفتنة فى انطاكية • انظر المقدمة الرائعة التى كتبها McGiffert عن يوساب فى المجلد الأول من Nicene and post Nicene Fathers وكذلك ما كتبه Richardson عنه أيضا فى فس المجموعة عند تقديمه لكتاب « حياة قسطنطين » •

وراجع Dict. theol. Cath. art. Eusb.

وأيضا Vasiliev, op. cit., p. 119

وكذلك Burckhardt, The age of Constantine the Great, pp. 260 - 261

Latourette, A hisory of Christianity, pp. 154 - 155,

وانظر للمترجم الجزء الأول من الدولة والكنيسة • « المترجم » •

ولم تشهد الامبراطورية خلال القرن الرابع أى تغير مفاجىء فى كثير من النواحى ابان هذه الفترة المبكرة ، وربما كان من المناسب أن نطلق عليها عصرا رومانيا متأخرا أو بيزنطيا متقـــدما • فقد أظهرت ارتباطها الثقافى الكامل بالعالم الهلنستى ، ولم يعن اتخاذ جانب المسيحية نبذ الحضـــارة الوثنية ، اذ ظل التعليم والفن والفلسفة اليونانية أشياء تزهو بها بيزنطـة المسيحية • وكانت حكومتها فى جوهرها هى نفسها حـكومة الامبراطورية اليونانيـة ـ الرومانيـة ، حيث استمرت تحكم بواســـطة حاكم فرد تزداد سلطته نتيجة لمركزه الخاص ، باعتباره الممثـل المختـــار لاله المسيحية • أما الخدمات الادارية والمدنية فكانت ثمرة تجربة طويلة ، وقد تعرضت لحركة تجديد شاملة على يد دقلديانوس Diocletian وقسطنطين ، هيأت الجهـاز الحـــكومى كى يصبح قاعدة التطوير المقبـــل • وضمنت فى الوقت ذاته استمرارية السلطة المركزية وفعاليتها • ولا شـــك أن الامتداد الواســـع للامبراطورية جعـــل من الضرورى توجيـــه اهتمام خاص الى التنظيمات الاقليمية ، ومن ثم فانه مع نهـاية القرن الرابع كان هنـاك أربعـة أقاليم : اقليم الشرق (ويضم مصر وآسيا الصغرى وتراقيا) ، والليريا Illyricum (ويشمل وســـط البلقان وبلاد اليونان) والاقليم الايطالى (ويحتوى على ايطاليا وشمال البلقان ودلماشيا Dalmatia وجزء من أفريقيا) ، واقليم الغـال (و يتكون من بريطانيا وغالة واسبانيا وغربى موريتانيا) • وكانت هذه المساحات الشاسعة تنقسم فى داخلها الى ولايات عديدة تنقسم بدورها الى مقاطعات • ولم يعد لايطاليا أى مركز تنفرد به • وحددت سلطات الولاة البريتوريين فى أضيق نطاق ، وانحصرت منذ عهد قسطنطين على الناحيـة المدنية فقط ، وكفت أيديهم عن ادارة القسطنطينية وروما ، ووكل أمر كل منهما الى الحاكم المدنى eparchos • أما سلطانهم على دوائر الحكومة المركزية فقد قيد بظهور طبقة الموظفين المتنافسين وعلى رأسهم كبير الموظفين Master of Offices ولم يكن تضاؤل سلطة الولاة البريتوريين الا مظهرا واحـدا فقط من مظاهر التغيير والتكيف المستمر لنظام الادارة الرومانى ، وليس أدل على هذا من أن الناحية العسكرية شهدت هى الأخرى عملية اعادة تنظيم وتعديلات مشابهة ، فقد تم فصل السلطتين المدنية والعســكرية فى الولايات ، بحيث أصبح القائد dux يتمتع بالسلطة العسكرية وحدها ،

وان كان ممكنا أن تمتد سيادته لتشمل عددا من الولايات • وقد أدى ذلك الى ازدياد قوة الامبراطورية من ناحية عن طريق تقوية وسائلها الدفاعية على الحدود ، خاصة تلك القوات التى كانت تقيم فى هذه المناطق وتحصل غالبا على الأراضى مقابل الخدمة العسكرية ومن الأخرى بتكوين قوة متنقلة يمكن أن يدفـــع بهـــا ضـــد الغزاة فى أى منطقة على الحدود الطويلة للامبراطورية ، أو تستخدم اذا دعت الضرورة لاخماد أية فتنة يثيرها مدع للعرش •

وكانت الناحية العسكرية فى حقيقة الامر تمثل المسألة الأســـاسية بالنسبة للدولة البيزنطية فى أول أمرها ، فالجيش الذى كان أفراده وقواده من العناصر الجرمانية ، طالمـا تم استدعاؤه ليصـد زحـوف البرابرة فى الشمال ، أو ليواجه الضغط العنيف الواقع على الشرق من جانب ملك الملوك الفارسى • ويبدو أن تزايد الأخطار على الدانوب والجبهة الشرقية ، كان من بين العوامل التى دفعت قسطنطين (ومن قبله دقلديانوس) الى اختيار النصف الشرقى من الامبراطورية لنفســـه ، وترك الغرب تحت ســـيادة زميله (٧) فقد كان الشرق أنذاك يعتبر مركز الثقل فى الامبراطورية ، حيث كان الشطر الشرقى Pars orientalis أكثر ثراء بموارده الاقتصادية وكثافته السكانية ، وموطن النشاط الثقافى والعقيدى الخصب يزخر بمدنه الكبيرة شأن المدينتين العالميتين ، الاسكندرية وانطاكية ، بل وحتى هـــذه المدينة الامبراطورية الجديدة على البسفور ، التى نمت نموا سريعا بحيث أضحت تنافس روما •

٢ ــ غزوات البرابرة ونجاة نصف الامبراطورية الشرقى :

شهدت الامبراطورية خلال الفترة الأخيرة من القرن الثالث وطـوال القرن الرابع ، عددا من أنظمة الحكم المختلفة ، التى تتأرجح ما بين السيادة المطلقة لامبراطور فرد الى حـــكومة رباعيـــة (٨) أكثر اتقانا ابتدعهـــا

---

(٧) كان هذا النوع من « الامبراطور الشريك » أمرا عاديا • انظر بعده

(٨) اعتلى دقلديانوس عرش الامبراطورية ســنة ٢٨٤ . وأدرك أنه لا يمكنه وحده ادارة دفة الحكم فى الامبراطورية الواسعة منفردا ، فاختار

دقلديانوس ، ورغم أنه كان هنـــاك امبراطور شريك او اكثر ، الا أن الذى لا شك فيه هو أن الامبراطورية بقيت واحدة دون انقسام · ومع ذلك فان كلا من شطرى الامبراطورية الشرقى والغربى ، اخذ يختط لنفسه طريقا مغايرا ، لكل منهما مشاكله السياسية الخاصة ·

وفى عـــام ٣٩٥ حضرت الامبراطـــور ثيودوســـيوس العظيـــم Theodosius the Great الوفاة ، فترك حكم النصف الشرقى لابنه الأكبر أركاديوس Arcadius بينمـــا آل نصفهـــا الغربى الى ولـــده الصغير هونوريوس Honorius مع بقاء وحدة الامبراطورية قائمة ، يدل على ذلك أن القوانين التى كانت تصدر فى احد شطرى الامبراطورية ، كانت لها شرعيتها عند اذاعتها فى النصف الآخر · غير أن الأحداث السياسية أدت الى تحطيم الحكم الرومانى فى الغرب ، ذلك أنه منذ نهـــاية القرن الرابع وحتى عهد جوستنيان Justinian فى منتصف القرن السادس افتقد الغرب (أعنى ولايتى ايطاليا وغالة) الأباطرة المقتدرين ، ولم يكن من ســـبيل لتفادى الانحلال فى مواجهة ضغط البرابرة الا بمقدرة هؤلاء القادة الذين استولوا على مقاليد الأمور هناك ، وكانوا هم انفسهم ينتمون فى الغالب

=

زميله ماكسيميان Maximianus وخلع عليه مرتبة الأوغسطية وجعله امبراطورا شريكا فى حكم الامبراطورية ، وعهد اليه ادارة النصف الغربى · وازاء الثورات التى اندلعت فى الامبراطورية فقد عين مســـاعدين آخرين حمل كل منهما لقب قيصر ، جاليريوس Galerius فى الشرق وقسطنطيوس Constantius فى الغرب · ولما كانت آفة النظام السياسى فى القرن الثالث هى تدخل الجيش فى السياسة ، مما أدى الى اعتلاء ستة وعشرين امبراطورا العرش فى مدى نصف قرن (٢٣٥ ــ ٢٨٤) قتلوا جميعا عدا أحدهم ، فقد عمد دقلديانوس الى الافادة من نظام الحكومة الرباعية Tetrachia هـــذا لضمان الاســـتقرار السياسى ، حيث يعتلى القيصران الى مرتبـــة الأوغسطية بعد وفاة الأوغســـطين أو اعتزالهمـــا ، ويتم اختيار قيصرين جديدين لهما وهكذا · ولكن هـــذا النظام فشـــل بعد اعتزال دقلديانوس مباشرة · للمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث راجـــع للمترجم : الدولة والكنيسة ــ الجزء الثانى ــ الفصل الثانى ·

لأصول جرمانية مثل ستليكو Stilicho وريكيمار (٩) Ricimer .

وكانت القبائل الجرمانية المهاجرة مصدر قلق بالغ للامبراطورية لفترة طـــويلة ، ولن يمضى وقت طـــويل حتى تصبح لهم السيادة على ولايات الامبراطورية فى الغرب من بريطانيا القصية الى ايطاليا وشمال افريقيا . ولا يعنى هذا أن الشرق قد سلم من الأذى ، فقرب نهاية القرن الرابع هطل القوط ، الذين طالما ناكدوا اقاليم الحـــدود ، على البلقان واوقعوا بالجيش الامبراطورى هزيمة ساحقة فى سنة ٣٧٨ (١٠) ، وتبع ذلك استقرار عدد

---

(٩) ستليكو هو احـــد القادة الجرمان الذين ذاع صيتهم فى النصف الغربى من الامبراطورية ، جمع بين الشجاعة والطموح والذكاء والكفاءة . تولى الوصاية على الامبراطور هونوريوس عام ٣٩٥ ، وقد نجح فى التصدى لهجمات القوط الغربيين على روما اكثر من مرة فى بواكير القرن الخامس ولم يتمكن الاريك من اجتياحها والاستيلاء عليها ، الا فى سنة ٤١٠ بعد أن ثم اعدام ستليكو عام ٤٠٧ على يد هونوريوس بتهمة الخيانة . أما ريكيمار فقد كان أيضا احد قادة الجرمان ، ينتمى لقبائل السويفى ، انتهز فرصـــة الفوضى التى أعقبت مقتل فالنتينيان الثالث Valentinian III سنة ٤٥٥ . وراح يولى الأباطرة ويعزلهم بمحض ارادته حتى عـــام ٤٧٢ . ولـــم يكن ينقصه فقط الا حمل اللقب الامبراطورى .

انظر C. M. H. I, pp. 260, 262, 265, 269 sqq, 310, 424

وايضا Thompson and Johnson, op. cit., pp. 90, 92 100 . المترجم .

(١٠) فى سنة ٣٧٦ سمح امبراطور القسطنطينية فالنز Valens لقبائل الفيزيقوط بعبور نهر الدانوب والاســـتقرار فى البلقان ، هربا من زحف الهون الآسيويين ، وكان الامبراطور يهـــدف من وراء ذلك الى تعمير الأراضى القاحلة فى البلقان ، والى أن يجعل منهم سدا منيعا أمام الهون اذا ما فكروا فى عبور الدنواب . لكن الامبراطور لم يضـــع فى اعتباره توفير الاحتياجات الضرورية التى يتطلبها هذا العدد الهائل من النازحين . وعلى امتـــداد سنتين قاسى القـــوط الغربيون من ســـوء معاملة موظفى الامبراطور الذين استغلوا المجاعة التى كان يعانى منها القـــوط وباعوهم لحوم الكلاب المائتة والقطط ، ثم باعوا القوط انفسهم فى الأقاليم ، مما أدى الى اشعال نيران التمرد بينهم ، على اثر المذبحة التى أوقعهـــا لوبكينوس القائد العسكرى فى تراقيا بحامية قوطية ، مما أدى الى وقوع الصدام بين جيش الامبراطورية والقوط الغربيين عند ادريانوبل Adrianopolis (حاليـــا ادرنة) فى تراقيـــا ، ودارت الدائرة على الرومان ولقى فالنز

كبير من القوط فى البلقان حيث تم الاعتراف بهما كقوة عسكرية احتياطية (معاهدين Feoderati) · ولكن هذا الاجراء أرهق الامبراطورية من أمرها عسرا ، فقد أثبتت هذه الجماعات انها مبعث ازعاج (للامبراطورية) ، اذ نهبوا البلقان وسلبوا بلاد اليونان انى شاءوا ، وكان لهـذه الأحـداث آثارها السياسية البعيدة ، حيث لم تستطع حـكومة القسطنطينية أن تتنفس الصعداء الا عندما أمكن تحويل أنظارهم الى منطقة اخرى . فبعد أن نهب القوط الغربيون Visigoths روما سنة ٤١٠ (١١) ، انسابوا الى جنوب فرنسا

مصرعه . وكان لهذه الموقعـــة نتائجهـــا البعيدة فى علاقة الامبراطورية بالجرمان ·

أنظر . Jones, Later Roman Empire, I, pp. 152 - 4

وأيضا : اومان : الامبراطورية البيزنطية · ص ٢٨ ـ ٣٤ ·

وكذلك Thompson & Johnsen, op. cit., pp. 89 - 90

و Davis, op. cit., pp. 22 - 23 وراجع الكتابين الأخيرين من Res Gestae الذى وضعه المؤرخ الوثنى المعاصـر أميانوس ماركلينوس Ammianus Marcellinus ووقف فى نهايته عند هذه المعركة ومقتل الامبراطور فالنز · المترجم ·

(١١) كان الاستيلاء الاريك زعيم الفيز يقوط على روما ســـنة ٤١٠ ردود فعل واسعة متباينة فى مختلف الأوساط ، فالوثنيون القوا تهمة هذا السقوط على المسيحية ، وأعلنوا أن الأرباب الرومانية القديمـة هى التى قادت خطو الرومان الى النصر عنـــدما كانوا يتمسكون بعبادتها ، فلما هجروها ـ أو على الأقـــل بعضهم ـ الى المسيحية غضبت الأرباب وتخلت عن روما ابان محنتها · وقد انبرى القديس أوغسطين Augustine أسقف بونة Hippo فى شمال أفريقيا ، للرد على هذه الاتهامات والدفاع عن المسيحية ، فوضع كتابة الشهير « مدينة الله » De Civitate Dei الذى تناول فيه هذه الاتهامات الوثنية وفندها ورد عليهـــا بحجج مقابلة ، وانتهى الى أن المدينة كان لابد أن تسقط ، لأن الله أراد ذلك ، لأنها لم تقم منذ البدء على فكرة العدالة ، هذه الفكرة تجد تجسيدا لها فى « مدينة الله » ، وهى ليست الكنيسة او البابوية كمـــا اعتقد الكثيرون فى القرون التالية ولكنها موجودة فى النفس الانسانية المؤمنة ، واعتبر هذه الحياة الأرضية مجرد رحلة حج بين الأشرار ، تجربة يخوضها المؤمن الحق للوقوف على مدى صلاحيته لمدينة الله ، لحظة عابرة فى اللانهائى ·

أنظر St. Augustine, The city of God, trans. by Marcus Dods

واسبانيا . على حين أفلح الامبراطور زينون Zeno فى وقت متأخر من القرن الخامس ، فى أن يبعث بأعـــداد غفيرة منهم الى ايطاليا ، فجاءوها رجالا ونساءا وأطفالا فى عام ٤٨٨ يقود جمعهم ثيودوريك Theodoric القوطى الشرقى (١٢) .

ومع نهاية القرن الخامس أمست ايطاليا ، شأن معظم ولايات الغرب ، وقد ضاعت من الامبراطورية . وكانت ســلطة الأباطرة الرومان . خلفاء ثيودوسيوس العظيم ، قد انتقلت الى أيدى القــادة الجرمان ، وأصبحت سيادة شبه الجزيرة فى قبضـــة أودواكر Odoacer . ومع ذلك فقد تمكن ثيودوريك زعيم القوط الشرقيين Ostrogoths من تثبيت نفـــوذه فى ايطاليا ، لا بوصفه امبراطورا ، ولا حتى حاكما مستقلا مثـــل معاصره كلوفيس Clovis ، ولـــكن باعتباره ممثـــل الامبراطور الرومانى فى القسطنطينية ، وقد سار ثيودوريك فى رعيته سيرة حسنة حتى أصبح جديرا بأن يطلق عليه « امبراطور صالح » ، كما جرى ذلك على قلم معاصره الأصغر فى القرن السادس بروكوبيوس Procepius .

وبينما أمسى الغرب بين يدى هؤلاء المستوطنين الجدد ، كان الشرق أسعد حظا بكثير ، ذلك أن العهد الزاهر لثيودوسيوس الثانى Theodosius II (٤٠٨ ـ ٤٥٠) بما شهده من عناية بالتعليم وانشـــاء الجامعة ، وادارة ذائعة الصيت ، واتساع لحدود المدينة ، واقامة للأسوار الحصينة الضخمة

=

وراجع المقدمة التى كتبها المترجم ماركوس دودس ،
وأيضا Davis, op. cit., pp. 38 - 42
وكذلك Hughes, A history of the church, pp. 23 - 24 .
و C. M. H. I, pp. 170, 173, 575 sqq. وراجع الدراسة الخاصـــة التى قدمها الدكتور اسحق عبيد عن « مدينـــة الله » فى كتـــابه : الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ، ص ١٣٩ ـ ١٥٢ .
وأيضا Rand, Founders of the Middle Ages, pp. 266 - 272
و D. knowles, The evolution of Medieval thought, pp. 32 - 50
وانظر كذلك F. Copleston, A History of philosophy, Vol. II Mediaeval philosophy, part I, pp. 102 - 105.
وأيضا G. Leff, Medieval thought, p. 41 . المترجم .

(١٢) انظر قبله حاشية رقم ١ ص ٧٣ . المترجم .

التى تحمى القسطنطينية من ناحية البر ، يقابله ذلك القدر التعس للشقيقة القديمة روما .

غير أن الشطر الشرقى كانت له هو الآخر مشاكله ، فمع انه فى نهاية القرن الخامس سـوف تتمكن العناصر الجرمانية ، التى كانت قد دخلت الامبراطورية فى شىء من القوة مستوطنين وجنـودا ، من السيطرة على الحكومة الامبراطورية نفسها ، كما حدث من قبل فى روما ، الا أن اعدادا كبيرة منهم صرفت ثانيـة تلقاء الغرب ، ولـكن الأهـم من ذلك ، أن الشرق استطاع أن يعتمد على أهله فى نجود آسيا الصغرى كى يجعل منهم جنـدا وقادة تمكنوا بنجـاح من التصـدى للجـرمانى اسـبار(١٣) Aspar

(١٣) كانت معركة أدريا نوبل سنة ٣٧٨ فاتحة عهد جديد فى العلاقة بين الامبراطورية والجرمان ، فقد تحولوا من جنـد مرتزقة الى معاهدين ، وارتقوا فى سلك المناصب العسكرية حتى احتلوا مراكز القيادة ، وسـاعد على ذلك السياسة التى اتبعها ثيودوسيوس الأول ـ كارها ـ بالاعتماد عليهم فى تكوين الجيش ، وخلا العرش من شخصية قوية فى الشرق والغرب على السواء بعد وفاته ، فازداد نفوذهم فى العاصـمة بدرجة كبيرة متمثلا فى جايناس Gainas زمن أركاديوس ، وأسبار الذى كان السبب المباشر فى اعتلاء كل من مارقيان Marcianus (٤٥٠ ـ ٤٥٧) وليو الأول (٤٥٧ ـ ٤٧٤) عرش الامبراطورية ، وراح يباشر سلطات واسعة ، وكف أيدى ليو عن ممارسـة سلطاته . وكان ابنـه اردابور Ardaburius قائـد لجيش الشرق ، بينما كان ابنه الثـانى باتريكيوس Patricius يحمـل لقب قيصر وزوجا لابنة ليو . وقد انتهز ليو الأول فرصـة ازدياد العـداء من جانب الرومان فى العاصمة تجاه الجرمان ، وموجة السخط التى علت نتيجة فشل الحملة العسكرية التى وجهت ضد الوندال سنة ٤٦٨ ، وافاد من المساعدة التى قدمها له الايزوريون فى آسـيا الصـغرى تحت زعامة تراسيكوديسا Trasicodissa ، الذى اصبح الأمبراطور زينون Zeno فيما بعـد ، ووجهت الى أسبار ، وابنائه تهمة الخيانة ، وتمت مباغتة اسبار وقتله هو وابنه اردابور ، وجرح باتريكيوس الذى ابقى على حياته بعد أن جرد من كل سلطاته ، اما الابن الثالث هرمانريش Ermanerich فقد نجا بنفسـه هاربا وقد فشلت كل المحـاولات التى بذلها انصار اسـبار لاستعادة نفوذ الجرمان فى العاصمة ثانية .

انظر Jones, Later Roman Empire, 1, pp. 221 - 223

ولنفس المؤلف The decline of the Ancient World, pp. 127 - 133

واتباعه • وبرهنت اسيا الصغرى انذاك ، كما اثبتت ايضا فيما بعد ، انها عضد الامبراطورية •

اما الأخطار الحقيقية التى عانى منها الشرق فكانت ذات طبيعة مغايرة ، اذ ان الامبراطورية الساسانية الفتية كانت ترتكز فى قوتها على امتدادها ناحية الشرق • وقد راحت القوتان تتطلعان بعين ملؤها الشره الى منطقة القوقاز الاستراتيجية • وتناوران من اجل الحصول على حليف فى هذه الأقاليم ، وسعت كل منهما لتدعى لنفسها قدرا من السيادة على المناطق الصحراوية المتاخمه للولايات الرومانية فى سوريا وفلسطين ومصر • ورغم ان العلاقات بين الفرس والرومان على الجبهة الشرقية قد اتسمت بطابع التيقظ الحذر والنزاع المستمر ،الا ان الفرس كانوا يمثلون للرومان خصما يختلف تماما عن اولئك البرابرة الذين اغرقوا الامبراطورية بسيل طوفانهم العرم • فقد كان الفرس اصحاب تقاليد مرعية وحضارة تقابل حضارة العالم اليونانى ــ الرومانى ، حتى انه كان فى مقدور المؤرخ الرومانى ثيوفيلاكت « القط الأفطس » (١٤) Theophylact Simocattes ان يكتب فى نهاية القرن السادس قائلا : « منذ البدء قضت العناية الالهية ان تزدان الدنيا بعينين وضاءتين ، مملكة الرومان القوية القادرة ، وصولجان الحكمة فى الدولة الفارسية » •

وكذلك C.M. H. vol. 1, pp. 395, 467 - 471
وايضا Vasiliev, op. cit., 1, p. 104 • المترجم •

(١٤) يعتبر من اشهر مؤرخى الفترة البيزنطية الأولى ، وهو ينتمى لأصل مصرى ، عاش فى أواخر القرن السادس وأوائل السابع ، وشغل وظيفة أمين البلاط • وقد خلف لنا كتابات فى التاريخ الطبيعى ، ومجموعة من الرسائل ، ثم وضع تاريخا لعهد موريس (٥٨٢ ــ ٦٠٢) ويتميز اسلوبه باستخدام البديع بشكل واضح ، ويتفوق على بروكوبيوس واجاثيا فى الكتابة ، بما يفاجىء به القارىء من ومضات لا يتوقعها من الخيال والمجاز والماثورات والأساطير • وهو يمدنا فى كتابه عن موريس بمعلومات وافية عن فارس وعن الصقالبة فى البلقان فى أواخر القرن السادس •

انظر Jones, Later Roman Empire, 1, p. 303, 11, 1010.
ايضا Vasiliev, op. cit., 1, pp. 181 - 182 • المترجم •

لكن أخطـــار السخط الهادر فى الولايات الشرقية كانت تفوق بكثير المطامح العسكرية لدى الامبراطورية الفارسية ، وكان الاستياء المتزايد تجاه الحكم الرومانى يلاحظ بوضوح فى ســوريا وفلســطين ومصر ويعــود فى جوهره الى ظهور الشعور المحلى بالانتماء الى طرائق الحيـــاة الشرقية ، وليس الغربية أو اليونانية ـ الرومانية · وقد تبدت هذه الانفصالية فى عدد من المظاهر مثل الاهتمام باللغات والآداب الوطنيـــة التى ظهرت جنبا الى جانب اليونانية وسيلة الاتصال العالمى آنذاك · ففى مصر كانت القبطية ، اللغة الوطنية ، تستخدم على نطـاق واســع فى الحيـاة اليومية ، وغالبا ما كانت اللغـــة الوحيدة المفهومة أو المقروءة · وفى الأديرة الكبيرة حيث نجـــد الرهبان يتحدثون القبطية واليونانية ، وحيث كان من المتوقع قدوم عديد من الزائرين من عالم البحر المتوســـط ، كان من الضرورى وجـــود المترجمين · ولقد انعكست بشكل حاد كل هذه الاختلافات اللغوية والتنافر السياسى فى المشاكل الدينية منذ القرن الرابع وما تلاه من زمان · وكان المجمع المسكونى الأول قد دعى للانعقاد فى سنة ٣٢٥ على يد قســطنطين العظيم ، لمناقشة واقرار مشاكل العقيدة ومسائل التنظيم الكنسى · ورغم أن هذا النظام المجمعى لم يكن السبيل الوحيد لحسم المشـــاكل الكنسية ، الا أنه اتبع على نطاق واسع خلال العصور الوسطى · وكانت الكنيســـة المسيحية قد بلغت درجة متقدمة فى النواحى التنظيمية ، عندما حصلت على اعتراف امبراطورى بها سنة ٣١٣ ، وقام بالدور القيادى فى هذا السبيل أســـاقفة الكراسى الكبرى فى روما وأنطاكية والاســـكندرية ، وسرعان ما ضمنت القسطنطينية لنفسها خــلال القرن الرابع مركزا مرموقا ، ورغم أنه فى المجمع المسكونى الذى عقد فى القسطنطينية عام ٣٨١ ، وقرينه الذى التأم جمعه فى خلقيدونية Chalcedon سنة ٤٥١ ، تم التأكيد على أن كرسى القديس بطرس له الأسبقية فى المكانة على بقية الكنائس · الا أن القسطنطينية حققت على نحو سريع تقدما كبيرا فى المرتبة والأهمية ، حتى أنها أزاحت الاسكندرية وأنطاكية ، واحتلت الآن المركز الثانى (١٥) ، وأصبح لأسقف

---

(١٥) كان من بين القوانين الخمسة بالتنظيم الكنسى التى صدرت عن مجمع نيقية (المسكونى الأول) سنة ٣٢٥ ، القانون السادس ونصه « يتمتع

القسطنطينية التقدمة بعد أسقف روما لأن القسطنطينية هى روما الجديدة » (القانون الثالث لمجمع القسطنطينية عام ٣٨١) • وكان هذا القانون ضربة قاضية لبطاركة الاسكندرية والملوك غير المتوجين لمصر الرومانية » (١٦) •

ولقد غدا واضحا كما ادرك قسطنطين العظيم ، انه ليس من اليسير ايجاد الوئام والوحدة داخل الكنيسة المسيحية • وكان هناك الكثيرون الذين مازالوا يتمسكون بشكل او آخر من العبادات الوثنية ، كما كان هناك ايضا المتشككون الذين ارتابت قلوبهم فى كل العقائد على الاطـلاق • وكان على الكنيسة ان تواجه من جديد تحديات ذوى العقول الأريبة والمفكرين النابهين، ونتيجة لذلك ، واستجابة لمتطلبات الناحية التعليمية فيها ، راحت الكنيسة توضح تفصيلا وتعدد عقيدتها ، وكان محور التعليم فيها يدور حول الاله المسيحى ، ولكنها لقيت العنت الأكبر حين حاولت ان تحدد طبيعة ذلك الاله • وعلى موائد تلك اللقاءات العاصفة التى شهدتهـــا المجـامع الكنسية بذل الأساقفة ، وغالبهم من الاسقفيات الشرقية اذا ما قورنوا بالغرب الذى كان ما يزال اقل كثافة سكانية ، ولم يصـل الى نفس الدرجة من ناحية التنظيم

أسقف الاسكندرية بحق الاشراف على ، ورعاية ، كنائس مصر وليبيا والمدن الخمس الغربية ، كما جرى بذلك التقليد القديم ، ويراعى هذا الحق ايضـا لأسقف روما واسقف انطاكية كل فيما تحت سيادته » وكان هـــذا اعترافا باسبقية الأسقفيات الثلاث على ما عداها ، ومن الطبيعى أن لا يتضمن القانون القسطنطينية ، لأن المدينة لم تكن قد بثيت بعـــد • ومن ثم فانه فى المجمع المسـكونى الثانى الذى عقد ســنة ٣٨١ فى القسطنطينية ، نص القانون التنظيمى الثالث الصادر عنـــه على ما يلى : « لأسقف القسطنطينية حق التقدمة فى الكرامة بعد أسقف روما ، لان القسطنطينية هى روما الجديدة » ومن المعروف أن هــذا القانون لا يمس مكانة اسقف روما ، ولكنه ينعكس بصورة مباشرة على مكانة كنيستى الاسكندرية وانطاكية ، كمـا ان القانون الثامن والعشرين من قوانين مجمع خلقيدونية ساوى بين القسطنطينية وروما فى المرتبة ، مما سيؤدى الى نتائج بعيدة المدى فيما بعد •

انظر فى ذلك Percival, The Seven Ecumenical Councils, (Nicene and post Nicene Fathers, vol. XIV) pp. 15 - 16, 178 - 179.

وايضا Hefele, op. cit., pp. 388 - 404, II, pp. 357 - 359 • المترجم •

وراجع للمترجم • الدولة والكنيسة ــ الجزء الخامس •

(١٦) انظر N. H. Baynes. Byzantine studies. p. 97.

الكنسى ، بذلوا الجهد كل الجهد بحثا عن الرشد لأنفسهم والهداية للأجيال التالية عن طريق وضع تعريف دقيق للثالوث ، خاصة الأقنوم الثانى فيه ، الاله الابن ، غير أن العـــداء الكامن بين الكراسى الاسقفية الكبرى ، أدى الى تصعيد الكراهية السياسية ، بل وحتى المنافسة الشخصية ، مما تمخض فى النهاية عن انشقاق مشين واليم ، لكن هذه السهام المقدسة التى كثيرا ما رمى بها الخصوم بعضهم ، وتلك التسجيلات الحافلة بلحى نتفت أو أطراف ثلمت ، لا ينبغى أن تضع فى طى الغموض الأعمال البناءة لرجال الكنيسة الأوائل ، ذلك أن صياغتهم المتقنـــة للعقيـــدة المسيحية قد أرست الدعائم الأساسية التى مازال يقوم عليها الى الآن التعاليم واللاهوت المسيحى •

وقد استؤنف جدل القرن الرابع حول الثالوث على يد آريوس Arius واتباعة الذين اكدوا أن الاله الابن اقل من الاله الآب • ومنذ القرن الخامس حتى السابع ، سعر لهيب الجدل الكريستولوجى وظهر بشكل واضـــح فى اتجاهين متطرفين ، اولئك الذين يصـرون على طبيعة واحـــدة (المنافزة Monophysites) وأولاء الذين ينادون بطبيعتين منفصلتين (النساطرة Nestorians) أتباع نسطور Nestorius الذى ذاع صيته عندما انفجر النقاش اللاهوتى فى بواكير القرن الخامس (١٧) • وفى مواجهـــة هذين

---

(١٧) اتسم جـــدال القرن الرابع بالصبغة الآريوسية القائلة بخلق المسيح والرد عليها من القول بولادته ، ودار الجدل حول « مســـاواته » بالآب أو « شبهيته » بين الآريوسيين والنيقيين وبين الآريوسيين وانفسهم • أما القرن الخامس فقد طغى عليه الحوار حول طبيعة المسيح ، واحدة هى أم اثنتين ، وزاد من اواره ما داخله من صراع بين الكنائس الرسـولية فى الأمبراطورية حول الزعامة • ففى أوائل القرن الخامس ، جهر نسطور أسقف القسطنطينية برايه القائل ان العذراء هى أم المسيح البشر وليست أم الاله ، وهو هنـــا يغلب الطبيعـــة البشرية فى المسيح • وكان طبيعا أن تثـــور القسطنطينية لان أسقفها يجرد ربتها « العـذراء » من قداستها ، ولما كان الامبراطور ثيودوسيوس الثانى رجلا تقيا ورعا ، فقد استجاب لنداء أسقفه الذى خاطبه بقوله « أعطى الأرض وقـد تطهرت من الملحدين ، أمنحك نعيم الجنـة المقيم » ، فانزل الامبراطور سخطه على الجموع الثائرة وقضى على الفتنة • ولكن كيرلس Cyrillus اسـقف الاســكندرية ، تناول آراء نسطور بالتفنيد واعلن شجبها ووضع اثنى عشر بندا للايمان السكندرى

النقيضين ، ظهر من بعد اتجاه وسط فى المجمع المسكونى الذى عقد سنة ٤٥١ فى مدينـــة (١٨) خلقيدونيـــة Chalcedon ، لقى الاستحسان من روما

اردف كل واحـد منها باللعنـــة Anathema على كل من يقـــول بغيرها ، وانحازت أنطاكية الى نسطور لانه كان احد أبنائها وتلميذا لمدرستها اللاهوتية العقلية الارسطية • ولم يجد الامبراطور مخرجا من هذا المأزق الا بالدعوة لعقد مجمع عام ، التأم عقده فى مدينة افسوس Ephesus عام ٤٣١ وعرف بالمجمع المسكونى الثالث • ودار الصراع رهيبا بين الاسكندرية واورشليم فى جانب ، والقسطنطينية وانطاكية فى الجانب الآخر . واستخدم كيرلس كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة للفوز فى هذه المعركة ، حتى كتب له النصر فى النهاية ، وادينت اراء نسطور وتم نفيه • غير أن أحـد رهبـان القسطنطينية ويدعى يوطيخا Eutyches جعـل من « اناثيما » كيرلس المادة التى بنى عليها آراءه فى القول بأن فى المسيح طبيعة واحدة هى الطبيعة الالهية ، التى ابتلعت الطبيعة البشرية • وعرفت هـــذه التعاليم الجديدة بالمونوفيزية ، واشتدت حمى الجدل ، ودخلت روما طرفا فى هذا الصراع ، ودعا الامبراطور الى مجمع جديد عقد أيضا فى مدينة افسوس سنة ٤٤٩ وترأسه ديوسقورس Dioscorus اسقف الاسكندرية الجديد ، خليفة كيرلس وتلميذه •وقد برأ المجمع ساحة يوطيخا ولم تنل فيه رسالة العقيدة Tome التى بعث بها البابا ليو الأول ، مما دفع روما الى أن تطلق على المجمع فيما بعد اسم « مجمع اللصوص » • ولذلك ارتبطت كنيسة الاسكندرية بالمونوفيزية رغم ايمانها بأن للمسيح طبيعة واحدة من طبيعتين • المترجم •

للمزيد من التفاصيل عن هذه الأحـداث راجــع للمترجم ــ الدولة والكنيسة ــ الجزء الخامس •

(١٨) لم تحل المشكلة العقيـــدية فى مجمعى افسوس ، ولهـــذا دعا الامبراطور مارقيان ، الذى خلف ثيودوسيوس الثانى ، الى عقد مجمع جديد فى مدينة خلقدونية سنة ٤٥١ ، حمل اسم المجمع المسكونى الرابع • وكان الامبراطور الجديد يشعر بضعف موقفه الداخلى ، حيث لم يكن ينتمى لاسرة ثيودوسيوس ، رغم انه تزوج من بولكيريا اخت سلفه • ولهذا اراد استرضاء الاسقف الرومانى، لما يعلمه من تدهور الامور فى الشطر الغربى من الامبراطورية وفى هذا المجمع وقفت روما والقسطنطينية فى جانب ، والاسكندرية فى الجانب الآخر ، وتم التصديق على رسالة العقيدة التى كان ليو الأول قد ارسلها انفا ، ونص قانون الايمان الصادر عن المجمع على الاعتراف بطبيعتين فى المسيح « فهو نفسه كامل بحسب اللاهوت ، وهو نفسه كامل بحسب الناسوت ؛ اله

والقسطنطينية ، وان لم يحظ الا باقلية ضئيلة فى حوض البحر المتوسط الشرقى · وظهر فى سوريا وفلسطين ومصر نوع من الشروح والتأويلات المخالفة ، زاد من ضراوتها التبرم السياسى الذى يمكن أن يوضع فى عداد العوامل التى أدت الى فقدان الامبراطورية الرومانية لهذه الولايات فى فترة متأخرة زمن الفتوحات العربية · وهكذا نشأت الى جوار الكنيسة « الأرثوذوكسية » كنائس أخرى منشقة بنظامها الهيراركى ، مثل الكنائس المونوفيزية فى مصر وسوريا · والتى مازال بعضها قائما الى أيامنا هذه ·

حقيقى وانسان حقيقى · وهو نفس واحدة وجسد ، مساو للآب فى جوهر اللاهوت ، ومساولنا فى جوهر الناسوت · مماثل لنا فى كل شىء عدا الخطيئة · مولود من الآب قبل الدهور ، وهو نفسه فى آخر الايام مولود من مريم العذراء والدة الاله بحسب الناسوت لأجلنا ولأجل خلاصنا · ومعروف هو نفسه مسيحا وابنا وربا ووحيدا وواحد بطبيعتين بلا احتلاط ولا تغير ولا انقسام ولا انفصال ··· » · وقد أدين ديوسقورس أسقف الاسكندرية فى الجلسة الثالثة من جلسات المجمع وقطع من شركة الكنيسة · على أن اهمية هذا المجمع وخطورته تعود الى أن مصر وسورية اخطتا لانفسهما منذ الآن طريقا مستقلا منفصلا عن القسطنطينية ، وابطلت الكنيسة السكندرية استخدام اللغة اليونانية فى قداساتها واستبدلتها باللغة المصرية القديمة ، واصبحت تعرف بالكنيسة الارثوذكسية وتعترف بطبيعة واحدة فى المسيح من طبيعتين،على حين اعتبرت القسطنطينية نفسها هىصاحبة الايمان الارثوذكسى منادية « بطبيعتين تؤلفان شخصا واحد واقنوما واحدا » · عن هذه الحاشية والتى سبقتها راجع للمترجم ، الدولة والكنيسة : الجزء الخامس ·

وانظر SOCRAT. hist. eccl. VII, 29, 31, 32, 34

وراجع Dict. theol. Cathol. art. Nest. and Mono.

وأيضا The New Schaff - Herzog encycl. of Relig. Knowledge, Encycl of Relig. & Ethics, 12 vol. و 13 vols.

وكذلك Neander, lectures on the history of Christian Dogmas, Percival, op. cit., 192 - 295 و 2 Vols.

و Hardy, Christian Egypt: Church and people. pp. 111 - 116

و Neale, A history of the Holy Eastern Church, Patriarchate of Alex. 2 vols.

و Hefele, op.cit., vol. III.

وأيضا Lambart, The Canons of the first four general Councils of the Church and those of the early local Greek Synods.

وايضا الدكتور اسد رستم ، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى الجزء الأول ، ٢٠٧ ـ ٣٤٤ المترجم ·

على هذا النحو أدركت المسيحية أن الحماية الامبراطورية وما تبعها من الاعتراف بها ديانة رسمية ، لم تجلب لها الوحدة أو السلام ، بل ان الامتزاج التام بين الكنيسةوالدولة ، قد أدى الى ايجاد عدد من المشاكل الجديدة ، وان كان فى الوقت ذاته قد دعم مركز الكنيسة ، وفتح امامها افاقا جديدة فى الداخل او فى ميدان التبشير ، وزاد من موارها دخلها المادى ، وضمن لها التفوق دائما • ولكن هذا الارتباط الكامل بالأمور التى تخص القيصر، والذى كان من العسير تجنبه ، أفضى الى عدد من العواقب السياسية ، فالمجامع المسكونية أصبح باستطاعتها الآن اعلان اسبقية هذه الأسقفية أو تلك بسبب كونها « امبراطورية » يرفع من قدرها سيادة الدولة ومجلس السناتو ، وليس بسب تأسيسها على يد أحد الرسل (على الرغم من انه لم يحدث انكار صريح لهذه الناحية ، بل ان القسطنطينية سمعت فى وقت لاحق ، حفاظا علىمكانتها بين الكراسى الاسقفية القديمة ، الى الادعاء بانها ذات علاقة خاصة بالقديس اندراوس St. Andrew (١٩) • كما أن هذا الاقتران بالدولة ترك أثره الواضح فى المسائل العقيدية ، على النمو الذى كشفت عنه الأحداث فى عهد جوستنيان Justinian .

---

(١٩) ظهرت اسطورة الارتباط القسطنطينية بالقديس اندراوس للمرة الأولى فى القرن السابع • (المؤلفة) • وقد شهد القرن الخامس احتدامالصراع بين الكنائس رقيا الى مرتبةالزعامة ، وغلفهذا الصراع نفسه برداء العقيدة ، حتى انتهى الأمر باختصام الكنائس جميا فيما بينما • وقد اسلفنا أن مجمع نيقية المنعقد سنة ٣٢٥ ، قد نص فى قانونه السادس على أسبقية كنائس الاسكندرية وانطاكية وروما • وقد قدر لمدينة روما أن تكون للقديس بطرس مستقرا ومقاما ، حيث اقام بطرس هناك فى القرن الأول الميلادى قواعد الكنيسة المسيحية • ولما كانت روما لقرن خلت عاصمة امبراطورية عريضة وحاضرة مجد الرومان ، ولما كان بطرس بين الرسل اميرهم ، اعتمادا على ما جاء فى حديث المسيح اليه ذات مرة وهو يحاوره « ••• طوبى لك يا سمعان بن يونا ، انت بطرس وعلى هذه الصخرة ابنى كنيستى وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، واعطيك مفاتيح ملكوت السماوات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السماء ، وكل ما تحله على

. . . .

الأرض يكون محلولا فى السماء » . نقول انه انطلاقا من هذا الواقع ، اعتبر أساقفة روما كرسيهم الأسقفى رأس الكنيسة العالمية . وساعد على ذلك أن أباطرة روما منذ القرن الثالث قد هجروا المدينة الى معسكراتهم على الحدود ، أو مدن أخرى فى الشرق مثل نيقوميديا ثم القسطنطينية ، وحتى أباطرة القرن الخامس فى النصف الغربى ، ولوها دبرهم الى رافنا فى الشمال . وهكذا وجد أساقفة روما أنفسهم وحيدين فى العاصمة ، فراحوا يمارسون سيادتهم الروحية دون أدنى قلق ، الى الحد الذى اتسعت فيه هذه السيادة لتشمل فيما بعد النواحى السياسية بل والعسكرية فى مطلع القرن الخامس . وعلى الطرف الجنوبى للبحر المتوسط ، كان مرقس الانجيلى قد قدم الاسكندرية يحمل بشارته ، ولم يكن مرقس من بين الرسل الاثنى عشر ، ولكنه كان قريبا الى بطرس محببا اليه ، شاركه رحلته الى روما وكتب انجيله بناء على « رغبة الاخوة الرومان » ثم اتخذ طريقه الى ليبيا ومنها الى الاسكندرية . ونقف على هذا كله من رسالة بطرس الأول ، وما كتبه القديس جيروم ويوساب القيسارى . واذا كانت كنيسة الاسكندرية قد افتقدت المرتبة الرسولية ، فقد اعتمد آباؤها فى تعويض ذلك على ما ذهبت به الاسكندرية من شهرة فى العالم الهلنستى فكرا وثقافة ، وما قدمته لعالم المسيحية من آباء اللاهوت ، وما لها من ماض مجيد قديم كانت تعيشه الاسكندرية عاصمة لامبراطورية البطالمة . وهناك على الساحل الشرقى للبحر المتوسط كانت تقوم أنطاكية ، ولها ما لها من سمعة عريضة وحضارة ، ولكنها الآن تفخر على روما والاسكندرية بأن أمير الرسل بطرس هو الذى وضع أسس كنيستها قبل أن يرتحل الى روما ، وأنه قضى فى أنطاكية سبع حجج ما بين عامى ٣٤ ــ ٤١ ــ ويطلعنا على هذه الحقيقة صراحة يوساب القيسارى فى تاريخه الكنسى . وفى عام ٣٣٠ برزت الى الوجود مدينة القسطنطينية ، وحاولت كنيستها أن تجد لها مكانا على سلم الزعامة فوق الدرج الذى ارتقت اليه تلك اللذات . ولما كانت مدينة حديثة عهد بالحياة ، فقد اعتمدت على حاضرها كعاصمة للامبراطورية ومستقر للأباطرة ، وأنها تفوق كل تلك المدن فى أنها نشأت على المسيحية ، لم تسع الى مذبح لتحرق أمام الأرباب بخورا أو تقدم قربانا . ثم كانت أسطورة ارتباطها بالقديس أندراوس ، التى تقول انه هو الذى أسس كنيسة بيزنطة ، المدينة التى على أطلالها شيدت القسطنطينية ولما كان أندراوس هو الذى أخذ بيد أخيه سمعان (بطرس) الى المسيح ، كان له فضل السبق فى الايمان والمكانة (لاحظ أن انجيل يوحنا وحده هو الذى ينفرد بذكر هذه الحادثة) . ومن ثم يصبح كرسيه رسوليا . وقد قدمنا

٣ ـ الامبراطور جوستنيان والقرن السادس :

« لدينا كبير أمل فى أن يأذن الاله لنا باسترداد أراضى الامبراطورية الرومانية القديمة التى من جراء التراخى ضاعت » (نوفلا ٣٠ ، ١١) ٠

يعود جوستنيان فى أصله الى فلاحى مقدونيا ،ولكنه كان شأن أسلافه ومن خلفوه ، يضطرم عقله بفكرة امبراطورية رومانيـة مسيحية تعود الى حدودها القديمـة ومركزها المرموق فى عالم البحر المتوسط ٠ وخلال فترة طويلة من عهد خاله جوستين الأول Justin I (٥١٨ ـ ٥٢٧) ، وطوال ما يقرب من اربعين عاما حكمها منفردا ، قام جوستنيان بالمحاولة الجريئة والأخيرة لاعادة فرض السـيادة الرومانية على الشعوب الجرمانيـة التى كانت قد استقرت الآن فى ايطاليا وفرنسا واسبانيا وشمال أفريقيا ، وكان لدى جوستنيان حافز آخر تمثل فى الاستغاثة التى جاءته من الكاثوليك ، ادعوا فيهـا أنهم يتعرضون للاضطهاد من جانب سادتهم الأوستروقوط فى ايطاليا والوندال فى شمال أفريقيا(٢٠) ولم يكن تأييد الأرثوذكسية بالنسبة لجوستنيان يقل شأنا وأهمية عن استعادة السيادة الامبراطورية ٠

فى حاشية سابقة ما تضمنه القانون الثالث الصادر عن المجمع المسكونى الثانى سنة ٣٨١ حول مكانة أسقف القسطنطينية وكذا قانون رقم ٢٨ لمجمع خلقيدونية ٠ عن هذه الأحداث بالتفصيل راجع للمترجم ـ الدولة والكنيسة ـ الجزء الخامس ٠

(٢٠) تحولت معظم الشعوب الجرمانية ـ عدا الفرنجة ـ الى المسيحية فى صورتها الآريوسية ، ويعود ذلك بالدرجة الأولى الى أن اولفيلا - Ulfilas أحد رجال القوط قد رسم أسقفا فى سنة ٣٤١ على يد يوساب النيقوميدى ، أبرز زعمـاء الآريوسسية الأصليـة ، ورفيق آريوس فى مدرسـة اللاهوت الأنطاكية ، ثم وقع اولفيلا أيضـا على مرسوم الايمـان الذى اتفق عليـه الآريوسيون فى ٣١ ديسمبر سنة ٣٥٩ فى نيقـا Nice وذلك فى مجمع القسطنطينية الذى عقـد فى يناير/فبراير سنة ٣٦٠ ، وهـو المرسوم الذى أقر العقيدة الهوموية Homoion (الشبه بين الابن والاب) ٠ ومن ثم انتشرت الآريوسية بين القوط ومنهم الى القبائل الجرمانية الأخرى ٠ واذا كان الوندال قد اتبعوا سياسة عدائيـة تجاه الكنيسة الكاثوليكية ورعاياها فى شمال أفريقيا منذ البداية ، فان الكنيسة فى روما حظيت بالاحترام من جانب ثيودوريك الذى كان حاكما متسامحا فى عصر لا يعرف التسامح ٠

فى عام ٥٣٣ كان جوستنيان قد أعد للامر عدته · فبعث بقائدة الوفى المقتدر بليزاريوس Belisarius على رأس حملة استطاعت القضاء على سيادة الوندال فى شمال افريقيا ، وتمتعت المنطقة تحت السيادة الرومانية العائدة بقدر من السلام ونوع من الحكومة المنظمة قدر لها أن تظل قائمة طوال قرن وينيف حتى مقدم الفتح العربى · وبعد جهود مضنية تمت هزيمة القوط الشرقيين فى ايطاليا ، واستعادة جزر غربى البحر المتوسط ، واكتساب موطىء قدم فى جنوب شرقى اسبانيا ، وان ظلت معظم أراضى هذه المنطقة فى أيدى الفيزيقوط ، مثل جنوبى فرنسا ، أما ولاية غالة الفقيرة فلم يقدر لها أن تعود ثانية الى أحضان الامبراطورية(٢١) ·

وكثيرا ما تعرض جوستنيان لحملات من النقد بسبب حروبه الاستردادية ، واتهم بالفشل فى محاولته ايجاد نوع من التوافق بين السياسة الامبراطورية والوضع السياسى المتغير ، وأعلن هؤلاء النقاد بأنه كان يتعين على جوستنيان أن يركز اهتمامه فى بلاد اليونان ومنطقة البلقان والمشاكل المتعلقة بالولايات والجبهة الشرقية · ولكن الحقيقية لا يمكن أن نتوقع من اى امبراطور رومانى التخلى عن كل ولايات الغرب هذه أو معظمها دون حرب ، خاصة ايطاليا ، التى كانت لزمن بعيد قلب الامبراطورية

أنظر SOZOM hist. eccl. IV, 24, SOCRAT hist. eccl. 11, 41
وراجع C. M. H. vol. I, p. 212
وأيضا Strayer & Munro op. cit., pp. 40 - 45
و Davis, op. cit., pp. 45 - 53 وانظر للمترجم · الدولة والكنيسة · الجزء الثالث ·

(٢١) للوقوف على التفاصيل العسكرية لحروب جوستنيان الاستردادية ، والظروف السياسية التى أحاطت بها ، انظر
Ure, Justinian and his Age, pp. 17 - 84
و Jones, Later Roman Empire pp. 269 - 78, 287 - 94
وكذلك C. M. M. vol. II, pp. 11 - 19 وأيضا Vasiliev, op. cit., I, 133 - 141
Thompson & &Johnson, op. cit., pp. 120 - 127
وكذلك هـ · موس ، ميلاد العصور الوسطى ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، ١٧٣ ، ١٨٣ وأيضا : اومان : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٦٤ ـ ٧٦ ·
و Gibbon, op. cit., IV, ch. 41 و Bury, op cit., II pp. 124 - 291

وملتقى أنظارها · ورغم أنه لم يعد لها الآن ذلك المركز الاستراتيجى الممتاز الذى كان ، الا أنها مازلت تمثل أول عاصمة للامبراطورية ، روما القديمة · وعلى هذا النحو فان جوستنيان كان يقتفى وقع اقدام أسلافه ، فالامبراطور زينون على سبيل المثال لم يعترف البتة بادواكر أو ثيودوريك الاستروقوطى حاكمين مستقلين فى ايطاليا ، ولكن فقط مجرد ولاته · وبعد انتهاء عهد جوستنيان ظل أباطرة القرن السابع يقدرون تماما قيمة ايطاليا والغرب · ويرون أن استرداد هذه المناطق وادخاله ثانية ضمن حدود الامبراطورية ، أمر يقع ضمن نطاق الممكن · ورغم أن أسلوب حكم جوستنيان كان يلقى النفور حقيقة فى ايطاليا ، وأن الشمال الايطالى قد وقع فى أيدى الغزاة اللومبارديين Lombards عقيب وفاة الامبراطور(٢٢) ،الا أنه يعزى الى مشروعه هذا تجدد الاتصال السياسى المباشر مع ايطاليا مرة ثانية · وحتى القرن الحادى عشر كنت ماتزال هناك اجزاء من ايطاليا تحت السيادة البيزنطية · اما الروابط الثقافية التى ربطت طويلا جنوب ايطاليا وصقلية بعالم بحر ايجة فقد قويت بصورة غير محدودة ·

---

(٢٢) توفى الامبراطور جوستنيان فى عام ٥٦٥ ، ولم يكد يمضى على ذلك ثلاثة أعوام حتى كانت عناصر اللومبارد قد أخذت تجتاح شمال ايطاليا ، وكان جوستنيان قد دعاهم للنزول على حدود نوريكوم Noricum الى الشرق من مملكة الجبيديين Gepids الذين كانوا قد احتلوا بانونيا Pannonia وقد راحت العلاقات بينهما تجرى الى السوء ، مما دفع اللومبارد الى الاستعانة بعناصر الآفار الذين كانوا يستوطنون الشرق البعيد عبر الدانوب · وقد قبل الافاريون ذلك شريطة أن يسلم اليهم اللومبارديون عشر قطعانهم ونصف أسلاب الحرب بعد النصر وكل أراضى الجبيداى · وتمكنت القوات المتحالفة من تدمير مملكة الجبيديين ، وكان هذا فى حد ذاته نذير الكوارث للامبراطورية · فقد ادرك اللومبارديون أن حلفاءهم الآفار يشكلون جيرة خطيرة على أمنهم ، ومن ثم قرروا هجران اقليمهم ذاك الخرب ، وغزوا الأراضى الايطالية لحسابهم الخاص · وكان اللومبارد قد وقفوا على ثراء ايطاليا عندما اقدم نارسس Narses ، قائد الامبراطور جوستنيان ، فى عام ٥٥٢ على تجنيد عدد كبير منهم محالفين ، أثناء صراعه مع الأوستروقوط · أو حوالى عام ٥٦٨ ، أى بعد ثلاث سنوات من وفاة جوستنيان تمكن ملك اللومبارد البوين Alboin من دخول فينيسيا

على أنه لايمكن بأى حال أن تتخذ الحماسة والاهتمام بمشروعات الامبراطور فى الغرب ،دليلا على الخلاص من القلق الذى ينتاب الجبهات الأخرى ، ذلك أن المشاكل التى كان يعانى منها عهد جوستنيان تشبه الى حد كبير تلك التى واجهت أى امبراطور رومانى ، سواء فى العصور القديمة أو الوسطى ، فأعداء الامبراطورية فى الشرق كانو يتطلبون منها الانتباه الدائم والحذر ، الأباطرة الساسانيون ذوو المطامح فى فارس ، وفى الوقت ذاته القبائل النازحة غير المستقرة التى لم يتوقف سيلها عبر الدانواب الى داخل الولايات الامبراطورية ، اما للنهب أو حتى بغرض الاستيطان ٠ وفوق هذا وذاك حالة الاضطرام الدائم والعنيف بسبب السخط السياسى ونتيجة الجدل العقيدى ، مما عمل على تقويض دعائم الولاء للحكم الرومانى ، وأدى ذلك الى تكدير العلاقات بين الاسقفيات الكبيرة المختلفة ، خاصة روما والقسطنطينية ٠

ورغم أن قلب جوستنيان ومطامحه كانت معلقة بالغرب ، الا أنه لم يكن باستطاعته أن يغمض عن الشرق عينيه ؛ ذلك أنه عاصر فى الجزء الأكبر من عهده خصمه الساسانى كسرى الاول Chosroes I (٥٣١ ــ ٥٧٩) الذى كان على قدر كبير من الكفاءة والثقافة ٠ وقد ترك بروكوبيوس(٢٣)

وفى العام التالى استولى على لجيوريا بما فيها ميلانو ، ثم سار الغزو اللومباردى لايطاليا بعد ذلك قدما الى أن استعان البابوات بمملكة الفرنجة ٠ أنظر Oman, The Dark Ages, pp. 181 - 203 وكذلك Jones, Later Roman Empire, I, p. 305 وأيضا Pirence, op. cit., pp. 43 - 45 المترجم ٠

(٢٣) هو بروكوبيوس القيسارى ، ولد فى قيسارية فلسطين حوالى نهاية القرن الخامس ، ودرس القانون فى القسطنطينية ، واشتغل بالمحاماه ، ثم أصبح سكرتيرا للقائد الشهير بليزاريوس ، ورافقه فى حملاته العسكرية بما أتاح له فرصة متابعة الاحداث عن قرب ، وأباح له الاطلاع على الوثائق الرسمية ٠ وقد ترك لنا ثلاثة أعمال يأتى فى مقدمتها بلاشك « التاريخ » الذى يقع فى ثمانية كتب ، تناول فيها بالتفصيل حروب جوستنيان مع الفرس والوندال والقوط ٠ اما عمله الثانى فقد وضعه فى ستة كتب عن « الانشاءات المعمارية » التى اقامها الامبراطور جوستنيان ، وهذا المؤلف يعد قصيدة

Procopius سكرتير بليزاريوس ، تقريرا مفصلا عن الحروب الفارسية الطويلة المتقطعة · وتمكن جوستنيان فى عام ٥٦٢ ، بمعاهدة السلام التى وقعت بين الطرفين ، أن يحتفظ بالسيادة على لازيقا Lazica ، وهى المنطقة الواقعة عند الطرف الجنوبى الشرقى للبحر الأسود ، بسكانها المسيحيين وأهميتها الاستراتيجية ، سواء من الناحية السياسية أو التجارية· كما أنه حافظ على الولايات الرومانية الشرقية مصونة فى مواجهة قوة العدو الفارسى ، وان كانت هذه النتيجة وحدها اقتضت حملات عسكرية باهظة التكاليف · تدعمها مساع دبلوماسية لا نهاية لها · وجزية مالية سنوية ضخمة · وتحسين وتحصين الوسائل الدفاعية على الجبهة الشرقية ·

وكان جوهر سياسة جوستنيان فى الشمال ، شأن الشرق · دفاعيا بحتا · ولم يكن لديه من الوقت ما يكفى ليسوق الى هذه المنطقة حملات عسكرية ذات فعالية ، ولكنه كان راضيا بما يمكن تسميته السياسة الانتهازية التى تقوم أساسا على التصدى من حين الى آخر لزحوف الغزاة الصقالبة والآفار الذين دأبوا على التوغل فى الولايات الرومانية ، خلال

نظمها بروكوبيوس فى مدح جوستنيان · أما كتابه الثالث فهو « مذكرات لم تنشر » أو ما شاع بين الدارسين باسم « التاريخ السرى » وقد جاء على النقيض من الكتابين السابقين تماما ، اذ يحمل فيه على الامبراطور وزوجته ثيودورا وبليزاريوس وزوجته أيضا ، ويعزو الى الامبراطور كل البلايا التى حلت بالامبراطورية حتى أن الدارسين انتابهم الشك فى نسبة هذا الكتاب لبروكوبيوس ، ولكن الدراسات الدقيقة الجادة أثبتت أن واضعه هو بروكوبيوس نفسه · وعلى الرغم من أن بروكوبيوس قد تتبع نسق المؤرخين الاغريق القدامى ، مثل هيرودوت وثوكيديدس · الا أن أسلوبه رغم استخدامه اللغة الكلاسيكية ، كان يتميز بالحيوية والسلاسة ، انظر دكتور نور الدين حاطوم ومجموعة من الاساتذة ، المدخل الى التاريخ ، ص ١٣٥ ــ ١٣٨ وارنولد توينبى : الفكر التاريخى عند الأغريق ، ص ١٠٥ ــ ١٠٩ · وكذلك Vasiliev, op. cit., I, pp. 180 - 181 و Ure, op. cit., pp. 168 - 184 و Bury, op.cit., 11, pp. 21, 24, 50, 59, 419 sqq. المترجم ·

اغاراتهم التى استهـدفت السلب والنهب ، وان كان جوستنيان قـد أورث خلفاءه مشكلة الصقالبة والبلقان ٠

لقـد دعى جوستنيان بحق « الامبراطور الذى لم تغمض له عين » ٠ وقد يبدو أن مطامحه الهجومية فى الغرب ، والأزمات المستمرة والحروب فى الشمال وعلى جبهة الشرق ، شغلت منه الوقت كله ،ولكن الأمر لم يكن على هذا النحو فحسب ٠ فقد لعب جوستنيان نفسه دورا كبيرا فى الجدل الكنسى الذى تأجج فى القرن السادس ٠ وكانت روما قـد اخـذت على عاتقها من قبـل مسئوليـة وضع التعريف الأرثوذكسى للعلاقة بين الطبيعتين الالهيـة والبشـرية فى المسيح ، والذى أذيع فى مجمع خلقيدونية المسكونى سـنة ٤٥١ ٠ وقد علمنا أن هذا التعريف لم يحظ بموافقة بعض الولايات الرومانية فى الشـرق(٢٤) ، ومن ثم فان جوستنيان قضى من عهـده عـدد سنين فى محاولة لايجـاد بعض السبل التى من شأنها استرضاء سـوريا وفلسطين ومصر ، دون أن يجلب على نفسه فى الوقت ذاته عـداء روما والغرب ٠ لقد كان جوستنيان الى درجة ما لاهوتيا ، يبدى اهتماما خاصا باللاهوت ، وقد دفعه ذلك الى البحث عن طريق وسط via media يحفظ بهـا وحـدة الامبراطورية ٠

وبقدر ما كان المنافزة والشـرق المنشق يحظون باهتمام خاص ، فقد وجدوا نصيرا وفيا فى زوج جوستنيان ، ثيودورا Theodora (ت ٥٤٨) التى كانت احـدى راقصات المسـرح ، ذات ماض ملوث ، وقـد ساحت فى الأراضى المونوفيزية قبل زواجها ، ولذا مالت ناحية المنافزة ٠ وكانت تضم بين جوانحها شخصية قـوية تنم عن فطنه سياسية وشجاعة فى ارائهـا وفكرها ، تجلت فى مواقف كثيرة كان أبرزها عنـدما وضعت نفسها على رأس أولئك الذين استحثوا جوستنيان على أن يدعم مركزه فى القسطنطينية ، حينما اشتعلت الفتنة فى الهبدروم ، وهـدد مثيروها باختيـار امبراطور منافس(٢٥) ٠ وربما كانت ثيودورا تعتقد أنه من الأفضل استرضاء الشرق

---

(٢٤) راجع حاشية ١٨ ص ١٠٦ ، ١٠٧ ٠ المترجم ٠

(٢٥) انتهى الأمر بالفرق الرياضية الأربع التى عرفتها القسطنطينية ،

. . . .

تمثل عناصر الحياة الأربعة ، الماء والهواء والنار والتراث ، (الأزرق ـ الأبيض ـ الأحمر ـ الأخضر) الى الاندماج فى فريقين فقط هما الزرق والخضر ، ولم يعد نشاطهما مقصورا على النواحي الرياضية فى الهيدورم ، بل امتد ليشمل نواح اخرى ، فعهد اليهم بالحفاظ على الامن فى العاصمة ليلا ، ثم مهمة الدفاع عن القسطنطينية ، ثم اصبحوا يمثلون الطبقات الاجتماعية ، فالزرق عنوان أهل المدن والتجار والنبلاء ، والخضر دليل أهل الريف ، ثم راحوا يعبرون تبعا لذلك عن التيارات العقيدية المتصارعة ، فالخضر هم اصحاب الطبيعة الواحدة والزرق هم اصحاب الطبيعتين • ولقد عانت العاصمة الكثير من جراء صراعهم السياسى والاجتماعى والدينى • وبذل أباطرة القرن الخامس وأوائل السادس جهودا كثيرا للحد من نفوذهم دون جدوى • وكانت فتنة النصر التى وقعت سنة ٥٣٢ فى القسطنطينية واحدة من هياجهم المألوف • فقد بدأت بشغب عادى فى الهيدروم بين الفريقين ، امتد اثره الى انصارهما ، قابله محافظ المدينة يواديمون Eudaemonius بعدالة صارمة ، حيث قبض على سبعة من زعماء الثائرين ، أعدم بعضهم بينما افلح بعض آخر فى الفرار • ولكن هذا السلوك من جانب المحافظ ، بالاضافة الى السياسة المالية التى كان ينتهجها يوحنا الكبادوكى ، وحدت بين الفريقين المتصارعين ، فتآلفوا فيما بينهم وجعلوا من كلمة Vika (Nica) « النصر » شعارا لهم ، ومن ثم عرفت الفتنة بهذا االاسم • وقد قاموا فى ١٤ يناير ٥٣٢ باشعال النيران بمبنى المحافظة ، ثم اضرموا هذه النيران فى دور الحكومة والمرافق العامة والمنشآت ، وعقدوا اجتماعا عاصفا فى الهيدروم ، خلا الامن الفوضى • وقدموا مطالبهم التى تنادى بطرد العادل الصارم يوديمون ويوحنا الكبادوكى والمشرع تريبونيان ،وكان المترفون فى العاصمة يكرهون هذين الأخيرين • وقد تملك الخوف جوستنيان ، فأصغى لمطالب الثائرين ، وآنس هؤلاء فى أنفسهم قوة فاستحثوا خطاهم الى دار بروبوس Probus ابن اخى انسطاسيوس الامبراطور الاسبق ، لاعلان اختيارهم له امبراطورا فلما رفض احرقوا داره ، وفى ١٨ يناير أصدر الامبراطور عفوا عاما يبتغى به ترضية الثائرين ، غير ان الزحوف اكتسحت سماحة جوستنيان فى أنفة حمقاء ، فاختاروا هيباتيوس Hypatius ، وهو ابن أخ آخر لانسطاسيوس ، امبراطورا ، واقتادوه الى الهيدروم لتتويجه • وقد شجع الثائرين على التمادى فى غيهم ان العاصمة كانت خالية من الجند ، ولهذا تسرب اليأس

على الاحتفاظ بعلاقات ودية مع روما · فلما توفاها الموت اقـدم جوستنيان على أن يتخذ بنفسه بعض الاجراءات والقرارات الكنسية ، حقق فيها فشلا ذريعا ، حيث جلبت عليه عداء انطاكية والاسكندرية وروما ، ومع ذلك فقد سار جوستنيان فى سياسته وراح يمارس سلطة واسعة على الكنيسة ، حتى أنه يعد واحـدا من الأباطرة الرومان القـلائل الذين تنطبق على سياستهم الدينية ذلك التعبير الـذى اسىء استخدامه بصورة واضحـة « القيصرية البابوية » Caesaropapism .

وعن طريق الخدمات التى اداها مساعـدوه ذوو الكفـاية والدراية ، تمكن جوستنيان من توفير المال اللازم لسياسته الخارجيـة ولاسكات طنين أعدائه ، وقـد اقـدم جوستنيان على تنفيذ برنامج واسع من المشروعات المعمارية ، تمتـد من التحصينات العسـكرية الجـديدة فى البلوبونيز Peloponnese الى انشاء السقايات الضخمة فى افسوس Ephesus الى انشاء ايا صوفيا Hagia Sophia التى دشنت للحكمة المقدسة ، والتى ما تزال تعد احـدى روائع القسطنطينية · ويدل كثيـر من قوانينه على اهتمامه باستئصال الفساد الادارى · وقـد أصدرت اللجنة التشريعية التى الفها مجموعة من الكتب عرفت بمجموعة جوستنيان Corpus of Justinian وكانت

الى نفس الامبراطور وقرر الهروب · غير أن ثيودورا وقفت تخاطب زوجها فى حزم ، فرفضت فـكرة الهـرب التى لاتليق بالملوك ، على حد تعبيرها ، وبينت له أن ذلك من ايسر الأمور ، ولكنها تفضل ان تموت فى مكانها على العرش ، وانهت حديثها بقولها ان « الأرجوان خير الاكفان » · تعنى بذلك تفضيل الموت فى العباءة الامبراطورية على الهروب · وكان لهـذا القول اثره فى تغيير فـكر جوستنيان ، الذى امـر قائديه بليزاريوس وموندوس بالقضاء على الثائرين ، وعلى الفور رتب القائدان ما توافر لهما من الجنود ، واطبقوا على الثائرين فى المضمار ، حيث جـرت فيهم مذبحـة مروعة ذهب ضحيتهـا ، على حـد بعض التقـديرات ، ثلاثون الف قتيـل على راسهم هيباتيوس · ولم تقم لحزبى الزرق والخضر بعد ذلك قائمة ·

انظر Bury, op. cit., II, pp. 39 - 48 و Vasiliev, op. cit., I, pp. 154 - 157
و Ure, op. cit. pp. 201-203 و Jones, Later Roman Empire, I, pp. 271-272
وايضا · اومان : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥٩ ــ ٦٣ · ودكتور أسد رستم بالروم · الجزء الأول ، ص ١٧٠ ــ ١٧٢ · المترجم ·

فى حد ذاتها محاولة لتقويم وتهذيب الأسلوب القانونى الرومانى البالغ التعقيد بما يتلاءم وطبيعة العصر ، وبشكل مغاير فى أغلب الاحيان فيما بعد ، وتضم هذه المجموعة ، المقننة Code وهى عبارة عن المراسيم الامبراطورية التى صدرت منذ عهد هادريان Hadrian فصاعدا ، بما فيها تلك التى صدرت فى عهد جوستنيان ،والجامع Digest وهو تصنيف لأحكام وتشريعات الفقهاء الرومان ، ومبادىء القانون Institutes وهو مختصر يعتمد عليه طلاب القانون(٢٦) ، والمتجددات Novels (novellae leges) وهى مراسيم جوستنيان التى أذيعت منذ نشر المقننة ، أول مجلد صدر من المجموعة · وقد وضعت مجموعة القانون المدنى Corpus Juris civilis هذه الاسس التى ارتكزت عليها من بعد القوانين البيزنطية ، واستخدمت أجزاء منها على الأقل فى الأراضى الصقلبية التى أصبحت ضمن دائرة النفوذ البيزنطى ، فلما ظهرت فى القرن الثانى عشر ، تركت بصماتها الواضحة على الفكر القانونى والسياسى للعالم المسيحى اللاتينى ·

كان جوستنيان ـ بكل ما تعنيه الكلمة ـ آخر الأباطرة الرومان ، نجح فى أن يستعيد للمرة الأخيرة « امبراطورية رومانية » imperium romanum تضم تقريبا كل عالم البحر المتوسط · أما عظمة سياسته ومنجزات رعاياه من القواد العسكريين والاداريين والمهندسين المعماريين وفنانى الفسيفساء والشعراء والفقهاء ، فقد تركت انطباعا كبيرا على اناس عصره والأجيال التى تلت · ومن ثم فقد كتب دانتى Dante فى نهاية القرن الثالث عشر عن فكر جوستنيان ، معتبرا اياه يمثل الامبراطورية الرومانية ، وأفسح له فى « الفردوس » Paradiso مكانا (٢٧) ·

ولا شك أن أعمال جوستنيان بكل ما لها من بهاء تحدد نهاية الفترة الرومانية المتأخرة او البيزنطية المتقدمة · فقد كان على خلفاء جوستنيان

---

(٢٦) راجع حاشية ١٢ ص ١٣ · المترجم ·

(٢٧) انظر ما جاء عن جوستنيان فى الكوميديا الالهية للشاعر الايطالى الشهيردانتى « المطهر » Purgatory, c.VI 88 و « الفردوس » Paradise, c.V 117 sqq, c.VI. 1 sqq. المترجم ·

المباشرين ان يتصدوا لمشاكل اعادة تنظيم عنيفة ، حتى تتمكن الامبراطورية الرومانية من تهيئة نفسها لمواجهة التغييرات التى احدثتها الممالك البربرية فى الغرب ، والتحديات المتجددة على جبهتى الشمال الشرق . واصبحت اية محاولة للعودة الى الحدود القديمة شيئا غير وارد . على أن طاقات الامبراطورية الفنية ، ومواردها الاقتصادية ، وقوتها الحيوية الخلاقة ، جعلت من اليسير مواءمة اطارها السياسى حتى أن التقاليد الامبراطورية والحياة الثقافية للعالم الايجى ، لم تتعرض لهزة عنيفة فى الشطر الشرقى من الامبراطورية ، وانتقلت بلا قصد من العصر القديم المتاخر الى عالم العصور الوسطى المسيحى المبكر .

٤ ـ الصراع من أجل البقاء فى القرن السابع :

مشاكل الأسرة الهرقلية

كان خلفاء جوستنيان المباشرين فى القرنين السادس والسابع واقعيين الى حد القدرة على اعادة تشكيل الامبراطوريةالرومانية وتاكيد استمراريتها . ولم يحى هؤلاء على الأمانى السائدة كما فى فعل جوستنيان . ولعل اقل قدر من الانصاف يمكن أن يزجى للشجاعة والتصور اللذين كانوا يعالجون بهما اى مشكلة تعن لهم . وكان عليهم ان يواجهوا العجز المالى فى الداخل، والاعتداءات المتكررة على جبهات متعددة . فقد غزا اللومبارديون ايطاليا فى سنة ٥٦٨م واقاموا عددا من الولايات لهم فى شمال شبه الجزيرة ووسطها ، وان كانت الامبراطورية قد افلحت فى الاحتفاظ بشريط من الأرض يمتد من رافنا Ravenna الى روما ، وكذلك الأراضى الأكثر اصطباغا بالهللينية فى الجنوب . ومع تباشير القرن السابع كانت المناطق التى تم استردادها مؤخرا فى اسبانيا ، قد عادت ثانية الى أيدى الفيزيقوط ، وفقدت بذلك من الامبراطورية الى الأبد . أما الصقالبة فقد استمر تقاطرهم على البلقان دون انقطاع .

أدى ضياع الأقاليم الامبراطورية فى الغرب على هذا النحو الى ان يصبح اكثر الأمور اهمية ، انقاذ الحدود الشرقية ؛ وهنا كان البيزنطيون اقدر على الاحتفاظ بمراكزهم . فقد رفضوا الاستمرار فى دفع الجزية

السنوية التى كان جوستنيان قد تعهد بادائها ، وبعد حروب طويلة ومتقطعة أصبح بوسعهمالتوصل الى معاهـدة مرضية مع الفرس فى ٥٩١ ، تمكنوا بمقتضاها من الحصول على جزء من أرمينيا الفارسية ، مما اعطاهم مركزا قويا فى اقليم يعـد معينا لا ينضب للتجنيد العسكرى · كانت هـذه النتيجة تبعث على الارتياح منذ أصبح من الضرورى ايجاد قوات جديدة تحل مكان الجنود الجرمان الذين كانوا يعملون عندئذ فى مناطق أخرى ·

ولو أن الامبراطورموريس Maurice كان قد بنى أياصوفيا ، أو ظهر على الفسفيساء فى كنيسة سان فيتالى San Vitale فى رافنا ، واشرف على اصدار مجموعة القانون المدنى ، لكان من الممكن التحدث عن « عصر موريس » وليس « عصر جوستنيان » ؛ فقـد كان حكمه يمثـل نصف امتداد لعهد جوستنيان ، ومع ذلك فقد كان كافيا لابراز الصفات التى امتازت بها امور الدولة ، بحيث دعمت قلب الامبراطورية الرئيسى · ذلك أن موريس انتهز الفرصة التى سنحت له فى السياسة الفارسية ، ومد يد العون للملك الصغير كسرى الثانى Chosroes II ، ووصل بالحرب الفارسية الطويلة الى نهاية ناجحـة (٢٨) · أما فى ايطـاليا وشمال أفريقيا ، فان تنظيماته الجديدة كان لها اثر كبير فى انقاذ ما تبقى من هاتين المنطقتين عن طريق

---

(٢٨) شهد البلاط الفارسى فى عام ٥٩١ تراجيـدنا مروعة ، انتهى الفصل الأول منهـا بوضع حـد لقسـاوات هورميزدا ، وذلك بمؤامرة تم تدبيرها داخل القصر ، ليزاح الستار فى الفصل الثـانى عن تولية ابنه كسرى الثـانى ، الذى بدا عاجزا عن الاحتفاظ بحقه الشرعى فى مواجهة فاران Varanes الذى تمرد فى ميـديا ، واضطر كسـرى للهـروب الى قرقيسية Circesium ووضع نفسه تحت رحمة امبراطور بيزنطة ، فقـد عرض عليه أن يتنازل له عن ميافارقين Martyropolis ودارا وأن يتخلى عن ادعاءاته فى ارمينية وأرزانينى Arzanene على الحـدود الجنوبيـة لأرمينيا الفارسية ، فى مقابل عونه لاسترداد عرشه · وقد استقبل كسرى بما يليق بمظاهر التكريم ، وقبل موريس العرض وامـده بجيش استطاع هزيمة فاران واعادة السلطـة الى كسـرى الذى أوفى بمـا عاهد عليـه الامبراطور · وهكذا قدر لجبهة الشرق أن تشهد سلاما ظلت ترقبه طويلا ·
انظر فى ذلك C. M. H. vol. 11, p. 280
و Vasiliev, op. eit., I, p. 171 و Jones, Later Roman Empire, I, p. 311

انشاء اكزارخيتى رافنا وقرطاجة · وقد دعمت سلطة الاكزارخ ، الحاكم فى كل من رافنا وقرطاجة ، بجمع السلطتين المدنية والعسكرية فى يديه ، وهو نظام استخدم على نطلق واسع فى القرن التالى لتسهيل مسالة الدفاع العاجل والضرورى عن آسيا الصغرى فى مواجهة التهديدات بغزوها من جانب الفرس أولا ثم العرب ·

تصدى موريس للمشكلة القائمة على الجبهة الشمالية ، حيث كان الأهالى الرومان فى المنطقة الواقعة جنوبى الدانوب يتعرضون مع صبيحة كل يوم لاغارات تستهدف النهب والسلب من جانب جماعات الآفار Avars والصقالبة · وكانت مملكة الآفار قد استقرت الآن شمالى الدانوب ، بينما نزل الصقالبة ، سواء كانوا مستقلين أو تحت سيادة الآفار ، على الدانوب الأوسط أو الأدنى · وما ان اقترب القرن السادس من نهايته حتى كان الصقالبة ، شأن الجرمان من قبل ، قد استقروا داخل الامبراطورية · وقد توقفت الحملات التى كان موريس قد انفذها لتجبر الصقالبة على التراجع نتيجة عزله ثم اعدامه بسبب الثورة التى اشعلها الجنود المتمردون الذين لم يستطيعوا احتمال النظام الصارم الذى فرضته الحملات المتكررة على الجبهة الشمالية ·

لم يضع موريس وقتا أو يبدد مالا فى الاقدام على مشروعات واسعة من أجل استرداد الغرب ، بل كان قليل الاهتمام تماما بالادعاءات الرومانية التى تعود الى زمن بعيد عن السيادة العالمية ، واظهرت الرغبة التى افصح عنها سنة ٥٩٧ أمله الكبير فى أن تكون روما شأن القسطنطينية عاصمة تمارس منها السلطة الامبراطورية أثناء اقامة الامبراطور ، وأن يقيم ابنه الثانى فى روما ، على أن يبقى أكبر أبنائه فى العاصمة الشرقية الأكثر أهمية · ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، فقد أعقب موت موريس فترة من الفوضى (٦٠٢ ـ ٦١٠) تمثلت فى الفتن التى وقعت فى المدينة ، والاضطراب السياسى والجدل الدينى ، وافضى هذا كله الى نوع من الارتباك الداخلى بدا معه وكأن النصف الشرقى من الامبراطورية سوف يساقط فى أيدى الصقالبة والآفار من الشمال ، والفرس من الشرق · ولم يلبث كسرى

الثانى . وقد استبد به الغضب نتيجة اعدام صديقه وحليفه موريس وأسرته ، أن ضرب سوريا وفلسطين وعاث فى آسيا الصغرى فسادا .

الا أن هذا التفسخ العام لم يلبث أن توقف بمقدم هرقل Heraclius اكزارخ شمال افريقيا . ويعتبر هرقل الى جانب باسل الثانى Basil II فى أواخر القرن العاشر أعظم حكام البيزنط ،ولكن بينما وجد باسل الثانى نفسه فى فيض من نجـــاح بيزنطى ، ووجه هرقل بموقف غاية فى الخطورة الى الحد الذى دفعه الى التفكير فى نقل مقره الامبراطورى من القسطنطينية الى قرطاجة ، غير أنه تمكن من انقاذ الامبراطورية بحسن استخدامه لموارد دولته . فقـد تحالف مع الكنيســة ، واستغل الى اقصى حـــد الحماسة المسيحية الصليبية ضد عدو كافر احتل بيت المقدس . واستولى على الصليب الأعظم .وخلال القرن السابع تم ضم ولايات آسيا الصغرى معا (فى وقت تحررها من قبضة الأعداء) . فى وحدات عسكرية ضخمة تحت سيادة حاكم عسكرى Strategos اطلق عليها ثيمات Themes (وواحدتها ثيما Thema) وقد رؤى فيما بعد ضرورة تفتيت هذه الوحدات الكبيرة فى آسيا الصغرى للحيلولة دون تركيز سلطات ضخمة فى يد رجل واحد . ومع ذلك فان نظام الثيمات هذا قـد انتشر تطبيقة تدريجيا فى الامبراطورية كلها خلال القرن السابع والقرون التالية . وليس لدينا سجل رسمى عن مثل هـذا التنظيم الجديد ، وغالبا ما نجد أول ذكر له فى بعض المزمنات أو حياة القديسين . وفى نفس الوقت يبدو أن الجنــود قـد وطنوا فى مزارع صغيرة ثم منحهم اياها فى مقابل الخدمة العسكرية . وكان انتقال هذه الأرض والالتزام الى اكبر الأبناء ممهدا لقيام جيش وطنى .

ولا شك أن ما كان يعـــد فى حقيقة الأمر تأصيلا للنزعة الحربية فى الامبراطورية ، قد أرسى دعائم تنظيماتها خلال الحقبة البيزنطية الوسيطة ، وأمدها بالوسائل الكفيلة بايجاد قوة عسكرية وبحرية مقتدرة . وفوق هذا وذاك أصبح للجنود المزارعين قيمة اقتصادية واجتماعية تعـــدل أهميتهم العسكرية ؛ فقد زادوا فى عدد صغار الملاك ، ودعموا قوة الفلاحين الأحرار الذين يشكلون العمود الفقرى لمجتمع القرية ، يشد من أزرهم قانون الفلاح

الذى يرجح انه يعود الى اواخر القـرن السابع(٢٩) ٠ وكانت الحـكومة المركزية تجاهد دوما لتاكيد وضمان الخيرية المستمرة ، وتحول دون ابتلاع النبلاء الأقوياء فى آسيا الصغرى ومناطق اخرى لأراضى صغار الملاك ٠

وكان بناء قوة عسكرية وطنية ، واعادة تنظيم حكومة الولايات ومناطق الحدود ، أمرا يتطلب بالضرورة فترة تمتد طيلة قرنين او ينيف ٠ وغالبـا ما اخفق هرقل وابنه وحفيده فى أن يروا اية نتيجة يمكن توقعهـا ، ولـكن المنجزات البـارزة التى يزهو بها القرن العاشـر تعتمد فى جوهرها على الدعائم التى ارسوها ٠

تمكن هرقل بعد عدة حملات قام بها فى آسيا الصغرى وما بين النهرين Mesopotamia أن يحطم بنجاح المطامح الفارسية ٠ وفى سنة ٦٣٩ دخل بيت المقدس دخول الظافرين ومعه صليب الصلبوت الذى كان الوثنيون قـد انتزعوه عندما استولوا على المدينة سنة ٦١٤ ٠ غير أن الهزيمة الفارسية لم تحقق للامبراطورية اى نوع من الأمان ، ذلك أن عدوا أشد قوة وخطرا ظهر بظهور الاسلام ٠ ورغم أن محمـــدا (صلى الله عليـه وسلم) قد مات سنة ٦٣٢ ، الا أن فارس او بيزنطة لم يقدرا قيمة المد الحقيقى لاتباعه الذين سـرعان مافتحوا فارس وسـوريا وفلسطين ومصـــر ، وهاجموا آسـيا الصغرى ، واغاروا على جزر بحر ايجـة ، واصبحوا بذلك قاب قوسين أو ادنى من العاصمة ،وتعرضت القسطنطينية لحصار طويل بين عامى ٦٧٤ ـ ٦٧٨ ، ولكن الأسطول البيزنطى اوقع الهزيمة بالمسلمين فى عام ٦٧٨ ٠ وكان لهذا الانتصـار اهميته بالنسبة للحضارة الأوروبية ، شـأن قرينـه عنـد القسطنطينية ايضا عام ٧١٨ ، أو التصدى للزحف الاسلامى عند بواتييه Poitiers سنة ٧٣٢ ٠

هكذا فقدت بيزنطة دون رجعة بعض ولاياتها ، وتقلصت الامبراطورية الرومانية الى مجرد جزء فقط من الشطر الشـرقى ؛ وذلك انه مع نهـاية القرن السابع تملك المسلمون سـوريا وفلسطين ومصـــر وشمال افريقيا ،

---

(٢٩) يدور جـدل كثير حول هذا الموضوع ، وان كان هنـاك اتفاق عام بأن قانون الفلاح يعود الى أواخر القرن السابع أو بداية الثامن ٠

وضاعت كل ممتلكات الامبراطورية فى الغرب ، عدا بعض اجزاء من ايطاليا (اكزارخية رافنا وشريط ضيق من الأرض يصلها بدوقية روما ، والأراضى الموجودة فى الجنوب وصقلية) ولكن هذا لم يحدث دون عوض ، فبخضوع البطريركيات الشرقية ، انطاكيــة وبيت المقــدس والاسكندرية للمسلمين ، تسلمت القسطنطينيــة مركزا مرموقا باعتبــارها ملتقى انظار الكنــائس الشرقية ، ورسمت لنفسها سياسة تتجنب بها اى تحــد جديد قــد يعيد الى ذاكرتهــا الأيام العظيمة للاسكندرية فى القــرن الخــامس (٣٠) ٠ كما ادى

---

(٣٠) يمثل النصف الأول من القرن الخامس الفتــرة التى احتلت فيها كنيسة الاسكندرية مقعد الصدارة بين كنائس الامبراطورية ،وتحقق ذلك فى الانتصارات الثلاث المتتاليــة التى حققها أساقفتها على الأساقفة الآخرين ٠ وقد دار الصــراع فى الجولة الأولى بين ثيوفيلوس Theophilus أسقف الأسكندرية ويوحنا ذهبى الفم Iohannes Chrysostomos أسقف القسطنطينية، نتيجة لما حسبه الاسقف السكندرى ادعاءات متعجرفة لبطريرك العاصمة ، ذلك أن اربعة من الرهبان المصريين ، كان ثيوفيلوس قــد حرمهم ، رفعوا شكواهم الى يوحنا الذى ربما يكون قــد رفض قبــول ملتمسهم ، ملتزما بقرارات مجمع القسطنطينية (٣٨١) الذى حرم على الاساقفة التدخل فى شئون زملائهم ٠ ولــكن الرهبان لجــأوا الى الامبراطورة يودوكيــا زوج اركاديوس . ومن ثم صدرت الاوامر الامبراطورية باستدعاء ثيوفيلوس الى العاصمة ٠ وهناك ، استغل الاسقف السكندرى كراهية الامبراطورة لذهبى الفم ودعا الى عقــد مجمع فى ضواحى القسطنطينية ، ورفض يوحنــا حضوره ، فصدر ضده قرار الادانة ثم النفى وأن كان قد أعيد ثانية نتيجة ثورة الجموع ٠ ولكنه مالبث أن نفى من جديد ٠ اما الجــولة الثانيــة فقد احرز النصر فيها كيرلس على نسطور فى مجمع افسوس (المسكونى الثالث) سنة ٤٣١ ، على حين كسب ديوسقورس الجولة الثالثة فى مجمع افسوس الثانى عام ٤٤٩ ، (راجع حاشية ١ ص ١٠٥) . ولاشك أن هذا الانتصار المتتابع اثار حفيظة القسطنطينية وروما ، فتكاتفت جهودهما لاذلال كبرياء الاسكندرية ، وتحقق لهما ذلك فى المجمع المسكونى الرابع سنة ٤٥١ ٠ راجع للمترجم : الدولة والكنيسة : الجزء الخامس ٠

انظر Chadwick, The early Church, pp. 184 - 91, 191 - 205

وكذلك Hardy, op. cit., pp. 111 - 116

وايضا T. Ware, The Crthodox Chureh, pp. 32 - 33

و Jones, Later Roman Empire, I, pp. 214 - 216

و Vasiliev, op. cit., pp. 95, 98 - 99

فقدان الولايات الشرقية بشقاقها العنيد وهرطقاتها المستمرة الى فتح الطريق امام ايجاد نوع من التعايش السلمى المؤقت **Modus Vivendi** عقيديا مع روما • واصبح من الممكن الآن تركيز الاهتمام حول المشاكل الجوهرية قريبة الصلة بالدولة ذاتها ، مثـــل الوسائل الدفاعية عن آسيا الصغرى ، المعين الذى لاينضب من الرجال والمال ، او اقرار كيفية ما من السيادة على الشعوب الصقلبية فى البلقـــان والمنـاطق الشمالية . ومن ثم فانه ليس من المبالغة فى شىء القـــول بأن ضياع الولايات الشرقيــة يمثـل الخـلاص للامبراطورية الرومانية الشرقية •

وابان القرن السابع بدأ الصقالبـــة فى الاستقرار جنـوب الدانوب مباشرة ، وهناك دليل أيضـــا ، وان كان لا يلقى تأييـدا اجماعيا ، على أن الصقالبة أخذوا منذ القرن السابع فصاعدا فى التدفق جنوبا عبر البلوبونيز ، ســواء بمزاحمة الأهـــالى اليونان أو بسوقهم الى منفى مؤقت الى الجزر وربما جنوب ايطاليا وصقلية ، ومع ذلك فلعل بلاد اليونان لم تخضع لسيادة العناصر الصقلبية الى الحد الذى تفقد فيه تقاليدها ولغتها الهلينية • وقد عمل اباطرة الأسرة الهرقلية الأواخر ، خاصة قنسطانز الثانى Constans II (٦٤١ ــ ٦٦٨) وجوستنيان الثانى Justinian II (٦٨٨ ــ ٦٩٥ ، ٧٠٥ ــ ٧١١) على اقرار نوع من السيادة الجزئية فى البلقـــان ، وعلى استغلال هذا الفيض من القوة البشرية ، وهكذا تم تجنيـد الصقالبـــة فى الجيش وتوطينهم كطبقة ملاك صغار عسكريين فى آسيا الصغرى • ولكن على الرغم من أن الامبراطورية تمكنت بهذه الطريقة من تحويل هذا الغزو لمصلحتها ، الا أن بعضـــا يسيرا فقط من هــؤلاء النزلاء الجدد تم استيعابهم داخـل الامبراطورية كرعايا ، على حين ظلت الكثرة الغالبة منهم تتمتع باستقلال حقيقى فى الامارات الصقلبية التى تشكل فى مجموعها أراضى امبراطورية جنوب الدانوب ، والأخطر من ذلك انه قرب نهـاية القـرن السابع شهدت المنطقة وصول عناصر أخرى جديدة أشد عتوا هم البلغار ، الذين ينحدرون من أصول تركية ، مما أضاف تهديدا متزايدا للسلام الرومانى ، بلغ ذروته

وانظر SOCRAT, hist. eccl. VII, 30, 31, 32, 34

وأيضا SOZOM. hist. eccl. VIII, 2, 3, 12 - 14, 16 - 19 المترجم •

فى ذلك التحدى الذى تمثل فى قيام الامبراطورية البلغارية الأولى فى بواكير القرن العاشر ٠

وفيما عدا فترة قصيرة فقط ، امتد حكم الأسرة الهرقلية مائة عام (٦١٠ ــ ٧١١) . وكان أباطرتها الأربعة الكبار يتمتعون بصلابة الرأى والأوتوقراطية ، مع شىء من المزاج السوداوى فى مظهرهم الخارجى ، وان كان كل منهم قد أدى دوره بارزاً فى تشكيل الامبراطورية الرومانية فى العصور الوسطى ٠ فالى عملية الانعاش العسكرى واعادة التنظيم الادارى التى قام بها هرقل ، يعود الفضل فى انقاذ القسطنطينية من الوقوع فى أيدى الفرس ٠ أما قنسطانز الثانى فقد احتمل عنف هجمات العرب الأولى ، ووجد لديه فى الوقت ذاته متسعا ليتصدى للصقالبة فى البلقان ، على حين نجح قسطنطين الرابع Cosnstantine IV فى انقاذ العاصمة من الحصار العربى . واستعاد للمسيحية الرومانية الشرقية مكانتها ٠ بينما استمر جوستنيان الثانى يواجه العرب والصقالبة ويغذى الامبراطورية بدماء جديدة عن طريق نقل جماعات كبيرة فى منطقة لأخرى ٠ ولاشك أن الفضل يعود الى هذه الأسرة القوية الحاذقة فى ابعاد العرب عن أوروبا ٠ كما أن الاستمرار السياسى والثقافى لسيادة التقاليد اليونانية ــ الرومانية بقى دون انقطاع رغم هجمات الغزاة على أراضى الحدود فى الشمال والشرق ، يعززها هجوم بحرى لايفتر ٠ لقد كانت القسطنطينية غالبا مدينة « محاصرة » . ولكنها رغم ذلك لم تسقط الا فى سنة ١٢٠٤ وفى يد عدو مسيحى ٠

الفصل الثانى

الامبراطورية الرومانية فى العصور الوسطى

٧١٧ ـ ١٠٥٦

١ ـ منجزات الأباطرة اللاايقونيين (٧١٧ ـ ٨٤٢) ·

٢ ـ العصر الذهبى للامبراطورية البيزنطية ·

(أ) العموريون والمقدونيون ·

(ب) الزحف الى الشرق ٨٤٢ـ١٠٢٥ ·

(ج) القسطنطينية والصقالبة ·

(د) بيزنطة والغرب ·

(هـ) السياسة الداخلية : الكنيسة والتعليم ·

الفصل الثانى

الامبراطورية الرومانية فى العصور الوسطى

٧١٧ ـ ١٠٥٦

١ ـ منجزات الاباطرة اللايقونيين (٧١٧ ـ ٨٤٢) :

فقد جوستنيان الثانى ، آخر أباطرة الأسرة الهرقلية ، عرشه وحياته نتيجة قساواته الوحشية وطغيانه المتزايد ، وبموته سقط بيت هرقل ، واعقب ذلك فترة من الاضطراب الداخلى ، أججت نيرانه حمى التنافس على العرش ، وصحبه فى الوقت ذاته تجدد هجمات العرب · وفى عام ٧١٧ اعتلى عرش الامبراطورية ليو الثالث Leo III وهو قائد قوات الناطليق(١) Anatolicon فى اسيا الصغرى ، ويمتاز بشخصيته القوية وكفاءته العسكرية ، وينحدر من عائلة تنتمى أصلا لشمال سوريا(٢) · وقد تمكن من أن يضع نفسه على رأس العاصمة فى فترة حرجة عندما تعرضت مرة أخرى للحصار على يد المسلمين ·

وتمثل وقفة القسطنطينية الشهيرة ضد العرب سنة ٧١٧ جزءا يسيرا من صراع عنيف استمر طوال مائة عام ، وامتد منذ منتصف القرن الثامن ،

---

(١) فى سبيل تقوية الوسائل الدفاعية على الجبهة الشرقية لمجابهة الاخطار الكامنة هناك ، أقيمت فى القرن السابع أربعة أقاليم عسكرية عرفت فيما بعد بالثيمات : الارمنياق Armeniakoi والناطليق Anatolikoi وهما يحتلان الجزء الاوسط كله من اسيا الصغرى للوقوف فى وجه الجيوش العربية ، من حدود كيليكيا Cilicia فى الشرق الى شواطىء بحر ايجة فى الغرب · ثم الابسيق Opsikion بالقرب من بحر مرمرة ومهمته حماية العاصمة من الاعتداءات الخارجية · اما آخرهم فهو الثغر البحرى المعروف باسم كارابيسيان Carabisiani على الشاطىء الجنوبى لآسيا الصغرى لمواجهة الاسطول الاسلامى · المترجم ·

(٢) يذكر احد المصادر المتأخرة أنه ينتمى لمنطقة ايزوريا Isauria فى جنوب شرقى آسيا الصغرى . ومن هنا جاءت صفة الايزورية التى عرفت بها هذه الاسرة فى اغلب الاحيان ·

ومن هذه الناحية فان ما تحقق على يد اخر أباطرة الأسرة الهرقلية · وأباطرة القرن الثامن الايزوريين ، يعد عملا متصلا · وقد أدت الجهود التى قام بها ذلك الرجل صاحب الارادة القوية و « المبول العربية » ، ليو الثالث (٧١٧ ـ ٧٤١) وابنه الداهية قسطنطين الخامس Constantine V (٧٤١ ـ ٧٧٥) الى تدعيم الحكم الرومانى فى آسيا الصغرى ، بعد أن اهتبلا الفرصة التى سنحت لهما بسبب الاضطرابات التى تعرض لها العالم الاسلامى ، والناجمة عن انتقال الخلافة من الأمويين فى دمشق الى بنى العباس فى بغداد · ولاشك أن ليو الثالث افاد من ماضيه(٣) بحيث أصبح يعرف تماما ضرورة تأمين آسيا الصغرى من هجوم العرب ، واستخدم فى ذلك كما جرى التقليد البيزنطى ـ وسائله الدبلوماسية والعسكرية ، وأدرك القيمة الحقيقية للافادة من حسن علاقته بجيرانه ، واقدم ابنه قسطنطين الخامس على الزواج من ابنة خان الخزر ، الذى تحتل مملكته المنطقة الواقعة شمالى بحر قزوين · على أنه بعد وفاة قسطنطين الخامس لم تحفظ باحكام الامتيازات البيزنطية فى منطقتى ارمينيا وما بين النهرين ، وشهدت هذه الفترة وحتى منتصف القرن التاسع تقلبات مستمرة بين النصر والهزيمة مع شىء من الخسارة الجسيمة كفقدان كريت (سنة ٨٢٧) ، وان كانت آسيا الصغرى قد تمكنت من الصمود . واستقرت الى حد ما الحدود البيزنطية الاسلامية · وطوال ما يزيد على مائة عام امتدت الى الغرب الامارات القوقازية بين البحر الاسود وبحر قزوين ، متجهة جنوبا الى الشواطىء الغربية لكيليكيا ، دون أن يدخل فى نطاقها جبال طوروس · وقد سارت حرب العصابات واغارات التخوم التى كان ينظمها سادة البر ، جنبا الى جانب الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية فى هذه المناطق · وخلدت ذلك الملاحم البيزنطية التى خلدت المحارب ديجنيس اكريتاس(٤) Digenis

---

(٣) ترقى ليو الثالث فى سلك الجندية ، وعمل فى خدمة جوستنيان الثانى فى الفترة الثانية من حكمه . ولعب دورا فى الحملة التى وجهت الى القوقاز ، ثم عين فى عهد انسطاسيوس الثانى (٧١٣ ـ ٧١٥) قائدا على ثغر الناطليق الذى يعتبر اهم الأقاليم البيزنطية فى آسيا الصغرى · وقد افاده ذلك فى الوقوف على احسن الوسائل الدفاعية ضد المسلمين · المترجم ·

(٤) انظر بعده ، المترجم ·

Akritas غير أن القسطنطينية توصلت الى اتفاق فى الشرق تمكنت بمقتضاه من انقاذ آسيا الصغرى على الأقل ، فأتاح لها ذلك الفرصة للقيام بهجماتها الناجحة فى عصرها الزاهر زمن الأسرة المقدونية فى القرن العاشر ٠

أما بالنسبة للصقالبة فى الشمال فقد كان الأمر يختلف عن ذلك ، فلم يكن هناك أدنى أمل فى تحول المسلمين عن عقيدتهم ، بينما لم يكن لدى الصقالبة المهاجرين الوثنيين أى ارتباط بالمسيحية أو الاسلام ، وكانت طرائق حياتهم نصف بدوية ٠ ومن ثم أصبحوا يمثلون ميدانا فسيحا لأعمال التبشير ومجالا واسعا للنفوذ السياسى والثقافى ٠ ومنذ بدأوا يتحركون باتجاه الجنوب ويعبرون الدانوب فى أعداد ماتذر من شيء أتت عليه الا جعلته كالرميم ، ثم أخذوا فى الاستقرار بعد ذلك ، أصبحوا عاملا حيويا فى التطور الداخلى للامبراطورية البيزنطية ٠ وقبل القرن الثامن كان الصقالبة قد استوطنوا الأراضى البلقانية التى أضحت من بعد موطنا لهم ٠ وكانت بلغاريا هى الدولة الأولى التى هددت القسطنطينية ، وقد تكونت من خليط يضم الصقالبة والبلغار ٠ على أنه حتى القرن الثامن وأوائل التاسع لم تكن هذه الدولة قد توفر لها الاستقرار الذى يمكن أن يشكل للامبراطورية تهديدا سياسيا خطيرا ٠ ومع ذلك فقد تطلب كل من الصقالبة والبلغار يقظة عسكرية دائمة ، وحظى قسطنطين الخامس بقدر خاص من الاحترام ، على الرغم من أنه كان فى عداد الهراطقة باعتباره قائدا ناجحا الاحترام ، على الرغم من أنه كان فى عداد الهراطقة باعتباره قائدا ناجحا التخريبية ٠

ولم يكن الايزوريون محاربين فقط ، بل كانوا أيضا اداريين أكفاء ، فقد أدخلوا الكثير من التحسينات على التنظيمات التى استحدثت فى الولايات فى القرن السابع ٠ ولما كانت الثيمات الجديدة فى آسيا الصغرى ، كما كانت هذه الولايات التى ضمت الى بعضها تدعى ، متسعة الى الحد الذى يحمل فى ثناياه الخطر ، فقد أعيد تقسيمها من جديد ، وامتد هذا التنظيم تدريجيا الى المناطق الأخرى فى الامبراطورية ٠ ويمثل كتابهم فى القانون « المختارات » Ecloga محاولة لتقديم مختصر عملى للاستخدام

اليومى ، وهو يعتمد فى جوهره على القانون الجوستنياى ، ولكنه يعكس بعض التغييرات التى وقعت منذ عهد جوستنيان ، ومن بينها نوعية الجزاءات · وقد جمع بعد ذلك بشكل ما فى مجموعات أو كتيبات ، وان كان قد ظل غير معروف بسبب صدوره عن امبراطور هرطوقى · وقد تم ترجمة الاكلوجا واستخدامها بواسطة الشعوب الصقلبية المجاورة ·

وامام دواعى اليقظة الدائمة التى اقتضتها أحداث القرن الثامن ، كان لابد أن تتوافر لبيزطة ثروة ضخمة وموارد اقتصادية وفيرة ، وقد هيأ لها موقعها الجغرافى تجارة نشطة ومربحة ، كما ساعد على ذلك أيضا ايراداتها من السلع الكمالية ، وصناعاتها الدقيقة من العاج والطرز والحرير ، ومكنتها قوتها البحرية فى أول الأمر من تسيير دفة التجارة فى البحر المتوسط عبر الطرق التى تعود عليها بالربح ، بالاضافة الى اتخاذها سياسة تحاملية حازمة تجاه مصر وسوريا · واصبحت طرابيزون Trebizond والبحر الأسود المنفذين الرئيسيين للتجارة ناحية الشرق الأقصى ، على حين قامت خرسون Cherson فى شبه جزيرة القرم بنفس الدور باتجاه روسيا واضحت طريق الشمال · اما فى الغرب فلم تعد التجارة يحتكرها التجار السوريون أو اليونان أو المصريون أو غيرهم من الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، بل تقاسمتها المدن البحرية الايطالية كالبندقية ، أو تلك التى ما تزال ضمن دائرة السيادة البيزنطية فى جنوب ايطاليا مثل امالفى Amalfi أو نابلى ·

وفيما تلا من أجيال بيزنطية ، تناولت الألسن الايزوريين بالتجريح والافتراء ، وجر التناسى والتجاهل ذيولهما على منجزاتهم البناءة نتيجة انتهاجهم سياسة دينية كانت تختلف عقيديا مع الديانة المسيحية الارثوذكسية · وقد أدى ذلك الى فتح الطريق أمام الاصطراع الداخلى الذى عانت منه الامبراطورية ، وتسميم العلاقات مع روما والغرب · ولم يكن ما قد يبدو لائقا ، من استخدام ايقونات Icons أو صور القديسين والمسيح ، بنوع ما فى العبادة المسيحية شيئا جديدا · غير أن هذا النوع من العبادة قد أسيء استعماله ، فالجاهل قد يربط ما بين الايقونة وصاحبها الحقيقى ، أو يقدم لهذه الايقونة العبادة التى يجب أن ينفرد بها الله وحده · وقد

اثيرت هذه المسالة من جانب بعض الأساقفة فى المجمع الذى عقد فى القرن السابع(٥) ، ومع ذلك فقد تم الاعتراف بشرعيــة الاستخدام الصحيح لمثل

---

(٥) تشير المؤلفة هنا الى المجمع الذى عقد بقاعة القبة سنة ٦٩١ او ٦٩٢ على عهـد الامبراطور جوستنيان الثانى ، وذاع صيته باسم المجمع الخـامس السادس Quinisext ، ذلك أن المجمعين المسكونيين الخامس (٥٥٣) والسادس (٦٨٠/٦٨١) تناولا أمـور عقيـــدية بحتــة ، ولم تحظ التنظيمات الكنسية فيهما بنصيب ، ولهذا فقد عقد هذا المجمع وعـــد عمله استكمالا للمجمعين السابقين • وكان من بين القوانين التى صدرت عنـــه القانون رقم مائة ، الذى نص على تحريم « الصور ســواء بالرسم أو باى أسلوب آخر ، والتى تجذب اليها العين وتفسد القلب ، وكل من يقــدم على ذلك سوف يحرم من رحمــة الكنيسة » • ولم يكن ذلك أول بـادرة لتحريم عبادة الصور ، فقد كانت الكنيسة فى أول عهدها تكره الصــور والتماثيل وتعتبرها من بقايا الوثنية خاصة وقد جاء فى الكتاب المقدس • « فاحتفظوا جدا لانفسكم فانكم لم تروا صورة ما يوم كلمكم الرب فى حوريب من وسط النار • لئلا تفسدوا وتعملوا لانفسكم تمثالا منحوتا صورة مثـال ماشبه ذكر او انثى ، شبه بهيمة ما مما على الأرض ، شبه طير ماذى جنـاح مما يطير فى السماء ، شبه دبيب ما على الأرض ، شبه سمك ما مما فى المـاء تحت الارض » • (تثنية ٤ : ١٥/١٨) • الا ان انتصار المسيحية على عهد قسطنطين ، وما كان للبيئة والتقاليد والتماثيل اليونانية والفكر فى الشرق ، كل هذا جعل الكنيسة تخفف من غلوائها ازاء هــذه الافـكار والمظاهر التى عدتهـا فى البــدء وثنيــة ، وراح المسيحيون يتبارون فى تشييد الكنائس وتزيينها ، فجعلوا من جدران الكنائس الجـــديدة توراة وانجيـلا مصورين تصويرا ، فبداوا بجنة عدن وانتقلوا منها الى بلوطة ممرة وقبر سارة ولقاء يوسف باخـوته ، فموسى والشريعـــة ، فبيت راحاب ، فسبى اسرائيل ، فبشارة مريم ، فقيامة ليعازر ، فالام المسيح ، فموته فقيامتـــه فصعوده ، وكتبوا تحت هذه الصور عبارات تبين مواضيعها • وبمرور الزمن وتوالى الايام تضاعف عـــد القديسين الذين يكن لهم شعب الكنيسة الاحتـــرام والتقدير • وبذلك نشات الحاجة الى تذكرهم ، فظهرت لهم وللعذراء صــور كثيرة ، وتحول الأمر بعد ذلك عند الجموع الى حد عبادة هـــذه الصور والسجود والتماس البركة منهـا وطلب تحقيق المعجزات على يديها • وعلى هذا النحو انتشرت الصــور فى كل مـكان ، تراها فى الكنـائس والأديار والحوانيت واثاث المنازل والحلى والملابس •واخـذت المـدن التى تتهددها اخطار الوباء او المجاعة او الحروب تعتمد على قوة مالديها من الصـور والآثار الدينية للقديسين ، بدلا من الاعتماد على مهـارة الجنود وكفاءتهم

هــذه الايقونات · وعنـــدما رأح ليونتيوس Leontius أسقف نيابوليس Neapolis فى قبرص فى القرن السابع ، يفند اتهامات اليهود للمسيحيين بالوثنية ، كتب يقــول : « نحن لانضرع للصليب ولا لأيقونات القــديسين قائلين « انت ربى » ، لأنها ليست لنا اربابا · ولكنــا نفتح الكتب لتذكرنا بالله ، ولمجده نؤم الكنائس واياه نعبد »(٦) وفوق هذا فان مؤيدى الايقونات فى معرض الانكار لاستخدامهم لهـا ، كان لابد ان يؤدى ذلك حتمـا الى تعقيدات لاهوتية ، ذلك انه اذا كانت الكلمة حقا قــد صارت جسدا وحلت

العسكرية · واصبحت الصورة عند اباء الكنيسة هى انجيل الأمى يقرأ فيها مالا يقدر على فهمه فى الكتاب المقدس · غير أن الكنيسة شهدت منذ بداية القرن الرابع رد فعل عنيفا ضد هذه الظاهرة التى تتهددها · ففى اسبانيا عقد مجمع الفيرا Elvira .وإلى سنة ٣٠٠ وأوجب تحريم وجود الصور فى الكنائس (القانون رقم ٣٦) ، وابدى يوساب امتعاضه من تزيين الكنائس وأعلن أن تعليق الصور واقامة التماثيل محض بدعة وضـــلال · و مرور الزمن اشتد ادراك المسيحيين لحاجـة الكنيسة الى الاصـلاح والرغبـة فى تطهيرها . ولما كان قلب الدولة البيزنطية فى القرنين الثامن والتاسع آسيا الصغرى وارمينيا ، كان لابـد أن تتأثر الامبراطورية بما ظهر فى هــذه المنطقة من مؤثرات دينية تطهيرية ، خاصة طائفة البيالصة Paulicians الذين انكروا ما للمسيح من جسد مادى وما يرتبط به من فكرة الخـلاص لاعتقادهم أن المادة كلها شر ، ومن ثم انكروا الصليب وكل الايقونات ·

أنظر فى ذلك Percival, op. cit., pp. 407, 523 - 528

و Hefele, op. cit., I, p. 151, V, p. 236

وراجع أيضا : الدكتور اسد رستم ، حرب فى الكنائس ، ص ٨ ــ ١٣ والروم ، الجزء الأول · ص ٣٠٤ ــ ٣٠٥ وكنيسة مدينـة اللـــه أنطاكية العظمى ، الجزء الثانى ص ٨١ ·

و Vasiliev, op. cit., I, pp. 251 - 258

وأومان : الامبراطورية البيزنطية ص ١٤٩ ــ ١٥٢ وبينز : الامبراطورية البيزنطية . س ١١٣ ــ ١٢٢ وايضا Baynes & Moss, op. cit., pp. 15 - 16, 105 - 108

و Hughes. op. cit.. pp. 118 - 126

وكذلك Acton, Essays on Church and State, pp. 97 - 99

و Encycl. of Religion and Ethics, art. Iconoclasm

و C.M.H. vol. IV, pp. 9 sqq. و Oman, op. cit., pp. 300, 321

وأنظر EVSEB. hist. eccl. VII, 18 المترجم ·

(٢٦) N. H. Baynes. Byzantine Studies. p. 232

بيننا ، واذا كان المسيح قد صار انسانا ، لأضحى من الممكن تصويره أو تمثيله ٠

وربما تعزى محاولة وضع حد لاستخدام الأيقونات بادىء الأمر فى القرن الثامن ، ثم محاولة القضاء عليها ، الى التأثير الاسلامى ولو بصورة جزئية ،ومن الممكن أيضا وضع التأثير اليهودى فى الاعتبار ، وقد تمثلا بشكل واضح فى اراضى آسيا الصغرى ، وان كانت المسألة قد عولجت قسرا عن طريق الأوامر الامبراطورية ، ويعد قسطنطين الخامس ، فى منتصف القرن الثامن، الممثل الحقيقى ، اكثر من أبيه ليو (٧) ،لمناهضى الأيقونات، يؤيده فى ذلك عدد كبير من رجال الكنيسة والجنود وكل من لاينتمى الى الأصل الأوروبى من أهالى الامبراطورية ٠ وقد استطاع أن ينظم صفوف فريقه بمهارة فائقة ، وراح يشجع الجدال والمناظرة ، ويلقى القبض على خصومه فى النهاية ، ويكتب بنفسه بعض المقالات فى اللاهوت ، محاولا أن يكسب الى جانبه بالحسنى الآباء الديرانيين المتشددين ، فلم تكن لديه الرغبة فى أن يجعل منهم شهداء ٠ وقد دعا الى عقد مجمع كنسى عام ٧٥٤ أمه ٣٢٨ اسقفا وتقرر فيه أن السياسة اللاايقونية تتفق تماما مع التقاليد الأرثوذكسية ٠ غير أن البابا والغرب ، وبصفة خاصة ايطاليا ، تحفظوا على ذلك القرار ٠ وكانت تلك فرصة مناسبة كى يبدى الحكام الكارولنجيون امتعاضهم . وجعل شارل العظيم Charles the Great من نفسه فيما بعد حامى الأرثوذوكسية فى الغرب ، حتى بعد أن أعلن المجمع المسكونى السابع

---

(٧) اخذ ليو الثالث أول اباطرة الأسرة الايزورية على عاتقه مهمة تطهير العقيدة المسيحية من الشوائب والوثنيات التى لحقت بها ، فأصدر فى سنة ٧٢٦ قراره بانزال ايقونة المسيح القائمة عند أحد مداخل أسقف الامبراطورى ،وقابل هياج العامة فى العاصمة بالقمع ٠ وعزل أسقف العاصمة جرمانوس الأول الذى عارضه الرأى ، وعقد مجلسا فى سنة ٧٣٠ ضم كبار الموظفين وكبار الشيوخ وبعض رجالات الكنيسة لاقرار السياسة التى ينتهجها فى محاربة الصور ، واستتبع ذلك ممارسة الاضطهاد ضد الايقونيين ، وازدادت العلاقات سوءا مع روما التى كانت تناصر تقديس الايقونات ٠ وقد سار قسطنطين الخامس على نفس السياسة ، ولكنه كان اشد عنفا وضراوة من أبيه ٠ المترجم ٠

المنعقد فى نيقية(٨) سنة ٧٨٧ نبذه لهـذه الفكر الهرطوقية • ولقـد انفجرت الحركة مرة أخرى فى القرن التاسع وان كانت أكثر اعتدالا واقل تنظيما ، واعيدت الأرثونكسية ثانيـة وللمرة الأخيرة فى المجمع الكنسى الذى عقد سنة ٨٤٣(٩) •

---

(٨) هو اخر المجامع المسكونية بالنسبة للكنيسة الشرقية ، وقد دعت اليه الامبراطورة ايرين زوج ليو الرابع الايزورى ، وكانت تنحدر من أصل اثينى ولهـذا كانت شديدة التعلق بالصور ، شديدة الكراهيـة لسياسة الايزوريين ، وكان لها تاثيرها على زوجهـا الذى ظهر معتدلا فى سياسته بعكس ابيه قسطنطين الخامس وجـده ليو الثالث • وكان من المقرر عقد هـذا المجمع سـنة ٧٨٦ فى القسطنطينية ، ولكن الجيش ـ وكان معظمه من اللاايقونيين ـ هاجم المؤتمرين وانفض المجمع . فعملت ايرين على نقل هؤلاء الجنود خارج العاصمة ، واستبدلتهم بغيرهم وعقد المجمع ثانية فى مدينة نيقية فى العام التالى ، وقرر الغـاء قرارت مجمع هيريا الذى عقده قسطنطين الخامس سنة ٧٥٤ ، والعودة الى عبادة الصور المقدسة ، وان كان المجمع قد رأى التفرقة والتمييز بين العبادة الخاصة باللـه والعبادة الموجهة للصور •

أنظر Percival, op. cit., pp. 523 - 542

وكذلك Hefele, op. cit., V, pp. 342 - 390

و Vasiliev, op. cit., I, pp. 263 - 265 ودكتور أسد رستم : حرب فى الكنائس ، ص ٤٣ ـ ٤٦ ، كنيسة مدينـة الله انطاكيـة العظمى ، الجزء الثانى ص ٩٥ ـ ٩٧ • المترجم •

(٩) بدأت حـرب الايقونات الثانيـة على يد ليو الخـامس الأرمنى (٨١٣ ـ ٨٢٠) الذى أعلن أن ما حل بالدولة من كوارث انما يعود الى عبادة الايقونات ، فعزل أسقف القسطنطينية سنـة ٨١٤ لمعارضته اياه . وعقـد مجمعا فى نفس العام فى كنيسة أيا صوفيا قرر فيـه تحريم عبادة الصور واعادة اقرار ما صدر عن مجمع هيريا سنة ٧٥٤ • بينما تأرجحت سياسة ميخائيل الثـانى العمورى (٨٢٠ ـ ٨٢٩) بين الشدة والتسامح ، فلما كان عهد ثيوفيلوس (٨٢٩ ـ ٨٤٢) ازدادت نيران هذه الحرب ضرارة ، ولكن نلاحظ على الحرب الثانية بصفة عامة انها كانت اقل عنفا من الحرب الأولى زمن الايسوريين •فقد نظم الايقونيون الآن صفوفهم ولم يؤخذوا بغتة كما حدث فى القرن الثامن • وتمسك الرهبان بالايقونات ووقفوا يتحدون الأباطرة فى صلابة • واذا كانت الحرب الأولى قد أخمدت على يد ايرين ، فان الحرب الثانية والاخيرة قـد انتهت على يد تيودورا زوجة تيوفيلوس • فدعت فى

ويعتبر القديس يوحنا الدمشقى(١٠) St. John of Damascus زعيم الكنيسة المدافع الأساسى عن الاستخدام التقليدى للايقونات · وفى عـدد من الرسائل الشـهيرة المتلاحقة صاغ يوحنـا الأدلة اللاهوتية لاستخدام الايقونات ، بحيث اصبحت من بعد سلاحا ماضيا اعتمد عليـه الأيقونيون

عام ٨٤٣ الى عقد مجمع كنسى اصدر قراراته باعادة قوانين مجمع نيقية (المسكونى السابع) · واختتم المجمع جلساته باقامة قداس مهيب فى ١١ مارس ٨٤٣ ، ولايزال هذا اليـوم يحتفل به عيـدا ارثوذكسيا فى الكنيسة اليونانية · المترجم ·

(١٠ ، ١١) يوحنا الدمشقى هو احد رهبان دير القديس سابا قرب بيت المقدس ، توفى سنة ٧٥٠ لم تكن خطورته على اعداء الايقونات قاصرة على معارضـة سياستهم الدينية ، بل تمثلت فيما نادى به من آراء حـول سلطة الجالس على العرش ، فقد فصـل بين السلطتين الزمنيـة والروحية واكد ذلك بقـوله : « نحن نطيع الامبراطور فيما يتعلق بحياتنا اليومية أى فى الولاء والضريبة ، وما يحق له علينـا من الجبايات · اما فى الحكومة الكنسية فلنا القسيسيون والمبشـرون بالكتاب المقـدس وشارحو القوانين الكنسيـة · فالتنظيم السياسى من اختصـاص الامبراطور ، اما التنظيم الكنسى فهو من اختصاص القسيسين ، وليس تجريدهم منـه الا من قبيل اللصوصية ·واذا كان يوحنا الدمشقى قد تولى مهمة التصدى للايزوريين ، فقد قام ثيودور الاستوديى بنفس الدور تجاه العموريين ، وقد تعرض للنفى ، وهو الوسيلة الوحيدة التى وجدها الأباطرة للخلاص منه ومات سنة ٨٢٦ ولم تكن اقواله تخرج عما ذكره سلفه يوحنا الدمشقى ، فقـد راح يخاطب الامبراطور ليو الخامس الأرمنى بقوله : « لاتعكر صفو الكنيسة · فالرسول قال ــ « وهو الذى أعطى بعضـا ان يكونوا رسلا ، وبعضا أنبياء ، وبعضا مبشرين ، وبعضا رعاة ومعلمين ، وهكذا القديسين لأجل عمـل الخـدمة فى سبل بنيان جسد المسيح » ــ ولكنه لم يذكر الأباطرة · وقد أعطاك الله مقاليد الدولة والجيش فاعتن بها واترك الكنيسة لرعاتها ومعلميها · واذا كنت لاترضى ، فاننا لانصغى لما تقول ولو نقله الينـا ملك من السـماء » · ولا شك ان الرهبان قد لعبـوا دورا بارزا فى التصدى للسياسة اللاايقونية التى اتبعها الايزوريون والعموريون ، خاصة عندما اقدم قسطنطين الخامس على الاستيلاء على عدد من المؤسسات الديرانية وجعل منهـا مرافق عامة للدولة · وقد خسرت بيزنطة الكثير من جراء ذلك عنـدما هاجر عدد كبير جدا من الرهبان الى الغرب هروبا من هـذا الاضطهاد حاملين معهم الكثير من الأعمال الفنية الرائعة · المترجم ·

متواحة فى دفاعهم · وكان القديس يوحنا يعيش داخل الأراضى الاسلامية ، وقضى السنوات الأخيرة من عمره داخل الأديرة القريبة من بيت المقدس ، وبهذا كان بمأمن من أن تصل اليـه يد السلطة الامبراطورية · أما الزعامة الديرانية داخل الامبراطورية فقد تمثلت فى القديس ثيودور(١١) Theodore رئيس دير ستوديوس فى القسطنطينية ، وقـد تعرض للنفى مرات عديدة بسبب ايمانه الصريح الذى لايتزعزع بالأيقونات · ومع ذلك فقد كان هناك شىء آخر يمكن ليوحنا الدمشقى وثيودور الاستوديى الاعتماد عليه ، أعنى حق الكنيسة فى الانفراد بتقرير أمور العقيدة · ومهما يكن من أمر ، فقـد انتهى ذلك الجدال بالتوصل الى طريق وسط · فقـد ظل الارتباط التقليدى الوثيق بين الدولة والكنيسة قائما ، وأعيـد من جديد الاستخـدام البعيد للايقونات ، وان كان قـد لزم التأكيد على التمييز بين العبادة التى يجب أن يتفرد بها الله وحده ، والتقدير الذى يمكن أن يقدم للمخلوق وما يبدعه ·

هكذا عادت بيزنطة الى الأرثوذكسية ، ولكن الآثار الناجمة عن هذا الجدال ظلت باقية لزمن طويل خاصة فى الخارج · فقد أقـدم الامبراطور ليو الثالث عام ٧٣٢ على فصل مناطق جنوب ايطاليا والليريا عن السيادة البابوية ، واخضعها لسلطة بطريرك القسطنطينية · وقـد اغتمت البابوية طويلا نتيجة هذا الاجـراء الذى كان سببا فى اضطراب العلاقات بين روما والقسطنطينية فى القرن التالى · يضاف الى هـذا ، أن الحقيقة القائلة بأن الأباطرة الرومان ليسوا الا هراطقة ، (بالاضافة الى انشغالهم بالجبهات الأخـرى) ، أدت الى أن تنشد البابوية ، ربما كرها ، العون من حـكام الفرنجة فى الغرب · وهكذا حمـل الكارولنجيون على التدخل فى السياسة الايطالية والارتباط الوثيق بالبابوية · وقد عمق هـذا من الطبيعة النظرية للادعاءات البيزنطية بامبراطورية مسيحية عالمية ، ومع هذه البدايات راحت « الامبراطورية » الغربية المنافسة تأخذ طريقها الى الظهور ·

ورغم أن شارل العظيم استطاع فى أوائل القـرن التاسع أن يحصـل على اعتراف مؤقت بلقبه الامبراطورى من امبراطور بيزنطى واهن الارادة ، ورغم أن الاضطرابات العقيدية التى كان يعانى منهـا العالم الأرثوذكسى

(١١) راجع الحاشية السابقة ·

آنذاك قد انعكست على الحياة فى القسطنطينية حتى القرن العاشر (رغم ما تم التوصل اليه سنة ٨٤٣(١٢)) ، لم تلبث التسمية المصطنعة لـ « امبراطورية » شارل أن توارت بالحجاب ، بينما اخذت الامبراطورية الرومانية الحقة تنتقل بثبات منذ منتصف القرن التاسع من قوة الى قوة ، لتحقق ما يمكن اعتباره مع شيء من التبرير قمة منجزاتها فى العصور الوسطى . وهكذا تمكنت بيزنطة من أن تخرج بنجاح من الأزمات التى دهمتها فى القرنين السابع والثامن بعالم يونانى - رومانى وطيد الأركان ، حقيقة محدود المساحة ، ولكن يدعمه موقع استراتيجى ممتاز يضع احدى قدميه فى آسيا والأخرى فى أوروبا .

٢ - العصر الذهبى للامبراطورية البيزنطية :

(أ) العموريون والمقدونيون .

شغل العرش البيزنطى فيما بين عامى ٨٢٠ - ١٠٥٦ باسرتين ، احداهما قصيرة الاجل تمثلت فى البيت العمورى ، والثانية العائلة المقدونية التى حكمت قرابة قرنين من الزامن . ولعله يبدو خطأ أن نفصل

---

(١٢) فى نفس العام (٨٤٣) الذى شهد خاتمة الحروب ضد الايقونات، كانت الامبراطورية الغربية تشهد نزوعا الى الاستقرار ، وان كان على شكل انقسام ، يتفق . طبيعة الاقاليم التى تتكون منها . فقد قسمت امبراطورية شارلمان قبل وفاته سنة ٨١٤ ، جريا على عادة الجرمان . بين أبنائه انقسام ، يتفق وطبيعة الاقاليم التى تتكون منها ، فقد قسمت الامبراطورية الثلاثة ولكن ارثة انحصر فقط فى لويس التقى بسبب موت أخويه ، فلما مات هذا الأخير سنة ٨٤٠ ، دار الصراع عنيفا بين ابنائه الثلاثة وانتهى الأمر بعقد معاهدة فردان سنة ٨٤٣ ، التى تم فيها تقسيم الامبراطورية بين الاخوة الثلاثة ، فذهب لويس بالمنطقة التى أصبحت فيما بعد المانيا ، وخص شارل ما عرف بعد ذلك بفرنسا ، واحتفظ لوثر بالمنطقة الوسطى التى اصبحت تعرف باسم لوثارنجيا (اللورين) ، واحتفظ بلقب الامبراطور . انظر Pirenne, op. cit., pp 128 - 133
وأيضا Oman, op. cit., pp. 409-sqq.
وكذلك Davis, op. cit., pp. 159 - 162
و Strayer & Munro, op. cit., pp. 102 - 103
وكذلك Stephenson, op. cit., p. 170
و Thompson & Johnson, op. cit., pp. 281 - 282

بصورة قاطعة بين الاسـرتين ، حيث عنت لهمـا تقريبـا نفس المشاكل ، واشتركتـا الى حـد كبير فى نفس الانجـازات · وكان ميخـائيل الثالث Michael III العمورى (الذى يدعى احيانا ودون وجه حق « السكير ») قد قتل فى عام ٨٦٧ على يد باسل Basil وهو سائس صغير للخيول ، ينتمى الى أصل قروى ، كان قد اصبح من المقـربين الى الامبراطور ، بل اضحى امبراطورا شريكا · ويعتبر باسل هذا « المقـدونى » (ويعود نسبه أساسا الى أصول أرمينية) المؤسس الحقيقى للأسرة التى ضربت جذورها راسخة فى الأرض البيزنطية ، حتى أن اخر افرادها ، الأختين المسنتين زوى Zoe وثيودورا Theodra لقيتا العون الكامل رغم عجزهما الواضح عن التصدى لأعباء الدولة · وقد قدم البيت المقدونى للعرش نوعيات مختلفة : باسل الاول استطاع أن يجعـل من نفسـه بصـورة فائقة وريثا للتقاليـد الامبراطورية البيزنطية ، على حين اثبت ابنه ليو السادس Leo VI الحكيم انه اديب وكاتب اكثـر منه جنـديا ، الى جانب اهتمامه العميق بمواصلة الجهـود التشريعية التى شهدها عهـد ابيـه · اما قسطنطين السابع Constantine VII والذى أريد له أن يظل طفلا لفترة طويلة(١٣) ، ابن ليو من زواجه الرابع (الذى عد زواجا غير شرعي) فقد ذاع صيته لانشغاله بالأدب والفن ، وفوق هذا وذاك المؤلفات التى وضعها حـول ادارة أمـور الدولة ، وجهد ليضع بها أمام الأجيال المتعاقبة أسس الدبلوماسية البيزنطية تجاه جيران الامبراطورية وأعدائها ، وكذا مراسم البلاط عبر هذه القرون

---

(١٣) كان قسطنطين السابع واقعـا تحت وصاية القـائد البحرى الشهير رومانوس لكابنوس Romanus Lecapenus الذى جعل من نفسه الامبراطور السيد ،وانزل قسطنطين ،الامبراطور الشرعى ،الىمرتبةالامبراطور الشريك · بل رفع ابناءه أيضا الى هذه المرتبة ، وظل يسير دفةالدولة طيلةربع قرن (٩١٩ ـ ٩٤٤) ، وكف أيدى قسطنطين طوال هذه السنوات عن ممارسة سلطانه · وفى عام ٩٤٤ دبر ابناؤه ضده مؤامرة تم فيهـا القبض عليه · وقد استغل قسطنطين هذه الفرصـة التى سنحت له ، فـلم يسمح لولـدى رومانوس بأن يفرضا عليه من جديد سلطـة ابيهما . وأيـده فى ذلك اهالى العاصمة · فاعدمهما سنة ٩٤٥ ، وهكذا تولى الحكم وهو فى سن الاربعين ·
المترجم ·

الطويلة والتى تتناغم وفصول السنة الميلادية · بينما لم يعمر ابنه رومانوس الثانى Romanus II طويلا ، ولعل رومانوس كان مسئولا عن ذلك الى حد كبير ، فقد اتضحت عبقريته الأثيمة فى زواجه من ثيوفانو Theohano الابنة الطامحة الأنانية لصاحب احدى الحانات ، اذ سرعان ما مات رومانوس عام ٩٦٣ مخلفا وراءه صبيين هما باسل الثانى وقسطنطين ليغدو بذلك الحاكم الأول صاحب السيادة الفعلية ، بينما قنع أخوه قسطنطين ، الذى كان قد توج شان باسل وهو غض العمر ، بموقع الامبراطور الشريك · ويعد باسل الثانى بحق آخر حكام الاسرة المقدونية المقتدرين · وقد استطاع أن يحتل مكانة مرموقة بين أولئك الاباطرة الذين تدين لهم الامبراطورية البيزنطية بالكثير ، ولما كان قد عانى فى شبابه الباكر من جراء المؤامرات والدسائس التى كان عليه أن يواجهها ، فقد اضرب عن الزواج ، وغدا حاكما صعب المراس صارما ، وقائدا من الطراز الاول لا يعرف الملل ولا الرحمة فى مشروعاته العسكرية · وسياسيا حاذقا فى تعامله مع البلغار المنهزمين ، او فى سيادته على الاسر صاحبة النفوذ المتزايد خطورة · ولكن هذا كله دون الاهتمام بذلك الشغف البيزنطى بالانشطة الثقافية والفنية ، أو ازدراء لمراسم البلاط · وربما كان يحمل بين جوانحه عواطف انسانية ، كما يدعى ميخائيل بسللوس(١٤) Michael Psellus ذلك المؤرخ الذى كان يدور فى فلك العرش ، غير أن طابعه المميز كان يتمثل فى كونه رجل دولة صارما سافرا · فلما قضى باسل الثانى نحبه ، اكره أخوه قسطنطين الثامن ،الامبراطور الشريك ، على الخروج من حياة الدعة التى كان يعيشها فى الظل ، ليحكم منفردا ثلاث سنوات سويا (١٠٢٥ ــ ١٠٢٨) ولما لم يكن له ولد ، فان بناته الثلاث أمسين يمثلن اخر سلالة البيت المقدونى · يودوكسيا Eudoxia التى آثرت أن تعكف على نفسها فى احد الاديار ، وحذت ثيودورا حذوها ، وان كانت قد ارغمت على أن تترك الدير لتعتلى العرش فى منتصف القرن الحادى عشر · اما زوى Zoe فقد خلفت وراءها شهرة ذائعة لسمعة ملطخة ، يمكن أن

---

(١٤) انظر بعده · المترجم · وراجع للمترجم : ميخائيل بسللوس من خلال كتابه « التاريخ الزمنى » ــ مجلة كلية الآداب جامعة صنعاء ــ العدد الثانى ١٩٧٩ ·

تبعث الى الحياة من خلال ذلك الوصف التفصيلى الذى كتبه عنها بسللوس ، لمعرفته الوثيقة بها تدعمه صورتها الفسيفسائية التى تشد الرائين ، والتى تم الكشف عنها على جدران أيا صوفيا ، وكانت زوى ببشرتها البضة الناعمة ، وعنايتها الفائقة بتألقها وجمالها ، بطابع الحسن فيها وطلعة بهية . عابثة تجرى وراء الخزعبلات مؤمنة بها ، متلافة تعوزها الحكمة ، املت عليها اعتبارات محض شخصية اختيار ازواجها ، او ابنا يتبنى . ولم تكن ثيودورا الى جوارها شيئا مذكورا . هكذا امسى بيت باسل الاول بهاتين الكهلتين الى افول ، تناضلان من أجل الحفاظ على عرشها بمنجاة من ذلك الولاء غير الصحيح لاسرتهما .

وفيما بين باسل الاول وسميه الثانى ، فقط ، تنحصر كل الانجازات الرائعة التى رفعت كثيرا من قدر الامبراطورية البيزنطية خلال هذه الفترة الطويلة ، ولقد تعرضت الامبراطورية ابان القرن الحادى عشر لبعض المشاكل التى نجمت عن حداثة سن بعض اباطرة البيت المقدونى ، أو عجز بعضهم عن ادارة أمور الدولة ،ولن كان قد امكن التغلب على هذه المشكلة بذلك النظام البيزنطى الذى يسمح بوجود امبراطور شريك دون تهديد لوحدة الحكومة . وكان امرا مألوفا ان يتوج الأمير امبراطورا هو يحبو فى مدارج الطفولة ، أو حتى وهو بعد رضيع ، ومن ثم تسنح الفرصة لاحد قادة الجيش أو الاسطول ، أوتى من القوة قدرا يجعله يمر بعملية التتويج التى تدفعه الى ادعاء مرتبة الامبراطور الاول ، ولعله من اوضح الامثلة على ذلك أنه خلال قصور قسطنطين السابع ، وحتى بعد أن بلغ سن الرشد ، اعتلى الادميرال رومانوس لكابنوس Ramonus Lecapenus العرش باسم رومانوس الاول (٩١٩ ــ ٩٤٤) ــ واستطاع أن ينقذ بقوة شكيمته وحسن تصريفه للأمور ،الامبراطورية فى الداخل والخارج ، على الرغم من أن قسطنطين السابع الذى تزوج من هيلينا Helena ابنة رومانوس الاول وصاحبة الارادة الحديدية ، قد ذهب بعيدا فى وصف صهره (الذى كان يحمل له كل الكراهية) بانه « جاهل حقير » . وفى اخريات القرن العاشر كان نقفور فوقاس Nicephorus Phocas واحدا من ابرز القادة على الجبهة الشرقية ، ينتمى لعائلة من اكبر عائلات الارستقراطية الزراعية . وقد اقدم على الزواج من الوصية على العرش . الملكة الام ثيوفانو . ومن ثم توج امبراطورا

واقام من نفســه وصيا على الامبراطورين المقــدونيين الصغيرين ، باســل وقسطنطين · وكان هذا يتفق تماما مع الواقع العملي للحكومة البيزنطية · وقد دفع هذا ليوتبرانت Liutprand أسقف كريمونا Cremona ، المبعوث الحانق الذى قدم من ايطاليا فى عام ٩٦٨ ، الى أن يحمل انطباعا يعد الى حد ما غير واقعى ، عندما أصر على اعتبار نقفور الثانى محدث نعمة ازاح عن السلطة « سيديه » ولما اغتيل نقفور فى ليلة ثلجيــة فى مشهد تراجيدى بتحريض من ثيوفانو ، التى ربما وجدت فى طباعه صرامة لاتتناغم وهواها ، قبض منافسه يوحنــا تزيمسكس John Tzimisces على زمام الامــور ، واضفى على مركزه صبغة قانونية بحمـــل البطريرك على تتويجه · وكان يوحنا تزيمسكس آخــر الاباطرة الشركاء ذوى النفــوذ · وبات واضحا أن باسل الثانى لم تكن لديه نيــة السماح بمثل هــذه الاساليب فى عهده · ومن بين الازواج الثــلاثة لزوى كان هناك واحد فقط ، هـــو ميخائيل الرابع Michael IV قادرا بحق على أن يغل يدها ، ولســوء الحظ لم تشهد تلك الآونة سياسيا او قائدا يقدم على انتهاز هذه الفرصة عند الاقتضاء ويفرض على الحكومة ارادته ·

ولقد تدعمت السلطة الامبراطورية خلال حكم الأسرة المقدونية بشكل غير محدود بهذه الارضية الأســرية الوطيدة ، يزيدها رسوخا ذلك النظام الرومانى المالوف الذى يتمثــل فى الاباطرة المشــاركين ، حتى غدت بيزنطة مرة اخرى القــوة الرئيسية فى حوض البحــر المتوسط الشرقى · وتمكنت من وقف التقدم الاسلامى فى آسيا الصغرى · كما أن الهرطقة اللاايقونية ، التى كان واضحا انها تتشابه الى حد كبير مع وجهــة النظر السامية ، تم شجبها ، بل الى حــد ما اجتثاثها · وتم قبول بيزنطة عضــوا فى الجماعة المسيحية · وكان انتصار الصــور انتصارا للروحية اليونانية الرومانية ، على الرغم من أن ذلك ليس استثناء عاما لعمليــة الامتزاج بين التأثيرات الشرقية والغربيــة · وليس هناك من شك فى أن مركز بيزنطة فى النصف الاول من القرن التاسع كان ما يزال يفتقــد الثبــات ، ذلك أن نفوذها فى ايطاليا والدوائر البابوية كان قد تضاءل الى حد كبير ، كما أنها تعرضت لكوارث بحــرية محققة فى البحر المتوسط من جانب الاسطول الاســلامى · هذا الى أن العناصر الصقلبيــة والبلغارية التى استوطنت البلقان لم يعـد

زمام امـرها بأيدى السلطات البيزنطية · وعلى الرغم من أن البحـرية الاسلامية فى شمال أفريقيا كانت تشكل قوة كبيرة الى الحد الذى مكنها من مهاجمة بعض المناطق الاستراتيجية مثـل كريت (التى فقدت سنة ٨٢٧) أو صقليـة ، والاغارة على جنوب ايطاليا والاملاك البيزنطية الاخرى · الا أن طاقة القسطنطينية الاقتصادية وتجارتها مع الشرق عن طريق طرابيزون وما بين النهرين اخـذت فى الرواج ، بينما نمت علاقاتها مع روسيا · ورغم الازدياد الواضح فى قوة بعض المدن البحرية الايطالية ، وعمليـات التهريب التى كان من الصعب القضاء عليها ، الا أن القسطنطينية ظلت تقـوم بتنظيم تسويق صادراتها المرتفعـة الثمن · لقـد كان لـدى القسطنطينية موارد اقتصـادية · وادارة متطورة ، وخدمة مدنية راقيـة ، ونسق من الحكومة المحلية طبق منـذ القـرن السابع ليواجه باطراد الاحتياجات المتجـددة ، وفوق هذا كله فقد كانت تملك وحـدة الهـدف الذى يتجمع فى ذلك الكيان الامبراطورى ، مع ادراك واع لـكل المسئوليات · وعلى هذه الدعامات أقام العموريون والمقدونيون منجزاتهم ·

ويتمثل نجاحهم فى توسيع رقعة الحدود فى آسيا الصغرى ، واحياء القوة البحرية شرقى المتوسط ، واجتـذاب الجماعات الصقلبية فى روسيا والبلقـان ضمن دائرة الثقافة البيزنطيـة واخضاعها لنفـوذ الامبراطورية السياسى · مع ما صحب ذلك من تمـدد جديد فى أطرافها بحيث أمست المملكة البلغارية ضمن حدود الامبراطورية · ولا شك أن هـذه الانجازات كان لها دلالاتها الهامة ، فهى من ناحية أعاقت ، بل ربما أوقفت الى حد ما ، الزحف الاسـلامى فى أوروبا ، ومن الأخرى كان لهـا تأثيرها الفعال فى الارتقاء بالصقالبة الجنوبيين ·

(ب) الزحف الى الشرق (٨٤٢ ـ ١٠٢٥) ·

فى منتصف القرن التاسع كانت الحدود البيزنطية فى آسيا الصغرى تأخذ طريقها ناحيـة الجنوب حين ينعطف البحر الأسود باتجاه الشمال ، شرقى طرابيزون الى الفرع الشمالى من الفرات ، ثم تنحـدر جنوبا بغرب حتى تصل الى البحر المتوسط . مخلفة وراءها طوروس ، وسلسلة طوروس الداخلية . والجزء الأكبر من كيليكيا تحت السـيادة الاسلاميـة · وطوال

القرنين التاليين لم يكن الصراع على هذه الجبهة يمثل الا سلسلة متصلة من الانتصارات البيزنطية ، وان أمكن القول على أحسن الفروض أن الفترة التى انقضت على عهدى الأسـرة الهرقليـة والأباطرة اللايقونيين ، تعتبر انتصارا للقيادة العسكرية والدبلوماسية البيزنطية ، واقامة الثيمات · فمن الناحية العسكرية وجه الامبراطور ميخائيل الثالث كل اهتمامه الى تدعيم وتقوية القلاع المقامة فى منطقة الحدود ، خاصة تلك التى تتحكم فى الممرات الاستراتيجية · هذا الى أن الحملات المستمرة التى خطط لها قواده ، الى جانب الهزيمة الحاسمة التى لقيها أمير ملطية Melitene الذى قام بالهجوم على ثغر الأرمنياق ، أدت الى أن تتحول عمليات الغزو بعد ذلك الى الأراضى الاسلامية · فاستولى باسل الأول على لؤلؤة Lulum التى تتحـكم فى الممر الهام بالنسبة لمدخل كيليكيا من ناحية الجنوب ، وكان ذلك فى حد ذاته أولى الخطوات الفعالة فى سبيل حرمان الهجمات الاسلاميـــة السنوية من معاقلها الجبلية ، كما أن باسل أوقع بالبيالصة Paulician الهراطقة الـذين يقيمون حول تفريق Tephrice هزيمة قاسية · وذهب ليو السادس خطوة أبعد من ذلك بضم الأراضى المتاخمـــة الواقعة بين فرعى الفـرات والتى تؤدى الى منطقة الجزيرة ، وفى عهد رومانوس الأول اندفع قائده الشهير يوحنا كوركواس John Curcuas (الذى ينحدر شأن الامبراطور من أصل أرمنى) داخل أرض الجزيرة وأرمينيا · على الرغم من المقاومة العنيفة التى أبداها سيف الدولة (الحمدانى) أمير الموصل وحلب ، الا أن يوحنا استولى على ملطية وعدد من المـدن ناحيـة الشـرق شـمالى الجزيرة (ميافارقين Martiropolis ودارا Dara) · وفى سنة ٩٤٤ هاجم الرها Edessa واستعاد ذلك المنـديل الثمين الذى كان المسيح قد جفف به وجهــه والذى انطبعت عليه ملامحه(١٥) وهكذا تمكن البيزنطيون من التوغل فى منطقـة دجلة والفرات ، وراحوا يحكمون سيطرتهم على المرتفعات الكليكية ·

---

(١٥) ترتبط مدينة الرها فى ذاكرة المسيحيين دائما بعلاقاتها المبكرة مع المسيح ، وبما فيها من آثار القديسين · ومما تذكره الروايات أن أبجار Abgar ملك الرها كتب الى المسيح يطلب اليه ، وقد علم بالمعجزات التى

لم يتوقف نجاح الجيوش المسيحية ، ويعود ذلك الى عدد من العوامل المتشابكة ، فالسلطات البيزنطية كعادتها دائما كانت تشجع أى تحالف ممكن ، وتستغل فى الوقت ذاته الى أقصى حد تلك الخلافات السياسية القائمة بين الحكام المسلمين ، أو الصراعات الناشبة بينهم الناجمة عن تضارب مطامحهم • ولعله كان مما يدخل السرور على قلب بغداد ومصر الفاطمية أن يروا قوة أمير الموصل وحلب تهن فى منتصف القرن العاشر أمام الزحف المسيحى فى ميزوبتاميا الشمالية ، لعله أيضا كان من الحكمة فى نظر دمشق أن تعترف بسيادة يوحنا تزيمكسكس التى أخذت تزداد باطراد فى فلسطين عام ٩٧٤ • ولم يكن يقل عن ذلك أهمية تلك القوة التى تبدت فى قيادة الجيش تدعمها عائلات ذوى ملكيات كبيرة فى آسيا الصغرى ، يدفعها الى ذلك ، ليس مجرد الرغبة فى تحقيق النفوذ السياسى الذى سوف يمنحهم اياه للنجاح العسكرى لهؤلاء القادة ، بل التوسع الاقتصادى الذى سيجد فى هذه الارض الجديدة التى يتم الاستيلاء عليها ميدانا أرحب مما يجده فى مشروعات صناعية أو تجارية تخضع لسيطرة الدولة • وقد استمد هذا الباعث الأخير دفعة أقوى من المحاولات الامبراطورية التى جرت بقصد وضع حد لعملية شراء وجهاء القوم لأراضى صغار الملاك • يضاف الى ذلك أن الصلابة التى تمثلت فى أولئك القادة المتعاقبين ظهرت دوما فى الحرب البيزنطية ضد الخارجين عن دائرة الايمان • وليس أدل على ذلك من أن الامبراطور نقفور الثانى نفسه وهو الذى يعد واحدا من أعظم قادة أسرة فوقاس فى آسيا الصغرى ، أعلن أن كل من يقتل فى الحرب المقدسة سوف يحشر فى زمرة الشهداء • وقد واكب التوغل البيزنطى فى الأراضى الاسلامية ، اغارت بحرية نشطة أسفرت فى النهاية عن الاستيلاء على عدد من المواقع الاستراتيجية مثل كريت وقبرص ، وهى التى ظلت لفترة طويلة من أهم المراكز الاسلامية البحرية التى يشن منها الأسطول الاسلامى

تمت على يديه ، أن يبرئه من مرضه ، فكان من بين يديه ما بعث به المسيح اليه ، على ما تذكر الأسطورة ، منديلا Mandilon طبع عليه وجه المسيح ، وقد شاعت الأساطير حول مدى قدرة هذا المنديل على شفاء المرضى واتيان المعجزات • وقد قام يوحنا كوركواس بنقل هذا المنديل فى موكب مهيب من الرها الى القسطنطينية • المترجم •

هجماته . وكان بناء قوة بحرية ضاربة والاهتمام بها مسألة حيوية للدفاع عن الامبراطورية ، خاصة وأنهـا تمتلك سواحل طويلة متعرجة وعـــددا لاحصر له من الجزر فى مياهها .

وتوضح خريطة الامبراطورية سنة ١٠٢٥ عند وفاة باسل الثانى ، تقدما كبيرا باتجاه الشـمال (متضمنا جزءا رئيسيا من الاراضى القوقازية) . وقـد نظمت الآن فى ثيمات او ولايات مثـــل ابيريا Iberia وفازبورقان Vaspurkan وأرزن Theodosiouolisوطارون Taron أمـا ماتبقى من مملكة أرمينيا (آنى Ani) فكان لابـد أن يؤول الى بيزنطة بعـــد وفاة حاكمها . والى الجنوب كانت هناك أيضا أقاليم جديدة مثل الجزيرة وملطية ومدن الفرات ، بينما كانت مدن كيليكيا وتلوخ Teluch التى تتحـــكم فى مداخل المرتفعات الجنوبية ،وكذلك كرسى البطريركية القـــديم فى الاقليم الأنطاكى بسوريا الشمالية تحت السيادة المسيحية . ورغم أن بيت المقدس كانت ماتزال بأيدى الكافرين(١٦) ، الا أن الجيوش المسيحيـة كانت قادرة على أن تعيث فسادا فى المناطق الجنوبيـة من فلسطين . ولاريب انه كان يبدو شيئا مثيرا لسخرية القسطنطينية فى أوائل القرن الحـادى عشر أن يظهر فى الأفق ما يشير الى استيلاء الصليبيين اللاتين على سوريا وفلسطن ، فقد بدا آنذاك كما لو كان البيزنطيون أنفسهم عازمين على استعادة الأراضى المقـدسة .

(جـ) القسطنطينية والصقالبة :

اذا كان الصراع قد جرى فى الجنوب على هذا النحو ، فان نظيره فى

---

(١٦) يرد هذا التعبير ابتـداء من الآن وفى مواضع تاليـة متعـددة اشارة الى المسلمين ، وهو التعبير الذى استخدمته الكنيسة الغربية والبابا أوربان الثانى فى صيحته عـام ١٠٩٥ لاثارة أوروبا للخـروج بحمـلاتها الصليبية الى الشرق الاسلامى . ورغم أن المؤلفـة قـد استخدمت كلمتى « الاسلام » و « المسلمين » قبـل ذلك فى مقـابل الجيش البيزنطى ، فاننا نجدها تستخدم الآن هذا التعبير « الكافرين » فى مقابل « الجيش المسيحى » للدلالة على ما ساد حروب القرنين العاشر والحادى عشر عند البيزنطيين من روح قد تبدو صليبية ، ولما حدث بعد ذلك من قيـام الحركة الصليبية . وقد ترجمت هذه الكلمة كما هى توخيـا للأمانة العلمية وللدلالة على نظرة أوروبا المسيحية فى العصور الوسطى الى المسلمين . المترجم .

الشمال كان يجرى على نحو يختلف : حيث ووجهت بيزنطة بعـــدو يمكن ترويضه ، كان على استعداد للاعجاب بالحضـــارة المسيحية والرغبة فى التعلم منها ، وكان توسع الشعوب الصقلبية فى وسط وجنوب شرقى أوروبا سلاحا ذا حـــدين لعـالم المسيحية ، ذلك أن الاهتمام المتزايد فى ميـــدان البعثات التبشيرية كان قد أصبح التزاما مسيحيا وامبراطوريا فى الوقت ذاته منذ القرن الرابع على عهد قسطنطين .ومنذ الحروب اللاايقونية واطراد التحالف بن البابوية وحكام الفرنجة فى القرن الثامن . اتسعت هوة الخلاف بصورة مستمرة بين كنيستى روما والقسطنطينية ، وراحت كل منهما تحاول أن تضم الصقالبـــة الى دائرة كنيستها ، واستطاعت كل منهمـا أن تحقق نجاحا معينا فى أجزاء مختلفة من أوروبا . ففى النصف الثانى من القرن التاسع خرجت القسطنطينية مبشرين من بينهـا كانوا يجمعون بين التقـوى والمعرفة والسياسة فى آن واحد ، بحيث مكن أن نعتبرهم خير نموذج يمثل طرائق الحياة البيزنطية ، وعلى رأس هؤلاء يأتى مثوديوس Methodius (توفى عام ٨٨٥) وكيرلس Cyril اللذان اتصفا بالمقدرة والحكمة الى درجة استطاعا بها أن يضعا الأسس الكفيلة بجعـل صربيا Serbia وبلغاريا وروسيا ، تخضع فيما بعد لنفوذ وسيادة أسقفية القسطنطينية . كما انهما وضعا أيضا الأبجدية التى أصبحت القاعـدة الرئيسية فى اللغـة المكتوبة لدى هذه الشعوب . وهكـذا أصبحت الكنائس الصغيرة التى أقيمت ونمت فى هذه المناطق أعضاء ضمن عالم المسيحية ، بخدماتها الاكليروسية وأدبها اللاهوتى المبكر فى لغاتها الأساسية حتى أضحت كنائس صقلبية وليست يونانيـة ، رغم انها غالبـا ما ترجمت عن الاغريقية أو حاولت أن تحاكى الأصول اليونانية الكلاسيكيـة (كما يبـدو واضحـــا فى سير قديسيهم أو أو الكتابات النسكية) ، وتدين هذه الكنائس للقسطنطينية بالالحان الكنسية الصقلبية القديمة كما ظلت باقية .

غير أن مشكلة الجوار التى نشأت عن وجــود الصقاليـة فى منطقة البلقان ، كانت تحمـل فى طياتها نذر شر مستطير على امتـــداد التاريخ البيزنطى . فخلال تلك الفترة المبكرة التى كان الصقالبة يسعون فيها لتثبيت أقدامهم عبر الحدود الامبراطورية جنوب الدانوب . كان على القسطنطينية أن تكابد لقرون عديدة تالية الاغارات التخريبية المدمرة لتلك المناطق التى

تمتد لتشمل كل بلاد اليونان ، بل وتصل الى أسوار العاصمة نفسها · حتى اذا كان النصف الثـــانى من القرن التاسع وجدت بيزنطة نفسها أمام خطر مدلهم يهددها يتمثل فى المملكة البلغارية · بل ان معظم الكوارث السياسية التى أحدقت بالامبراطورية فى القرن العاشر من ناحية الشمال ، كان مصدرها هذه المنطقة (وقد ظل ذلك حتى القرن الرابع عشر حيث كانت صربيا يداعبها حلم ان تكون وريثة القياصرة المسيحيين) · لقد كان لدى القسطنطينية الكثير الذى يمكن أن تقــدمه ، وكانت حضارتهــا ذات الصبغة العالميـــة ، وثراء امبراطوريتها ، دعوة متجددة وخطيرة تغرى بغزوها · وفى بداية الأمر لم تجد القسطنطينية امامها من سبيل سوى أن تلجأ الى ذلك النظام الذى جرى العرف باتباعه وهو الجزية السنوية · فلما كان أوائل القرن العاشر امـكن التصــدى لرغبة البلغــار فى أن يكون لهم على الأقـــل بعض النصيب فى الامبراطورية ، وتحقق ذلك أولا عن طريق الوعود ، ثم بعد ذلك بالسياسة الأريبة التى اتبعهـــا الادميرال رومانوس لكابنوس الـــذى كان قـــد توج امبراطورا شريكا آنذاك · فلما قدر للملك البلغارى الطموح سيمون Symeon أن يموت فى عام ٩٢٧ ، أقـــدم ابنه بطرس على الزواج من ماريا لكابنا Maria Lecapena احدى حفيدات رومانوس (وهى لاتنتمى لأصول ملكية) · ومع ذلك فقد ظلت بلغاريا دائما شـوكة فى جنب الامبراطورية الى أن كان آخر القرن العاشر واخذت قوة الأباطرة فى الازدياد . بات واضحا أن افضل الحلول وآمنها للمشكلة البلغارية هو الغزو · ومن بين هـــؤلاء الاباطرة اقدم يوحنا الاول تزيمسكس وباسل الثانى على قهر ذلك الجار المشاغب · ومنذ ذلك التـاريخ وطوال ما يقرب من مائة وخمسين عاما . حتى حـركة الاحياء الوطنى الثانيـة أصبحت المملكة البلغارية جـزءا من الامبراطورية وتم تقسيمها الى منطقتين : باريستريون Paristrion وبلغاريا · وقد أضفت هذه الحملات العنيفة القاسية ضد البلغــار شهرة ذائعـة على الامبراطور باسل الثانى · ولكن « سفاح البلغار »(١٧) هذا كما كان يدعى ، أوجـد

---

(١٧) اتسمت الحمـلات العسكرية التى قام بهـا الامبراطور باسـل الثانى ضد البلغار بالعنف الذى وصل الى حد الوحشية فى بعض الاحيان · وقد استمرت الحرب بين باسل والبلغار سبعة عشر عاما (١٠٠١ ـ ١٠١٨)

فى هذه الأراضى التى تم الاستيلاء عليهـا نوعا من الاستقرار السياسى ، فأبقى على التقاليد المحلية ،وأبدى شيئا من التسامح فيما يتصـل ببعض المسائل الكنسية بحيث بقى للكنيسة الكثير من استقلالهـا الحقيقى · وان كانت هذه الاجراءات فى نفس الوقت قد وضعت بلغاريا تحت السيادة الفعلية للامبراطورية ، كما أنها أدت الى ظهور الهرطقة البوجوميلية(١٨) Bogomil التى تفشت هناك تحت السيطرة المباشـرة للامبراطور الأرثوذكسى ، الذى

تمكن خلالها الامبراطور البيزنطى من تحقيق انتصـارات ضخمة ، كما أنه مثل بالبلغار اشنع تمثيل ، ففى احدى المعارك أمر بسمل عيون أربعة عشر الف أسير من الأسرى ، ثم سمح لهم بالعـودة الى ديارهم يقـودهم مائة وخمسون أعورا · فلما ابصرهم الملك البلغارى صموئيل على هـذه الحال زهقت روحه كمدا سنة ١٠١٤ ، ولهذا سمى باسل الثانى « سفاح البلغار » Bulgaroctonus · ويشرك بعض المؤرخين معه فى هذه النسبة الامبراطور قسطنطين الخامس (٧٤١ ـ ٧٧٥) ·

أنظر C.M.H. vol. IV, pp. 241 - 42, و Vasiliev, op. cit., I, pp. 319 - 320 والدكتور السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ص ٦٣٦ ـ ٦٥١ واومان ، الامبراطورية البيزنطية ص ١٨٨ ـ ١٨٩ · المترجم ·

(١٨) درجت السياسة البيزنطية على نقل عناصر معينة من السكان من مواطنها الى مواطن اخرى ، وقد حدث هـذا كثيـرا ابان الحـروب اللايقونية ، وخلال القرنين العاشر والحادى عشر · وكان من بين هؤلاء جماعات من الأرمن نقلتهم الى تراقيـا · وكانت منطقة أرمينيا منـذ القرن الرابع مهـدا للحـركات التطهيرية المعادية للكنيسة ، ومن اشهرها حـركة البيالصة ، واصبحت مدينة فيليبوبولس مركزا رئيسيا لهم فى تراقيا ، وقد تطورت اراء البيالصة فى القـرن العاشر على يد بوجوميل Bogemile فى بلغاريا ، والذى خلع الكتاب البيزنطيون اسمه على هـذه الطائفة ، وهم يؤمنون شـأن اسلافهم بالاثنينية · الخير والشر ، أو اللـه والشيطان ، وسلكوا حياة الزهد والتقشف ، ورفضوا الاعتراف بالنظـام الكنسى ، ثم اصطبغت هذه الحركة بصبغة اجتماعية بعد أن انضم اليهـا كثيرون من فلاحى بلغاريا وراحوا يقاومون كبار الملاك · وقد انتقلت هـذه الحركة الى سائر انحاء اوروبا وخاصة فرنسا فيما عرف بحركة الألبيجينيين · راجع حاشية ٣٩ ص ٣٦ ·

وانظر The New Schaff-Herzog encyclopedia of religious
و Encycl. of religion and ethics. art. Bogmile
و Vasiliev, op. cit., II. p 383 المترجم ·

كان من اهم واجباته القضاء على كل مصادر الدنس ، كما أنها كانت تعنى بصــورة قاطعة انه لم يعد هناك دول حاجزة فيما بين بيزنطة وتلك الاخطار الكامنة فيما وراء الدانوب ٠

ولم تكن علاقات القسطنطينية مع الشعوب الصقلبية قاصرة فقط على بلغاريا ، فقد انساب أثر بعثاتها التبشيرية الى البلقان ، على الرغم من أن كرواتيا Croatia وصربيـا لم يصبحـا فى يوم من الايام جـــزءا من امبراطورية العصور الوسطى كما حدث لبلغاريا ٠ فقد كانت كرواتيا تميل الى الدوران باتجـاه الشمال فى فلك هنغاريا ٠ غير أن ساحـــل دلماشيا اللاتينى (والذى كان يعـد جـزءا من الامبراطورية رغم تمتعـه بنوع من الاستقلال) والاراضى الصقلبة الشديدة التبـاين والواقعة الى الداخــل ، كانت تعترف بادعاءات القسطنطينية بالسيادة السياسية ، وان كان هـــذا الاعتراف يتباين تبعا لتوقع الاخطار مثل الهجمات التى يقوم بها العرب من بحر أدريا ، أو التهديدات المدمرة من جانب البلغار ٠

وعلى الشواطىء الشمالية للبحر الأسود اظهرت بيزنطة منـذ زمن بعيد اهتمامها بهذه المنطقة ، ومارست نوعاً من السيادة على ثغر خرسون Cherson الاستراتيجى الموقع فى القــرم Crimea ٠ وكانت الـدوافع الاقتصادية والسياسية ، شأن الدينية سواء بسواء ، وراء المحاولات الجادة للاحتفاظ بهذه العلاقات الدبلوماسية ٠ ومنذ ذلك الوقت المبكر الذى تحولت فيه الامبراطورية الرومانية الى المسيحية ، اخذت البعثات التبشرية تجوب هذه الاقاليم . ثم مالبث أن تبع ذلك قـدوم الاكليروس الى شعوب هـــذه المنطقة ، سواء النازحين منهم أو المستقرين كالخزر Khazars والأجروفينيش Ugro—Finmish وغيـــرهما ٠ اما الهنغــاريون فقـــد آووا الآن الى مضاجعهم حول سلسلة جبال الكريات Crrapathians بعـــد تجوال كان طبيعيا أن يصبحوا منخلاله على احتكاك بالمسيحيةالأرثوذكسية ٠وقد ازدهرت التجارة مع مدن الشمال عبر الممرات المائية التى تربط البحر الأسود بالبحر البلطى ، خاصـــة طريق كييف Kiev نوفجورد Novgorod ٠ كمـا أن المعاهدات التجارية التى أبرمت فى القرن العاشر ظلت سارية المفعول ٠ وقد قدم رجال من الشمال للعمل كمرتزقة فى الجيش الامبراطورى ، بل شكلوا

فى نهاية القرن العاشر الحرس الامبراطورى أو ما عرف باسم « الورنك »(١٩) Varangian الذائع الصيت · ولما أن لادارة كييف أن تأخذ شكلها السياسى ، استقرت العلاقات الدبلوماسية بينهــا وبين الامبراطورية · غيــر أن القسطنطينية لم تمارس فى روسيا أبدا أى نوع من السيادة ، ولكنهـا كانت مسئولة عن نشــر المسيحية الأرثوذوكسية واخضاع الكنيسة الكييفية تحت سيادة بطريركية القسطنطينية ، وعلى هذا النحو أدخل حكام كييف فى طور

---

(١٩) لجـات الامبراطورية البيزنطية ابتــداء من القــرنين التاسع والعاشر فى تعمير المناطق التى اقفرت من سكانها ، نتيجة اغارات الصقالبة مانزكرت ، وضياع آسيا الصغرى نبع الجند · وكانت العناصر الاسكندنافية والروس والاسكندنافيين والصقالبة والعرب والأتراك · ثم امتــدت هــذه العناصــر الى الجيش حيث أصبح يتكون فى معظمه من المرتزقة خاصة بعد الهزيمة الساحقة التى منيت بها بيزنطة سنة ١٠٧١ على يد السلاجقــة فى مانزكرت ، وضياع آسيا الصغرى نبع الجند · وكانت العناصر الاسكندنافية بصفة خاصة فى القرنين التاسع والعاشر قد شقت طريقها الى نهر الدنيبر Dnieber ثم البحر الأسود ، حيث عرفوا فى هذه المنطقة باسم الروس Rhos وغــدا الطريق الذى ساروا فيه ، وأصبح طريقا تجاريا من شمال غربى أوروبا الىجنوبها الشرقى يعرف بطريق الورنك Varangian route · وقد اعتمد الأباطرة البيزنطيون على هذه العناصر الاسكندنافية بدرجة كبيرة فى تكوين الجيش البيزنطى حتى القرن الحادى عشر ، عندما أعلنوا العصيان سنة ١٠٧٩ ، فعمل الامبراطور الكسيوس كومنين ، على استبدالهم بجماعات أخرى · وساعدته الظروف السياسية والعسكرية التى جرت فى أقصى غرب أوروبا على النجاح فى مهمته ، ذلك أن أعدادا كبيرة من الأنجلو ـ سكسون قد خرجت هاربة من بريطانيا بعد الغزو النورمانى لها بقيادة وليم الفاتح سنة ١٠٦٦ · وقد خدمت هذه العناصر فى الجيش ، بل ان الأباطرة جعلوا منهم حرسهم الخاص فيما بعد فى القــرن الثانى عشــر وشاعت تسميتهم بالورنك Varangians .

انظر A Short history of the U.S.S.R. ed. in two vols. by Acadamy of Sciences of the USSR. Institute of history, vol. I, pp. 34-38

وأيضا Ch. Brooke. Europe in the central Middle Ages, pp. 45 - 46

وكذلك Bayens & Moss, op. cit., 300 - 301

و Thompson & Johnson, op. cit., p. 268

و Stephenson, op. cit., pp. 172 - 182

و Runciman. A history of the Crusades. III, p. 118

وانظر ايضا بعده · المترجم ·

من الرقى العمدى • ويبين كتاب الوصايا الدبلوماسية الذى وضع فى القرن العاشر ، والخاص بادارة الشئون الخارجية البيزنطية ، أن اهتماما خاصا قد وجه الى هذه الناحية • وقد لقيت الأميرة أولجا Olga التى تحولت حديثا الى المسيحية • استقبالا حافلا عند زيارتها للقسطنطينية عام ٩٥٧ • وكان للمساعدة التى قدمتها الفرقة الروسية للامبراطورية فى الحرب البلغارية سنة ٩٧٩ اهميتها ، بحيث جاء تقديرها من جانب بيزنطة بما كان يعد فى تلك الأيام شيئا بعيد المنال ، وهو أن تغدو احدى أميرات البيت الامبراطورى البيزنطى زوجة لأجنبى ، فتزوج فلاديمير Vladimir أمير كييف من انا Anna اخت باسل الثانى ، وتعهد هو وشعبه أن يتخذوا المسيحية دينا •

(د) بيزنطة والغرب :

لم يكن التوسع البيزنطى فى الغرب مساويا لما حدث فى الشرق او بين الشعوب الصقلبية • ففى ايطاليا كان مركز الامبراطورية يبدو وكأنه محاولة للحفاظ قدر الطاقة على الحالة الراهنة Staus que المضطربة ، وغالبا ما كان يتعرض فى القرن العاشر للتهديد الخطير من جانب حكام المانيا السكسون الذين ورثوا العباءة الامبراطورية عن الكارولنجيين • وقد توج أوتو الأول Otto I بادىء الأمر ملكا على المملكة الايطالية(٢٠) regnum Italicum (مملكة الشمال الايطالى اللومباردية) ثم أعلن بعد ذلك فى عام ٩٦٢ امبراطورا • ورغم أن فرص الوسائل الدبلوماسية كانت

---

(٢٠) قام اوتو الأول بحملته الأولى على ايطاليا سنة ٩٥١ بدافع الوقوف أمام زحف ملك برجنديا ودوقى سوابيا وبافاريا عبر ممرات الألب فى ايطاليا الشمالية ، ويعزو المؤرخ المعاصر تشيفالروس Chivalrous اهتمام اوتو بايطاليا بداءة الى استنجاد ادلهيد Adelheid أرملة لوثر الحسناء ، به لانقاذها من مضايقات برنجار الثانى Berengar II ماركيز ايفيريا Ivria وملك المملكة اللومباردية فى شمال ايطاليا فيما بعد • وقد أسرع اوتو لتلبية هذا النداء ، وحل المشكلة بالزواج من هذه الحسناء ،وحمل دون مراسم لقب ملك اللومبارديين ، وترك برنجار فصلا تابعا له • انظر C. M. H. vol. III, pp. 194 - 195
و Davis, op. cit., pp 217 - 218
و Z. N. Brooke, A history of Europe 911 - 1198, pp. 36 - 37

متاحة مع الامارات الصغيرة فى وسط وجنوب ايطاليـا ، الا ان أوتو الأول فشــل فى هجــومه على الأمــلاك البيزنطية فى لونجباردیا Longobardia (أبوليا Apolia) وصقليــة (وكانت هذه المنطقــة تتكون آنذاك من اقليم كالابريا Calabria فقط فى جنوب ايطاليا منذ اضحت جزيرة صقليــة تحت السيادة العربية) • واضاف الى فشله هذا فشلا آخر حين أخفق فى الحصول من القسطنطينية على اعتــراف بلقبه الامبراطورى • وقـــد ترك ليوتبراند Liutprand أسقف كريمونا Cremona وأحد مبعوثى أوتو الاول تقريرا مفصــلا يتسم بالتحيز والســخرية عن مفاوضات الامبراطور الطــويلة مع بيزنطة ، وكان أقصى ما استطاع أوتو الأول الحصول عليــه زوجة بيزنطية لابنه أوتو الثانى تدعى ثيوفانو Theophano التى تنتمى لأســرة من أكبر ملاك الأراضى ، وليست ــ كما أراد ــ من البيت الامبراطورى نفسه • وقد آتت هذه الزيجة ثمرتها حيث انجبت ثيوفانو ولــدا هــو أوتو الثالث ، كان بدوره يرغب فى الزواج من اميــرة بيزنطية غير أن المــوت عاجلة فى سن مبكرة عام ١٠٠٢ • وقد أبان قبل موته عن تصوره لامبراطورية تكون روما حاضرة لها • غير أه كان يبــدو مستحيلا ان يقــوم فى الغرب شبيه لتلك الامبراطورية الرومانية imperium romanum القائمة فى القسطنطينية • ومع اشراقة القرن الحادى عشر ظهر واضحا للقسطنطينية انه من المستحيل أيضا بالنسبة لهــا أن تحتفظ بأى مركز قوى فيما كان يعرف واقعا بالجزء الغربى Pars Occidentalis • وقــد شرع باسل التــانى فى اعادة تنظيم الحكم البيزنطى فى ولايتى ايطاليا الجنوبية اللتين اتحدتا الآن تحت سيادة حاكم يعرف باسم قطبان(٢١) Catapan • ولاشك أن فــكر باسل الثــانى كان يحتوى على مشروع استرداد صقليــة من ايدى المسلمين ، وان كانت الحقيقية قد أظهرت أن البيزنطيين كانوا غير قادرين على استعادة سلطانهم

---

(٢١) وهــو قائد عسكرى ، لايختلف عن الاكزارخ ، يجمع فى يديه السلطتين العسكرية والمدنية ، اتخـــذ من مدينة بارى Bari مركزا له • وقد ساعده الاصطراع السياسى القــائم فى ايطاليــا فى أن يظهر اهتماما معينا بحماية الشواطىء الجنوبية لايطاليا من هجمات الأسطول الاسلامى • أنظر Baynes & Moss. op. cit., p. 24 وأيضا Vasiliev, op. cit., I, p. 398 المترجم •

فى صقلية ، أو حتى الحفاظ على سيادتهم فى شبه الجزيرة الايطالية ذاتها ، حيث كان مقدرا أن يصبح النورمان Normans خلفاءهم السياسيين فى الجنوب ، وأن يقتصر النفوذ البيزنطى فى ايطاليا بعد منتصف القرن الحادى عشر على الناحيتين الثقافية والدبلوماسية • غير أن هذه الصورة الأخيرة قد تعطينا انطباعا زائفا يخالف الواقع ؛ فالحقيقة أن الرصيد البيزنطى كان يقف شامخا فى الدوائر الغربية ، ذلك ان الثقة الكاملة فى الامبراطور البيزنطى يعكسها ذلك التقرير الذى كتبه ليوتبراند عن محادثاته مع نقفور الثانى سنة ٩٦٨ ، كما أن النغمة الودية التى احتوتها رسالة البابا ليو التاسع Leo IX الى الامبراطور الأرثوذكسى الورع قسطنطين التاسع Constantine IX فى سنة ١٠٥٤ تبين مدى الأمان الذى كانت تشعر به القسطنطينية ، ومدى ما تحقق لها من الاحترام ، طوعا او كرها ، من جانب جيرانها •

(هـ) السياسة الداخلية : الكنيسة والتعليم :

لاشك ان نجاح بيزنطة العسكرى والبحرى طوال ما يزيد على مائة وخمسين عاما زمن العموريين والمقدونيين ، وهذا الانتشار السريع لآثار حضارتها المسيحية ، يعود فى الدرجة الأولى الى تلك الأوضاع التى سادت فى الداخل • لقد كانت الكفاءة المقتدرة وتعدد مناحى الأنشطة ، ابرز قسمات الحياة البيزنطية • فمنذ منتصف القرن التاسع وحتى موت باسل الثانى (١٠٢٥) على اقل تقدير ، أقدمت السلطة الامبراطورية الأوتوقراطية على احداث اصلاحات ذات اهمية كبيرة فى مجال التشريع والادارة ؛ ذلك أن باسل الأول كان لديه العديد من المشروعات بهدف « تنقية » القانون القديم • فنشر « الوجيز » Procheiron ثم سرعان ما اتبعه فى عام ٨٧٩ بـ « المدخل »(٢٢) Epanagoge ، وأكمل ليو السادس جهود أبيه باصدار

---

(٢٢) يؤكد بعض الدارسين أن « المدخل » لم ينشر رسميا على الاطلاق • لمعرفة الآراء المختلفة حول هذا الموضوع • انظر Ostrogorsky, History of the Byzantine state, pp. 213 - 14
وعن تشريعات المقدونيين انظر H.J. Schehema, in Cambridge Medieval history IV, pt. II (new ed. 1967), pp. 65 ff.

« التشريعات الامبراطورية » Basilica التى اعتمدت أساسا على التشريعات الباكرة خاصة تلك التى تعود الى عهد جوستنيان وتهدف كتب القانون هذه الى جعل قوانين جوستنيان أيسر تناولا خاصة وأن هـذه الكتب صدرت باليونانية اللغة السائدة فى الامبراطورية · وقد خضعت هذه « التشريعات الامبراطورية » لكثير من ضروب التعديل والتحسين حتى أصبحت فيما بعد المصدر الأساسى فى هذه المجالات · كما ابدى الأباطرة اهتماما كبيرا فى مختلف النواحى التشريعية · وتمثل ذلك فى كثير مما نشـر آنذاك سواء كان يحمل الصفة الرسمية أو غير الرسمية · وكانت القوانين العديدة التى صـدرت على امتداد هـذه الفتـرة ، أو « كتاب الوالى » الذى وضعـه الامبراطور ليو السادس ، أو الاتفاقيات التجارية ، تتناول التنظيم الفائق للنقابات فى القسطنطينية ، أو الشروط التى يسمح بمقتضاها للتجار الروس بالاقامة فى المدينة ، بل وحتى تلك المشكلة البالغة التعقيد التى تتمثل فى كبار ملاك الأراضى ·

وقد ارتبط ابتياع الأراضى بنمـو العائلات الثـرية التى ظلت حتى الأيام الأخيرة للامبراطورية تسيطر على مصادر كانت تعد تحديا مستمرا لسلطان الدولة · وكانت حيـازة الثروة الزراعية تعتبر امتيـازا علمانيا خالصا ، وان كانت السلطات الاكليروسية قد تراكم لديهـا هى الأخـرى مصادر واسعة من هذا النوع ، خاصة المؤسسات الديرانية الكبيرة ، وغالبا ما كان يحدث ذلك بتغاضٍ أسقفى · ولم تكن السياسة الامبراطورية تجاه التملك المتزايد للأراضى تسير على نحو ثابت ، فقد قام بعض الاباطرة مثل رومانوس الأول أو باسل الثانى بمحاولة جريئة لوقف تيار الحصول على الأراضى من صـغار الملاك أو المزارعين بالالتزامات العسكرية الموروثة · وكان ذلك من ناحية وسيلة سياسية لتحـديد نفـوذ الطبقة الأرستقراطية ، ومن الاخـرى لضمان الاحتياطى من الجنـود الوطنيين · ولـما كان باسل الثـانى يدرك تماما مدى الخطورة السياسية التى تشكلها هـذه العائلات الكبيرة ، فقد حمل « الأقوياء » مسئولية دفع الضرائب عن « الفقراء »(٢٣)·

---

(٢٣) لم يكن باسل الثانى هو أول الأباطرة البيزنطيين الذين أقدموا على مثل هذا الاجراء ، فقد طبقه الامبراطور نقفور الأول فى بواكير القرن

بينما نجد نفرا آخر من الأباطرة يقف موقفا متساهلا ازاء هؤلاء « الاقوياء » ، اما لدوافع سياسية معينـة ، أو لضعف سلطانهم · ولعـل أوضح الامثلة على ذلك أن نقفور الثانى نفسه جاء من احدى هذه العائلات الارستقراطية ، وتراخى فى تطبق قوانين الملكيـة التى شرعت لمصلحـة صغار الملاك · ولما كان قائدا عسـكريا من الطراز الاول ، فقـد أصبح شـديد الحساسية الاحتياجات العسكرية ، ومن ثم يتطلع للاقدام على أى شىء من شأنه حماية الجندى ـ الفلاح · وقـد وضع بعض القواعد الخاصـة تتعلق بالاقطاعات العسكرية لجنود الجبهة الارمينية الذين سمح لهم باسترداد أراضيهم من « الاقوياء » أو الاديرة ، حتى وان كان قد مضى على ذلك قرابة الثـلاثين عاما · كما أن نقفور تصدى بعنف لاقامة مؤسسات ديرانية جديدة ، بنفس القدر الذى حدد به امتلاك الاديرة للأراضى الزراعية ، بعد أن أدت فلاحتها على نحو سيىء الى الاضرار بخزانة الدولة ·

ولاشك انه بالقضاء على الهرطقة عرفت الكنيسة طريقها الى الازدهار· ورغم أن الاستخدام الأرثوذوكسى للايقونات لم يمح تلك الظلال المختلفـة لذلك المعتقد بين رجال الكنيسة · الا أن الاتجاهين الكنسيين الرئيسيين فى هذه الفترة تبديا فى النمو المطـرد للسلطة الكنسية فى الداخل والخارج ، خاصـة فيما يتعلق بالسلطة الامبراطورية والكنائس الصقلبية التى انشئت مؤخرا ، والتوتر الحادث فى علاقاتها مع روما · وهـذه النقطة الأخيرة ترتبط بصفة خاصـة باثنين من أشـهر أساقفـة القسطنطينية ، فوطيوس Photius فى القـرن التاسع وميخائيل كريولاريوس Michael Cerularius

---

التاسع ، حيث حمل الأثرياء مسئولية الانفاق على اعداد وتجهيز الجنود فى مناطقهم ، فلما كان عهـد باسل الثـانى واشتدت الحاجة الى الأموال للانفاق على الحرب البلغارية الطويلة (١٠٠١ ـ ١٠١٨) ، أصدر فى عام ١٠٠٢ قراره باحياء هذا الالتزام ثانية · وقد عرف هـذا الاجـراء باسم « الضمان المتبادل » allelengyon ولو كان قد قدر لهذا الاجراء أن يظل فتـرة طويلة من الزمن ، لأدى الى تحطيم قـوة كـبار ملاك الاراضى من الكنسيين والعلمانيين على السواء · ولكنه مالبث أن ألغى على يد رومانوس الثالث (١٠٢٨ ـ ١٠٣٤) كوسيلة يسترضى بها كبار الاكليروسين والنبلاء · أنظر Vasiliev, op. cit., I, pp. 348 - 9 المترجم ·

فى القرن الحادى عشر · ولقد أصبح فى مقدور الكنيسة ،بل استطاعت فعلا أن تتحدى الامبراطور ، على الرغم من قوة مركزه · فقد كان على يوحنا تزيمسكس أن يعطى وعدا بالغاء القوانين التى أصدرها سلفه والمتعلقة بتحديد الملكية الكنيسة ، وأن يتخلى عن فكرة الزواج المقترح من الملكة الأم ثيوفانو ، ذات السمعة القبيحة ، قبل أن يحصل على موافقة أسقف العاصمة لاتمام مراسم تتويجه · كما أن تغير الفن الامبراطورى فى ناحية التصوير خلال هذه الفترة يدل أيضا على مدى ازدياد نفوذ الكنيسة ، هذا بالاضافة الى أن الأعمال التشريعية والقوانين تعكس نوعية العلاقة المتشابكة والمتداخلة بين الدولة والكنيسة ، حتى اننا نجد يوحنا تزيمسكس يقول : « لايسعنى الا أن أعترف أن فى العالم قوتين ·· الكنيسة والامبراطورية · عهد البارى الى الأولى بهدى الأرواح ، وخص الثانية بالسيادة على الأبدان · واذا ما تركتا كلتاهما دون معاناة ، فلسوف يهنأ العالم بالرخاء » ·

واذ آنست من نفسها قوة وشعرت بالامان ، تورطت القسطنطينية فى نزاع مع روما كنسيا ودنيويا · وكانت الخلافات العقيدية بينهما حول اضافة الغرب كلمة « والابن »(٢٤) filioque الى مرسوم الايمان · وكذا اختلاف النظم والتقاليد الكنسية قد زاد سعيرها بذلك الجدل الذى دار حول الاعتراف برسامة فوطيوس أسقفا سنة ٨٥٨(٢٥) · ومع أن فوطيوس

(٢٤ ، ٢٥) فى عهد الامبراطور ميخائيل الثالث ، آخر أباطرة الاسرة العمورية ، كان اجناتيوس Ignatius أسقفا لكرسى القسطنطينية ، ولم يكن على قدر من الثقافة الانسانية الكلاسيكية أو المعرفة اللاهوتية · فى نفس الوقت الذى كان هناك شخص آخر يدعى فوطيوس ، الأستاذ بجامعة القسطنطينية ، يعتبر أعظم رجالات عصره علما ومعرفة ، جعل من بيته ناديا أدبيا وعلميا ، وقد دون خلاصة ما كان يقرأه فى النادى من المؤلفات ، فترك بذلك مؤلفه الذى عرف بـ « المكتبة » Bibliotheca · وبفعل التيارات السياسية المتصارعة داخل القصر الامبراطورى بين ميخائيل الثالث وأمه ثيودورا وخاله القيصر برداس ، عزل اجناتيوس وخلفه فوطيوس ، وانقسمت العاصمة الى معسكرين ودعا الامبراطور لعقد مجمع كنسى لفض النزاع ، ووجهت الدعوة الى بابا روما نيقولا الاول ، الذى انتهز الفرصة للتدخل فى شئون كنيسة القسطنطينية عن طريق مندوبيه اللذين بعث بهما

قد مات على وفاق مع روما(٢٦) ، الا أن نقاط الخلاف القائمة بينهما ، وتلك الذكريات الاليمة التى ماتزال تنبعث من فقدان البابوية لبعض الأقاليم الخاضعة لسيادتها سنة ٧٣٢ ، ظلت كامنة سرعان ما تطفو على السطح عند أول بادرة تسوقها الاقدار • ورغم السمعة السيئة التى لصقت بأسقف القرن الحادى عشر ، الغطريس ميخائيل كريولاريوس ، الا أن الانشقاق الأعظم بين الكنيستين لا يعود فى الحقيقة الى عام ١٠٥٤ عندما امسك الكاردينال همبرت Humbert المندوب البابوى المتعجرف ، بقرار اللعنة وألقى به الى الأرض فى كنيسة أيا صوفيا ، وراح ينفض عن قدميه ما غبرهما

لحضور المجمع • لكن فوطيوس والامبراطور ، بل واجناتيوس نفسه الذى يناصره البابا ، رفضوا جميعا ادعاءات البابا بالسيادة العالمية على الكنائس • وقد عقد نيقولا مجمعا لعن فيه فوطيوس وطالب باعادة اجناتيوس• وزاد النار ضراما تحول بوريس Boris الملك البلغارى الى المسيحية آنذاك ، وتنافس الكنيستين المرير لبسط نفوذهما على رعية المسيح الجديدة • وكانت الخلافات العقيدية ، كما كانت دائما ، حجر الزاوية فى العداء بين روما والقسطنطينية وتباعدهما من بعضهما • ذلك أن مجمع نيقية سنة ٣٢٥ لم يرد فيه أى تفسير للروح القدس أو اشارة سوى القول « نؤمن بالروح القدس » فلما ذاعت أراء ماكيدونيوس فى القرن الرابع عن القول بخلق الروح القدس ، دعا الامبراطور ثيودوسيوس الأول الى عقد مجمع فى القسطنطينية ، هو المجمع المسكونى الثانى سنة ٣٨١ ، نوقشت فيه هذه المسألة واصدر المؤتمرون قرارهم بالايمان « بالروح القدس المنبثق عن الآب » • وقد اضافت الكنيسة الغربية كلمة « والابن » على مرسوم الايمان : أى أن الروح القدس منبثق عن الآب والابن ، وظل هذا الجدل مثارا للنزاع بين كنيستى روما والقسطنطينية الى أن وقع الانشقاق الأعظم بينهما سنة ١٠٥٤ انظر • الدكتور أسحق عبيد : روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين سنة ١٢٠٤ س ١ ــ ١٩ •

و Barry, The Papal Monarchy, From st. Gregory to Boniface VIII, pp. 124 - 129.

و W. Ullmann, A short history of the Papacy in the Mid. Ages, pp. 105 - 110.

والدكتور أسد رستم ، الروم ، الجزء الأول • ص ٣٤٩ •

و Vasiliev, op. cit., I, pp. 290, 296 - 7 المترجم •

(٢٦) قارن ذلك بما يذكرة الدكتور اسحق عبيد فى كتابه روما وبيزنطة ، ص ١٧ ــ ١٩ المترجم •

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

من تراب وهويهم بالخروج . على أنه يمكن اعتبار سنة ١٠٥٤ بداية الانشقاق « الرسمى » بين الكنيستين ، حيث أبطلت القسطنطينية الصلاة من أجل البابا فى قداساتها ، وهو ما يمثل المظهر العلنى للانشقاق . ولاشك أنه كان من السهل ـ حسبما رأى الكسيوس الأول Alexius I عام ١٠٨٩ ـ تدارك كل هذه الأمور . غير أن الأحداث التى جاء بها القرن الثانى عشر ، وتمثلت فى مقدم الصليبيين الغربيين ، وبلوغها قمة المأساة فى الغزو اللاتينى للقسطنطينية وأقاليم بيزنطية أخرى ، جعلت من المستحيل وصل ما انقطع .

أما ازدهار التعليم والفن خلال هذه الحقبة من الزمان (٨٤٢ ـ ١٠٢٥) فانه يجل عن الوصف ، يطالعنا فى بدايتها الأديب فوطيوس بناديه الذى كان يضم الصفوة من الادباء واللغويين الذين شكلوا فى نفس الوقت بواكير البعثات التبشيرية الى العناصر الصقلبية . وتكشف المخطوطات التى ماتزال باقية عن مدى الافادة ، أو محاكاة النصوص الكلاسيكية والمتأخرة ، على حين توضح المخطوطات المصورة ، ومنها المزامير الموجودة فى باريس ، أو تقويم Menologion باسل الثانى ، الارضية الواسعة لهذا النسق بما فيه من فن رمزى وواقعى أيضا متأثر بالحقبة اليونانية ـ الرومانية المتأخرة ـ ووراء كل ذلك كان يبدو الجهد الامبراطورى المستمر والاهتمام المتزايد . فقد عمل القيصر بارداس Bardas على تدبير الاعتمادات المالية اللازمة من أجل الجامعة فى قصر ماجنورا Magnaura Palace وكان ليو السادس لاهوتيا وشاعرا ، بينما بسط قسطنطين السابع يد العون للمدرسة الزاهرة فى تدوين التاريخ ، ووضع بنفسه مؤلفا عن حياة جده باسل . كما أن العرف الدبلوماسى والامبراطورى قد تم تدوينه ، كى تفيد منه الاجيال التالية ، فى كتب قيمة عن الادارة والمراسم الامبراطورية . ومع أن باسل الثانى كان يتصف بحساسية معينة تجاه ملاحقة المجتمع المثقف ، الا أنه من غير المحتمل أن يكون ذلك قد ترك بصماته على الآداب والتعليم . ولكن الذى لا شك فيه أن العلماء والانسانيين قد عادوا سيرتهم الأولى بعد فترة ليست ببعيدة عقب وفاة باسل الثانى عام ١٠٢٥ .

الفصل الثالث

تغييرات جوهرية

١٠٢٥ ـ ١٢٠٤

١ ـ مفترق الطرق فى القرن الحادى عشر ٠

٢ ـ أحيـاء الامبراطورية زمن آل كومنين ٠

( ) الـكسيوس كومننوس

(١٠٨١ ـ ١١١٨)

(ب) يوحنـا الثـانى كومننوس

(١١١٨ ـ ١١٤٣)

ومانويل الأول كومننوس

(١١٤٣ ـ ١١٨٠)

٣ ـ الانحلال الأول ٠

الفصل الثالث

تغييرات جوهرية

١٠٢٥ ــ ١٢٠٤

١ ــ مفترق الطرق فى القرن الحادى عشر :

استطاعت الامبراطورية أن تحتفظ بقوتها وصلابتها منذ حركة الافاقة الناجحة التى حدثت فى القرن السابع ، واذا كانت قد فقدت بعضا من أرض فى ايطاليا ، فانها تمكنت من تعويض ذلك بالنجاح الذى حققته فى البلقان ثم الجبهة الشرقية بصفة خاصة ٠ غير أنها ابان القرن الحادى عشر كان عليها أن تواجه عدوا جديدا يتمثل فى الاتراك السلاجقة ــ الذين انطلقوا داخل آسيا الصغرى ــ فى الوقت الذى أخـذت فيـه الشعوب الصقلبية فى منطقة البلقان تزداد عنفـا وضراوة وتتعالى عنـدها النزعة الاستقلالية ، والنورمان فى جنوب ايطاليا يقومون بحملات معادية ضـد الامبراطورية ، بينما تتصاعد فى الغـرب الحماسة الصليبية الهوجاء ضد الملاحدة(١) ٠ وازاء كل هذه الاحـداث عجـزت بيزنطة عن حماية حدودها ٠ وكان عـام ١٢٠٤ ارهاصا بسنة ١٤٥٣ ٠

فى عيد الميلاد لعام ١٠٢٥ ودع باسل سفاح البلغار دنياه ٠ ساعتها بدا لأعين البيزنطيين جليـا أن الامبراطورية مقـــدمة على تغييرات بعيدة المدى ٠ وقد ترك لنـا ميخائيل بسللوس (٢) Michael Psellus ، الذى يعد

---

(١) راجع حاشية ١٦ ص ١٤٧ ٠ المترجم ٠

(٢) أدت الحـروب التى خاضتها الامبراطورية فى القـرن العاشـر وأوئل الحادى عشر ضد المسلمين والبلغار ــوغيرهم ، الى أن يتجه الاهتمام كله الى النواحى العسكرية والدبلوماسية ، وأن يتوارى النشـاط العلمى والثقافى ٠ غير أن مجموعة من المفكرين دأبت على الاهتمام بهذه الناحية ، الى أن كان عهد قسطنطين التاسع الذى أصغى باهتمام لنصـــائح هـؤلاء القوم ، فاعيد تنظيم جامعة القسطنطينية ، واسند الاشراف على الدراسات

واحدا من أشهر كتاب العصور الوسطى ، تاريخا لمعاصريه فى القرن الحادى عشر ، ذكر فيه المصاعب والاخطاء بل وحتى الحماقات الامبراطورية ، دون أن يومىء الى أن مستقبل بيزنطة ينبىء بالانحلال السياسى والضياع ، على عكس بعض كتاب القرن الرابع عشر عندما كانوا يدركون أن الغم والغناء نهايتم المحتومة ٠ وربما كان مواطنو القسطنطينية سنة ١٢٠٥ يعلمون تماما أن مكانة الامبراطورية لم تعد فى سمتها المرموق ؛ فالظروف الداخلية والاحداث الخارجية كانت تعمل بعناد لازاحة الامبراطورية عما تحقق من ازدهار فى القرن العاشر ، وللحقيقة فان بذور المشاكل التى كان على الامبراطورية أن تعانيها الآن ، كانت قد غرست بالفعل وبدأت تزهر فى القرن العاشر ، واتضح ذلك جليا فى الصراع العنيف الذى خاضته الحكومة المركزية ضد ملاك الاراضى الاقوياء ٠

وكانت السمة المميزة للحكام البيزنطيين فى الفترة ما بين عامى ١٠٢٥ ـ ١٠٨١ عندما اعتلى الكسيوس كومننوس Alexius Comnenus

---

الفلسفيه الى قسطنطين بسللوس ، الذى عرف باسمه الرهبانى ميخائيل بسللوس ٠ ولد حولى سنة ١١٠٨ وعنيت والدته بتربيته على يد معلم خاص، فاصبح من أعظم رجال عصره فكرا وثقافة اخبرنا انه قرأ لهوميروس وهزيود وهيرودوت وثوكيديدس ، وديموستنيز وبلوتارخ وفلاسفة الرواقية وأرسطو وجريجورى النازيانزى ، وقبل هؤلاء جميعا محبوبه افلاطون ٠ كان شديد الاعتزاز بنفسه ، فقد كتب يقول أن قسطنطين التاسع كان شديد الاعجاب بفصاحته ، بينما كان ميخائيل السادس يصغى اليه كمن يتذوق العسل ينساب من بين شفتيه ، على حين كان قسطنطين العاشر يملأ قلبه بكلماته وكأنه يرتشف ماء الحياة ٠ أما يودوكيا فقد اعتبرته الها ! وكان لابد اذن أن يكون قريبا جدا الى البلاط وأن يصل الى أعلى المناصب ٠ غير انه فقد أصدقاءه جميعا فى أخريات حياته ليموت وحيدا سنة ١٠٧٨ ٠ ومن بين أعماله العديدة نجد « المزمنة » Chronographia التى تعد فى نظر المؤرخين من احسن المصادر المعاصرة عن الفترة الممتدة من موت يوحنا تزيمسكس حتى سنة ١٠٧٧ أى الى عهد ميخائيل السابع (١٠٧١ ـ ١٠٧٨) ٠
انظر Psellus, Chronographia ، وقد ترجمت الى الانجليزية على يد E.R.B. Sewter تحت عنوان Fourteen Byzantine Rulers وانظر للمرتجم : ميخائيل بسللوس من خلال كتابه : التاريخ الزمنى ٠ مجلة كلية الآداب جامعة صنعاء ـ العدد الثانى ١٩٧٩ ٠

العرش ، هى أنهم افتقدوا المقدرة والكفاية التى تمتع بها أباطرة البيت الهرقلى أو الاسرة الايزورية أو بعض المقدونيين مثـل باسل الاول وسميه الثانى . ولعل هـذه الناحية تتضح فيما اكتسبته العائلة المقدونيـة من ولاء شعبى ، مد فى عمرها من سنة ١٠٢٥ حتى عام ١٠٨١ ، متمثلا فى قسطنطين الثامن Constantine VIII العجوز المتصابى الذى لا يقـدر المسئولية ، وابنتيه المسنتين زوى Zoe العابثة المتلافة ، وثيودورا الراهبة التى اخرجت من الدير كرها لتشارك اختها العرش لمضايقة الاخيرة . ولم يظهر انئـذ قائد عسكرى أو سياسى يمتلك المقدرة او يسعده قدره بفرض سيادته على الدولة كامبراطورا شريك ، أو يتولى المسئولية كاملة . حقيقة كان ميخائيل الرابع Michael IV الزوج الثانى لزوى ، جنديا شجاعا عنيـدا ، ولكنه كان يعانى من الصـرع . أما جورج مانياكس George Maniaces الذى كان يشبه الى حـد كبير قسطنطين التاسع Constantine IX زوج زوى الثالث المغلوب على أمره ، فقد لقى مصـرعه وهو فى طريقه الى العاصمة . حتى اذا جاء اسحق كومننوس Isaac Comnenus الذى أظهر نوعا من الكفـاية التى اتصف بها بعض افراد اسرته فيما بعد ، اتبع سياسة معادية فى البداية تجاه البطريرك ميخائيل كريولاريوس ، ثم ثنى ذلك باكتساب عداء الجموع والأرستقراطية فى القسطنطينية ، لينتهى الأمـر باعتزاله الحـكم . وعلى هذا النحو زالت تلك القبضـة القـوية التى تمثلت فى حـكم باسل الثـانى الأوتوقراطى ، وازداد نفوذ النبالة يومابعد آخر . وشهدت الفترة من عام ١٠٢٥ حتى ١٠٨١ صـراعا فيمـا بينهم وانفسهم حتى تتحقق السـيادة لأقدرهم ، : العائلات والموظفون الذين تمركزوا فى العاصمة على الرغم مما يمتلـكونه من اراض وامتيازات فى مختلف انحـاء الامبراطـورية ، أو الأسر ذات الصبغة العسكرية بقلاعها وضياعها الغنية فى الولايات وادراكها الواعى لاحتياجات الدفاع عن الامبراطورية . على أنه مما يستحق الذكر أن أعيان آسيا الصغرى والقوة المخيفة التى كان يسكلها أتباعهم ، تعرضوا جميعا للعقاب الصـارم بل والضياع على يد باسـل الثانى ، وتمت مصادرة اراضيهم ، وعهد بادارة الأمور هناك لفترة طويلة خلال ذلك العهد الى عدد من الوزراء أو الحـكام ، كانوا يتصفون غالبا بقلة الحيلة أو سوء الحظ . وقد ضمن ميخائيل بسللوس « مزمنته » Chronographia وصفا رائعا لقصة

الانتصار التى تحققت للمدنيين على خصومهم أصحاب العقول العسكرية ، حيث كان بسللوس يعمل وزيرا ومستشارا لأباطرة عصره ، وساهم بنصيب فى صنع تاريخ زمانه ، وفى بعض الأحيان وصف هذا النزاع بأنه صراع بين الأرستقراطية « المدنية والعسكرية » ، ومن بين هؤلاء « العسكريين » جاء اسحق الأول كومننوس ورومانوس الرابع ديوجينس Romanus IV Diogenes اللذان بذلا جهدهما فى سبيل تدعيم وسائل الدفاع عن الامبراطورية ·

وكان لنظام الحكم عند من يسمون بالأرستقراطية « المدنية » بعض الملامح المميزة ، فلم يبد باسل الثانى أى امتعاض كى يظهر نفسه فى صورة ودودة ، وان كان قد تظاهر بازدراء التعليم (مع انه كان يطالع أى شىء يسترعى انتباهه مثل الخطط العسكرية)(٣) ، وكنوع من رد الفعل لخشونة باسل الثانى وفظاظته ، كانت هناك بعض ثمرات يانعات لأنشطة عقلية وثقافية بفضل الرعاية الكاملة التى أولاها اياها المقدونيون الأواخر وخلفاؤهم ، وكان البلاط يمثل مركز هذه الحركة الفكرية ، وعهد بادارة أمور الدولة الى رجال على قدر كبير من الفكر من بينهم بسللوس العالم الانسانى ، ويوحنا اكسيفيلينوس(٤) John Xiphilinus · ولهذا لم يكن غريبا آنذاك أن يرصد قدر كبير من الأموال العامة لاعادة تنظيم جامعة القسطنطينية تحت سيادة الدولة ،وقد بات واضحا أنه لايوجد هناك

---

(٣) انظر Michael Psellus, Chronographia, trans. E.R.A. Sewter, pp. 24 ff. (ch. 30, 33, 36).

(٤) كان أحد ثلاثة من اخلص اصدقاء ميخائيل بسللوس · وبينما عهد الى الأخير بالاشراف على الدراسات الفلسفية بجامعة القسطنطينية بعد اعادة تنظيمها زمن قسطنطين التاسع ، تولى يوحنا اكسيفيلينوس الاشراف على الدراسات القانونية بها وذلك فى عام ١٠٤٥ · ثم أصبح أسقفا للقسطنطينية فيما بعد (١٠٦٣ ـ ١٠٧٥) وقد تم ذلك على غير رغبة منه ، حيث كان يفضل البقاء فى سلك الرهبنة التى كانت تستحوذ على فكره ، على العكس من صديقه بسللوس ·

انظر Psellus, Chronographia, VI, 192, VII 26

وراجع مقدمة الترجمة الانجليزية لزمنة بسللوس ص ١٣ وحاشية رقم ١ ص ٢٥٤ وايضا حاشية ص ٣٤٣ · انظر ايضا Baynes & Moss, Byzantinum, p. 217 المترجم ·

من بين المعلمين والدارسين ، والعلمانيين ورجال الاكليروس ، والكتـــاب والفنانين من يحاول الاسقاف أو الدونية ، بل على العكس كان كلهم يسعى للنهوض والرقى ، وانطبع ذلك فيما خلفوه من مذكرات وتواريخ ، من تفاسير لاهوتية ومناقشات جدليــة ، من تراتيل قداسية وموسيقى ، من كنـــائس وفسيفساء ، من صناعات عاجية ومنسوجات رائعة ٠

والى جانب هذا كله أخذت الكنيسة هى الأخرى تستحث الخطى نحو القوة ، وساعد على ازدياد سلطان كنيسة القسطنطينية ، أن نفوذ الكنائس الأخرى المنافسة لها فى الشرق ٠ انطاكية والاسكندرية وبيت المقدس ٠ قـد راح يضمحل ؛ فقد فرضت سلطنها على جزء حيوى من عالم الصقالبـــة ، الذين كان تناولهم للمعمودية المسيحية من يد المبشـــرين البيزنطيين يعنى خضوعهم للســيادة الكنسية لبطريرك القسطنطينية ٠ وتفجرت الخــلافات البعيدة ، وان لم تكن بالضرورة جوهرية ، بين كنيستى روما والقسطنطينية ، والمتمثلة فى التقاليد والطقوس الكنسية والمبادىء اللاهوتية ، لتخدم مطامح بطريرك متعجرف ازداد ثقة بنفسه الى حد الغرور ، وعلى نفس القدر من الغطرسة كان الكاردينال همبرت المندوب البابوى الذى جاء الى القسطنطينية ، ليبحث مع أسقفها هذه المسائل الكنسية المعلقة ، ومن ثم كان لابد أن ينفجر الصراع بينهما فى نفس اللحظة التى كانت الاوضاع تحتم فيهـــا أن تنتهج كل من روما والامبراطورية البيزنطية سياسة مشتركة حتى يمكن التصدى للزحف النورمانى السائر قدما فى جنوب ايطاليـــا ٠ ومـرة أخرى أحست بيزنطة بالحاجة الى امبراطور قوى ، فقد عجز قسطنطين التاسع عن كبح جماح أسقفه المتهور ، بينما ألقى المبعوثون الرومان قرار الحرم الكنسى فى أيا صوفيا ٠ ولــكن أيا من الطرفين لم يفطن أنذاك الى خطـورة الموقف ٠ حقيقة قد لا يكون هذا الصراع الذى حدث فى سنة ١٠٥٤ بالضرورة نهائيا ، وربما كان ممكنا أن يندمل فيما بعد لو أن عداء النورمان والبنادقة وطموحهم كان أقل مما بدا عليه ٠

وقد ازداد وضوحا نمو سلطان الكنيسة البيزنطية بتلك المحاولة التى أقدم عليهـــا ميخائيـل كريولاريوس لاخضـــاع الدولة للكنيسة على عكس ماجرت به السياسة الامبراطورية فى الشـــرق الرومانى ، ذلك أن الأسقف

لم يقنع بتاكيد استقلاله عن روما ، واعلن صراحة أن المسائل الروحية تفوق فى اهميتها الأمـور الزمنية ، وان تلك المسـائل من اختصـاص السلطات الكنسية وحـدها ، وهكذا قوض الأسقف تلك المـكانة التقليدية للامبراطور باعتباره راعى الـكنيسة وحاميها • بل ان كريولاريوس خطا خطوة واسعة عندما راح يهـدد بعزل الامبراطور ، الـذى كان عنـدئذ اسحق كومننوس ويبدو أن هذا « العواء » لم يكن اجوفا تماما ، اذ مالبث اسحق أن اعتزل الحكم بعه ذلك بقليل ، وان كان كريولاريوس نفسه قـد فارق الحيـاة فى نفس الوقت • غير أن ازدياد السلطة الكنسية لم يكن فى حـد ذاته شيئا جديدا ، فقد تمثلت من قبل على عهد الامبراطور ليـو السادس فيما يتعلق بمشاكل زواجه ، وزمن يوحنـا تزيمسكس بخصوص وعـوده التى قطعها على نفسه للبطريرك قبل تتويجه(٥) • ولكن هذه السلطة اضحت شيئا يلفت النظر فى القرن الحادى عشـر بسبب تلك العـدوانية المفرطة التى اتصف بهـا ميخائيل كريولايوس ، والتى لم يكن من السهل كبحهـا الا على يد امبراطور مقتدر •

اتضح ضعف السلطة المركزية خلال الفترة الممتـدة من ١٠٢٥ حتى ١٠٨١ فى عدد من النواحى الأخرى ، وزاد من هذا الضعف حقيقـة ، ابان الجزء الأكبر من هذه السنوات ، ليس فقط ما اعتور البصيرة الامبراطورية ، بل ايضـا تلك السياسة المترددة التى اتبعها من بيدهم مقاليـد الامـور فى القسطنطينية • لقد عرف باسل الثانى جيـدا بسياسته الاقتصادية الصارمة وخشـونة طبـاعه ، يظهر رسميا فقط فى رداء أرجوانى » ويـد مرصـعة بالجواهر كنوع من التمييز ،وكان لديه عدد من الأروقة الحلزونية المتقنة ، حفرت تحت الأرض ليكتنز فيهـا تلك الثـروة الطائلة التى لا يمكن جمعها فى الأقبية الامبراطورية • أما اخوه قسطنطين وابنة اخيـه زوى وزوجهـا فى الأقبية الامبراطورية • أما اخوه قسطنطين وابنة اخيـه زوى وزوجهـا قسطنطين التاسع ، فقـد كانوا واياه على طرفى نقيض فقد انحطت سمعتهم الاقدام على اعادة بناء كنيسة سان جورج الشهيد St. George the Martyr ثم هدم ما بدىء فيه واعادة البناء مرة ثانية على طراز بالغ الفخامة يقصر

---

(٥) راجع قبله ص ٥٨ • وحاشية ٤٨ من نفس الصفحة ، المترجم •

دونه التصور ٠ « لقد كان الذهب ينساب من الخزانة العامة كجدول رقراق يتدفق من ينابيع لاينضب لها معين »(٦) ٠ ولقـد اعترف بسللوس صراحة بأن ذلك الطيش المهلك « كان نقطة التحول فى قـدر الدولة » ٠ وكان البذخ الامبراطورى وحده كافيا لايجاد المتاعب ، ولكن الأمر لم يقتصر على هذا الحد ، فقد شهد الوقت ذاته ارتفاع نفقـات الادارة الامبراطورية وذلك لأن الحكومة كانت تنشىء باستمرار وظائف جديدة فى الادارة المدنية ٠

وبينما كان الانفاق فى الداخل يتزايد ، كان الدخـل لأسباب متعددة يتناقض ولعـل ابرز أسباب هــذا النقصـان ، العجز عن السيطرة على « الأقوياء » ، وهكـذا فان تلك الميول المتباينة التى كان من السهل ادراكها حتى على عهد اقوى اباطرة الأسـرة المقدونية الأوائل ، قد ترك لهـا الآن الحبل على الغارب ، واذا كان باسل الثانى قد جعل المسئولية الجماعية فى دفع الضرائب عن الجيران والفقراء أمرا ميسورا ، فان هــذه المسئولية توارت بالحجاب على عهد رومانوس الثالث الذى ربما لم يكن له من القوة ما يرغم به « الأعيان » على الاستمرار فى تحملها ٠ وعلى هذا النحو حرمت الخزانة من احـد مصـادر الدخـل ٠ ومما زاد الطين بلة وادى الى نقص الايرادات بصورة واضحة ، ذلك الاجراء الذى عهـد بمقتضاه الى جماعة الملتزمين بجباية الضرائب ،وكان هذا فى حـد ذاته فقدانا لمهمة من المهام التى يعد من الضرورى أن تضطلع بها الحكومة المركزية ، ومن ثم فان كلا من الولايات والدولة قـد عانت من جـراء ذلك : الأولى ناءت بمـا اثقـل كواهلها ، والأخـرى لم تحصـل الا على النزر اليسير من تلك الضـرائب الباهظة ٠

وكانت معاناة السلطـة المركزية فى القرن الحـادى عشر اشد ايلاما بسبب الاعفاءات والاستثناءات التى كانت تمنح لبعض الشخصيات ٠ وبهذه النقطة بالذات تحددت معالم الطريق نحو الصورة التى سوف تصبح عليها الدولة البيزنطيـة فى عهـدها الأخيـر ٠ فقـد تمتعت ضياع العلمانيين والاكليروسيين على السواء بامتيازات خاصة مثل الاعفاء من دفع ضرائب

---

(٦) انظر Michael Psellus, Chronographia, trans. E.R.A. Sewter, p. 189 (Ch. 185).

معينة ، أو الخدمات العامة الالزامية · ويبدو أن هـذه المسألة كانت شيئا عاديا · لـكن الأهـم من ذلك أن تمنح الارض لشخص ما لفتـرة محددة ، عادة ما تكون طيلة حيـاته · وكان هذا الشخص صاحب الامتيــاز يتولى ادارة الارض بنفسه والحصول على ريعها · وقد ظهر اول مثال لهذا النوع فى منتصف القرن الحـادى عشر ، حتى اذا كان العقد السابع منه وجـد العديد من هذه المنح التى كانت توهب لقاء حفنة من المال . وان كان لايوجد حتى الآن أى اشارة الى التزامات عسكرية ترتبط بهذه الهبـة · وخـــلال العصـــر البيزنطى الوسيط لم نر مثل هذه الصفقات ، وان كانت قد حدثت فى فترة مبكرة وهكذا قوضت دعائم السلطة المركزية · وكانت هذه الصورة فى الحقيقـة من أهم ملامح الهزال الذى اعتـراها · ويجب أن لانخلط بين هـذا النوع من المنح ، وبين الهبـــات الديرانية وريعهـا الذى يؤول الى العلمانيين ،والتى استنها كبـــار اباء الكنيسة لضمان النمو الاقتصـادى للملكية الديرانية · ثم جرى استخدامها كنوع من المكافأة بواسطة السلطة الامبراطورية ·

وبتوالى سنى القرن الحادى عشر ازدادت الاحتياجات النقدية ، وقد قوبل العجز المالى الواضح ، بسبب نقص ايرادات الضرائب وبذخ البــلاط المتزايد والانفاق الحكومى ، بفكرة تدل على قصر النظر تتمثل فى تخفيض قيمة العملة · واجراء على هـذه المشاكلة كان من شانه تخريب الاقتصاد البيزنطى · وكان المركز المرموق الذى بلغتـه القسطنطينية فى التجـــارة الدولية ، يعود فى الدرجة الاولى الى الثقة فى قيمة عملتها الذهبية النوميزما Nomisma او البيزنط bezant · وكان معروفا منـــذ زمن بعيـد أن تخفيض قيمة العملة اخذ يظهر منذ عام ١٠٧١ فصاعدا تحت دعوى الاسراع بعلاج الازمات المالية عنـدما فقد البيزنطيون معظم اراضى آسيا الصغرى بسبب استيلاء الاتراك السلاجقة عليهـا · ومع ذلك فقـد أصبح واضحا الآن نتيجـة لتحليل التضخم الذى وقع ، أن المسئولية الحقيقية عن هـــذا التخفيض الهـائل للعملة البيزنطيـة ، ترتبط بقسطنطين التاسع (١٠٤٢ ـ ١٠٥٥) الذى خفض قيمة النوميزما من اربعـة وعشـرين كارتا Carats

الى ثمانية عشر(٧) فقط ، بل بلغت قيمتها فيما بعد ما بين أربعة عشر الى اثنى عشر كارتا على عهد ميخائيل السابع (١٠٧١ ـ ١٠٧٨) التلميذ الغبى لبسللوس ٠

وقد تمكن كبـار السياسيين وملاك الاراضى من اثراء انفسهم بطرق مختلفة ، من ذلك مثلا أن ميخائيل بسللوس كان يمتلك هبـات عديدة من الممتلكات الديرانية فى أجزاء متفرقة من الامبراطورية ٠ وكان العجز عن توفير اية حماية امبراطورية خاصة (أكثر من الانحسار الهادىء) باعثـا على ازدياد الصعوبة فى الابقاء على صغار الملاك مع الالتزامات العسكرية (أو البحرية) ، وتبعا لذلك فقـد تحول الفـلاح الحر الصغير والجنـدى ـ الفلاح بصورة مطردة الى مجرد مستأجر تابع فى ضيعة كبيرة ٠ ولقد برهن التشجيع الامبراطورى النـاجح لصغار الملاك على انه من اهم العوامل فى تجديد شباب الدولة منذ القرن السابع وماتلاه ، وأن فقدان هـذا العنصر أو اختفـاءه كان له تأثيره الواضح على الناحيتين المالية والدفاعية ، كما أنه أدى الى احـــداث تغييرات فى التركيب الاجتماعى للامبراطورية ، وللمرة الثانية فقـد أدت السياسة الحمقاء فى أخريات القرن الحـادى عشر الى التعجيل بهذا التغيير فى محاولة لتدبير الاموال اللازمة على وجه السرعة ، فسمح للجنود الفلاحين بشراء الاعفاء من الخـــدمة العسكرية مقابل مبلغ معين من المال ٠ ومع ذلك فان الحكومة المركزية حاولت ، الآن وفيما بعد ، ابقاء قبضتها على أولاد المستأجرين التابعين Paroikoi الذين كان عليهم التزامات مالية قبل الخزانة الامبراطورية ، ولذلك بذلت الحـكومة جهودا كبيرة للحيلولة دون استقرارهم فى الضـياع الكنسية أو العلمانيـــة حتى لايصبح للملاك حق ادعاء هذه الحقوق ٠

وخلال الجزء الاكبر من هـذه السنوات الواقعة بين عامى ١٠٢٥ ـ ١٠٨١ تركزت محاولات العائلات الثرية والوزراء القائمين بالسلطة ، سواء كانوا من الطبقـة الارستقراطية أو دونها ، فى حمـاية أوضاعهم الخاصة بالعمل على اضعاف خصومهم قدر الطاقة ٠ ولامراء فى أنه داخـل دولة

---

(٧) انظر P. Grierson, Byzantinische Zeitschrift, 47 (1954), pp. 379 ff.

تقوم على الحكم الأوتوقراطى مثــل الامبراطورية الرومانية الشرقية ، فان الأمور كلهــا تصبح بيد الامبراطور شريطة أن يكون قويا قادرا · ومن ثم فانه على عهد الامبراطورتين زوى وثيودورا ، اخر سلالة البيت المقدونى ، وخلفائهما المباشرين ، ترك العــداء القائم بين الحزب الحــاكم والعائلات العسكرية بصماته واضحة على الخطوط العــامة للسياسة الامبراطورية · ولعل النقاش قد دار لزمن حول اتساع حــدود الامبراطورية وتحصينهــا ، ليس فقط على يد الحــكام العسكريين قبل عام ١٠٢٥ ، بل بعد ذلك ايضا ، حتى أن قسطنطين التاسع حقق بعض النجــاح ، « فقــد امتــدت الحــدود الامبراطورية طويلا ناحية الشــرق ، وضم جــزء كبير من أرمينيا »(٨) · ولو وضعنا فى الاعتبار وجهة نظر الأعداء الجدد القائمين على الأقل عند جبهــات ثلاث ، لكان من ســـوء حــظ هؤلاء أن الامبراطورية لم تستطيع أن تقــدم على اهمـــال دفاعاتها العســكرية والبحــرية ، أو تتراخى فى دبلوماسيتها · وهنا يتضح ايضا ، كما فى مظاهر اخرى كثيرة ، أن القرن الحادى عشر يمثل نقطة تحول فاصلة فى تاريخ الامبراطورية ·

ففى الشمال كانت قبـــائل البشــناق Patzinaks ، الغــز Ozes والكومان Cumans تنهمر على امتــداد حدود الدانوب ، واخـــذت قوى هؤلاء الغزاة ، التى لم تعــد تجابه بلغاريا ، تأتلف داخــل الامبراطورية · وقد جرت محاولات لاغراء هؤلاء البــدو على الاستقرار كجحافل تقيم على الحــدود ، ولــكنهم ظلوا بكل جوارحهم قطــاع طرق يمثلون للامبراطورية خطرا محدقا واستنزافا لمواردها المالية ، وحلفــاء متوقعين لأى من أعداء الامبراطورية · هــذا بالاضافة الى أن العناصر الصقلبية فى الداخل ، كانت هى الأخرى تشكل خطرا كامنا ، فبلغاريا التى كانت قــد انزلت الى مرتبــة الولاية ، أضحت متبــرمة ، والامارات الصقلبيـــة الصغيرة الواقعــة فى الشمال الغربى والتى كانت مستقلة حقيقة ، مثـــل زيتا Zeta وكرواتيا Croatia كانت على استعداد لتدعيم استقلالها وابراز كيانها عن طريق التحول الى جانب خصوم بيزنطة · ولعــله من اوضح الأمثلة على ذلك أن

---

(٨) انظر Michael Psellus, Chronographia, trans. E.R.A. Sewter, p. 190 (Ch. 189).

أمير زيتا ضرب القسطنطينية بروما فى عام ١٠٧٠ عنـــدما قبل أن يتلقى التـاج من يد البابا جريجـورى السابع Gregory VII • ورغم ان هؤلاء الأمراء الصغار كانوا اقل بكثير من أن يصبحوا منغصا مؤلما ، فان الاوضاع عند الأدرياتى وما وراءه كانت تتغير بشكل أصبح من المستحيل تجنب تأثيره على بيزنطة ؛ ذلك أن ازدياد قـوة المجر والبندقيـة كان يعنى احتمال أن تصبح كرواتيا أو زيتا أو راسكا Rasca عاملا هاما فى دبلوماسية البحر المتوسط ، بل ربما أيضا تحديا للسيادة الامبراطورية نفســها كما فعلت صربيا Serbia فى القرن الرابع عشر •

واذا كانت الأمور تجرى على هذا النحو فى الغرب ، فان بيزنطة كانت قد تمكنت من تحقيق مكاسب واضحة على الجبهة الشرقية قبل عام ١٠٢٥ • وبناء على المعاهدة التى كانت قد وقعت مع باسل الثانى ، آلت الى بيزنطة البقية الباقية من أرمينيا بعد وفاة حاكمها سنة ١٠٤٣ ، وهكذا أمست الدولة الحاجزة ولاية بيزنطية • وان لم يمض على ذلك بضع وعشرون سنة حتى كانت أرمينيا قد دخلت تحت السيادة السلجوقية ، وذلك فى عام ١٠٦٥ على يد ألب أرسلان Alp Arslan وكان هذا نذيرا بالهجمات المنظمة والغزو المرتقب لآسيا الصغرى التى كانت تعد العمود الفقرى للامبراطورية • ذلك أن الأتراك السلاجقة الذين قدموا من أواسط آسيا ، نجحوا فى السيادة على فارس وبسطوا سلطانهم العسكرى على الخلافة(٩) ، وشرعوا فى مهاجمة الولايات الشرقيـة من الامبراطورية البيزنطية ، وحققوا تقدما كبيرا يفوق ماالقيوه جنـوبا فى حربهم مع الفاطميين فى مصـر • ورغم أن السلاجقـة سـرعان ما انقسموا على أنفسـهم(١٠) ، الا أنهـم أوقعـوا بالامبراطور

(٩ ، ١٠) السلاجقة مجموعة من القبـائل التركية ، تقيم فى منطقـة التركستان أو بلاد ما وراء النهر ، واشتقت اسمها من الزعيم الذى عمـل على وحدتها وهو سلجوق بن دقاق وذلك فى أواخر القرن العاشر الميلادى . واعتنقوا الاسلام وتحمسوا له بشدة وخاصة مذهب أهل السنة . وقد ازدادت قوتهم فى القرن الحادى عشر وعملوا على الاستيلاء على المناطق المجاورة وبسطوا سيادتهم على خراسان ، وفى عام ١٠٣٧ اعلن قيام دولة السلاجقة وتولى طغرل مهام السلطة • وبعـــد مرور ثلاث سنوات فقط حصلوا من الخلافة العباسية على الاعتراف بدولتهم • وبعد أن بسطوا سيطرتهم على

البيزنطى ، الـذى حاول طردهم من آسيا الصغرى ، هزيمـة مروعة (فى موقعة منزكرت سنة ١٠٧١) ،وان كانوا قد أبدوا رغبتهم فى التوصل معه الى معاهدة مقبولة · وربمـا كان ذلك مدعـاة كى تستجمع الامبراطورية قواها · ولكن الذى حدث أن أنصار أسرة دوكاس Ducas فى القسطنطينية أقدموا على عزل الوجيه الكبادوكى الامبراطور رومانوس الرابع Romanus IV منتهزين فرصة غيابه على رأس تلك الحملة · ورفعوا الى العرش بدلا منـه شابا مولعا بالقراءة ، بدا واضحا أنه غير جدير بهـذا المنصب هو ميخائيل السابع دوكاس Michael VII فى الوقت الذى كان فيه الاتراك قد رفضوا شروط المعاهدة المقترحة للسـلام ، ولم يجـدوا امامهم أى صعوبة تعوق توغلهم داخل آسيا الصغرى ·

وكأن هذه الأخطار الحادثة فى الشرق لم تكن كافية ، فقد شهد نفس العام (١٠٧١) سقوط مدينة بارى Bari آخر المعاقل البيزنطية فى الغرب فى جنوبى ايطاليا فى أيدى النورمان · هنا أيضا كان يوجد عدو لايقل خطرا عن السلاجقة ، طموح ، مخاتل ، داهية · فما أن تم للنورمان تقويض السيادة البيزنطية على اليابسة حتى انتزعوا صقلية من أيدى العرب ، ولما كانوا غير

ايران ، ودخل طغرل بغداد سنة ١٠٥٥ لينتهى بذلك نفوذ بنى بويه الشيعى من العاصمة السنيـة ، والذى استمر ما يزيد على قرن من الزمان · ومنذ هذا التاريخ أخذ السلاجقة يحكمون فى بغداد باسم الخلافة العباسية · وقد عاشت الدولة السلجوقية أزهى فترات قوتهـا زمن السلطان الب ارسـلان وابنه ملكشاه ووزيرهما نظام الملك ، حيث امتدت حدود الدولة من خوارزم شمالا الى حدود اليمن جنوبا ، ومن حدود الصين شرقا الى سواحل البحر المتوسط غربا · حتى اذا كانت سنة ١٠٩٢ ومات ملكشاه ، وكان قد سبقه الى الموت قتيلا وزيره نظام الملك ، حتى دخلت الدولة السلجوقية فى طور من الضعف والانقسام بسبب النزاع على العرش ، وينتهى الأمـر بوجود سلاجقة العراق وسلاجقة سوريا وسلاجقة الجزيرة · وقد حدث هذا الانقسام فى الوقت الذى دهمت فيه الحروب الصليبية العالم الاسلامى ، مما كان له أبعد الأثر فى نجاح الحملات الصليبية فى أول الأمر · للمزيد من التفاصيل عن السلاجقة انظر : دكتور عبد النعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق ، دكتور حسن محمود ، ودكتور أحمد الشريف ، العالم الاسلامى فى العصر العباسى ، ص ٥٤٢ ــ ٢٣٦ · المترجم ·

قانعين بذلك الجزء الكبير الذى يشكل الأملاك البيزنطية القديمة فى ايطاليا ، فقد حولوا انظارهم الآن تجاه بلاد اليونان نفسها · ولم يكن امام بسللوس ، حتى وسط مديحه للامبراطور الشـاب ، الا أن يعترف بأن الأمور قد وصلت « الى الدرك الأسفـــل من الانحطاط » وان كان من الصعب ان نعزو ذلك كله الى ميخائيل ومؤدبه ، كما فعل مؤرخ بيزنطى آخـر(١١) · فقد كانت جذور تلك المتـاعب تكمن فى تلك السياسة العقيمـــة التى أديرت بها أمور الدولة فى الداخل وما صحبها من ازدياد نفوذ الاعيان وسلطانهم ، فى نفس الوقت الذى واكب لســوء الحظ ظهور أعداء أقوياء فى الخـارج : الأتراك السلاجقة فى الشرق ، والنورمان فى جنوب ايطاليا ·

٢ ـ إحياء الامبراطورية زمن آل كومنين :

(أ) الكسيوس كومننوس (١٠٨١ ـ ١١١٨) :

باعتـلاء الكسيوس كومننوس Alexius Gommonus العرش فى سنـــة ١٠٨١ قفزت الارستقراطية العسكرية الظافرة الى المقدمة · فمن بين القادة العسكريين المبرزين كان الكسيوس أقدرهم ، ضابطا وسياسيا ودبلوماسيا ، أدت جهوده وحده ونجاحه فى اقامة أسرة على العرش الى تأخير انحلال الامبراطورية الى ما يزيد على مائة سنة آتية ·

وعلى الصفحات الأخيرة لـ « مزمنة » بسللوس تبدو الصعوبات التى كانت تواجه الحكومة فى ستينيات القرن الحادى عشـر وسبعينياته ، رغم انه حاول جاهدا ان يتجاوز عن سيئات أصدقائه وحماته ، أسرة دوكاس · أما المشاكل الملحة التى عنت لألكسيوس فقـــد تضمنها ذلك التقرير الذى كتب عن عهده بيد ابنته الاميرة انا كومننا Anna Comnena وهكذا تنعكس بكيفية تثير الدهشة سمات كل من هاتين الفترتين فى هذين العملين المتقنين والمختلفين : « المزمنة » Chronographia باباطرتها الأحد عشر والامبراطورتين المسنتين بما تثيرانه من ملل وازدراء ، فى فتـــرة لاتتجاوز ست وخمسين

---

١١ انظـــر John Seylitzes, History (Migne, Patrologia G. vol. 122. col. 846).

وقارن Michael Psellus, Chronographia, trans. E.R.A. Sewter, p. 284 (ch. 7).

سنة فقط ، وال « ألكسياد » Alexiad التى تحتلها شخصية رئيسية واحدة لـ « أبى الامبراطور » الذى ظل يحـكم بلا انقطاع طيلة سبع وثلاثين سنة قبل أن يتوفاه الموت عام ١١١٨ ٠

شغل ثلاثة من أفراد آل كومنين ، الأب والابن والحفيد ، الفترة ما بين عامى ١٠٨١ ـ ١١٨٠ ،وكانت شخصياتهم ومنجزاتهم تظهر للعيان خادعة ، اذ عصبوا أعين الناظرين عن تلك التغييرات الجوهرية فى العالم البيزنطى ، فقد ولى النظام الحكومى والدفاعى السابق ، وازداد نماء العناصر الاقطاعية والانفصالية ، ذلك أن الحقبة البيزنطية المتأخرة كانت تمثل عصر الأرستقراطية العسكرية الاقطاعية ، حيث بات واضحا أن الزعامة العسكرية والسياسية التى تنتمى الى العائلات الثرية من كبار ملاك الأراضى ، هى وحدها القادرة على استخدام مثل هذه الموارد المتاحة ، وهى التى مكنت بيزنطة فى زمن معين من أن تحافظ الى حد ما على مكانتها فى مواجهة القوى اللاتينية والصقلبية المتزايدة ، والتصدى للحكام المسلمين فى الشرق الأدنى ٠

ولم تكن انا كومننا مبالغة عنـدما قالت على لسان الكسيوس : « لقد وجدت الامبراطورية محاطة من كل ناحية بالبرابرة ، فى الوقت الذى نضبت فيه مواردها تماما ٠٠٠ ولعلـكم تعرفون جميعا تلك الهجمـات التى يقـوم بها الفرس (الأتراك) واغارات السكيزيين Scythians (البشناق Patzinaks) ، ولا يمكن أن يكون قد غاب عن ذهنـكم تلك الرماح التى شحذت ضدنا من لونجبـارديا(١٢) Longobardia (الاقليم البيزنطى القـديم فى جنـوب ايطاليا) ٠ ولم تكن المسألة بقاصـرة على خزانة خاوية وجدها الكسيوس ، أو عملة انهارت قيمتها ، أو حكومة تقوض سلطانها ، بل فوق كل هذا حلقة من الاعـداء تحيط بالامبراطورية فى ايطاليا والبلقان وآسـيا الصغرى ٠ على أن الخطر المـدلهم فى زمانه كان يكمن بصفـة اساسيـة فى الغرب (النورمان والمدن البحرية الايطالية) ، بعد أن كان الضياع قد حـل بالشرق فعلا عند اعتلائه العرش ٠ فقد أصبح الجزء الأكبر من آسيا الصغرى واقعا الآن فى قبضة الأتراك ٠ وكان لهـذه الأحداث آثارها الخطيرة على الموارد

---

(١٢) انظر Anna Comnena, Alexiad. VI. 3 (trans. E.A.S. Dawes. pp. 141 - 142).

الاقتصادية والعسكرية والبحـــرية بالنسبة لبيزنطة . ذلك أن فقدان هذه المنطقة لم يكن يعنى فحسب انحسار الحـدود الشرقيـــة ، بل مزيدا من الصعاب أمام الامبراطورية فيما يتعلق بمسألة التجنيد العسكرى · هــذا العوز فى القوى البشرية ترك أيضـا بصماته الواضحة على القوة البحرية البيزنطية فى وقت كانت الامبراطورية فيـه لا يمكن أن تقـــدم على اهمال أسطولها البحرى أو التجارى · هذا على حين كانت المتاعب الماليـة أمرا مقررا من قبـل ، ولم تكن بحاجة الى مزيد من الانهيار يأتيهــا عن طريق الكساد التجارى أو انخفاض الرسوم الجمركية ·

انحصر اهتمام الكسيوس بادىء ذى بدء فى السياسة الخارجيـــة خاصة الناحيـة الدفاعيـــة ســواء بالوسائل الدبلوماسية او العسكرية ، ذلـك انه توج فى أبريل ١٠٨١ وما لبث أن دخـــل فى مفاوضـــات مـــع السلاجقـــة فى آســـيا الصـــغرى « الأتراك الملاحـــدة »(١٣) من منطقة تمركزهم الآن فى نيقية Nicaea ، وكان كل ما استطاع التوصل اليـــه فيما يتعلق بهذه الناحيـة الاعتراف بادعاءاتهم فى آســـيا الصغرى على أمل أن يوقفوا زحفهم داخلها حتى يصبح مطلق اليـد فى مواجهة الهجوم النورمانى · وكان النورمان بعد أن أمنـوا مواقعهم فى جنوب ايطاليا ، قد اتجهـوا الآن تحت رعاية روبرت جويسكارد Robert Guiscard ناحيـــة بيزنطة(١٤) ، رغبة منه فى أن يصبح امبراطورا رومانيا · « حقيقة انجبته نورماندى ،ولكنه نشأ وترعرع بيد الآثام »(١٥) ومما لاشك فيه أن البيزنطيين

---

(١٣) راجع حاشية ١٦ ص ١٤٧ · المترجم ·

(١٤) للوقوف على أصل النورمان وهجراتهم واستقرارهم فى جنوب ايطاليا وصقليـة ومشروعاتهم الواسعة للأستيلاء على الأراضى البيزنطية بما فيها القسطنطينية ·

انظر Haskins, The Normans in European history, pp. 1 - 51, 192 - 250.

وأيضــا D. Douglas, William the Conqueror, pp. 15 - 30

و Thompson & Johnson, op. cit., pp. 142, 385,

وأيضــا Pirenne, op. cit., pp. 178 - 179. المترجم ·

(١٥) Anna Comnena, op. cit., p. 26 (1 - 10).

تقبلوا بصـــدق ذلك الوصف الذى جـرى به قـلم انا كومننا عن روبرت جويسكارد ، ولم تكن تعوزهم الأسباب لذلك ، فقـد هاجم جويسكارد بلاد اليونان ومقدونيا محققا بعض النجاح رغم الجهـــود المشتركة التى بذلها البنادقة مع الكسيوس . ولم يؤد موته المفـاجىء عام ١٠٨٥ الا الى تأجيل الصدام فقط بين القسطنطينية والنورمان . وقد كشفت هذه الأحداث بجلاء عن عوامل معينة تعد على قدر كبير من الأهمية فى مستقبل العمل الدبلوماسى البيزنطى ، فالقـــوى الصغيرة والعـديدة فى منطقـة البلقـان كانت على استعداد لاعطاء ولائها لمن يدفع بسخاء ، ولهذا كان لابد ان تراقب باهتمام . واصبح من الضرورى معالجـة ذلك العجز الذى يعتور البحـرية البيزنطية بمساعدة القوى البحرية المجاورة مثل البندقية ، مع العـــلم بأن ذلك كان شيئا باهظ التكاليف . فقد كان على الكسيوس أن يمنح البنادقة امتيازات تجارية واسعة داخل الامبراطورية كلها ، الى الحد الذى اضحوا فيه أعلى كعبا من التاجر البيزنطى العادى . وكان هـذا غرسا لبذور المشاكل التى آتت اكلها فيما بعد حسدا بيزنطيا لهؤلاء المتطفلين اللاتين ، فى الوقت الذى اثارت فيه حفيظة منافسى البندقية من المدن الايطالية الأخرى ودفعتهم للعمل من اجل الحصول على حقوق مماثلة لقاء ما يقدمونه من خدمات .

وبوفاة جويسكارد سنـة ١٠٨٥ ، وهزيمة البشناق الساحقة فى عام ١٠٩١ ، وانقسام سلطنة السلاجقة الروم فى آســيا الصغرى عقب وفاة سليمان(١٦) ، اصبح المجال مفتوحا امام الكسيوس ليبذل كل جهده لاستعادة بعض أراضى الامبراطورية . غير ان الأوضاع مالبثت أن تغيرت بشـــكل جذرى بالنسبة للبيزنطيين والأتراك على السواء بفعل القنبلة التى فجرها الغرب ممثلة فى الحملة الصليبية الأولى .

ويكمن السبب الرئيسى لذلك العداء المتبادل بين اليونان والصليبيين

---

(١٦) هو سليمان بن قطلمش ، أول من تولى سلطنة سلاجقة الروم ، وقد توفى عام ١٠٨٦ ، وخلفه ابنه قلج ارســلان وتعرضت السلطنة آنذاك الشقاق . انظر دكتور سعيد عاشور ، الحركة الصليبيــة الجزء الأول ، ص ١١٩ ,Runciman. op. cit. I, pp. 64 - 65 المترجم .

اللاتين فى تلك الهوة الواسعة التى تفصل بين أهداف كل منهم . فالحركة الصليبية فى الغرب لقيت التشجيع من جانب أعلى سلطة كنسية هنـــاك : فقد بشر بهـا ودعا اليهـا البابا أوربان الثـــانى Urban II فى مجمع كليرمونت الذى عقد فى عم ١٠٩٥ ، ورغم أن الأراضى المقدسة قـــد ظلت لقرون طويلة فى أيدى الكافرين(١٧) ، الا أن حركة الحج المسيحى سارت قدما واطرادا الى الاراضى المقـدسة . والآن اتجهت الحماسـة الدينيـة المضطرمة فى العالم اللاتينى لطرد المسلمين من هـــذه المناطق ، بالاضافة الى سحر اكتساب أراض جديدة ، واعتبارها منفـذا للمشروعات البحرية والاستعمارية . وكان من الطبيعى أن تتوق البابوية فى ثوبهـا الاصلاحى الى تحرير بيت المقدس ، ولكنـه ليس ببعيد أيضا أن يكون عقلها قد احتوى فكرة مد نفوذها الكنسى الى الشرق حتى يلتئم ذلك الصـدع الرسمى بين كنيستى روما والقسطنطينية .

وكان الكسيوس نفسه يرغب فى القضاء على هذا الشقاق ،وقد أبدى فى احدى رسائله الى أوربان الثانى دهشته فى اسقاط اسم البابا من الصلوات والقداسات ، وأعلن انه ما من شك فى أن المياه يجب أن تعود الى مجاريها . ومع ذلك فانه كان يأبى تماما التسليم بامتداد السلطان البابوى الى اقاليم تابعة أصلا لاسقفيات أخـرى . يضاف الى هـذا انه قد أظهر من حين لآخر رغبته الاكيدة فى الحصـــول على جماعات من المرتزقة أو قوات احتياطية من الغرب ، لا لكى تذهب مباشرة الى بيت المقدس ، فقد كانت لديه احتياجات اكثر الحاحا تتعلق بالامبراطورية نفسها أولا . وكانت التقاليد الامبراطورية والاحتياجات الملحـة تجعـل من المستحيل على امبراطور بيزنطى أن يدرك مغزى حملة صليبيـة فى الشعور الغربى ، ذلك أن الشـرق الرومانى كان يختلف عن الغـرب على الاقـــل فى ناحيتين اساسيتين : فالحـــرب مع الكافرين(١٨) كانت قـد أصبحت بالنسبة لبيزنطة ، ولزمن بعيد ، ضرورة يوميـة تدور رحاها بصفة اساسية نتيجـة اعتبـارات تتصـــل بالسياسة الامبراطورية . ولذا فان الزحف مباشرة الى بيت المقدس كان يعد ضربا من

---

(١٧) انظر حاشية ١٦ ص ١٤٧ . المترجم .

(١٨ ، ١٩) انظر حاشية ١٦ ص ١٤٧ المترجم

العبث ، اذا ما كان يعنى ترك مؤخرة الجيش فى آسيا الصغرى دون حماية كافية . وكان من الضرورى ، اذا رئى ذلك ، التوصل الى اتفاق مع المسلمين اذا مادعت الاحـــداث فى مناطق اخـرى الى مثله ، كاشتعال الثـورة فى البلقان ، او قيـام النورمان بهجوم غادر ، وفوق هـذا وذاك فان الظروف الجغرافية والتقاليد كانت تؤكد بجلاء أن الحرب مع الملاحدة(١٩) فى آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين انما تقع فى المقام الأول على كاهل الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وليست مسئولية العالم المسيحى بعامة .

من اجل هذا لم يكن غريبا أن تنشا الصعاب ، غير انه نتيجة للسياسة الحكيمة والدبلوماسية التى اتبعها الكسيوس ، أمكن عبـور الصليبين الى آسيا الصغرى مع تجنب الصـدام بين الطـرفين . ولا شك ان عبور هـذه الجماعات ، سواء كانوا من الحجاج غير المسلحين (وهم غالبا من الرعاع) او القوات الاقطاعية ، كان يتطلب توفير السفن والغذاء والادلاء والحراس ، مما القى بدوره تبعات جسيمة على الأقاليم والموارد البيزنطية . ولـما كان الكسيوس يرتاب فى نيات الزعماء اللاتين فقـد حاول توضيح موقفه وتأمين مركزه بان ينتزع منهم يمينا بأنهم سـوف يعيـدون للامبراطورية الرومانية كل المدن والقرى والقلاع التى يستولون عليها والتى كانت قبلا تحت السيادة الامبراطورية(٢٠) » . ولعبت الأقدار بالأتفـاق مع الأدلاء البيزنطيين دورا كبيرا فى عبور القوات الصليبية آسيا الصغرى والتوغل فى شمال سوريا ، حتى اذا نجح الصليبيون فى احتلال انطاكيـة عام ١٠٩٨ كان ذلك نقطـة تمثل مفترق الطرق وتميط اللثام عن الأهداف والسياسات العدائيـة ، فقد كانت انطاكية قبل ذلك بقليل تحت السيادة البيزنطية(٢١) ، ومن ثم توقع الكسيوس أن يعيدها الصليبيون اليه ، ولكن شيئا من هذا لم يحـدث ، اذ أصبحت فى حوزة بوهمند Bohemund ابن عدوه اللدود روبرت جويسكارد ، والذى أقام لنفسه امارة انطاكية . وقد أعقب ذلك مزيد من النجاح للقوات

---

(٢٠) انظر Anna Comnena, op. cit., p. 261 (X, 9).

(٢١) كانت انطاكية قد خضعت للدولة البيزنطية ابان التوسـع الذى شهده القرن العاشر واوائل الحادى عشر زمن الأسرة المقدونية . وقد استمرت تحت أيديها حتى استردها السلاجقة ثانية عام ١٠٨٥ . المترجم .

الصليبيـة حيث تمكنت من تاسيس امارة الرها Edessa ومملكة بيت المقدس واخيرا امارة طرابلس(٢٢) ٠

كان بوهمند فى نظر القسطنطينية وغد هذه الناحية ، فقد كان من غير المؤكد منذ اللحظة الأولى لظهوره على مسرح التـاريخ فيها ، انه يحمل فى نفســه اية « امنيات طيبة للامبراطورية الرومانية » ٠ وبصفات جمعت بين الاقدام فى تردد والخبث والحقد ، راح بوهمند يتنازع مع جيرانه الصليبيين والأتراك والبيزنطيين على قدر سواء ٠ ولما اضطر للعودة الى الغرب من اجل الحصول على المدد ، لعب دورا كبيرا فى نشر تلك القصة التى تشيع أن البيزنطيين قد غدروا بالصليبيين ، بل انه اقترح على البابا غزو القسطنطينية نفسها ٠ ومن ثم فلا ريب أن تاكدت الشكوك البيزنطية ٠ وقد هاجم بوهمند بلاد اليونان سنة ١١٠٧ ولـكنه هزم وازداد مركز بيزنطة هنـاك رسوخا ، وتمكن الكسيوس من تحقيق التوازن فى البلقان ، ذلك انه باعترافه باهمية الدور السياسى الذى تقوم به هنغاريا فى البلقان وبحر ادريا ، مهد السبيل لزواج ابنه ووريثه يوحنا من اميرة هنغارية ٠ وهكذا أصبح الآن قادرا على اعداد حملة ضد السلاجقة فى آسـيا الصغرى ٠

ولم تكن الوسائل التى تلجـا اليهـا الكسيوس قاصرة على السياسة والدبلوماسية فى علاقاته الخارجية ، رغم انه عمد الى اثارة بعض القـوى ضد بعضها الآخر ، ولكن فطنته ودهـاءه استخدما بصورة عملية لاعـادة الرخاء فى الداخل ٠ وقـد تركت انا كومننا على صفحات مؤلفهـا صورة للامبراطور تفيض بالود والالفة ، ربعة مكتمل البنيان ، كث اللحية ، فصيحا

---

(٢٢) للمزيد من التفاصيل عن الحملة الصليبية الأولى ومدى نجاحها فى بلاد الشام والعلاقة بين زعمائها والامبراطورية البيزنطية ، انظر اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، لمؤلف مجهول ، وقد نقله الى العربية الدكتور حسن حبشى ، وراجـع للدكتور حبشى ايضا : الحـرب الصليبية الأولى ٠ القاهرة ١٩٥٨ ، دكتور جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى ٠ القـاهرة ١٩٦٧ ، الدكتور سـعيد عاشـور : الحـركة الصليبية الجزء الأول : القاهرة ١٩٦٣ ، ارنست باكر : الحروب الصليبية ، ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى ٠ ص ٢١ ــ ٤٥ ٠
وايضا Runciman, op. cit. I, pp. 121 - 326 المترجم ٠

رغم لثغة لسانه فى حرف الراء ولعثمة خفيفة ، اداريا حازما . يدين لوالدته انا دالاسنا Anna Dalassena بالكثير ، سـواء فى ارتقائه العرش أو فيما بعـد ، فقد كانت امرأة مهيبة تقدم بها السن ، ذات شخصية طاغية ، أعادت القانون والنظام الى البلاط ، فقد وضعت جـدولا صارما للمواعيد يتضمن الصلوات والتسابيح ، ووقتا محددا لتناول الافطار ، وتخمد عند الباحثين عن اللذة مجـرد « النظرة الأولى » • وقـد تلاشت تدريجيا الصـورة التى رسمتها لها انا كومننا على عكس ما جرت به الشائعات فجاة فى وقت لاحق حـول وقوعها تحت تأثير راهب هرطوق ينحـدر من أصل رومانى ، يعبـد الشيطان ويتوجه فى صلواته الى كلب أسود صغير • وكان من الطبيعى أن لا يضخم ذلك فى الـ « الكسـياد » ، حيث كان لابد من ابراز أرثوذوكسية البيت الامبراطورى • لقـد كان الكسيوس على علم تام بكل واجبات منصبه الامبراطورى بما فى ذلك الحفاظ على الايمان الحق •

وفى سبيل مواجهة الاحتياجات المـالية الملحة ، اقدم الكسيوس على رهن « بعض الأمـلاك الكنسية التى لم تكن تؤدى غرضا معينا ، بل جـرت عليها يد الجدب والاهمال ، وكان طبيعيا أن يؤدى هذا الى توتر العلاقة بينه وبين الكنيسة حتى عدل عن ذلك • وقد لجا اكثر من مرة الى تسليم أمـلاك الكنيسة الى العلمـانيين للقيـام بأمرها (وقـد عرف هـذا بـ « هبـة » Charisticium) » ويمكن القول بوجـه عام أن الـكسيوس لم يخـرج عن الاجراءات التقليدية ، وانه ــ شأن سـلفه الأشهر قسطنطين العظيم ــ كان يتوق الى اجتثاث الهرطقة وارساء وحـدة العقيدة فى الدولة • ولقد أدار بنفسه من وراء ستار ، دفة الجدال مع زعماء البوجوميلية الثنويين(٢٣) ، خلال المجمع الذى عقـد لمناقشة تلك الآراء ، وان لم تـكلل جهوده بالنجاح الـكامل ، الا انه كان أسعد حظا مـع بعض الغاوين مثل يوحنـا الايطالى John Italus الذى كان تلميذا متحمسا لأفلاطون وارسطو وقد جيء به لمناقشة الرأى حول خلطه بين الفلسـفة الوثنية والعقيدة المسـيحية ، على غرار ما كان يفعل بعض معاصريه فى الغرب •

---

(٢٣) راجع حاشية ٢ ص ١٥٠ • المترجم •

هكذا كانت تجرى انشطة الكسيوس في الداخل · ولم تكن حياته قاصرة على الحرب والدبلوماسية ، وتجلت فطنته فى سياسته الداخلية التي تركزت بصفة أساسية فى مشاكل المال والدفاع · وقد استخلصت سياسته عظمتها بمهارة فائقة من خلال ذلك الشعب المنكود ، سواء تم ذلك عن طريق الضرائب الباهظة أوالخدمات الالزامية · ولم يعد الجندى الفلاح الصغير يمثل عماد الجيش . فقد اضحى المرتزقة الأجانب او حتى الأهالى ، لزمن طويل ، يعملون فى الخدمة العسكرية ويكونون عنصرا تتزايد أهميته · واستخدم كذلك نظام « الميرة » Pronoia وهو عبارة عن ضيعة تمنح لقاء الخدمة العسكرية أو البحرية · وهذا النظام الذى كان قد جرى العمل به منذ منتصف القرن الحادى عشر ، لم يكن يتضمن آنذاك هذه الالتزامات التى يبدو انها ظهرت لأول مرة فى عهد الكسيوس ، ربما « قبل عام ١١١٩ » · هذا الشخص الموهب يشار اليه غالبا بـ « الجندى » stratiotes وكان يجهز ويعد بصبحة فرقته العسكرية ، وقد جاء أصلا من توليفة اجتماعية تختلف عن الطبقة الأساسية التى ينتمى اليها الجنود المرابطون الفلاحون ، وهو يتسلم دخل الضيعة بما فيه الضرائب والالتزامات الخاصة بمستأجريه · وفى الحقيقة فقد ادى هذا الاجراء المالى الى ايجاد نوع من اهم أنواع الهبة اثارة · كانت تقدم فى هذه الفترة للشخص مدى الحياة دون أن تخضع للتنازل أو الهبة ·

على هذا النحو فضل الكسيوس أن يقيم بصورة محكمة تلك العناصر الاجتماعية التى حاول أباطرة بيزنطة فى الحقبة الوسيطة اخماد جذوتها ، ولعل ابرز ما تتسم به سياسته فى الداخل أو الخارج ، انتصار الأرستقراطية العسكرية ، وفيها تكمن قوتها وضعفها ، لقد كان الاقطاع البيزنطى نتاجا طبيعيا للتطور الداخلى ، ولم يكن واردا أو مقتبسا من الغرب ، ومن المحتمل أن تكون العناصر الصليبية قد تركت بصماتها عليه ، ذلك أن اقامة عدد من الامارات اللاتينية فى فلسطين وسوريا ، وتدفق الفرنجة عبر الامبراطورية البيزنطية خلال القرن الثانى عشر ، يرتبط بجعل الاقطاع الغربى مألوفا لدى البيزنطيين · لقد التقى العالمان وكان لابد أن يأخذ كل منهما عن الآخر· فيمين الولاء الذى انتزعه الكسيوس من الزعماء الصليبيين فى القسطنطينية

يشبه بكيفية مستهجنة ذلك الذى كان يربط بين السيد والفصل(٣٤) ، على الرغم من انه لايتضمن بطبيعة الحال تلك التعهدات التى كان يحتويها عقد الاقطاع الغــربى • لقـــد ارتضى الكسيوس وانتقى احسن الأساليب فى الادارة

---

(٢٤) تعود جـذور الولاء الشخصى فى العلاقة التى تربط بين السيد الاقطاعى والفصل الى أواخر العصر الرومانى وبدايات المجتمع الجرمانى ، ذلك أن النظام الرومانى القديم الخاص بالحماية Patrocinium حيث يحيط احد الأثرياء صاحب النفــوذ نفسه بمجموعة من الأتباع Clientes يعتبر نفسه حاميا لها Patronus وتطلب هى عونه وتأييـــده دافعا لأخطار متوقعة فى الداخل او الخارج ، كان هـذا النظـام سائدا بصفة خاصة فى فترة الفوضى التى تعرضت لها الامبراطورية فى عصرها الأخير • كما أن زعيم القبائل الكلتية من غالة كان يسيطر على مجموعة كبيرة من الأتبـاع يعيشون تحت رعايته وطوع أمره ، كما أن كلمة فصل (Vassal) Vassus من المحتمل انها تعود فى أصلها الى جذور كلتيـه • وكان يطلق على ذلك النظام الذى وجـد عند الجرمان ويختص بالولاء بين المحاربين « الحامية » او « الأتبـاع » Comitatus ومن اهم سـماته التى ظهرت بوضـــوح فى العلاقة الاقطاعية بين السيد والفصـــل اليمين الرسمى بالولاء الشخصى لزعيم الجماعة المحاربة • وكانت العـــلاقة التى تربط بين السيد والفصل فى النظام الاقطاعى الغربى فى العصور الوسطى ، فى جوهرها ذات صفة تعاقدية وان لم يكن ذلك بصورة مدونة فعلا ، ذلك أن السيد كان يتوقع من فصله ان يؤدى له خدمات بعينها وأن يدفع له ضرائب معينة ، وهكذا الفصل كان يرى أن على السيد تجاهه نوعا من الواجبات عليـــه أن يؤديها ، من بينها ان يوفر القوة العسكرية الكافية للدفاع عن اقطاعه وقلعته • للمزيد من التفاصيل عن النظام الاقطاعى فى الغرب فى العصور الوسطى •

أنظر F. Ganchof, Feudalism, 1976

و G. A. Hodgett, A Social and Economic history of Medieval Europe, pp. 24-35.

وانظر ايضا H. Pirenne, Economic and Social history of Medieval Europe, pp. 58-66.

وكذلك Thompson & Johnson op. cit. pp. 2901351

و Stephenson, op. cit. pp. 199-241 وانظر P. Vinogradoff, Feudalism, (C.M.H. vol. III, pp. 458-484) وله ايضـــا بالاشتراك مع الأستاذ كوبلاند : الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوروبا ترجمة دكتور محمد مصطفى زيادة • القاهرة ١٩٥٨ • وللاستاذ كوبلاند كذلك : التقنيـة والاقطاعية (فى تاريخ العالم الذى أشـــرف على نشـــره السيرجون ا• هامرتن • المجلد الخامس . ص ٣ — ٢٢ ، ودكتور اسحق عبيـد : الفرسان والأقنان فى مجتمع الاقطاع • بيروت ١٩٧٥ • المترجم •

الامبراطورية والسياسة الخارجية ، بحيث لم يترك لولده يوحنـا وحفيده مانويل حرية الأختيار ، بل كان عليهما أن يسلكا نفس السبل التى وضعها مؤسس الأسرة ٠

(ب) يوحنا الثانى كومننوس (١١١٨ ـ ١١٤٣) :

ومانويل الأول كومننوس (١١٤٣ ـ ١١٨٠) ٠

فى عام ١١١٨ مات الكسيوس كومننوس ، كما عاش ، محاطا بنسوة ذات شخصيات طاغية ، ولكنه كان حتى اللحظة الأخيرة وهـو على فراش الموت يحتفظ برجاحة عقله ، فرفض الاعتراف بادعاء ابنته اناكومننا بأحقيتها فى وراثة العرش وباعتلاء أخيها ومنافسها يوحنا ، الذى كان لديها مقيتا ، عرش الامبراطورية ، تولت الى الظل موهبتها التاريخية ،ومن ثم فليس هناك تاريخ يجعل من يوحنا الثانى الشخصية الرئيسية على صفحاته ٠ لقد كان حاكما يبعث على التقدير ، تنطوى نفسه على أخـلاق هى النبالة فى حياته الخاصة وبلاطه ، فى حديثه واصغائه ، فى سلوكه وخلاله ٠ وكان اعتداله كما كانت مبادئه ، واضحا بينا (بما يذكرنا بصفات جـدته أنا دالاسنا) ٠ وعلى نفس القدر كان يتمتع بالحذر والمثابرة ممـا جعله قادرا على اتباع سياسة أبيه الكسيوس ٠ لقد كانت الواقعية جوهر سياسته ٠

انقضى القـرن الثانى عشـر تقريبا بين عهدى يوحنا وابنه مانويل ، وشهدت بدايته قيام أسرة كبيرة على العرش تمثل الأرستقراطية العسكرية لكبار ملاك الأراضى ، كما شهدت نهايته الانهيار السريع للأسرة ذاتهـا ، والذى يمكن اعتباره الانحلال الأول للامبراطورية البيزنطية ، وكانت مقاومة اللاتين فى سبيل الابقاء على موطىء القدم الذى انتزعوه بصعوبة فى سوريا وفلسطين ، وابعاد دائرة القوح الاسلامية التى تطبق على اماراتهم الصغيرة المتباعدة ، تسير جنبا الى جانب نضال بيزنطة من أجل الحفاظ على مركزها فى عالم البحر المتوسط ٠

وكان الخط الواضح الذى جرت عليه سياسة يوحنا الثانى ، ومانويل الأول ، الادراك التام أن المطامح البعيدة لحكام صقليـة النورمان ، الذين كانت سياستهم تستهدف غزو القسطنطينية ، أصبح يضطلع بها الآن الملك

الألمانى بربا روسا Barbarossa ، الذى قوى قبضته عن طريق زواج ابنـه هنرى السادس Henry VI من قنسطانسا Constance وريثـة عرش المملكة الصقلية(٢٥) · ولعل الخلاف فى سياسة يوحنا ومانويل حـول الاهتمام بالشرق ، يعود الى اختلاف شخصية كل منهما عن الآخـر ، والظروف التى كانت تحيط بكليهما ، فقد أبدى مانويل اهتماما اكثر من يوحنا بالغرب خاصة ايطاليا ، ولكن هذا لايمكن ان يخفى الحقيقة الواضحة من انهما واجها نفس العدو وانهما استطاعا (رغم الكارثة العسكرية التى حدثت سنة ١١٧٦)(٢٦) تحقيق انتصار كبير فى الشرق ·

تركزت مشكله يوحنا مع النورمان الى حـد ما فى انطاكية الصليبية التى اسسها بوهمند ومازالت تحكم بواسطة اسرة هوتفيل Hauteville ولكنه فى الوقت نفسه كان عليه أن لا يغمض عينيه عما يجرى فى صقليـة ، وأن يرقب بحذر كامل تحركات القوى الأخرى فى الغرب والبلقان وهنغاريا · ومن اجل حماية نفسه فى البلقان اوقع بالبشناق هزيمة قاسية عام ١١٢٢ كانت القاضية ، واجبرت صربيا Serbia على الاعتراف بسيادته ، واقيمت علاقات محـدودة ، ان لم تكن مزعزعة مع المجـر ، وكانت الزوجـة الأولى ليوحنا هنغـارية ، وما أن توج روجر الثانى Roger II ملـكا فى بالرمو Palermo فى سنة ١١٣٠ واصبحت قـوة النورمان فى جنوب ايطاليا لايمكن تجاهلها · كان هذا فى حد ذاته تحـذيرا للملوك الألـمـان والأباطرة البيزنطيين على السواء ، جعلهم يقتربون من بعضهم لمواجهة ذلك العدو المشترك ، وتمثل هـذا فى نوع من التفاهم الذى بقى الى السنوات الأولى من عهد مانويل ، ولقد راح يوحنا يدنو ايضا من البابوية ، واشار فى اكثر رسائله جدلا والتى يعوزها الوضوح ، الى السيفين ، والتى لابد انهـا تعنى أن للبابا السـيادة الروحيـة ، بينما يختص الامبراطور الرومانى (أعنى البيزنطى) بالسـيادة الزمنية ·

لم يكن وضع الصليبيين اللاتين فى الشـرق مأمونا ، حتى دون أن ندخل فى الاعتبار رغبة امبراطور بيزنطى قوى فى اتمام ادعاءاته بالسيادة ،

---

(٢٥) انظر بعده ·

(٢٦) انظر بعده ·

بينما تزنت الممالك المسيحية الأرمينية فى اقليم طورس بصفة عامة اتجـــاه الحداوة الحذرة . فى الوقت الذى حاولت فيــه الامارات الصليبية أن توجد فيما بينهما توازنا كان يبـــدو عسيرا ، وذلك بالحفاظ على مواقع اقدامهم وتوسيع دائرتها ، خاصة وأن الخلافات كانت قائمة بين الأمراء المسلمين ، على حين بدت القسطنطينية منهمكة فى ميدان آخــر • ومع ذلك فانه بمقدم الثلاثينيات اخذت الأخطار تلقى ظلالها ، فظهرت مشــاكل الوراثة فى كل من أورشليم وانطاكية ، حيث توفى حاكماهما ســـنة ١١٣١ دون أن يعقبا وريثا ذكرا ، وفى الشمال كانت قوة زنكى اتابك الموصل تزداد باستمرار ، وفوق هذا وذاك اقدم يوحنــا كومننوس على استخدام الوسائل العسكرية والدبلوماسية للحصــول على نتائج طيبة ليس فقط بين جيرانه فى الشمال والغرب ، بل فى آســـيا الصغرى مع امارة الدانشمنديين Danichmends (الذين كانوا يمثلون فى هذه الفترة عدوه التركى الرئيسى اكثر من سلاجقة قونية Iconium) ، كما انه قام بهجوم ناجح على مملكة ارمينيا الصغرى فى كيليكيا Cilicia •

وفى اغسطس ١١٣٧ اتى الامبراطور البيزنطى انطاكية ، وأكد بنجاح حقوقه فى السيادة على حاكمها الفرنجى زوج الأميــــرة النورمانية وريثة أنطاكية • وكان من الأهمية بمكان فيما يتصل بذلك الصدع الهائل الحادث فى القضيــة المسيحية أن يوحنا لم يستطع أن يحرز أى تقـــدم عملى تجاه الملحدين(٢٧) فى شمال سوريا ، ويعود ذلك فى الدرجة الأولى الى الافتقار الى المساعدة اللاتينية • وفى سنــة ١١٤٤ ، وهى السنة التى أعقبت موته المفاجىء نتيجة جــرح اصابه اثناء رحلة صــيد ، تمكن زنكى المسـلم من الاستيلاء على الرها ، مما كان دافعا لقيام الحملة الصليبية الثانية الفاشلة عام ١١٤٧(٢٨) •

---

(٢٧) انظر حاشية ١٦ ص ١٤٧ المترجم •

(٢٨) قوبلت انباء سقوط الرها فى أيدى المسلمين بردود فعل عنيفة فى الأوساط الأوروبية ، فقد عهد البابا الى القديس برنارد St. Bernard بالدعوة لحملة صليبية جديدة وقد كتب برنارد يقــول انه نتيجة لاستجابة المسيحيين فى الغرب لدعوته ، اقفرت المدن والقرى من ساكنيها ، حتى أن

وسط هذه الأحداث انتقل التـــاج البيزنطى الى مانويل الابن الرابع ليوحنا وشان بطل الملحمة البيزنطية ديجنيس اكريتاس Digenis Akritas سيد البر الذى يعـــود فى أصله الى شعبين ، كان مانويل كومننوس ينتمى لعالمين • وليس من حق الخيال أن يسبح متصـــورا فارقا كبيرا او تناقضا مع اباطرة الأسر السالفة مثلجوستنيان او قسطنطينالسابع بورفيروجنتيوس، فقـــد كان مانويل حاكمـــا بارعا ، جنـــديا ودبلوماسيا ورجـــل دولة ، اقتنع بصلاحية ذلك التقليد البيزنطى الممتد عبر هـــذه القرون الطويلة عن السيادة العالمية واصلة العرف الامبراطورى • بيـــدى حماسا غير محدود للرهبانية (فى مكانها الصحيح) واهتماما بالغا بالجدال اللاهوتى • وقـــد كانت امه هنغارية ، وازواجه من الغرب ، أولاهن برتا Bertha من سولزباخ

ملكين من اشـــهر ملوك اوروبا انذاك ، امكن استمالتهما لحمـــل الصليب هما لويس السابع Louis VII ملك فرنسا وكونراد الثالث Conrad III ملك المانيا • وفى ربيع ١١٤٧ قاد الملكان قواتهما عبر الطريق البرى القـــديم الذى سلكه الصليبيون فى اتجاه الدانوب الى القسطنطينية • وسار الجيش الألمانى قدما حتى يتجنب الاتصـــال بالجيش الفرنسى ، ولم يترك قرية أو مدينة مر بها الا اتى عليها تخريبا وتدميرا ، حتى أن جيش الفرنسيين الذى سلك نفس الطريق من بعد ، كان يعانى المجاعة لاقفار هـــذه المناطق على أيدى الجيش الألمانى الذى تركها قاعا صفصفا • وكان الامبراطور البيزنطى قد اخذ حذره فأمر باعداد التحصينات اللازمة للتصدى لهذا الخطر ، خاصة وان لويس السابع ملك فرنسا كان على صلة وثيقة باشهر اعـــداء بيزنطة روجر الثانى ، الذى قام اثناء سير هذه الحملة بحصار الجزر البيزنطية فى البحـــر الأدرياتى وغزا بلاد اليونان وخـــرب طيبة وكورنثة واثينا ، وعلى اية حال فقد وصل الملكان بلاد الشـــام عام ١١٤٨ ، حيث استقبلهم الأمراء الصليبيون بفتور واضح • وكل ما استطاعت ان تفعله الحملة أنهـــا القت حصارها على مدينة دمشق دون أن تنجح فى اقتحام المدينـــة • وقد كتب كونراد الثالث يصف الهجوم على المدينة بما يدل على مدى التخاذل والتفرق والخيانة بين الأمراء الصليبيين وانفسهم • وقـــد حاول الصليبيون نفس المحاولة مع عسقلان ، غير انهم لم يكونوا اسعد حظا منهم عند أسوار دمشق وهكذا حققت حملة الصليبية الثانية فشلا ذريعا •

أنظر Runciman, op. cit. II, pp. 247-278

والدكتور سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، الجزء الثانى ص ٦٢١ ــ ٦٣٧ ، ارنست باركر : الحروب الصليبية . ص ٩٠ ــ ٩٦ • المترجم •

Sulzbach أخت زوجة كونراد Conrad الملك الألمانى ، ثم مارى Mary فاتنة انطاكية ، وقد شجعت التجــارة ،وحسن الادارة والظروف السياسية على تدفق عدد كبير من الغربيين على حوض البحر المتوسط الشرقى ، وعلى الامبراطورية البيزنطية نفسها • بل ان الكثيرين منهم قـد آثروا الاستقرار هنـاك ، وعلى الرغم من أن مانويل كان على معرفة تامة بقدر الامبراطورية البيزنطية الا انه كان يحمل فى نفسه هوى معينا تجاه اللاتين وعاداتهم ، وغالبا ما كان يرى وهو يمارس حياة عادية بعيدة عن الأشكال الرسمية فى قصر بلا خرنى(٢٩) Blachernae فى القسطنطينية ، بل لقــد شارك بنفسه فى المبارزة ، وخطــا خطوات واسعة فى سبيل توطيد صداقته بالغربيين ، ولعل أوضح الأمثلة على ذلك علاقته مع بلدوين الثالث Baldwin III ملك بيت المقدس وكونراد الثالث ملك المانيا • وكان يبعث البهجة فى نفوس أصدقائه برقى سلوكه وحسن ضيافته (والتى اخذت شكلا عمليا ، حيث كان على قدر كبير من المعرفة الطبية ، فراح يرعى كونراد الثالث عنـدما نزل به المرض سنة ١١٤٧) وهكذا فقد كان عهــده فى بعض جوانبه يبشر بالعالم الايجى للعصور الوسطى المتأخرة •

ومع هذا فان مانويل كان فى تحيزه الى جانب اللاتين يبغى اتقـــاء خطر أعدائه من ناحية الغرب ، خاصة وأن مشاكله كانت فى جوهرها هى التى واجهت من قبل اباه وجده • ولقد أورد المؤرخ نيقتاس الخونياتى(٣٠)

---

(٢٩) أحــد القصور الامبراطورية الشهيرة ، اقيم على أحـــد تلال القسطنطينية الذى تشغله ضاحية تحمل نفس الاسم وتقع على القرن الذهبى، والى جوار القصر توجد كنيسة العذراء ، وهذه المنطقة يقوم فيها الآن حى « الباب المائل » (Egrtkapou ,Eyri kapu •

أنظر Millingen, Constantinople, pp. 28, 53 المترجم •

(٣٠) هو نيقتاس أكوميناتوس Nicetas Acominatus ، اشتهر باسم نيقتاس الخونياتى نسبة الى مدينـــة خوناى Chonae فى فريجيا بآسيا الصغرى ، ويحتل مكانة مرموقة من المؤرخين فى القرن الثانى عشر وبداية الثالث عشر • ولد حوالى منتصف القــرن الثـانى عشـر وارتحـل الى القسطنطينية حيث تلقى تعليمه تحت رعاية أخيه الأكبر ميخائيل . وبينما سلك الأخيـر درب الدراسات اللاهوتيـة والمناصب الكنسية حتى أصبح رئيسـا

Nicetas Choniates في كتابه السابع الكثير حول هـــذا الموضوع بالذات وحول كياسة مانويل السياسية · ولابد أن العجب كان سيأخذ بفكره لو أنه قرأ حكم بعض الدارسين المحدثين القائل بأنه « اذا كان هناك أحد يمكن أن يلقى على اكتـافه تبعات كارثة سنة ١٢٠٤ فهو مانويل كومننوس » ، لقـد أوضح نيقتاس أن مانويل كان ينظر بعين الاعتبار الى القـوة الهائلة للدول اللاتينية ، شـأن المزارع الفطن الذى يحـاول أن يقتلع الأشواك وهى بعـد صغيرة ، وأبان أن الامبراطور كان يخشى أن تجد الامبراطورية نفسها وقد اصبحت بغير حليف في مواجهة ذلك الائتلاف الغربى القـــوى ، ولو قدر لسفينة الدولة أن تفقد ربانها ، أعنى مانويل ، لابتلعها اليم · هذا الحديث الذى جرى به قلم نيقتاس خونياتس كتب بعد النازلة التى حلت بالامبراطورية عام ١٢٠٤ · وكان نيقتاس يعلم جيدا ما الذى يحدث عنه ·

على أننا نجـد فى سياسة مانويل الكثير من الأمـور التقليدية ، ومع ذلك فقد كانت لها بعض الملامح غير العـــادية التى اثارت كوامن الطموح الجامح غير الواعى وخاصة فيما يتعلق بمشروعاته الايطاليـة ، ولكن يبدو أن الظروف التى احاطت به لم تترك له مجالا للاختيار بل املت عليه ماظهر واضحا فى سياسته تجاه الغرب ، فقد كان من الأمـور الجوهرية أن يحقق مانويل نوعا من التعايش السلمى Modus Vivendi مع القوى الغربية ·

لأساقفة أثينا ، اختار نيقتاس ميـدان الدراسات الانسانية ، وحقق فى ذلك نجاحا كبيرا واكتسب تقدير واحترام اسرة انجيلوس ، بحيث اصبح مقربا من البلاط ووصل الى أعلى المنـاصب · ولما سقطت القسطنطينية فى أيدى الصليبيين سنة ١٢٠٤ خرج منها كارها حيث وجد مأواه عنـد اباطرة نيقية ، وقد رد عليه الامبراطور ثيودور لاسكاريس مكانته واحترامه ، وعاش مكرما حتى مات فى نيقيـة سنة ١٢١٠ · ومن اشهر الأعمـــال التى خلفها لنـا Historia فى عشرين كتابا تتناول الفتـرة الممتـدة من اعتـلاء يوحنا كومننوس العرش وحتى الأيام الأولى للامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية (١١١٨ ـ ١٢٠٦) · ويعتبر « تاريخ » نيقتاس عملا فريدا لايدانيه آخـر فى المعلومات التى يقدمها من عهدى مانويل ، واندرونيكوس ، واسرة انجليوس ، والحملة الصليبية الرابعة ، والاستيلاء على القسطنطينية ·

أنظر Vasiliev, op. cit. II, pp. 492-495

و Baynes & Moss, op. cit. pp. 237, 265-266

وأيضا Runciman, op. cit. pp 13, 122-123 المترجم ·

بدأ مانويل سياسته بتدعيم التحالف الذى كان قائما بين أبيه والمانيا ، وان كانت عدواتهما المشتركة لملك النورمان لم تترجم الى واقع عملى فى الغرب نتيجة للحملة الصليبية الثانية التى دعا اليها فى اكتئاب برنارد Bernard قديس كليرفو Clairvux بسبب تحطيم امارة الرها الصغيرة ، وقد حمل كونراد الثالث • الحليف الألمانى لمانويل ، الصليب وشاركه فى ذلك الملك الفرنسى لويس السابع الذى كان صديقا لروجر Roger ملك النورمان فى صقلية ،وقد كان معروفا أن هذين الملكين يشغلان نفسيهما بالنقاش حول الرغبة فى الاستيلاء على القسطنطينية كنوع من فتح الشهية لوجبتهم الدسمة التى سوف يلتهمون فيها الشرق • غير أن الحملة الصليبية الثانية لقيت الفشل الذريع ، نتيجة الخلاف المستمر بين قائديها من ناحية ، ومن الأخرى انها وجهت كل قواها ضد دمشق ، التى عادة ما كانت تربطها علاقة المودة مع الصليبيين ، بدلا من الاتجاه ضد حلب فى الشمال حيث يكمن التهديد الحقيقى ممثلا فى نور الدين احد أبناء زنكى • والذى ما أن وافى عام ١١٥٤ حتى استولى على دمشق ، وسرعان ماترددت أصداء اجراس الفناء للممالك الصليبية ، عندما نجح قائداه شيركوه وصلاح الدين فى السيادة على مصر ذات الموقع الاستراتيجى الممتاز(٣١) • ولن تلبث

---

(٣١) كان ملوك بيت المقدس يدركون أن توحيد مصر والشام تحت قيادة اسلامية واحدة سوف يضع الصليبيين فى موقف حرج • ولهذا قام بلدوين الثالث بالاستيلاء على عسقلان سنة ١١٥٣ للوقوف فى وجه نور الدين محمود اذا فكر فى الزحف على مصر • بل ان فكرة الاستيلاء على مصر من جانب الصليبيين كانت واردة فى حساباتهم منذ قيام مملكة بيت المقدس الصليبية • وقد عجلت الأحداث فى مصر بوقوع الاصطراع بين نور الدين والصليبيين من أجل الفوز بها ، حيث كنت الخلافة الفاطمية قد غلت ايديها بفعل وزرائها • وقد شهد عهد العاضد الفاطمى آخر الخلفاء المرحلة الأخيرة أيضا من التنافس القائم فى الداخل وصولا الى كرسى الوزارة بين شاور وضرغام • فلما نجح الأخير فى خلع منافسه ، استنجد شاور بنور الدين محمود ، الذى أسرع بارسال قواته وعلى رأسها أسد الدين شيركوه وابن اخيه صلاح الدين ، وتمكنت الحملة من القضاء على ضرغام ، الذى كان بدوره قد بعث يستنجد بملك بيت المقدس عمورى Amalaric • غير أن شاور لم يف بعهوده لنور الدين ؛ وراسل عمورى الذى جاء بجيشه الى

حلقه الحصار الاسلامى أن تطبق على الصليبيين عندما يتمكن صلاح الدين من توحيد الامارات الاسلامية ٠

وفى الوقت الذى كانت تجرى فيه أحـــداث الحملة الصليبية الثانيـة هذه ، كان الامبراطور البيزنطى يحاول جاهـدا أن يبقى ولو على الأقـــل على اتصال بالأحداث التى تدور فى الشرق ، ولكن نشاط النورمان العدائى كان يسبب له أرقا دائما ، فقد هاجم روجر الثـــانى بلاد اليونان ، وجرت محاولة اثارة المتاعب والاضطرابات فى المجر وصربيا ٠ ورغم هذه الحملة الصليبية الثانية ، فقد حافظ مانويل على أواصر الصداقة مع كونراد الثالث، بل تمكن أيضا بمساعدة البنادقة من استعادة كورفو Corfu من النورمان ٠ وتصور مانويل بوضوح مـدى فعاليـة السياسة الامبراطورية فى استرداد

مصر ٠ عام ١١٦٤ وحاصر قوات شيركوه فى بلبيس ، ثم تم الاتفاق بينهما على أن يرحلا معا عن مصر ٠ وقد أدرك الجانبان أهمية مصر ومن ثم فان نور الدين لم يلبث أن بعث قائده من جـديد سنة ١١٦٦ ، فلحق به عمورى بناء على استصراخ شاور ، وقد توغل الفريقان جنوبا حتى قرية « البابين » قرب المنيا ، حيث دارت معركة هزم فيها الصليبيون وارتدوا الى القاهرة ، بينما زحف أسد الدين شيركوه الى الاسكندرية ، وعلى الفور جمع عمورى قواه وفرض الحصار على المدينة ، وتم الاتفاق للمرة الثانيـــة على جلاء الجيشين عن مصر ، وان كان عمورى قد حصل على بعض الامتيازات هذه المرة ٠ وقد اتفق عمورى مع الامبراطور البيزنطى على ارسال حملة مشتركة للاستيلاء على مصر ٠ ولكنه قاد جيشه فجأة دون انتظار لوصول القـــوات البيزنطية ، واتجه الى مصر ، وأحدث مذبحة مروعة فى بلبيس ، ولم يجد شاور وسيلة لوقف هذا الزحف الا باشعال النيران فى القسطاط ، وقد ظلت النار تأكلهـــا طيلة أربعة وخمسين يوما ، وكتب العاضد بنفسه الى نور الدين يستصرخه ، وعلى هذا النحو قدمت القـوات النورية للمرة الثالثـة بقيادة شيركوه وصلاح الدين ، وتم لها الانفراد بالسيطرة على مصر وقتل شاور وتولى شيركوه الوزارة ٠ انظر : ابن شـــداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفيـــة ، ص ٣٦ ــ ٤٠ ، الدكتور نظير سعداوى : التـاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، ص ٧ ــ ١٥ ، الدكتور عبد المنعم ماجد : الناصر صلاح الدين الأيوبى ٠ ص ٩١ ــ ٦١ ، الدكتور سعيد عاشور : الحـــركة الصليبيـــة ، الجزء الثـــانى ٠ ص ٦٧٩ ــ ٧٩١ . Runciman, op. cit. II, pp. 362 - 400 المترجم ٠

ايطاليا او جزء منها مدومدى الدسائس الغربية التى تحــول دون ذلك · وقد جاء فى التقرير البيزنطى عن المعاهــدة التى وقعت مع كونراد فى سالونيك Thessalonica سنة ١١٤٨ ان « الامبراطور ذكره (كونراد) بتلك المسائل التى تعهد آنفا بتنفيذها ، يعنى أنه سوف يسترد ايطاليا كبائنة للامبراطورة ايرين(٣٢) Irene التى باعتبارها تمت اليه بصلة النسب ، قد خطبها الى الامبراطور ، غير أن هــذه الفقرة من التقرير لم ترد فى المصادر الغربية ، وتدور أهميتها اساسا حول ماتعنيه كلمة « ايطاليا » · هــل تعنى جنوب ايطاليا فحسب أم ايطاليا كلها ·

وفى عام ١١٥٢ مات كونراد ، ولم يكن خليفته فردريك الأول Frederick I يرغب فى الاتفاق مع الامبراطور البيزنطى ، حيث كانت لديه فكرة السيطرة بنفسه على ايطاليا ، بما فيها المملكة الصقلية فى الجنوب ، وقد وعد البابا يوجنيوس الثالث Eugenius III بأنه لن يتخلى عن « اية منطقة » على هذا الساحل لملك اليونان · ومن ثم فان مانويل مالبث ان شن هجومه فى ايطاليا بمساعدة الثائرين النورمان عقب وفاة روجر الثانى مباشرة سنة ١١٥٤ · وقد وجد مانويل نفسه محاطا بالخصــوم من كل جانب حيث وقفت ألمانيا منه موقفا عدائيا ، وتزايدت الشكوك ، وقام وليم الأول ملك النورمان بهجوم مضاد ، ولم يكن الامبراطور بقــادر على تدعيم مكاسبه فى أبوليا بالعون العسكرى أو البحرى ، وامست نقــوده ودبلوماسيته عاجزة عن تحقيق أى شىء · غير انه فى سنة ١١٥٨ وقعت الامبراطورية البيزنطية هــدنة مدتها ثلاثين سنة مع الملك النورمانى · ولا شك أن مانويل قد أدرك الآن عــدوه الحقيقى ، فخلال سنى حكمه الأخيرة كان فردريك بربا روسا Frederick Barbarossa يمثل خصمه العنيد ·

فشل مانويل فى سياسته الايطالية ، واثارت هــذه السياسة موجات كثيرة من السخط والاعتراض . كما أن موارده الماليــة لم تكن لتسمح بأى

---

(٣٢) وهى برتا من سولزباخ ، سميت بايرين عنــد زواجهــا من مانويل ·

نوع من الاحيـــاء للامبراطورية الرومانية ، وهنـا فقد قاد مانويل طموحه لمحاولة تحقيق مشروع خيالى اثبتت الأحداث انه يعد ضـــربا من المستحيل شأن ما كان يحلم به الصليبيون فى سوريا وفلسطين · هــذا الاتجاه كان قصير الأمد ويجب عدم المبالغة فى دلالته · وعلى أية حال فان الدبلوماسية الكامنة وراء ذلك لم تكن جوفاء ، فلو أن بيزنطة كانت تبغى تدعيم نفوذها وسط هذه التحالفات الأوروبية المعقدة المتشابكة ، لكان عليها أن تناور من اجل الحفاظ على مركزها ، ومواجهة أعدائها الذين لم يكن هناك ادنى شك فى حرصهم على غزو بلاد اليونان التى تعد جزءا من الامبراطورية ·

وعلى العكس من ذلك ، كللت جهود مانويل فى الشـــرق بالنجاح الى حد بعيد فقد واصل هنا سياسة أبيه من قبـــل · على نفس النحو فى عداوته مع النورمان فى ايطاليا ، غير أنه اذا كانت العراقيل قـد جابهته فى الغرب نتيجة قوة فردريك بربااروسا المتزايدة ، فان الأحداث فى الشرق قـد ساعدته بسبب ضعف الامارات الصليبية اللاتينية · فقـــد راح مانويل ، كما فعل يوحنـا ، يؤكد سيادته أولا على الأمير الأرمنى فى كيليكيا (سنة ١١٥٨) · ثم توجه تلقاء انطاكية ، عندما كان على رينالد Reynald ، زوج أميـــرة انطاكية ، أن يعترف بسيادة مانويل ، وأن يسعى الى معسكره وقـــد طوق عنقه بحبل · وكان خضوع انطاكية على هـــذا النحو يمثل المذلة بعينها ، وتمثل ذلـك ليس فقط فى التعهد بتقديم العون العسكرى للقسطنطينية ، بل امتد الى ذلك الحق الذى كان معقد الفخار ومثار الجدل وهو رسامة بطريرك ذلك الكرسى الأسقفى العتيد ، وكان هذا يعنى أسقفا يونانيا · وقـد ترك دخول مانويل انطاكية سنة ١١٥٩ انطباعـا هائلا على نفوس معاصريه ، وهم يرونه يمتطى صهوة جواده الذى ازدان بكل الأشعرة الامبراطورية ، يتبعه (من بعيد) بلدوين الثالث Balduin III الذى قدم الى الشمال ووضع نفسه تحت حماية مانويل ، « لقد استحث من بيت المقدس خطاه وجاءنا يقر بسيادة الامبراطور » بينما سار أمير انطاكية بحذاء جـواد مانويل · وقد بدا الأمر على هذا النحو كما لو كانت السيادة البيزنطية سوف تحقق شيئا من الالتئام والوحدة للشرق المسيحى وتتوج الدبلوماسية الهادئة والجهود العسكرية لالكسيوس الأول ويوحنا الثـــانى · ولعل ابرز مايوضح المكانة التى ارتقاها مانويل فى الشـرق الصليبى ، أن يحتل اسمه مكان الصدارة

فى سجل كنيسة الميلاد فى بيت لحم عام ١١٦٩ ، ليليـة من بعــد ملك بيت المقـــدس •

وتمكن مانويل من أن يحــرز نجاحا مماثلا على الجبهة الشمالية عند هنغاريا ، حيث سعى ، شأن أبيه ، للتدخل فى النزاع الدائر من حول العرش، بل لقـد خطا هنـا خطوات واضحـة حيث وضع نصب عينيه السيطرة على المنطقة كلهـا ، فاقترح حلا جديدا لانهـــاء العـــداوة القديمة بين المجــر والقسطنطينية ، وذلك عن طريق زواج وريث العرش الهنغارى « بيلا » Bela من ابنة مانويل ، وأن يخلع عليه لقب « السيد » Despot وأن يعتلى من بعد العرش الامبراطورى • وهكذا وضع مانويل خطته كى يدخل هنغاريا ضمن دائرة الامبراطورية ، الى أن تغيرت هذه الخطط بمولد ابنه • وقـــد ساعد بيلا عند اعتلائه العرش ، فضمن بذلك توطيد نفوذه هناك • ولازمه التوفيق أيضا فى صربيا حيث نجح فى ابقاء ســـيادته على ستفن نمانيا Stephen Nemanya مؤسس أشهر أسرة حكمت صربيا ، « الزوبان الكبير »(٣٣) the Grand Zupan ودشن ذلك بدخوله القسطنطينية بصورة مسرحية تشبه تلك التى اداها من قبل عند مجيئه الى انطاكية •

لكن على الرغم من توالى انتصارات مانويل ، الا أن مركزه اصبح أشد حرجا ، فقد اضيرت البندقية بصفة خاصة الى حـد كبير من جراء ازدياد سلطته فى البلقان ، وضم الساحل الدلماشى ، وهجومه على انكونا Ancona وانعكس ذلك فى محاولة مانويل تدعيم مركزه بالتحالف مع جنوه Genoa فى عام ١١٦٩ وبيزا سنة ١١٧٠ • وساد الامبراطورية كلهـا شعور العداء تجاه البندقية التى كانت امتيازاتها التجارية تمثل عبئا ثقيلا وتلقى استياءا شديدا • وفوق هذا فقد تزايد الشعور ضـد اللاتين بصفة عامة ، وفى سنة

---

(٣٣) عاش الصرب ــ على عكس البلغار ــ حتى القرن الثانى عشر فى اقاليم منفصلة ، يطلق على كل منها اسم زوبى Zupy على رأس كل منها زوبان Zupan • حتى اذا كان هذا القرن الثانى عشـر ، أقاموا أول وحدة سياسية جمعتهم تحت زعامة ستفن الذى أصبح الزوبان الكبير •
انظر Baynes & Moss, op. cit. pp. 358-359, Vasiliev, op. cit. p. 609 المترجم •

١١٧١ قبض على كل البنادقة وصودرت بضائعهم وسفنهم وكان لابد أن تندلع الحرب بين الطرفين ، ولم تعد العلاقات بينهما الى ما كانت عليه الا بعد أن أعيدت الامتيازات ثانية ودفعت التعويضات ربما على عهد أندرونيكوس الأول Andronicus .

واكب نجاح مانويل فى الشرق اللاتينى وهنغاريا ، تدهور مستمر فى نفوذه فى الغرب حيث اكتسب عداء البندقية . وفشل فى تحقيق التعاون مع البابوية ، وابتلى بعدو ماهر حقود هو فردريك بربااروسا الذى دفع سلطان قونية الى الثورة ضد مانويل ومد له يد المساعدة ، ولقى مانويل نتيجة لذلك هزيمة ساحقة عند ميرْيوكفالوم Myriocephalum فى أسيا الصغرى سنة ١١٧٦ . ووسط نشوة النصر هذه أرسل فردريك الأول الى مانويل رسالة تقطر احتقارا تتضمن خضوع ملك اليونان Rex Grecorum للامبراطور الرومانى ، وأعلن فردريك نفسه وريثا للأباطرة الرومان ، وادعى ان ذلك يتضمن السيطرة على « المملكة اليونانية » regnum Greciae . هكذا أودت مشروعات مانويل بموارده المالية وبرهنت على استحالة السيطرة على كل من أوروبا والشرق الادنى فى مواجهة الدول الغربية المسيحية الناشئة ، وطوق القوى الاسلامية . ولكن هذا لاينفى ان انجازاته ، خاصة فى مجال الدبلوماسية ، تستحق التقدير . كما أن سياسته الخارجية رغم ما يمكن أن يقال عن أنماطها التقليدية ، تظهر بعض الملامح والسمات الأساسية ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك محاولته غزو الأملاك الامبراطورية القديمة فى ايطاليا عن طريق العمل العسكرى المباشر . أو مشروعه الجديد بالاعتبار (وذلك قبل أن يولد له ابنه) والخاص بتوحيد عرشى المجر والامبراطورية فى شخص صهره بيلا . أو حتى فى اقتراحه الخيالى على البابا اسكندر الثالث Alexander III باعادة الوئام بين الكنيستين اليونانية واللاتينية فى مقابل التأييد البابوى لاعادة توحيد الامبراطورية .

أما فى الداخل ، فان الحالة الاقتصادية للامبراطورية ، وتزايد الهوة بين المستأجرين والطبقة العسكرية الحاكمة ، والضرائب الباهظة ، وتسرب التجارة الى أيدى التجار الاجانب ، وهبوط الرجال الأحرار الى مرتبة القنية بل حتى الى مستوى العبودية كل هذا كان مصحوبا بالسير السريع نحو

نظام اقطاعى أضعف سلطة الدولة ، ولقد كانت حكومة مانويل الشخصية الفائقة ، بل يمكن القول حقيقة أنها سياسة اباطرة آل كومنين الثلاثة ، الكسيوس ويوحنا ومانويل هى التى حفظت امبراطورية كانت الأحداث قد اثبتت أن الزمن قد عفا عليها رغم ما كانت تؤديه كدولة حاجزة . وكموطن لحضارة متميزة ٠

٣ ـ الانحلال الأول :

باختفاء مانويل الأول صاحب الشخصية القوية الجذابة ، واعتلاء ابنه القاصر الكسيوس الثانى Alexius II العرش ، برزت بوضوح الاتجاهات التى كانت قائمة في الحياة البيزنطية فى القرن الثانى عشر ٠ فاكتملت صورة الخطر اللاتينى ، ليس فقط بهجوم من الخارج ، بل بتسرب ماكر فى الداخل ٠ فقد امتلأت بيزنطة باللاتين على اختلاف نوعياتهم ، من المعدمين الى التجار الثقاة ، هذا الى جانب ارتباط بعض العائلات الاقطاعية فى الغرب بروابط الدم أو الصداقة مع البلاط البيزنطى ٠ ولقد كان واضحا تماما أن سلطان الأسرة المالكة للأراضى على عهد آل كومنين قد ازداد قوة وفعالية ، ويعزى ذلك جزئيا الى ما حصلوا عليه هبة من اراض فيما عرف بنظام « الميرة » Pronoia وهى الهبة التى عادة ما كانت تحمل معها المزيد من الحقوق والامتيازات المالية والقضائية ٠ هذا النظام الذى كان قائما وراء الحدود انتشر فى الامبراطورية مع سنة ١٢٠٤ حيث أحس الصليبيون عقب استيلائهم على الأراضى أنهم كما لو كانوا فى ديارهم ، ولم يبد البيزنطيون فى بلاد اليونان من جانبهم أى صعوبة فى فهم وضعهم باعتبارهم اتباعا لسادتهم اللاتين ٠

لقد كان مانويل كومننوس حاكما ودودا ، يتحرك بحرية بين اليونان واللاتين سواء ، ولكنه كان عاجزا عن مساندة المد المرتفع لموجة العداء تجاه اللاتين أو التصدى للتضاؤل المستمر فى السلطة المركزية ٠ وبموته غدا ضعف الامبراطورية البيزنطية واضحا للعيان وضوحه فى الامارات الصليبية اللاتينية فى سوريا فلسطين ٠ فقد راح كلاهما يهوى حقيقة خلال زمن يسير . وان تباينت الأسباب عند كل منهما : الامبراطورية نال منها

الغرب المسيحى ، والامارات الصليبية غلبها على امرها عدوها المسلم القوى صلاح الدين ·

لم يلبث حكم ذلك القاصر وامه اللاتينية الكريهة لدى الجميع أن انتهى بمقتلهما على يد اندرونيكوس الأول Andronicus · ابن عم مانويل ولم يحدث أن التقى اندرونيكوس بمانويل ابدا ، بل عاش حياة ملؤها القلق طاف فيها قصور الحكام فى الشرق الأدنى · وبسحره الذى يذهب بالألباب وفتنته ، اوقع فى هـواه ثيودورا كومننا Theodora Camnena أرملة بلدوبين الثالث ملك بيت المقدس ، واغراها بالهروب معـه · ولما كان رجلا طاعنا فى السن (بلغ من العمر خمسة وستين عاما عند اعتلائه العرش) فقد استطاع أن يكسب حب وعطف الفرنسية اليافعة ، ذات الثلاثة عشر ربيعا ، اجنى انا Agnes Anna ويتزوج منها بعد أن قتـل زوجها الصبى الكسيوس الثانى · كان اندرونيكوس يمتلك الشجاعة لما هو مقدم عليه ، وقد عاد ثانية الى اتباع سياسة الحقبة البيزنطية الوسيطة · غير انه كان من الصعب حتى على باسل الثانى نفسه أن يحقق نجاحا ما عند نهاية القرن الثانى عشر ، فكيف واندرونيكوس لم يكن يمتلك جلد باسل ومقدرته على ضبط النفس · وقد اتجهت سياسته اساسا الى تطهير الادارة ، واقتلاع العناصر اللاتينية فى الامبراطورية وتدعيم السلطة المركزية بتقليم اظافر الارستقراطية العسكرية · ولكن ايا من نواحى سياسته هذه كان يذهب سدى نتيجة أساليب التعسفية الهوجاء · وقد شهدت القسطنطينية قبل مقدمه اليها هجوما عنيفا شنه الدهماء فى العاصمة على كل الأجانب المقيمين بها بلا تمييز ، « اولئك اللاتين الملاعين » · ولم يتوان اندرونيكوس عن ايجاد نظام للحكومة المركزية والولايات لاصلاح الادارة ، وكان الشعار الذى اتخذه لنفسه فى هذا العمل « اذا لم تقلع عن فساد الادارة حرام عليك الحياة » · واقدم على سحب الامتيازات التى كانت قد منحت لكبار الملاك ، ولما كان يخشى على حياته ، لم يجد بدا من اللجوء الى العنف ، واتخذ موقفه تجاه العائلات الكبيرة شكل الاعدام والابادة التامة ، وهكذا جردت الامبراطورية من القادة العسكريين الذين كانت الدولة فى اشد الحاجة اليهم ·

شملت السياسة العدائية لأندرونيكوس كلا من القوى الغربية التى كان من الضرورى التوصل الى تراض معها ، والأرستقراطية الزراعية التى كان لدى أفرادها وجدهم الموارد التى تمكن الدولة من انجاز مهامها الدفاعية ٠ وقد قامت المجر بهجوم استولت فيه على دلماشيا واجزاء من كرواتيا Croatia وسيرميوم Sirmium ، وتنكر ستفن نمانيا ملك الصرب (راسكا Rasca [الجبل الأسود] وزيتا Zeta) لولائه السابق ، واحتل الصقليون النورمان كورفو والجزر اليونانية الأخرى ثم زحفوا لنهب سالونيك (عام ١١٨٥) ٠ اما فى داخل الامبراطورية فان موجة العداء الكامنة فى نفوس كبار الملاك الزراعيين قد عبرت عن نفسها بجلاء على يد احد افراد اسرة كومنين نفسها ، وهو اسحق Isaac الذى اقام نفسه حاكما مستقلا فى قبرص ، ويعد هذا دليلا واضحا على الاتجاهات الانفصالية الدقيقة فى بيزنطة والتى قفزت الى السطح خلال الحملة الصليبية الرابعة وما بعدها ٠

ولا شك ان الرعب الذى اتسم به عهد اندرونيكوس وانباء الانتصارات التى حققها النورمان ، مهدت السبيل فى العاصره لسقوط اسرة كومنين فى عام ١١٨٥ ٠ وشغل العرش البيزنطى خلال الفترة الممتدة ما بين عامى ١١٨٥ ، ١٢٠٤ بافراد من بيت انجلوس Angeli الذين لم يكن لأحد منهم حسن سياسة يوحنا او مانويل كومننوس ، وان لم يكونوا فى ذواتهم غير ذى قيمة على الاطلاق ٠ غير ان الفساد القديم عاد القهقرى الى الحكومة ٠ والآن ازدادت اعداد الثيمات Themes على الرغم من انها كانت قد تقلصت عن سابق شكلها كوحدات ادارية قوية ٠ اما الخطر الحاسم فقد تمثل الآن فى الضيعة الكبيرة الخاصة ونظام « الميرة » Pronoia ، وزاحمت سلطة كبار الملاك الأقوياء سلطة الحاكم الاقليمى ٠ وكان هذا أرهاصا بما سوف يشهده العصر الوسيط المتأخر من الامارات او الاقطاعيات المستقلة ٠

وفى الشمال ، فشلت بيزنطة فى اخماد جذوة الوطنية او الاتجاه الانفصالى فى بلغاريا منذ ادمجت عام ١٠١٨ فى الامبراطورية ٠ فقد قامت مملكة مستقلة ، هى الامبراطورية البلغارية الثانية على يد الزعماء المحليين الذين ربما انحدروا من اصل بلغارى ـ ولاشى Bulgaro—Wallachian ودعوا انفسهم اباطرة لكل بلغاريا وولاشيا ووجدوا تأييدا من كثير من

العناصر المتبرمة ، وقد اعلنوا سخطهم سنة ١١٨٥ لعدم منحهم هبات معينة فى صورة « ميرة » Pronoia حيث يمكننا ان ننظر الى هذا النوع من الهبة هنا ، ليس باعتباره نمطا من الاتجاهات الاقطاعية ، بقدر ما هو محاولة لترضية هؤلاء المتبرمين ، ويمكننا ان نلاحظ ان هـذه الهبات لم تكن تمنح فقط لملاك الأراضى البيزنطيين ، او السادة اللاتين الاقطاعيين مثل عائلة مونتفرات Montferrat بل الى عناصر الكومان Cumans فى البلقان ، وهم الذين كانت ثرواتهم تنحصر اساسا فى القطعان وليست الأرض ٠ وقد عجز الامبراطور البيزنطى اسحق الثانى انجلوس Isaac II Angelus عن اخماد الثورة ، وتم تتويج آسن Asen « امبراطورا » بلغاريا فى سنة ١١٨٧ على يد اسقف ترنوفو Trnevo وهى الأسقفية التى دشنت حديثا ٠ ولعل ما كان يجرى فى البلقان الآن على هـذا النحو يعد دليلا واضحا على التفسخ الحادث فى الامبراطورية ، ومدى قوة الأعيان المحليين ٠

اتخذ التهديد اللاتينى شكلا مزدوجا ، فالغزاة النورمان الذين قاموا بهجومهم عام ١١٨٥ ، وعاودوا إغارتهم الآن ثانية على اليونان وخربوا سالونيك ٠ غير انهم طردوا من اليابسة ،حيث لم تكن الامبراطورية قد فقدت تماما كل قواها العسكرية ، ولكنهم احتفظوا بجزيرتى كفالونيا Cephalonia وزاكينثوس Zacynthus ٠ يضاف الى هذا ان التهديد تمثل من جديد فى حملة صليبية اخرى ، جاءت فى وقت كانت فيه بيزنطة تعانى الضعف من جراء حرب اهلية وحملات عسكرية فى البلغار وبلاد اليونان . وامبراطور لا يمتلك المقدرة الكافية لإدارة أمورها ٠ وكان على بيزنطة ان تواجه بهذا الوهن فى سنة ١١٨٩ اقتراب مجىء الحملة الصليبية الثالثة التى تم تجهيزها عقب سقوط بيت المقدس سنة ١١٨٧ ٠

كان وضع الشرق اللاتينى قد اخذ يترنح منذ الحملة الصليبية الثانية فى عام ١١٤٧ ٠ فقد عجزت مملكة بيت المقدس ، بعد سلسلة من الملوك ذائعى الصيت ، عن اقامة اسرة مستقرة فى الحكم ٠ كما ان الصراع المستمر بين بيزنطة واللاتين ، وبين هؤلاء وانفسهم ، جعل من المستحيل تحقيق مكاسب جديدة ٠ ولم تفعل حملة جديدة(٣٤) قادها ثلاثة من ملوك

(٣٤) ارتاعت اوروبا ، والبابوية بصفة خاصة . لدى سماعها بالنبأ =

. . . .

استرداد المسلمين لبيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبى سنة ١١٨٧ . وقد هيء لهذه الحملة منذ البداية كل أسباب النجاح ، غير أنهـا كانت تحمل معها أيضا بذور فشلها . فقـد كان على رأسها أعظم ملوك أوروبا آنذاك ، فردريك بربا روسا امبراطور المانيا ، وفيليب اوغسطس ملك فرنسا ، وريتشارد الأول (قلب الأسد) ملك انجلترا . وهذا التشكيل القيادى فى حـد ذاته كان عنوانا بارزا على النتائج التى لابد أن تنهى اليهـا الحملة من فشل ، فالعداء كان كامنا فى نفوسهم جميعا تجاه بعضهم البعض ، كما أن شعوبهم نفسها لم تكن تحمل لبعضهـا أى نوع من دلائل المودة . وليس أدل على ذلك من أن الملك الألمانى اتخذ سبيله عبـر الطريق البرى الى القسطنطينية ، التى كانت ترتعد فرقا وهلعـا من المصير الذى ينتظرها لو تخلى فردريك عن صليبيته وعاودته فكرة السيطرة على العاصمة البيزنطية ، غير أن الجيش الألمانى عبر البسفور الى آسـيا الصغرى حيث لقى فردريك مصـرعه غرقا فى أحد انهار كيليكيا ، فانفرط بذلك عقد الجيش الألمانى ، حيث عاد عـدد كبير من فرسـانه الى بلادهم ، بينما انضمت فلوله تحت زعامـة دوق سوابيا الى القـوات الانجليزية والفرنسية امام اسـوار عكا . حيث كان الجيشـان ، الانجليزى والفرنسى ، قد القيا مراسيهما هناك سنة ١١٩١ بعد أن استولى ريتشارد فى طريقه على قبرص . وقـد ظل الصليبيون على حصارهم لعكا قرابة عام كامل حتى سقطت فى النهاية رغم مابذله صـلاح الدين من جهود لتقوية وتدعيم حاميتها وتحصيناتها . وكان احتلال عـكا وتدمير عسقلان هى النتيجة النهائية التى تحققت على يد ثلاثة جيوش أوروبية . ولم يلبث فيليب أن عاد الى فرنسا ، تاركا ريتشارد وحده فى الشرق . ورغم أن الملك الانجليزى قد قام بعدة أعمال عسكرية خلعت عليـه لقب « قلب الأسد » . الا انه فشل فى استرداد بيت المقدس ، وانتهى الأمر بعقـد صلح الرملة مع صلاح الدين سنة ١١٩٢ ،ليعود بعد ذلك ريتشارد الى بلاده ، وليقع أسيرا فى يد الملك الألمانى هنرى السادس اثناء عودته ، على أن أهم النتائج التى ترتبت على هذه الحملة ، ما تولد لدى أوروبا من اقتناع كامل بأن مصر هى التى تلعب الدور الرئيسى فى فشل هذه الحملات ، وانه لابقاء للامارات الصليبية فى الشام الا بالاستيلاء على مصـر ، وهذا ما حاولته الحمـلات التالية انظر Runciman, op. cit. III, pp. 3 - 75 والدكتور سعيد عاشـور . الحركة الصليبية ، الجزء الثانى ص ٨٣٧ ــ ٩٠١ . ارنست باركر : الحروب الصليبية ص ١٠٩ ــ ١١٩ . الدكتور نظير سعداوى : المصدر السابق ص ٢١٥ ــ ٢٦٣ F. Barlow, The Feudal Kingdom of England, pp. 353-66

المترجم .

أوروبا الغربية شيئا لتحسين هـــذه الأوضاع المتردية ، على الرغم من أن ريتشارد الأول Richard I ملك انجلترا ، الجنـــدى المقتـدر السياسى الأريب عند الضرورة ، كان قادرا على توقيع معاهـدة مع صـــلاح الدين سنة ١١٩٢ ، استخلص بهـا شريطا ساحليا ضيقا يتضمن عـكا وصور ، والسماح للمسيحيين بزيارة الأماكن المقدسة · ولقد كانت رحلات الصليبيين سـواء تلك التى جاءت عن طريق البر أو التى اتخـذت سبيلها فى البحر ، تمثل للبيزنطيين نحسا وقدرا مشئوما · فقـد سلك الألمان سبيل البحر عبر البلقان ، وأدت عداوة مليكهم فردريك بربـاروسا ، العدو الكنود للبيزنطيين ، الى حالة من التوتر الشديد الى الحد الذى طلب الى البابا أن يبارك حملة صليبية ضد الامبراطورية البيزنطية · ولكن موت فردريك المفـاجىء فى آسيا الصغرى عـام ١١٩٠ منح بيزنطة فرصـة موقوتة · أما ريتشارد ملك انجلترا فقد ركب البحـر وهو يحمل فى نفســه قـدرا متساويا من النوائب للقسطنطينية ، حيث استولى فى طريقه على قبرص من اسحق كومننوس ، وهكذا انتقلت الجزيرة ، التى كانت قد خرجت من قبل عن سلطان الحكومة المركزية ، من أيدى اليونان الى قبضة اللاتين ·

ارتد فشل الحملة الصليبية الثالثة الى بيزنطة · فقـد أصبح واضحا مدى الصعوبات التى تعترض طريق الحفاظ حتى على ماتبقى من الامارات الصليبية فى سـوريا وفلسطين ، وراح اللاتين يعيـدون النظر ثانيـــة فى خططهم ويقلبون وجوههم هنـا وهناك واصطبغ مفهوم تجريد حملة صليبية ضـد الخارجين عن الايمان فى ذهن العالم المسيحى المعاصر ، بفكرة أن أية دعوة صريحـة بالتخلى عن الجهــاد لا يمـكن أن ترد على بال · ودارت المناقشات البراقة ، ووجدت المادة المناسبة التى تستطيع أن تقـدم الدعم للقيام بهجوم على القسطنطينية كخطوة أولى نحو تحقيق تقدم فعال · وكان الغرب قد اعتاد لزمن بعيد أن يعزو فشـل الحملات الصليبية الى العـداء المزعوم من جانب البيزنطيين الذين يفترض فيهم الغدر والخيانة ·

تزعم الملك الألمانى هنرى السادس Henry VI ابن بربـاروسا ، القيادة الآن ، وكان يعتبر وريثا للنورمان الصقليين فى أكثر من ناحية · فمن طريق الزواج أصبح له حق السيادة على أملاكهم وقد تمكن فى سنة ١١٩٤ من

القضاء على خصومه حيث تم تتويجه فى بالرمو • واظهر ميله الطبيعى والتقليدى لاتباع سياستهم الشرقية التى كانت تأخذ بين يدى الامبراطورية الغربية شكلا اكثر طموحا ، لايقبل بغير السيطرة على العالم المسيحى • وكانت الخطوة الأولى فى سبيل ذلك غزو بيزنطة أو بتعبير آخر السيطرة عليها • وواتته الظروف عندما اطيح باسحق الثانى من فوق العرش سنة ١١٩٥ ، وكانت ابنته قد تزوجت من فيليب Philip اخى هنرى فاتخذ من تلك الأحداث تكئة للتدخل فى شئونها ، وطالب بجزية ضخمة من الذهب عرفت فى بيزنطة بالضريبة « الألمانية » • اما بالنسبة للشرق الأدنى فقد كان هنرى يعد لحملة صليبية جديدة ، وحصل على اعتراف بسيادته من قبرص وارمينيا الصغرى • غير أن مشروعاته هذه طواها الزمن بموته سنة ١١٩٧ • فحرم ذلك القضية الصليبية من زعيم كان يبدو قادرا على توحيدها وتوجيهها • ولكن هذا ايضا لم ينج القسطنطينية •

الفصل الرابع

الصدام بين الشرق والغرب

١٢٠٤ ـ ١٤٥٣

١ ـ الغدر اللاتينى والدبلوماسية البيزنطية
(١٢٠٤ ـ ١٢٦١)

٢ ـ التنافس المسيحى والحروب الاهلية البيزنطية
(١٢٦١ ـ ١٣٥٤)

٣ ـ الغزو التركى وسقوط بيزنطة
(١٣٥٤ ـ ١٤٥٣)

الفصل الرابع

الصدام بين الشرق والغرب

١٢٠٤ ـ ١٤٥٣

١ ـ الغدر اللاتيني والدبلوماسية البيزنطية :

١٢٠٤ ـ ١٢٦١

كانت مصر أول أهداف الحملة الصليبية الرابعة ، ولكن وجهتها وليت أولا الى زارا Zara المدينة المسيحية الواقعة على الساحل الدلماشي ، والتى كانت البندقية تعتبر نفسها أحق بالسيادة عليها من المجر التى تنافسها ذلك الادعاء . ثم اتجهت بعدئذ الى القسطنطينية بحجة اعادة امبراطورية اسرة انجلوس المخلوع الى عرشه(١) ، وليس من العسير تعليل تحويل وجهة هذه

---

(١) اقدم الكسيوس الثالث Alexius III على عزل اخيه اسحق الثانى انجلوس فى سنة ١١٩٥ ، بعد ان سمل عينيه ، وزج به وبابنه الذى يسمى هو الآخر الكسيوس فى احـــد الأديرة ، غير أن الكسيوس الابن تمكن من الفرار بعـــد مضى سنوات قليلة ، الى صهره فيليب السوابى ملك المانيا ، يطلب اليه تقديم العون لاستعادة العرش . ولـما كان فيليب مشغولا انذاك فى صراع عنيف مع أوتو دوق برنسويك من أجل العرش الالمانى فقد أرسل سفارة من لدنه الى الصليبيين فى زارا يدعوهم للابحار الى بيزنطة لاعادة الكسيوس الصغير وابيه اسحق الثانى الى العرش ، وهم فى طريقهم الى الشرق . وفى مقابل ذلك تعهد الكسيوس بتقديم تنازلات فادحة ، حيث وافق على ضم الكنيسة الشرقية الى كنيسة روما ، وأن يدفع الى البنادقة ما تبقى من دين لهم عند الصليبيين (٣٤٠٠٠ مارك) ، وان يقدم الأموال والعتـاد والمؤن وعشرة الاف مقاتل للمساهمة فى قهـر سلطان الايوبيين فى مصـر والقضاء على قوتها العسكرية . وأن يجهز خمسمائة جندى للعمل كحرس دائم فى الاراضى المقدسة واذا كان هذا هو السبب المباشر الذى قاد الحملة الصليبية الرابعة الى القسطنطينية ، الا أنه لم يكن السبب الرئيسى . فقد لعبت البندقية ودوجها هنرى داندلو H. Dandolo دورا بارزا فى تغيير خط سير الحملة ، وكان لديهـا من الاسباب الكثير الذى دفعها الى ذلك .

الحملة الى عاصمة الامبراطورية البيزنطية . ولكن الذى يثير الدهشة أن يتأخر ذلك الى هذا الوقت · فالبندقية بدافع الحقد والحسد لمنافستها فى الشرق ، كانت ترغب فى تأمين تجارتها ، بالاضافة الى امتعاضها من من المحاولات البيزنطية الأخيرة للحد من امتيازاتها الواسعة · هذا الى أن القوى الأخرى فى الغرب ابدت استياءها ازاء شعور العداء السائد ضد اللاتين · يضاف الى ذلك ما شاع وتأصل فى نفوس الغربيين من أن البيزنطيين مسئولون مسئولية كاملة عن الاخفاق الذى لازم الحملات الصليبية. ولم يكن الاستيلاء على القسطنطينية فكرة مستحدثة ،وقد بدت الآن بوجه خاص فكرة تجذب الاهتمام فى حينها · ومنذ البداية كان هناك عامل دنيوى يلعب دورا بارزا فى الحركة الصليبية الغربية ، والآن بات واضحا أن الامبراطورية البيزنطية تقدم لحركة الاستعمار اللاتينى ميدانا اكثر امنا واوفر ربحا من فلسطين وسوريا غير أن احتلال القسطنطينية والتقسيم الجزئى للامبراطورية البيزنطية كان يحمل فى طياته على المدى الطويل آثارا بعيدة وخطيرة على القضية الصليبية · فقد حولت الصليبيين الغربيين عن سوريا وفلسطين ، والأهم من ذلك ، انها وسعت الصدع بين شطرى العالم المسيحى فى الشرق والغرب ، مما ادى بالتالى الى ازدياد الخلف بين القوى المسيحية التى راحت تزداد ضعفا فى مواجهة عدو ملحد(٢) أشد خطرا هو الاتراك العثمانيين

استغلت الحملة الصليبية الرابعة بلا هوادة صعاب اباطرة اسرة

للمزيد من التفاصيل عن الحملة الصليبية الرابعة انظر : مذكرات روبرت كلارى Robert Clari الذى شارك فى هذه الحملة منذ بدايتها · وقد نقلها الى العربية مع مقدمة وافية الدكتور حسن حبشى تحت عنوان « فتح القسطنطينية » القاهرة ١٩٦٤ · وانظر كذلك : شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ، ترجمة دكتور احمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر ص ٣٩ ــ ٤٨ ، الدكتور اسحق عبيد : روما وبيزنطة ، ص ٣٠٥ ــ ٣٥٢ ، ودكتور سعيد عاشور ، الحركة الصليبية . الجزء الثانى ص ٩٢٩ ــ ٩٤٠ ، ارنست باركر : الحروب الصليبية ، ص ١٢٠ ــ ١٣٤ ، وايضا Runciman, op. cit. III, pp. 107-131

و Stephenson, op. cit. pp. 411-415

و Thompson & Johson. op cit. pp. 540-547 المترجم ·

(٢) راجع حاشية ١٦ ص ١٤٧ المترجم ·

انجلوس الذين كانوا غير قادرين بالمرة على الوفاء بالتزاماتهم المالية ومساعداتهم العسكرية · فتم الاستيلاء على القسطنطينية عنوة من جانب المسيحيين اللاتين ، وما لبثت أن تعرضت للنهب والسلب بعدئذ ، وأقدم « الصليبيون » على تقسيم العاصمة ، أو بالأحرى ما تبقى من الامبراطورية البيزنطية فيما بينهم ، ثم بدأوا فى الغزو المنظم لما منح لهم من أراض جديدة لم يفرضوا عليها سيطرتهم بعد · ونتيجة لذلك فقد ظهر الى الوجود امبراطورية لاتينية وعدد من الامارات اللاتينية · وخلال فترة قصيرة من الزمن تمكن اللاتين من السيطرة على تراقيا وسالونيك والجزء الاكبر من بلاد اليونان وعدد من الجزر فى بحر ايجة · وقد قسمت هذه المناطق فيما بينهم جميعا مع ما ظهر لديهم من اهداف متعارضة حول الادعاءات الاقليمية والامتيازات التجارية ، متبعين فى ذلك سياسة كانت غالبا ما تختلف تماما فى الأيام الأولى على أية حال ، مع الرغبات الأكثر مسالمة لدى الكرسى الرسولى · ولم يستطع هؤلاء اللاتين أن يقدموا بديلا عمليا عن الحكم الأوتوقراطى لامبراطور فرد ، وراحت أراضيهم خلال العصور الوسطى المتأخرة تلتهم تدريجيا بأيدى جيرانهم العديدين وبصفة خاصة الصرب والبيزنطيين والاتراك العثمانيين ·

ولكن اللاتين مع ذلك كانوا عاملا مؤثرا فى العالم الايجى طيلة ما يقرب من قرنين ونصف من الزمان · فالمنافسة السياسية الضارية صحبتها الاتصالات الشخصية المثمرة ، والاهتمام المتبادل بالحضارات الخاصة بكل منهما ، والاختلاط الذى لايمكن تجنبه ، حيث شهد القرن الثالث عشر البلاط الفرنجى فى كل من أثينا Athens وطيبة Thebes والبلوبونيز Peloponnese يهنأ بحياة متألقة وان كانت قصيرة العمر ·وقد حاول السادة الجدد فى مجموعهم أن يتعاملوا بحكمة واعتدال مع رعيتهم المقهورة ، فاستمر كثير من كبار ملاك الأراضى اليونان يحتفظون بأملاكهم ، ولكن باعتبارهم أفصالا لسادتهم الغربيين : ذلك أن النظام الاقطاعى ، كما يفهمه الغرب ويمارسه ، انتقل الى بلاد اليونان · وقد راح وليم فيلهاردوان William Villehardouin (توفى عام ١٢٧٨) الحاكم الفرنسى للبلوبونيز ، وقد وقع أسيرا فى يد البيزنطيين ، يوضح للامبراطور البيزنطى أنه يستطيع دفع فدية ، ولكن لايمكنه

التخلى عن أراضيه الفصلية ، حيث يقول ، « سيدى الامبراطور ، هب أنى أمضيت فى سجنك ألفا من السنين ، فلست بقادر على أن أغير من وضعى شيئا . لقد تم الاستيلاء على المورة Moresبقوة السلاح .. على يد ابى وأصحابه والشجعان الآخرين من رجال فرنسا ، وقد تداولوا الحكم فيما بينهم طبقا للقانون ووفقا للتقاليد التى تقضى بأن الأرض يرثها ذرياتهم »(٣) وكانت القلاع التى اضطر وليم فى النهاية لتسليمها الى ميخائيل الثامن Michael VIII هى تلك التى استولى عليها بنفسه (مثل ميسترا Mistra أو مونمفازيا Monemvasia) ، ورغم أن الامارات اللاتينية الكبيرة لم تعمر طويلا . الا أن اللاتين حافظوا ، أو امتلكوا ، عددا من المواقع الاقتصادية على قدر كبير من الأهمية اما لكونها محطات عبور أو لنوعية منتجاتها ومن أوضح الأمثلة على ذلك مناجم الشبة الغنية فى فوكايا Phocaea عند مدخل خليج سميرنا Smyrna التى منحت للجنوية سنة ١٢٧٥ ، واثرى آل جاتلوزى(٤) Gattilusii منها ثراء طائلا . واشتهرت طيبة والمورة

---

(٣) انظر Chronicle of the Morea, Greek Version ed. J. Schmitt (London 1904), Verses 2455 — 4301, French Version ed. J. Longnon (Paris 1911), pp. 116 — 17. English translation by H. E. Lurier Columbia univ. Press 1964).

(٤) شهد القرنان الثالث والرابع عشر نوعا من المنافسة المحمومة بين البندقية وجنوه من اجل الاستئثار بالنفوذ الاقتصادى فى القسطنطينية والبحر الأسود ومنطقة المضايق وزاد من حدة هذه المنافسة خروج البندقية فائزة بنصيب الأسد نتيجة للحملة الصليبية الرابعة ، ولهذا سعت جنوة جهدها للحصول على امتيازات مساوية داخل الامبراطورية ، وساعدت الحروب الأهلية التى وقعت بين المتنافسين على عرش القسطنطينية من ضرام هذا الصراع وتمثل ذلك بصورة واضحة فى الصراع الذى قام بين يوحنا الخامس (١٣٤١ ـ ١٣٩١) ويوحنا السادس كانتا كوزينوس (١٣٤٧ ـ ١٣٥٤) ، حيث كان لجهود المغامر الجنوى فرانسكو جاتلوزيو Franececesco Gattilusio أبعد الأثر فى انتصار يوحنا الخامس ، الذى كافأه على ذلك باعطائه يد أخته وجزيرة لسبوس Lespos صداقا لها . وقد ازداد نفوذ عائلة جابلوزى فى لسبوس حتى أن قسطنطين الحادى عشر آخر اباطرة بيزنطة اصهر اليها حيث تزوج احدى بناتها .

انظر : شارل ديل البندقية ، ص ٥٤ و Vasiliev, op. cit. II, p. 589 وأيضا Denys Hay, Europe in the Fourteenth and Fifteenth Centuries, p. 247. المترجم .

بصناعة الحرير وغزله • وسيطرت عائلة سانودى Sanudi من البندقية على ناكسوس Naxos ومدت نفوذها الى الجزر المجاورة وتعهدت بالعناية التامة ، التجارة فى تلك المنطقة •

وهكذا اتجه الغزو اللاتينى الى ترويج النشاط الاقتصادي ، ذلك أن انعاش التجارة كان من أهم اهتمامات الغزاة انفسهم ، كما أن الناحية التجارية فى الحقيقة كانت من أول الدوافع تحريضا للهجوم على الامبراطورية • وغالبا ما حجبت الدسائس الدبلوماسية والصراعات الاسرية الى حد ما تلك الأنشطة السلمية التى كانت تجرى على مر الأيام ، والتى اعتمدت فى وجودها الحقيقى على بعض الفهم المتبادل بين اليونان واللاتين •

وبسقوط العاصمة البيزنطية سنة ١٢٠٤ بعد عمر طويل امتد بها ثمانية قرون متواصلة تصدعت الامبراطورية منقسمة الى مملكتين يونانيتين : مملكة ابيروس Epirus فى الشمال الغربى من بلاد اليونان وتضم ابيروس وجزءا من البانيا ، ويعتلى عرشها ثيودور انجلوس Theodor Angelus ، ومملكة نيقية Nicaea فى الشمال الغربى من آسيا الصغرى وتخضع لثيودور لاسكاريس Theodore Lascaris الذى أصهر الى الأسرة الانجلية • وعلى الشواطىء الجنوبية الشرقية للبحر الأسود كانت تقوم أيضا مملكة طرابيزون Trebizond اليونانية تحت سيادة احد فروع أسرة كومنين ، وان كانت هذه المملكة الأخيرة قد قامت فى الحقيقة بمساعدة جورجيا Georgia قبل غزو القسطنطينية • ورغم أن هذه الممالك جاءت بشكل ما نتيجة الأحداث التى وقعت سنة ١٢٠٤ الا انها تعكس حقيقة تلك الاتجاهات الانفصالية التى كانت سائدة بين العائلات البيزنطية القوية • وقد راحت المملكة ذات الحكم المطلق فى ابيروس ومملكة نيقية تدعيان حق ميراث العباءة الامبراطورية ، أما المنافس الثالث من حول العرش فكان الملك البلغارى القدير يوحنا الثانى آسن John II Asen (١٢١٨ ــ ١٢٤١) • واخذ هؤلاء الثلاثة جميعهم يناضلون من اجل تأكيد ادعاءاتهم بتوسيع حدودهم وفرض سيادتهم على القسطنطينية بالحرب تارة والدبلوماسية اخرى •

وسرعان ماخرجت بلغاريا من حلبة السباق بعد موت يوحنا آسن . على حين عملت الخلافات الأسرية على اضعاف ابيروس التى ما لبثت أن غرقت فى خلافاتها مع جيرانها اللاتين . اما نيقية فكانت لاكثر من سبب صاحبة اليد الطولى ؛ ذلك أنهـا من الناحية العملية كانت تعتبر مملكة أقوى واشد تماسكا من تلك الامبراطورية المنهارة ، وتمثل ذلك فى اسرة لاسكاريس التى اتصف ملوكها بالفطنة والثقـافة ، وعملوا بعناية فائقـة على تنميـة مواردهم الداخلية ، ووجـدوا لديهم الفرصـة السانحة لتشجيع النواحى الثقافية ، واستغلوا بمهارة أخطـاء منافسيهم لتحقيق مصالحهم ، وحظوا على آية حال بالتأييد المحدود من جانب الأتراك السلاجقة فى قونية Iconiun وحـكام طرابيزون اليونان ، وكان كلاهما يدرك تماما الآثار الناجمة عن التحركات المغوليـة التى كانت آخذة فى تغيير الشـكل السياسى للشـرق الاوسط ، وقد نجحت الأسرة اللاسكارية من قاعدتها القوية بآسيا الصغرى، من تثبيت أقدامها بمهارة فائقـة فى أوروبا ، مقدونيـا وتراقيا وسالونيك . فلما مات ثيودور الثانى لاسكاريس عام ١٢٥٨ ، مخلفا وراءه على العرش وريثا قاصرا ، حسمت المسألة على يد انسان « لطيف المعشر ودود » وان كان فى غير حياء ، هو ميخائيل باليولوجوس Michael Palaeologus الذى كان قادرا بكفاءة على أن يجنى ثمار غرس اللاسكاريين . ففى سنة ١٢٥٩ وفى موقعة بلاجونيا(٥) Pelagonia حقق انتصارا حاسما سحق به عصبة ابيروس التى كانت تضم فرنجـة المورة وما نفرد Manfred ملك صقلية ، وحاول أن يدعم قواه بحلف بحرى ضد البندقية ، المحرض الأساسى والمستفيد الرئيسى من الحملة الصليبية الرابعة ، فعقد تحالفا مع الجنـوية فى مارس ١٢٦١ منحهم بمقتضاه امتيازات تجارية واسعة لقاء وعدهم اياه بالمساعدة . ولم يلبث أن تحققت له الخطوة الأخيرة فى ٢٥ يوليـة ١٢٦١ حيث استرد القسطنطينية ثانية ، ودخل ميخائيل الثامن المدينة بعد ايام قلائل فى موكب الخاشعين ، واتجـه الى دير ستوديوس ، ومنه الى كنيسة أيا صوفيا . وقدر لأسرته أن تحـكم من القسطنطينية الامبراطورية البيزنطية بعد احيائها

---

(٥) فى الطرف الغربى من مقـدونيا بالقرب من مدينـة كاستوريا Castoria المترجم .

قرابة قرنين من الزمان حتى اتاها الغزو العثماني في القرن الخامس عشر(٦) ·

٢ ـ التنافس المسيحي والحروب الأهلية البيزنطية : ١٢٦١ ـ ١٣٥٤

تبدلت امبراطورية الباليولوجيين في امتدادها الاقليمي خلال فترة الوجود القلق والمضطرب التي عاشتها · ففي سنة ١٣٦١ كانت تضم شمالي غرب آسيا الصغرى ومعظم تراقيا ومقدونيا وبعض الجزر وتفرض سيطرتها على ابيروس وكذا أربعة قلاع رئيسية كانت ماتزال في بلاد اليونان الفرنجية · وعلى الرغم من انها جهدت كي توسع رقعة أراضيها بعد سنة ١٢٦١ ، وخاصة في البلوبونيز ، الا انه لم يكن بمقدورها أن تبعث الى الحياة أي نظام حكومي فعال يتمركز في القسطنطينية · وكان عليها أن تعود مرة ثانية الى تلك الوسيلة الفعالة التي تتمثل في نظام الهبات الاقطاعية · ومن ثم فانه بدلا من الاعتماد على الولايات الثغرية Themes التي يتولى ادارتها حكم مسئولون أمام السلطة المركزية ، وجد عدد من المقاطعات منحت عادة لأفراد البيت الامبراطوري أو أسرة الامبراطور الشريك · وقد بقيت للقسطنطينية مكانتها المرموقة ، وظلت عاملا يحسب حسابه في السياسة الدولية ، ولا شك أن الموقع الجغرافي وحده كان يدعم ذلك · واذا كانت الامبراطورية ماتزال غنية بثرواتها · الا ان هذه الثروات لم تعد في أيدي البيت الامبراطوري ، ولكنها أصبحت في حوزة العائلات القوية والمؤسسات الكنسية الكبيرة ، وأصبحت الهبات من الاراضي والتي منحت اصلا تبعا لنظام « الميزة » Pronoia في مقابل الخدمة العسكرية ، وراثية متحررة من الالتزامات التي كانت تقترن بها · هذا التغيير ترك آثاره الواضحة على الجيش الذي أصبح الآن يتكون في معظمه من المرتزقة مما شكل عبئا ثقيلا على الخزانة · وفي الوقت ذاته لم يعد للاسطول البيزنطي من الناحية العملية وجود ، وولت القسطنطينية وجهها شطر الجنوية تعتمد

---

(٦) انظر دكتور اسحق عبيد : الدولة البيزنطية في عصر باليولوغوس ١٢٦١ ـ ١٢٨٢ · المترجم ·

عليهم • ولما وجد البحارة البيزنطيون انفسهم بلا عمل ، انضموا للقراصنة الأتراك الذين كانوا سوط عذاب فى البحر الايجى خاصة حول الأقاليم الساحلية فى آسيا الصغرى • أما الخزانة الامبراطورية فلم تعد تحصل الا على جزء تافه جدا من ايراداتها السابقة ، وانحط المزارعون المحليون والفلاحون فى بعض الأحيان الى حد الفاقة بسبب ويلات الحرب ولم يعودوا قادرين على الوفاء بالتزماتهم ، وغالبا ما كان عظيم الأقليم يقوم بجمع ما يزيد عن الدخل المحلى • واصبح المصدر الوفير للدخل ، وهو الضرائب الجمركية والمكوس ، يصب الجزء الأكبر منه الآن فى جيوب الايطاليين خاصة الجنوية داخل الأراضى البيزنطية ، بينما حلت « النقود الجيدة » للجمهوريات الايطالية محل البيزنط Bezant ، العملة الذهبية البيزنطية ، التى كانت تستخدم فى التجارة الدولية •

كانت المشكلة التى واجهت الحكومة البيزنطية بعد سنة ١٢٦١ ، النقص الكامل فى الموارد المادية ، وقد وجدت أن الدبلوماسية وحدها تعد لغوا لاغناء فيه اذا لم تظاهرها المقدرة العسكرية والبحرية الملائمة ، ولما كانت لاتستطيع أن تفرض سيادتها حتى على اراضيها ، لم يكن امامها خيار ، ومن ثم كان عليها أن تعانى بل وأن تعتمد فى نهاية الأمر على كبار ملاك الأراضى والحكام المحليين المستقلين حقيقة • وتقامت المشاكل الداخلية وازدادت تعقيدا من جراء الحروب الأهلية التى شغلت فترات طويلة من القرن الرابع عشر ، والضغط المستمر من الخارج منذ عام ١٢٦١ فصاعدا خاصة من جانب شارل كونت انجو Charles of Anjoa والصرب واخيرا الأتراك العثمانيين •

وقد حجب البريق الخادع الذى احاط بميخائيل الثامن الضعف الكامن والجوهرى للامبراطورية العائدة ولكن لزمن يسير ، ذلك انه استطاع بدبلوماسيته الحاذقة أن يكف اذى الأخطار المحدقة بالامبراطورية ، وكان شارل كونت انجو قد نصب نفسه ملكا على مملكة صقلية ، بعد ان اوقع الهزيمة بأسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufen سنة ١٢٦٦(٧) ، واراد ان

(٧) فى عام ١٢٥٠ مات الامبراطور الالمانى فردريك الثانى ، وكان

يمد سلطانه الى بلاد اليونان والامبراطورية البيزنطية ، فكون تحالفا ضد ميخائيل الثامن ضم البابوية ، وبلدوين الثانى Balduin II الامبراطور اللاتينى السابق للقسطنطينية ، ووليم فيلهاردوان (الذى كان قد هزم آنفا على يد ميخائيل الثامن فى المورة) وكان واضحا ان هذا الحلف يشكل خطورة كبيرة على الامبراطورية • غير أن الامبراطور البيزنطى تمكن بمهارة فائقة من أن يوجه القبيلة الذهبية Golden Horde وهولاكو Hulagu خان المغول ضد بلغاريا وسلاجقة الروم ، والمجر ضد الصرب ، وبهذا الأسلوب جابه أعداءه فى آسيا الصغرى والبلقان • ومد يد الصداقة الى اخى شارل ، لويس التاسع Louis IX الذى كان يتدبر أمر حملة صليبية(٨) ، وقدم

الصراع بين البابوية والامبراطورية قد بلغ المدى ، وصمم البابوات على تحطيم الامبراطورية ، والقضاء على اسرة الهوهنشتاوفن تماما • وكان فردريك قد ترك المانيا لابنه كونراد الرابع ، وعهد بصقلية الى ابنه غير الشرعى مانفرد ، وعلى الفور قام البابا انوسنت الرابع بالتفاوض مع هنرى الثالث ملك انجلترا من اجل المناداة بابنه ادموند Edmund ملكا على المملكة النورمانية فى صقلية وجنوب ايطاليا بدلا من اسرة الهوهنشتاوفن على أن يصبح فصلا بابويا • ولكن مانفرد تمكن فى عام ١٢٥٥ من استعادة سلطانه على صقلية • غير أن البابا أوربان الرابع وخليفته كلمنت الرابع ، نجحا فى استمالة شارل كونت انجو ، وهو اخو لويس التاسع ملك فرنسا ، واقناعه بالقدوم لاعتلاء عرش النورمان فى صقلية ، على أن يكون فصلا تابعا للبابا • ولم يلبث ذلك الأمير الفرنسى الطموح ان غزا مملكة مانفرد عام ١٢٦٢ ، وأوقع به هزيمة مروعة عند بنفنتو Benevento سنة ١٢٦٦ خر فيها مانفرد صريعا • انظر Thompson & Johnson, op. cit. pp. 428-429

وأيضا D. Waley, Later Medieval Europe from St. Louis to Luther, pp. 36-38.

وكذلك W. Ullmann, A short history of the Papecy in the Middle Ages, p. 264.

وراجع أيضا Barry, the Papal Monarchy, pp. 351-368 المترجم •

(٨) عن الحملة الصليبية السابعة التى قادها لويس التاسع ملك فرنسا ، الى مصر فى منتصف القرن الثالث عشر ، انظر : مذكرات جوانفيل عن القديس لويس ، ترجمة الدكتور حسن حبشى ، دكتور محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ، دكتور جوزيف

العون الى الصقليين الذين كانوا يضمرون العداء لحاكمهم الأنجوى حتى اشتعلت الثورة فى الجزيرة ونجح الثائرون فى نقل التاج الى بطرس صاحب أرغونة Aragon الذى أمكن لميخائيل الثامن أن يصل الى اتفاق معه · وكان الامبراطور يعتقد أن من الصواب اكتساب البابوية ، فسعى الى ذلك بوعد قدمه فى مجمع ليون Lyone (٩) الذى عقد سنة ١٢٧٤ حول اعادة الوحدة الى الكنيسة ·

هكذا عصف ميخائيل بمشروعات شارل ، ولكن ذلك كلفه الكثير من النواحى المالية وغيرها ؛ ذلك أن تقربه الى روما لقى معارضة شديدة من جانب جيرانه الأرثوذوكس ، خاصة بلغاريا التى سادها شعور جارف ضد القسطنطينية ، ولم يكن الاحتجاج فى داخل الامبراطورية بأقل منه خارجها· حقيقة أن الجموع وقد جىء بها فى التاسع من يناير سنة ١٢٧٥ الى الكنيسة الامبراطورية فى القسطنطينية ، راحت تنشد صلاتها باليونانية واللاتينية ، واحتفل بذكرى جريجورى « الحبر الأعظم للكنيسة الرسولية والبابا المسكونى » · ولكن الشعور الذى كان ينتاب الجميع فاهت به اخت الامبراطور التى ورد عنها قولها « خير لامبراطورية اخى أن تندثر على أن تبيد العقيدة الأرثوذوكسية » · وقد أصبحت محاولة التوحيد هذه بين روما والقسطنطينية ورقة امبراطورية بليت من كثرة المزايدة عليها خلال الحقبة

نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر : هزدمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور ، دكتور سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، الجزء الثانى، ص ١٠٥١ ـ ١٠٧٥ ، Runciman, op. cit. III. pp. 255-274 المترجم ·

(٩) عقد تحت رئاسة البابا جريجورى العاشر ، وحضره خمسمائة أسقف وسبعون من مقدمى الأدير ، وقرابة الألف من رجال الاكليروس على اختلاف مراتبهم ، بالاضافة الى ملك أرغونة ، وتبادل المسائل الخاصة بالتنظيمات الكنسية فى الغرب وشغلت الوحدة بين الكنيستين الشرقية والغربية جانبا من مناقشاته · انظر عن ذلك المجمع ·

Ullmann, op. cit. pp. 240 - 241.

وأيضا Barry, op. cit. pp. 265 - 266

و C. M. H. vol. VI, pp. 192 - 3

وراجع كذلك : دكتور اسحق عبيد : الامبراطورية البيزنطية فى عصر باليولوغوس ١١٣ ـ ١١٦ ، ١٢٨ ـ ١٣٠ · المترجم ·

الباليولوجية ، غير انه بعد عام ١٢٠٤ كان كثير من البيزنطيين يفضلون الخضوع للملحدين على هجران ما كانوا يعتبرونه تقاليد مقدسة لكنيستهم عبر فترة طويلة من الزمن ، فلما امكن رد اعدائهم ، عزا البيزنطيون الفضل كله الى الكنيسة الأرثوذكسية التى ازداد سلطانها وعظمت مكانتها ٠

ولكن المكانة الدولية التى بلغتها الامبراطورية على عهد ميخائيل الثامن لم يقدر لها الاستمرار من بعد ، ولم يكن ذلك راجعا الى ضآلة شأن الأباطرة البيزنطيين الذين كان بعضهم ، مثل يوحنا كانتاكوزينوس John Cantacuzenus أو مانويل الثانى Manuel II ، رجالا على قدر كبير من الكفاءة والموهبة ، ولكنه يعود فى الدرجة الأولى الى استحالة اعادة السلطة المركزية القوية فى مواجهة النزعات الانفصالية الاقطاعية ، والعوز الكامل فى الموارد المالية اللازمة لمجابهة العدو الصربى فى البلقان والعثمانى فى آسيا الصغرى ٠ ورغم الأزمات الخطيرة التى كانت تتهدد الامبراطورية ازدهر النشاط الثقافى وارتفعت حرارة الجدل الدينى ٠ فقد ظلت بيزنطة على عهدها دائما تشهد جدلا عقيديا بين مختلف الفرق الكنسية ، والتى غالبا ما كانت تأتلف مع مثيرى الفتن السياسية ، حتى اذا كان القرن الرابع عشر ازدادت التعقيدات حدة بسبب ذلك الاحساس الحقيقى الواضح بالأحوال الاجتماعية والاقتصادية السيئة ، خاصة فى مدينة سالونيك التى ظلت لسنوات عديدة فى منتصف القرن الرابع عشر تحكم (اذا جاز هذا التعبير) بواسطة مجلس من الأهالى ٠ وكان التطاحن يجرى على أعلى المستويات ، فقد اختصم الامبراطور العجوز أندرونيكوس الثانى Andronicus II (١٢٧٢ ــ ١٣٢٨) مع حفيده ووريثه وسميه أندرونيكوس الثالث الذى رفع السلاح فى وجه جده ٠ فلما قضى الحفيد نحبه سنة ١٣٤١ ، اندلعت الحرب الاهلية مرة اخرى بين الوزير الاول يوحنا كانتا كوزينوس والوصية على العرش ٠ وتم التوصل الى نوع من التعايش السلمى القلق بتتويج كانتا كوزينوس امبراطورا باسم يوحنا السادس John VI على يد بطريرك القسطنطينية فى عام ١٣٤٧ ، وتبع ذلك بالتالى ازدياد نفوذ أسرته وسلطانها ٠ وفى الوقت ذاته كان الحنق يعتصر نفس الامبراطور الصغير يوحنا الخامس باليولوجوس وينمو معه حتى تمكن فى النهاية بمساعدة الجنوية من اجبار كانتا كوزينوس على الاعتزال سنة ١٣٥٤ ٠ ولكن على الرغم من أن

الامبراطور يوحنا كانتا كوزينوس سلك درب الرهبانية وعرف باسم يواصف Joasaph وقضى معظم عمره الباقى فى الكتـابة التاريخية واللاهوتية ، الا أنه ظل يتدخـل فى شئون الكنيسة والدولة حتى توفاه الموت سـنة ١٣٨٣ ·

وقف التفسخ الداخلى الذى شـهدته الامبراطورية البيزنطيـة حـائلا منيعا دون اية محاولة تبـذل لمد رقعة اراضيها المتضائلة ، واهتبل الخصوم فى الخارج هذه الفرصة لمناصرة فريق ضد آخر ·وكان على بيزنطة فى القرن الرابع عشـر أن ترقب بعين الخـوف كلا من الصـرب فى البلقان والاتراك العثمانيين فى آسيا الصغرى ؛ فقد نهلت صربيا الكثير من الحضارة العريقة لجارتها القريبة وبدأت تلعب دوراً بارزاً وقيـاديا فى السياسة البلغارية زمن ملوكها النمانياويين Nemanici خاصة على عهد ستفن دوشان Stephen Dusan (١٣٣١ ـ ١٣٥٥) · وقد تمكنت صربيا نتيجة المكانة التى حققتها على يديه من أن تستغل بنجاح تلك الحـرب التى دارت بين يوحنا الخامس باليولوجوس ويوحنا كانتا كوزينوس، وافادت من الهلع الذى انتاب الامبراطورية بسبب المطامع الهنغارية · وبلغت قوة دوشان حـدا راودته فيه الأحلام حول امكانية خلع الامبراطور الباليولوجى ، وداعبته الامال فى اعـادة مجد الامبراطورية الرومانية · وقد امتدت حـدوده لتشمل الى جوار الأراضى التى كانت تحتلهـا اصـلا القبائل الصـربية ، البانيا وابيروس ، وتساليا Thessaly ومقدونيا Macedonia (رغم انه لم يحتـل مطلقـا مدينـة سالونيك الهامة) ، بينما أصبحت بلغاريا فى الواقع دولة تابعـة · ومن ثم فانه عنـدما كتب الى الدرج سـنة ١٣٤٥ راح يسمى نفسـه « سيد كل الامبراطورية الرومانية تقريبا » · ولقـد تحالف فى أول الأمر مع يوحنا كانتا كوزينوس ، ثم لم يلبث أن عاداه ووقف ضده تخوفا من ازدياد قوته · وفى عام ١٣٥٥ مات ستفن دوشان وهو فى أوج عظمته قبل أن يصبح قادرا على مهاجمة القسطنطينية ، أو قيادة حملة صليبية ضد الأتراك ، وليس من المؤكد أن كانت جهوده قادرة على أن تحقق نجاحا مستمرا ، ذلك أن مملكته حتى هذه الاونة لم تكن قد تقدمت بالدرجة الكافية لتحمل أعباء امبراطورية أو حماية هذه الأراضى التى اكتسبتها مؤخرا · وهكذا كانت الدول البلقانية فى العصور الوسطى المتأخرة قوية الى الحـد الذى كان بمقدورها فيه أن

تتجنب الانضواء من جديد تحت لواء الامبراطورية البيزنطية العائدة ، ولكن احـدا منها فى الوقت ذاته لم يكن يملك القـوة الكافية لفرض أى نوع من الوحدة على العناصر المسيحية المتنافرة فى البلقان والبحر الايجى ٠

٣ ـ الغزو التركى وسقوط بيزنطة :
١٣٥٤ ـ ١٤٥٣

كان الأعـداء القـدامى للامبراطورية من الاتراك فى آسـيا الصغرى يشكلون السلطةالسلجوقية فى قونية (أو سلاجقة الروم) وامارة الدانشمنديين، ثم تغيرت هذه الأوضاع فى غضون القرن الثالث عشر نتيجة الزحف المغولى، فاختفت سلطنة قونية ككيان سياسى فعال ونشأ عدد من الامارات الصغيرة فى غربى آسـيا الصغرى مستغلة فرصـــة انشغال الامبراطورية البيزنطية بمصالحها فى أوروبا ٠ وقد قامت معظم هذه الامارات على صفة الجهـاد وعمرت بواسطة المرابطين فى العالم الاسلامى وكان جنودها يحاربون من أجل الايمان ٠ وقد هاجموا الأقاليم البيزنطيـة فى آسـيا الصغرى ، وأغار قراصنتها(١٠) على المياه الايجية ، يعززهم البحارة البيزنطيون العاطلون ٠ وفى الشمال الغربى من آسيا الصغرى ، وعلى جـــزء من بيثينيا Bithynia البيزنطية قديما ، قامت امارة عثمان ، التى احتلت مركزا استراتيجيا يتحكم فى الطرق القادمة من القسطنطينية الى آسيا ٠ ولهذا السبب كان العثمانيون يحتلون موقعا ممتازا افادهم فى غزواتهم القادمة لأوروبا ، كما انهم كانوا قد اصبحوا على دراية تامة بالنظم الادارية الاسلامية والتقاليد الثقافيـة ، حتى ان امارتهم لم تبق مجرد رباط بل تطوروا بنظمها لتصبح قاعدة تبنى عليها امبراطورية ٠

وكانت القوى المسيحية والاسلامية قد اعتادت أن تتحالف فيما بينهما تبعا لمقتضيات الامـور ،ويشهد على ذلك انه فى منتصف القرن الرابع عشر كانت الامارة العثمانية قد ثبتت أقدامها فى آسـيا الصغرى ، فاتجه يوحنا

---

(١٠) هذا التعبير يعبر عن رأى المؤلفة ، وقد لجأ الى استخدامه كثير من الباحثين الأوروبيين الذين يتناولون تاريخ العلاقات بين بيزنطة والغرب من ناحية والمسلمين من ناحية أخرى ، دون ادراك كامل لفكرة الجهاد أو الغزو فى الاسلام ٠ المترجم ٠

السادس كانتا كوزينوس الى اميرها اورخان Orchan يطلب عونه فى الحرب الأهلية الناشئة مع يوحنا باليولوجوس ، واعطاه يد ابنته ، فأمده اوردخان بفرقة قوية من الجحافل العثمانية ساعدته فى تراقيا • ويعتبر اشتراك الاتراك العثمانيين فى الحروب الأهلية البيزنطية على الأرض الأوروبية بداية استقرارهم فى أوروبا ، فاحتلوا غاليبولى Gallipoli فى سنة ١٣٥٤ ، ومن هذه القاعدة راحوا يباشرون غزوهم المنظم لمنطقة البلقان •

وبعد اعتزال يوحنا السادس عام ١٣٥٤ ، اجبر يوحنا الخامس باليولوجوس ابنه متى كانتا كوزينوس Matthew Cantacuzenus على التخلى عن ادعاءاته فى العرش ، ولكنه فى الوقت ذاته أظهر تعقله بالاعتراف بابن آخر لكانتاكونوس حاكما على المورة • وكان شغله الشاغل على امتداد عهده الطويل ، فقد مات سنة ١٣٩١ ، كيف يمكن وقف الزحف العثمانى فى البلقان • يضاف الى هذا أن موارد التاج البيزنطى كانت تعانى النضوب بشكل واضح ، بينما كانت المورة ، اكثر اجزاء الامبراطورية ازدهارا ، تعد فى حقيقة الأمر امارة مستقلة • من اجل هذا سعى يوحنا للحصول على المساعدة من الغرب ، غير انه لسوء الحظ كانت أول المطالب الملحة الآن ، وكما كانت سابقا ، التوصل الى تفاهم مع البابوية ووحدة كنيستى روما والقسطنطينية • وكان القليلون من ذوى البصيرة يدركون ضرورة تحقيق ذلك ، على حين ظلت الغالبية ، تؤيدها الكنيسة الأرثوذكسية القوية ، على عنادها لمثل هذه السياسة ، ومن ثم لم تثمر مقترحات يوحنا التى عرضها سنة ١٣٥٥(١١) ، فلم تقدم البابوية على تقديم مساعدة فعالة ،

---

(١١) نتيجة للظروف السياسية والعسكرية السيئة التى كانت تعانى منها الامبراطورية من جراء الضعف الاقتصادى والضغط الخارجي المستمر ، تخلى اباطرة بيزنطة عن كثير مما كان يعد تقليدا ثابتا لايبغون عنه حولا ، أعنى بذلك المصالحة مع البابوية الى حد الخضوع لها على النحو الذى حدث فى مجمع ليون الثانى سنة ١٢٧٤ والذى سبقت الاشارة اليه ، والآن يعيد يوحنا الخامس نفس الدور فيصدر سنة ١٣٥٥ ميثاقا Chrysobull يعلن فيه الطاعة التامة لروما ، ويقترح انشاء قصادة رسولية فى القسطنطينية تشرف على التعيينات الاكليروسية ، كما وعد بارسال ابنه رهينة الى افينيون (حيث كان يوجد البابوات انذاك تحت سيادة الملك الفرنسى) ؛ فى

ورفض البيزنطيون النظر فى مسألة اعادة الوحـــدة للكنيسة ٠ وتزايدت شدة الضغط الذى تتعرض له الامبراطورية ، فارتحل يوحنا الخامس متضرعا الى البلاط الهنغارى ولكن الفشل حالفه بسبب الخـــلاف الكنسى ٠ ولمـا كانت الآمال تداعب يوحنــا فى المساعـدة الصليبية ، استحثه ابن خالتـه كونت سافوى Savoy الذى قدم اليـه فى عـــام ١٣٦٦ ، ولم تمض على ذلك ثلاث سنوات حتى كان يوحنا نفسه (الذى كانت أمــه تعود الى أصــل لاتينى) قـد جـاء الى روما ، وفى اكتوبر سنة ١٣٦٩ تحـــول الى العقيدة الكاثوليكية ، بينما راح أسقفه فى الوقت ذاته يحض البيزنطيين والأرثوذوكس فى البلاد الأخرى ، على أن يقاوموا بثبات مثل هذه الحركة ٠

وبينما تجرى هـذه الأحــداث ، كان العثمانيون بزعامة مراد الأول Murad I (١٣٦٢ ـ ١٣٨٩) يوسعون دائرة أراضيهم الأوروبية على حساب الصــرب وبيزنطة ٠وكان النجاح الذى يحققونه الآن وأهدافهم الآتية تتمثل فى نقل السلطان لبلاطه من آسيا الصغرى الى تراقيا ، ومنـذ حوالى عــام ١٣٦٥ فصاعدا استقر البـلاط العثمانى فى أدريا نوبل Adrianople وعلى حين كان يوحنا الخامس يدور حول نفسه فى أوروبا ويودع نفسه رهينة لدى الكنيسة الرومانيـة ، كان العثمانيون يزحفون داخل مقدونيا ٠ ولمـــا كان الصرب قد انقسموا الى امارات متفرقة ، فقد منوا بهزيمة فادحة سنة ١٣٧١ ، ثم قضى عليهم تماما فى سهول قوصوه Kosovo عـام ١٣٨٩ (معركة مروج الشحارير) ٠ حيث أعلنوا بعدها خضوعهم للعثمانيين وكان عليهم أن يدفعوا الجزية وأن يعملوا فى الخدمة العسكرية ٠ ولم يكن أمام بلغاريا من سبيل الا الاعتراف بسيادة الاتراك ٠ وأمست بيزنطة من الناحية العملية مرتبطة بالأتراك ولم يكن امبراطورها يعـدو مجـرد فصل اقطاعى عليــه أن يؤدى الالتزامات العسكرية ٠

ورغم كل ذلك فان الامبراطورية البيزنطية كانت قادرة على المقـــاومة

مقابل تنظيم حملة صليبية يتولى هو قيادتها بنفسه ٠ غيـر أن ذلك كله لم يجده نفعا : أنظر : دكتور أسد رستم : الروم ، الجزء الثـانى ص ٢٤٦ ٠ المترجم ٠

حتى منتصف القـــرن الخـــامس عشـــر ، يؤيد ذلك عاملان : أولهما أن القسطنطينية كانت تعتبر قلعة حصينة ، والآخر أن المد التركى انحسر دون توقع فى آســيا الصغرى سنة ١٤٠٢(١٢) • وقد بدا واضحا خـــلال هذه الفترة أن بيزنطة قـــد فقدت مكانتها السابقـــة فى حلبـــة السياسة الدولية ، فتضـــاءلت حدودها ولم تعد قادرة حتى على ادارة جزء صغير كان ما يزال باقيـــا بأيدى اليونان ، ولم تنقطع الخـــلافات الداخلية التى اكتوت بنيرانها العائلة الامبراطورية ، حيث كان اندرونيكوس الرابع Andronicus IV على خلاف دائم مع أبيه يوحنا ، وشارك فى هذا النزاع الجمهوريتان الايطاليتان البندقية وجنوه اللتان كانت لهما مصالحهم الحيوية فى الشـــرق • يضاف الى كل هذا أنه كان عليها فى الوقت ذاته أن تراعى بحكم الضرورة مطالب سيدها القوى ، السلطان العثمانى ، ومن ثم فقـــد بدا شيئا محيرا أن تحتفظ الامبراطورية لنفسها مع كل ذلك حتى بمجرد وجود شاحب لزمن طويل •

وباستثناء أراضيهـــا فى المورة ، كانت الامبراطورية تتكون فقط من القسطنطينية وعليها كان يحكم مانويل الثـــانى Manuel II من ١٣٩١ ١٤٢٥ وتبعا لما يرويه المؤرخ البيزنطى دوكاس(١٣) Ducas ، راح السلطان العثمانى يخاطب مانويل بقوله : « أغلق عليك أبواب المدينة واحكم داخلها ، فكل ما وراء الأسوار ملك لى » • ولما كان على ثقة مما يعنيه فقد أقدم على جعله حقيقـــة مؤكدة ، فأصبحت القسطنطينية فى الواقع محاصرة ؛ حيث

---

(١٢) انظر بعده ص ٢٢٤ •

(١٣) هو المؤرخ البيزنطى ميخائيل دوكاس Michael Ducas ، ولـــد فى آسيا الصغرى ، وعمل معظم حيـــاته فى خدمة حكام جزيرة لسبوس من الجنوية ، وان كان قد ظل على صلته الوثيقة وتعاطفه مع البيزنطيين ، وأبدى أسفه البالغ ــ فى تاريخه ــ لهذا التردى الذى هوت اليـــه الامبراطورية • وقد وضع تاريخا دقيقا للفترة الواقعة بين عامى ١٣٤١ ــ ١٤٦٢ ، أى منذ اعتـــلاء يوحنا الخـــامس العرش ، حتى سقوط لسبوس فى أيدى الاتراك العثمانيين ، وأن كان قد قدم لتاريخه بمدخل مختصر منـــذ بدء الخليقـــة • غير انه تناول عهود الباليولوجيين الثلاثة الأخيـــرين بالتفصيل ، مما يعد لاغنى عنه لأى باحث فى تاريخ هذه الفترة •

انظر Vasiliev, op. cit. pp. 691 - 2.

وكذلك Baynes & Moss, op.cit. p. 233.

استولى السلطان بايزيد Bayezid على تساليا عام ١٣٩٣ ، وبدأ العثمانيون فى التوغل جنوبا داخل المورة ، أما بلغاريا التى كانت قد أضحت دولة تابعة ، فقد جرى احتلالها وسقطت عاصمتها ترنوفو Trnovo فى السنة نفسها ، وأخذت دوبرجا Dobrudja واصبح الدانوب تحت السيادة التركية ٠ ومع أن التوغل العثمانى داخل بلاد اليونان كانت له آثاره على المصالح الايطالية شأن البيزنطية ، الا انه كان من المحتمل أن تظل أوروبا اللاتينية دون حراك ، ولكن اخضاع بلغاريا والاقتراب من الدانوب كان خطرا يهدد المجر ، وقد نجح ملكها سيجيسموند Sigismund فى حشد حملة صليبية من مختلف البلدان الأوربية ، غير أن هذه القوة المسيحية فرق شملها عند نيقوبوليس Nicopolis فى عام ١٣٩٦ ، واستمر تقدم الأتراك داخل بلاد اليونان ٠

عند هذا الحد شرع مانويل الثانى ، كما فعل أبوه من قبل فى الطواف حول عروش العالم اللاتينى يطلب العون ، لا من أجل استعادة بيت المقدس ، ولكن لانقاذ المدينة التى ظلت قرونا طويلة حصن الأمان فى الشرق لعالم المسيحية ، وقد أثار المأزق الحرج الذى انتهى اليه مانويل ومركزه الامبراطورى شعور العطف فى كل مكان ، حتى أن آدم Adam حاكم أوسك Usk « تلك الجزر البعيدة فى الغرب » راح يبكى « مجد روما الضائع » ، ولكن شعور العطف ذاك ظل مجرد احساس فقط ، وكان لابد لمانويل أن يدرك تلك اللامبالاة التى اتسم بها حكام الغرب ٠ وسرعان ما جاءته الأنباء تفيد أن السلطان العثمانى بايزيد قد أثار غيظ العاهل المغولى تيمور Timur بطمعه فى المناطق الشرقية الواقعة على الحدود ؛ ذلك أن بايزيد انتقل بعد معركة نيقوبوليس الى الشرق باتجاه الفرات ، متصورا اقامة امبراطورية اسلامية عالمية ٠ وكان مثل هذا الطموح يثير تيمور الذى اعتبر قدوم بايزيد الى الشرق الاسلامى تهديدا لنفوذه ، من اجل هذا شن تيمور هجوما على العثمانيين وأوقعبهم هزيمة حاسمة عند أنقرة Ankars سنة ١٤٠٢ ، ووقع بايزيد نفسه أسيرا ، واندلعت الحرب الأهلية داخل السلطنة العثمانية ٠ ولكن بيزنطة والامارات المسيحية الأخرى كانت على قدر كبير من الضعف والتفرق حتى انها لم تستطع أن تنتهز هذه الفرصة التى سنحت لها بهزيمة عدوها ٠ وبدلا من أن تأتلف جميعها فى جبهة واحدة ، راحت

كل منهـا تسعى لتحقيق مصالحها الخاصـة بالتدخل فى الصـراع الأهلى العثمانى • فلما تمكن السلطان محمد الأول من القضـاء على منافسيه ، كرس جهـده لتقوية الجبهة الداخليـة ، مما أعطى للامبراطورية البيزنطية فرصة تلتقط فيهـا أنفاسها ، واصبح مانويل على وفاق مع عدوه ، وتجاذب الرجلان أطراف الحديث ، وتبادلا المجاملات ، وان كان كل منهما قـد ظل على ظهر يخته فى مياه البسفور • وكانت ميسترا Mistra فى شبه جزيرة المورة ، معقل كل ما تبقى من الحضارة البيزنطية ، وراح دارسوها ومفكروها يحاولون جاهدين ابراز قيمة تقاليدها الهللينية •ومما هو جدير بالذكر أنهمفى ذلك الوقت الذى كان وجودهم فيه مزعزعا ، راح البيزنطيون فى المورة يطلقون على أنفسهم « الهللينيين » وليس « الرومان » كمـا اعتادوا من قبـل أن يفعلوا .ولكن كانت هناك قرون عديدة لابد أن تنقضى قبل ان يصبح الشعور القومى اليونانى قادرا على التعبير عن نفسه فى كيان سياسى مستقل •

أظهر مراد الثانى خليفة محمد الأول عزمه الواضح منذ البداية على امتلاك القسطنطينية • وقام الامبراطور البيزنطى الآن وللمرة الأخيرة بزيارة ايطاليا ، وحاول بهذه المناسبة أن يغرى بطريرك القسطنطينية وبعض رجال الاكليروس اليونانى بصحبته • وفى سنة ١٤٣٩ تم اعلان وحدة الكنيستين باليونانية واللاتينية فى دومـو Duomo فى فلورنسـا Florence حيث عقد مجمع كنسى عام • وبغض النظر عن ضمان المساعدة العملية ، فان هذا العمل أثار استياء البيزنطيين ونفور عناصر الصقالبة الأرثوذوكس خاصة روسيا • وشهدت البلقان الخطوة الأخيرة لهذه الأحـداث ، فقد دخلها فى عام ١٤٤٢ ملك المجر وجورج برانكوفتش George Brankovic الصـربى ويوحنا الهونيادى John Hunyadi أمير ترانسلفانيا Transylvania يؤيدهم الزعيم الالبانى اسكندر بك Scenderbeg وقد حاول مراد الثانى فى بادىء الأمر أن يوقع الفرقة فى صفوف أعدائه عن طريق عقـد معاهدة معهم سنة ١٤٤٤ • غير أن المجـر نقضت شروط الهدنة بتحريض من البابوية ، وتقدم ملكها باتجاه البحر الأسود ليلقى هزيمة فادحة فى ورنه Varna .

وفى عام ١٤٤٨ اعتلى العرش قسطنطين الحادى عشر Constantine XI آخر امبراطور بيزنطى ، وبينما حكم أخوه فى المورة كان هو سيد العاصمة •

وقد ظل البيزنطيون ، حتى ومحمد الثانى العثمانى يدق أبواب القسطنطينية ، يمقتون أى تسوية مع روما ، واحتفظ دوكاس فى تاريخه بهـــذه الكلمات التى تقـــول انهم يفضلون أن يروا عمائم المسلمين وسط العاصمة على أن يشهدوا قلنسوات اللاتين • ووقف بعض الجنـوية يؤيدون حلفاءهم حتى النهـــاية ، والى جـــوار الامبراطور الجســور ماتوا وهم يحـــاربون • ولم يكن لدى البيزنطيين من الأسلحة ما يمكنهم به التصدى للمدفعية التركية الحديثة • وكان على العدو أن يمضى فترة طويلة أمام تحصينات العاصمة ليتمكن من دكها • ولما لم يستطع المسيحيون ترميم الثغرات اعتلت طلائع الانكشارية بنجاح أسوار المدينـة فى التاسع والعشرين من مايو ١٤٥٣ • وكان فى حوزة العثمانيين أربعة أسلحة لم يكن من السهل التغلب عليها : المهارة العسكرية الفائقة ، والموارد الوفيرة ،والتفسخ الذى أصاب الحكام المسيحيين ، والأوضاع الداخلية فى الامبراطورية البيزنطية •

أما مملكة طرابيزون وما تبقى من أملاك للامبراطورية فى المورة ، فقد قدر لها أن تظل من بعد لسنوات قليلة ، حتى اذا كانت نهاية القرن أصبحت كل الامبراطورية البيزنطية القديمة تقريبا فى أيدى المسلمين • وهكذا قامت للمرة الثانية امبراطورية تمتد من الفرات الى الدانوب • وقد تباينت الآراء فى العالم الاسلامى حول تفسير هذه الأحداث ، حيث بدت للبعض عملا من أعمال الجهاد قام به جنود الايمان ، على حين نظر اليها بعض آخر باعتبارها تحقيقا لما كان يتوق اليـه المسلمون الأول • أما بالنسبة للعالم المسيحى ، فاذا كان قد تهدم الكثير ، فان ما بقى كان يعدله ، فالمدينة التى أعيد بناؤها بشكل فخيم كانت مركزا هاما للمسلمين والمسيحيين على الســواء ، وظلت مستقر البطريرك ، وأصبحت الكنيسة الأرثوذكسية الآن الوصى الوحيد على الحياة الثقافية والعقيدية للرعايا الصقالبة واليونان ، واضحت الابروشيات المحلية الملاذ الوحيد للمسيحيين فى الامبراطورية العثمانية • لقد كان على الكنيسة الآن ، بعـــد ان ولت أيام العصـــر البيزنطى ، أن تعمل دون عون الامبراطورية وأن تعتمد على نفسها •

مراجع عامة

— Ahrweiler. (H.), Byzance et la mere : la marine de guerre, la politique et les institutions maritimes de Byzance aux VIIe XVe siecles (Paris 1966)

— Baynes (N.H.), — The Hellenistic Civilisatin and east Rome, (O. U. P. 1946).
— The Thought - World of East Rome, (O. U. P. 1947), reprinted in Byzantine studies and other Essays (London 1955).
— The Byzantine Empire (London 1925).

— ———— and Moss (H. St. L. B.) Byzantium (oxford 1948).

— Brehier (L.), Le Monde Byzantine (3 vols. Paris 1947-50).

— The Cambride Medieval History, vol. IV in two parts, The Byzantine Empire 717 - 1453, pt. 1, Byzantine and her Neighbours 1966) and pt. II, Government, Church and Civilisation (1967.

— Diehl (C.) Byzantium: Greatness and Decline (New Brunswick 1957). is a tranlation of a stimulating essay, Byzance, grandeur et decadence, (1919).

— Dvornik (F.), The Photian Schism (C. U. P. 1948).

— Ostrogorsky (G), History of the Byzantine State (Blackwell, Oxford 1956).

— Runciman (S.), A history of the Crusades, 3, vols. (C. U. P. 1951 — 1954).

— Vasiliev (A. A.), History of the Byzantine Empire (Madison 1952).

الفصل الخامس

الكنيسة والدولة

الحكومة الامبراطورية

الفصل الخامس

الكنيسة والدولة

الحـكومة الامبراطورية

ترتبط الامبراطورية البيزنطية ارتباطا وثيقـا بالامبراطورية الرومانية imperium romanum في عراقتها المتأخرة ، وورثت تقاليد تحتوى على عناصر ليست فقط رومانية ، بل هلنستية Hellenistic وشرقية ذات فعالية كان قد تم التسليم بها جدلا في العالمين الروماني والبيزنطي • وهذا يبرز لنا كثيرا من مظاهر سياسات الامبراطورية الرومانية الشرقيـــة في العصور الوسطى ، التى اصطلح على وصفها بـ « التمشرق » على ضـوء علاقاتها بجيرانها الشرقيين • ولاشك أن بيزنطة قد تأثرت بهؤلاء الجيران عن طريق الاتصال المباشر فيما بينها وبينهم • ولكن بعض الملامح الشرقية البارزة في مفهومهـا عن السلطـة الامبراطورية كان موروثا عن روما ، وان كانت في أصولها قد استمدت من تقاليد ضاربة في القدم تعود الى حضارات العالم القديم ، مثل الهلنستية والفارسية والآشورية والبابلية والعبرية والمصرية • حتى اذا جاء القرن الثالث الميلادى كانت حكومة العالم اليوناني ــ الروماني قد أصبحت ملكيـــة ، واقترن حكامهـا تماما بمبـدأ الألوهيـة وادعـــاء الامبراطورية العالمية • وكانت روما القديمة حقيقة قد ودعت منذ زمن بعيد أيامها الجمهورية ، وغـدت العاصمة الرئيسية لامبراطور كان يعتبر راعيا ومنعما ومخلصا لشعبه ، تقدم اليه كل آيات التبجيل والتقـديس ، فلما تم الاعتراف بالمسيحية كان لابد أن تطرأ بعض التغييرات ، ذلك أن الامبراطورية الرومانية أقدمت في بداية القـــرن الرابع على التسامح مع المسيحية ، ثم اتخذتها من بعد عقيدة رسمية • وقد ترك هذا الاعتراف بالحقوق المسيحية آثاره واضحة على الحكومة في اتجاهين ، فالمفـاهيم الهلنستية عن السلطة الامبراطورية كان لابد أن يعاد النظر فيها وأن توضع من جـــديد في اطار العقيدة والأفكار المسيحية ، كما أن الكنيســة المسيحية بمتطلباتها الخاصة

وادعاءاتها بالسـيادة على كل فرد ، كان لابد من دمجها فى اطار أداة الحـكم ٠

أما فيما يتصل بالسلطان الامبراطورى فانه لم يكن من الصعب ملء هذه الهوة ٠ وتعكس مفاهيم العصور الوسطى المبكرة الأساليب الهلنستية والسلفية ، فلم يعد ينظر الى الامبراطور باعتباره الهـا ، بل أصبح يرى فيه ، وكان هذا هو نفس الشيء تقريبا بالنسبة للأغراض العملية ، انسانا مقدسا اختير من الله ليكون ممثلا له على الأرض ٠ وكما أن الاله واحد ، فلا بد أن يكون هناك امبراطور واحد يصبح له بمرور الزمن سيادة العالم وحكما عالميا ٠ وتفيض الآداب والأعراف البيزنطية بتوضيح هـذه الصلة الوثيقـة بين اللـه ونائبه ٠ وخلافا لوجهـة نظر القـديس أوغسطين(١) St. Augustine عن المدينتين وغربة هذا العالم ، يؤكد تاريخ الامبراطورية البيزنطية على امتداده نظرية القرن الرابع التى ارسى دعائمها يوساب(٢) Eusebius والتى تقـول بأن رسالة المسيحية أن تحـل على الأرض مملكة مسكونية ٠ وقد بدا لائقا لأعين البيزنطيين تشبيه المسئوليات الامبراطورية بتلك التى تتعلق بالقديس بطرس ، « فحيث أن اللـه قد عهد الينـا بحـكم الامبراطورية ، كما قضت بذلك مشيئته ، فقد أمرنا أيضا ، كما أمر بطرس أمير الرسل ، أن نطعم شعبه المؤمن »(٣) ٠

وكان الامبراطور يحاط بمراسم ذات مسحة دينية ، وترتبط بالطقوس الكنيسة ، فقد أهدى الجانب الأيسر من العرش الامبراطورى للمسيح ،وكان يترك شاغرا فى المناسبات الكبرى مثل الأعياد أو الاحتفالات الكنسية، ولكن الامبراطور كان يشغله باعتباره ممثل المسيح على الأرض ، عنـد استقباله للسفراء ٠ ويؤتى بالنور وتوقد النار ويحرق البخور بين يديه فى مناسبات معينة ٠ وكان أمرا عاديا أن يخر هو نفسه فى الكنيسة ٠ وفوق هذا وذاك فان مكانته فى الحياتين الدينية والزمنية تتضح من تلك الهتافات التى تطلق من أجله ، وكانت اشبه بالترانيم أو التسابيح الخاشعة (لعـل اقرب هتاف

---

(١) أنظر قبله ٠ المترجم ٠

(٢) أنظر قبله ٠ المترجم ٠

(٣) Ecloga, preface .

لها ما نردده « حفظ الله الملكة » الذى يعد نوعا من الهتافات) • ولقد كانوا يؤكدون باستمرار على مركز الامبراطور باعتباره الممثل المباشر لله ، ومن ثم كان يجرى الترحيب به على هـــذا النحو فى كل الاحتفالات التى كانت تقام اما فى الهيدروم أو فى كنيسة أيا صوفيا • وكانت التسابيح التى يترنم بها عند الاحتفال بأحـد العنصرة ، وتتكلم عن الروح القدس بحديث متقد ، تنصب على الامبراطور ، كما أن التهليل الذى يجرى ليلة عيد الميلاد ، كان يرتبط بالتسابيح والعظات التى خصصت لهذا الوقت من العام ، « ألا فليحفظ المسيح ، واهب كل الحيـاة ، عهدك وعظمتك ، وليدفع الأمم عبر كل العالم لتسعى اليك تقـدم الجزية لسلطانك ، كما قدم المجوس الهـــدايا اليـــه [المسيح] » هذه الترانيم كان يصدح بهـا كورس خاص ، بعضه كنسى ، وبعض تدعمه الاحزاب السياسية القديمة فى المدينة ، ويحتوى كتاب المراسم Book of Ceremonies الذى صنفـه قسطنطين السـابع فى القـــرن العاشر ، على مـادة وفيـرة حول مراسم البـلاط الامبراطورى • وتكشف مقدمة الكتاب عن مدى ارتباط الامبراطور البيزنطى بالمسيح ، فهو « المحب للمسيح » Philochristos صديق المسيح • ويبين بوضوح أن هذه المراسم كان لها قدرها وقيمتها لأنها ترمز الى أن النظام القدير فى الامبراطورية الذى يعكس الابداع الالهى ، قد انعم به الخالق على العالم أجمع •

وكان الامبراطور البيزنطى ، الذى يعتبر نفسه خليفة قسطنطين العظيم ، الحوارى الثالث عشر ، يعتلى العرش من الناحية النظرية فقط بالانتخاب ، اما من الناحية العملية فكان اختياره يتم وفقا لقواعد مختلفة • فهـــو اما يختار من قبل الامراطور الجالس على العرش فى حيـاته ، أو يتولى زمام الأمور بعد اقصاء أو عزل الامبراطور الحاكم ، أو يدعى السلطة كامبراطور شريك •وكان من المألوف أن يعلن اختيـــاره بواسطـة الشعب والسـناتو والجيش ، ومن بين هؤلاء جميعا كان الجيش أهم هـــذه العناصـــر على الأطلاق • اما مسالة نجاحه فكان ينظر اليها على انها علامة التأييد الالهى ، وقد اعتـاد البيزنطيون أن يرتضوا ماحدث• ولكن الاله لحكمة يعلمها قد لا يهب عونه دوما للأباطرة الخيرين • وهناك فقرة فى « الرسـائل المنسوبة خطأ الى اثناسيوس Spuria Athanasiana يسأل فيهـــا اللـه كيف سمح لطاغية مثل فوقاس Phocas أن يصبح امبراطورا فى بداية القرن السابع ،

فاجاب « لأنى لم اجد من هو اسوا » · وهذا بالطبع يعد استثناء ، فالبشر لايدخلون بصفة مستمرة فى تجربة قاسية كهذه لمعرفة مدى صبرهم وحقيقة ايمانهم · ومنذ القرن السابع أخذ مبدأ الوراثة فى الحكم طريقه الى الاستقرار ، وأصبح امرا مالوفا ان يتوج واحد أو أكثر من ابناء الامبراطور الجالس على العرش فى حياة أبيهم · ولم يؤد وجود أكثر من امبراطور شريك الى انهيار وحدة الحكم الامبراطورى ، وهذا المبدأ يعود الى أيام المواطن الأول زمن أوغسطس Augustus الذى لم يعقب ذكرا وكانت له ابنة واحدة · وقد حمت عادة المشاركة فى الحكم هذه مسالة الخلافة ، ولعلها استخدمت أيضا لتضع السلطة فى يد حاكم راشد قوى عند وجود قاصر على العرش ، أو لتضمن هيبة الحكومة اذا ما كان الوريث الامبراطورى امرأة او رجلا يفتقد الموهبة السياسية ، ومن ثم فقد كان هناك أباطرة عديدون فى وقت واحد ، ولكن السلطة كانت تتركز فى يد واحد فقط من بينهم ، هو السيد المطلق ، الذى أصبح يعرف منذ القرن السابع بالملك Basileus ، وبعد تتويج شارل العظيم Charles the Great فى الغرب ، لقب الامبراطور البيزنطى بالملك الرومانى Basileus Romaion « امبراطور الرومان » وقد أكد هذا ادعاءه للسيادة العالمية باعتباره وريث روما · أما لقب أوتوقراطور Autocrator (الذى يعتبر ترجمة للفظة امبراطور Imperator فقد استخدم فقط ليطلق على الامبراطور السيد ، ولم يتمتع الشريك الأول فى الحكم من الأباطرة ، بوصفه مميزا عن الامبراطور الأكبر سنا ، بنفوذ فعلى · الا فى أواخر العصور الوسطى ·

ولما كان الامبراطور ممثلا لله ، فقد اصبح من الطبيعى ان تكون له علاقة خاصة مع الكنيسة(٤) فقد جرت العادة منذ منتصف القرن الخامس أن يتم تتويج الامبراطور بيد بطريرك القسطنطينية ، السلطة الكنسية العليا فى الكنيسة البيزنطية ، وقد اختلف الدارسون حول مغزى هذا التتويج ، فرأى بعض انه يعد شيئا جوهريا وانه من الناحية العملية يمنح السلطة الامبراطوية · بينما اعتبر آخرون أن السلطة الامبراطورية كانت شيئا مستقلا عن التتويج الذى يتم بيد بطريرك القسطنطينية · ولكن الحقيقة

---

(٤) انظر الفصل السادس ·

تتضح على صفحات التاريخ البيزنطى أن هــذه المسألة لم تكن شيئا ثابتا جامدا ، بل كانت عــرضة للتغييــر • فالسلطة الامبراطورية رغم الاعتراف لزمن طويل بانها هبة من الله ، لم يكن ينظر اليها أول الأمر على انها منحت بيد البطريرك ، وان كان هذا يختار طبيعيا ليكون الشخص الجدير بمنح الأشعرة التى تدل على أن الامبراطور يباشر حكمه بنعمة من الله وفضل • ويبدو أمرا بعيد الاحتمال أن البطريرك كان يقوم بهذا العمل بمجرد كونه فقط « رجــلا علمانيا ، المواطن الرومانى الأول »(٥) كما كان يعتقد بيورى J. B. Bury حتى اذا كان القرن التاسع أخذت مراسم التتويج شكلها الثابت ، لتصبح فى القرن العاشر أمرا جوهريا لا مندوحة عنه • وعبر هذا التاريخ الطويل للامبراطورية لا تجــد الا امبراطورا واحــدا لم يتوج بصفة رسمية لاسباب خاصة ، هو قسطنطين الحادى عشر ، ولم ينظر اليــه باعتباره امبراطورا بينما نرى هذه السلسلة الطويلة من الأباطرة ابتداء بليو الاول Leo I (٤٥٧ ــ ٤٧٤) يعتبرون تتويجهم بيــد بطريرك القسطنطينية أمرا حيويا بالنسبة لهم ، فهو بصفته الاكليروسيــة ومركزه فى الحكومة الكنسيــة يؤدى طقس رســامة الامبراطور كنائب للمسيح • وعند تتويج الامبراطورة أو الابن أو البنت ، يقوم الامبراطور الذى سبق توا تتويجه على يد البطريرك ، بتسلم التــاج منه ووضعه على رأس أى من هؤلاء • وقد اتخذ هذا كدليل على التصغير من شأن الدور الذى يقــوم به البطريرك ، ولكن لا يجب أن يخفى علينــا أن البطريرك هو الذى سلم التاج فى البداية بعد الصلوات المخصصة لهــذه المناسبة • وفوق هــذا أصبح البطريرك بمرور الزمن مسئولا عن صــدق ارثوذوكسية الامبراطور ، ثم جرى العرف بعــد ما كان من أمر الجـــدل

---

(٥) ويذكر نورمان بينز أن اختيار الامبراطور كان يمر بأربعة أدوار • الأول ينادى السناتو الرومانى أو الجيش بوضع المرشح فى وضع دستورى يجعله فى مكان الامبراطور المنتظر ، على أن يكون من الجائز بعــد ذلك تثبيته أو الغاؤه ،والثانى أن يوافق الطرف الآخر وهو المرشح على ذلك • والثالث التصديق على هذا الاختيار حين يهتف الشعب الرومانى بحيــاة الامبراطور • أما الرابع فهو تتويجه بالتاج على يد بطريرك القسطنطينية ، باعتباره ممثلا للناخبين لا الكنيســة • وقد جرت العادة بذلك وان لم يكن شــرطا أساسيا • انظر الامبراطورية البيزنطيــة ، ص ٨٠ وقارن رنسيمان الحضارة البيزنطية ، ص ٦٨ • المترجم •

اللابقونى على أن يوقع الامبراطور وثيقة ايمـان قبـل أن تجـرى مراسم التتويج(٦) ٠وقد بسط ذلك فى الكتاب الذى وضع فى القـرن العاشر عن الادارة الامبراطورية ، وظهرت نصوصه فى الرسالة التى كتبت فى القـرن الرابع عشـر عن « الوظائف » On Offices والتى تنسب الى كودينوس Codinus ، ويبـدأ التقرير باعتراف بقانون الايمان ، يتلوه عهد بالحفاظ على تقاليد الكنيسة خاصـة ما يتعلق بالمجامع المسكونية السبعة ، والمجامع المحلية ، « وامتيازات واستحقاقات كنيسة الله العظمى المقدسـة » (يعنى كاتدرائية ايا صوفيا ، أو كنيسة الحكمة المقدسة فى القسطنطينية) ، وينتهى بذكر واجبات الامبراطور تجاه رعيته وانزال اللعنة على كل الهرطقات ٠ وبحكم الانتقال الوراثى من زمن لآخـر ، أعطى الجيش ، أو بشـكل اقل ، الناس ، تلك القوة الدافعة التى تبلورت فى تقلد السلطة الامبراطورية ، ولكن هذا التقلد كان لابد أن يمهر ويختم كهبة من الاله ، انتقلت الى الامبراطور بواسطة الصفة الكهنوتية للبطريرك ٠

وقد أدى هـذا الى تميز الامبراطور الى حد ما عن أى علمانى آخر ، ففى كل مكان وكل مناسبة يجرى التأكيد على وضعه الفريد أو فى الحقيقة مركزه ذى القداسة ، وكان يرسم محاطا بهالة أو اكليل ، وكان قصره هو « القصر المقدس ، domus divina أو (theion palation) وكان هـو نفسـه يشبه بالحواريين وله مكانه الخاص فى الخدمات الكنسية ، ففى عيد الميلاد يقوم بتبخير المذبح المقدس ٠ وفى يوم الاثنين عند بداية الصوم الكبير يكرز فى الماجنورا Magnaura بين رجال البلاط المواطنين ممثلى الأحياء ليفتتح بذلك موسم الغفران ٠ ثم يدخل القدس بتقدمته ويمضى من فوره الى المذبح ليتناول القربان ، ليس ممزوجا(٧) ، ولكن كلا على حدة من البطريرك « كما يفعل القساوسة » وفى المجـامع الكنسية كان يسلم عليـه بالملك ـ القس (وقـد ترجمت فى الضبطة اللاتينية لمجمع خلقيدونيـة الى pontifex أو

---

(٦) راجع قبله ٠ المترجم ٠

(٧) عادة مزج عنصرى القربان (الخبز والخمر) تقليد تتبعه الكنائس الشرقيـة ، ويعنى غمس الخبز فى الخمر ، بواسطة ملعقـة الافخاريستا ، عند اتمام طقوس التناول ٠ المترجم ٠

واعترف به كلقب شرعى وضع بواسطة الأباطرة ذوى الايمان Sacerdos القويم وان كانت البابوية قد رفضت خلعه على ليـــو الايسورى لأنه كان مهرطقا) • غير أن هذا اللقب لم يكن يضفى صفة الكهـــانة أو الاكليروسية على الامبراطور ، ولم يحـدث أبدا أن وجـد الامبراطور على سبيل المثال يقدس ، لقـد كان فى الحقيقة مجـــرد استمرار لقصـــة ذلك الامتياز(٨) Privileguim الذى صحبـــه بعض القوانين من أجـــل يوليوس قيصـــر Julius Caesar وأوكتافيوس Octavius والتى اعترفت مؤخرا بالوضع الخاص المخول من الله للامبراطور المسيحى •

ويدل المفهـــوم الدقيق عن الامبراطور الفـــرد على أن الكنيسة كانت جزءا من نظام الدولة ، كما كانت من جميع الوجوه تحت الاشراف العـام للامبراطور ، حتى وان كانت هناك بعض المهام الخاصة التى لا يستطيع هو أن ينجزها بنفسه • ولم يكن التمييز بين ما لقيصر وما للـــه واضحا تماما فى الامبراطورية المسيحية Imperium Christianum فى روما الشرقية ، كما هـــو حادث فى عالم الغـرب المسيحى ، ولم يكن يطفو على السطح فقط الا عندما يكون الامبراطور هرطوقا • وكان من المسلم به أن الامبراطور يتحمل مسئولية خاصة فى حماية القانون والنظام بين رعاياه ، الكنسيين والعلمانيين على السواء ، وقد فســر ذلك على أنه يتضمن ليس فقط سلوكهم كأفراد ، ولكن نظام وتركيب المؤسسات الكنسية (مثـــل الأديرة) أو الادارة الكنسية (كاعادة تنظيم الابروشيات) ، وتفيض المتجـــددات Novels الامبراطورية بهذا النوع من التنظيمات • وكان الامبراطور يمارس سلطته هـــذه أيضا عند اختيار كبار رجال الاكليروس كالبطريرك أو الأساقفة • وعنـــدما تتم رسامة البطريرك الجديد ، يعلن الامبراطور بنفسه نص المرسوم ، « تم تعيين هذا الرجل أسقفا للقسطنطينية بنعمة الله وبسلطتنا الامبراطورية المستمدة من فضل الله » •

علاوة على ذلك ، فقد كان للامبراطور منذ البداية دور حيوى فى أهم

---

(٨) للمزيد من التفاصيل عن ذلك • أنظر دكتور عبد اللطيف أحمد على : التاريخ الرومانى ، ص ٢١٥ ــ ٢٣٧ ، Boak, op. cit. pp. 237-238 المترجم •

عنصر من عناصر الحكومة الكنسية وهو المجامع المسكونية · فقسطنطين العظيم هو الذى دعا أول المجامع المسكونية للانعقاد فى نيقية · سنة ٣٢٥ وقال انه « اسقف أولئك الذين بالخارج » ربما فى مواجهة جمع الأساقفة المنتظم داخل الامبراطورية · ولقد حظى الامبراطور حقيقة بمركز مسلم به فى المجامع التى لم تكن تشبه تلك التى عقدها الآباء · وهنا أيضا تضاريت التأويلات وساد سوء الفهم نتيجة الاخفاق فى ادراك تأثير النظم التى كانت سائدة قبل مجىء المسيحية · ففيما يتعلق باجراءات عقد المجمع المسكونى للكنيسة كان يحتذى بما يتبعه السناتو الرومانى ، حيث توجه الدعوة لعقد المجمع من جانب الامبراطور ، وتكون رئاسته للامبراطور أو مندوبيه (وهذا يطابق ما كان من حق المواطن الأول أو القنصل) بينما كان للبابا أو رسله حق التصويت أولا (وهو يطابق هنا رئيس مجلس الشيوخ Princeps Senatus وكان لابد أن تحمل المراسيم الصادرة عن المجمع توقيع الامبراطور · والحقيقة أن مساندة الامبراطور فى هذا السبيل كانت تعد شيئا جوهريا · فهو الذى يملك السلطة الكفيلة بوضع هذه المراسيم موضع التنفيذ · وتبرز مجموعات الفريسك والفسيفساء والمخطوطات المصورة هذه الحقيقة (ونرى شيئا من هذا القبيل أيضا يمارس فى المجامع المحلية بواسطة ملوك بلغاريا أو الصرب) أما الى أى حد كان يصل نفوذ الامبراطور فى ادارة دفة الحوار ، أو فرض وجهة نظره على الحضور ، فيتوقف على الظروف السائدة وشخصية الامبراطور نفسه ، ومع ذلك فقد كان حضوره واهتمامه أمرا عاديا مسلما به كما تشهد بذلك محاضر الجلسات · وقد أصبح واقعا أن الامبراطور لا يستطيع أن يفرض ارادته على الكنيسة فيما يتعلق بالمسائل العقيدية(٩) · خلاصة القول أن الجميع كانوا يدركون أن أول واجبات

---

(٩) لم يجر الأمر على هذا النحو فى بداية القرن الرابع عندما اعترفت الدولة بالمسيحية ديانة شرعية على يد الامبراطور قسطنطين . ذلك أن قسطنطين فى مجمع نيقية ساق الأساقفة ـ وهذا هو تعبير المؤرخ الكنسى يوساب القيسارى ـ الى التوقيع على صيغة الايمان التى تتضمن مصطلح « الهوموسية » Homoousius (مساواة الابن للآب فى الجوهر) ، وهى الصيغة التى أوحى بها اليه مستشاره للشئون الدينية هوسيوس أسقف

الامبراطور حماية الأرثوذكسية · وقد يقدم الامبراطور على اتخاذ اجراء شخصى اذا ما بلغت الهرطقة مداها ، كما فعل الكسيوس كومننوس ضد البوجوميليين فى نهاية القرن الحادى عشر ، أو يدعو لعقد مجمع عام أو محلى ليناقش معه بعض المشاكل ذات الطابع الخاص ·

ورغم هذا التسليم الجماعى بطبيعة الاهتمام الامبراطورى بالكنيسة فيما يتعلق بكل شئونها ، الا أن ذلك لم يمض هكذا دون تحد ، ومع هذا فان المعارضة كانت نادرة على الاقل فى الامبراطورية الرومانية الشرقية · وقد أكد رجال الكنيسة أمثال امبروز Ambrose قرب نهاية القرن الرابع ، أن مركز الامبراطور داخل الكنيسة وليس فوقها ، ونددوا بعنف بالتدخل الامبراطورى فى مسائل العقيدة · ورفعوا بصفة دائمة ذلك المفهوم ، الذى ربما يعود الى الزمن اليهودى ، الخاص باعتبار الكنيسة أعلى قدرا من الدولة ، وانها ليست جزءا منها (وهى الفكرة الاوغسطينية فى مواجهة وجهة النظر اليوسابية) · وقد ذكر البابا جلازيوس الأول Gelasius عند ٤٨٩ أن « الامبراطورية وليد الكنيسة وليست سيدها » ، وجلا النظرية الخاصة بالعالمين ، وبين أن الروحى هو الاعلى ، رغم أن الجميع كانوا قد سلموا للامبراطور بانه « حامى الارثوذوكسية » defensor orthodoxae وقد اتخذ التطور السياسى فى العصور الوسطى فى عالمى المسيحية اليونانى واللاتينى طريقين متباعدين ، وانعكس هذا الى حد كبير على نظرتهم فيما يتعلق بالكنيسة والدولة · ففى الشرق ، وبعد فترة من امعان النظر ومحاولات التوفيق ، تم التسليم بحدود معينة للسلطة الامبراطورية على الكنيسة · ولكن شيئا من هذا لم يحدث فى الغرب مطلقا · وكان يبدو أمرا بعيد الاحتمال ، أن يرغب عدد من الرومان الشرقيين فى قبول تلك الصيحة التى اطلقها ثيودور رئيس رهبان دير ستوديوس فى القرن

قرطبة · وكانت مقبولة لدى الغرب منذ القرن الثالث على عهد ديونيسيوس أسقف روما ، وقبلها على مضض سميه أسقف الاسكندرية المعاصر له · واضحت هذه الصيغة هى قاعدة الايمان الارثوذكسى من بعد فى الكنيسة · للمزيد من التفاصيل ·

انظر للمترجم الدولة والكنيسة . الجزء الثانى ، ص ١٩٢ ــ ١٩٩ ·

المترجم ·

التاسع(١٠) بصورة عنيفة كمبدأ عملى ، « أيها الامبراطور ، حـذار من أن تحطم استقلال الكنيسـة فدعها لاصحابها الاكليروس والرهبان » . ولـكن الواقع يكشف بجـلاء اهتمـام العلمانيين والكنسيين على السواء بالمسائل اللاهوتية ، ومن ثم لم يقتصر الامر بالنسبة للامبراطور على حـد التشريع للكنيسة فيما يختص بالنواحي التنظيمية فحسب ، بل دائما ما كان يبدى اهتمامه بالجدل اللاهوتى ، كما حدث فعلا فى القـرن الحـادى عشر عندما ظهرت عقيدة الزهد الصامت hesychast والجـدل الذى دار بشأنها حول طبيعـة الاله وكيف يكشف عن نفســه(١١) . ويمـكن التعبير عن علاقة

---

(١٠) أنظر قبله . المترجم .

(١١) ظهرت حركة الزهد الصامت فى النصف الأول من القرن الرابع عشر . وقد أطلق على أصحابها هـذه التسمية « الزاهدون الصامتون » او « أولئك الذين يحيون فى صمت » وهدفهم الجوهرى الاتحاد التام بالله . وقد انتشرت هذه الحركة بصفة خاصة فى جبـل آثوس ، أشهر موطن للرهبنة البيزنطية ، واختلفت آراء الدارسين مثـل عالم البيزنطيات الالمانى جلتز Gelzer والمؤرخ اليونانى بابا ميخائيل Papamichael وترويزكى Troizky واوسبنسكى Uspensky حـول ماهيتهـا . ويعتبر جريجورى بالمـاس Gregorius Palamas رئيس أساقفـة سالونيك ، أشهر رجالهـا وواضع قواعدها فى القرن الرابع عشـر . وساعده على ذلك احتـرام الامبراطور أندرونكوس الثانى له . وقد أشتد أوار الجدل عندما قـدم أحـد الرهبان اليونان وهو بارلام Parlaam من كالابريا وقدم الى البطريرك تقريرا عن اديرة جبل آثوس وما يدور فيها ، وانبرى بالماس للرد عليه ، مما ادى الى أن تبادر القسطنطينية بالدعوة لعقد مجمع فى أيا صوفيا ، انتهى الى ادانة بارلام واجباره على طلب التوبة والغفران على ما اقترفت يداه » . وقد ادى هذا الانتصار الذى حققه بالمـاس فى المجمع الى ازدياد نفوذ الرهبان على الدولة والكنيسة معا ، وساعد على ذلك اضطراب الأمور فى الداخل نتيجة للنزاع بين أندرونيكوس الجـد وسميه الحفيـد ، ويوحنـا باليولوجوس وسميه كانتا كوزنوس ، الى جانب التهديدات المستمرة على حدود الدولة من جانب الترك والصرب .

أنظر Encycl. of Religion and Ethics, art. hesychast
وأيضا The New Schaft-Herzog encyclopedia of religious knowledge
وكذلك Vasiliev, op. cit. II, pp. 665-670
وراجع أيضا Baynes & Moss, Byzantium, pp. 114-116
و Ware. The Orthodox Church, pp. 72-89 المترجم .

الامبراطور بالبطريرك ، أو بتعبير آخر المسائل الدنيوية بالكنيسة . لا بهذا المصطلح المبهم « القيصرية البابوية » Caesoropapism ولكن كنوع من « المصلحة المشتركة » . فقد اعترفت بيزنطة دائما بهذه المصالح المشتركة بين الكنيسة والدولة ، حتى جوستنيان ، الذى كان حاكما أوتوقراطيا . افتتح نوفلاه Nevel السادسة بهذه الكلمات « ان أعظم الهبات التى من الله بها من عل على البشر · بحبه الانسانية philanthropia هى الكنيسة والامبراطورية ، الأولى ترعى ما يختص بالله والأخرى تعمل الفكر فيما يتعلق بحياة بنى البشر » وقد احسنت صياغة ذلك قرب نهاية القرن التاسع فى ذلك الكتيب القانونى « المدخل »(١٢) Epanagoge حيث تقارن بين الامبراطور والبطريرك كانهما الروح والجسد ، كلاهما حيوى للآخر ، كلاهما له نفس القدر من الأهمية فى الوحدة العضوية · وعلى نفس المنوال نهج يوحنا تزيمسكس وآخرون فى القرن العاشر · وتم اجهاض الأصوات المعارضة كما حدث فى القرن الحادى عشر بالنسبة للبطريرك ميخائيل كريولاريوس Michael Cerularius ولم يسمح لأى منهما أن تشوه وجه العلاقة التقليدية بين الكنيسة والدولة ، وعندما رفض الامبراطور أندرونيكوس الثانى فى القرن الرابع عشر نصيحة كالكاس Calecas حاجه الأخير بقوله « عجبا ·· تأمرنى أن أرعى شئون الكنيسة واسمح لك أن تحكم الامبراطورية بمحض ارادتك · ان مثلك ومثلى كمثل الجسد يخاطب الروح « لا أريد صحبتك ، ولن أصغى لفكرك واوامرك فيما يتعلق بشئونى ·· ولسوف أمضى فى طريقى ، ولتمض انت ان شئت فى طريقك » ورغم هذا فقد كانت هناك تغييرات ذات دلالة واضحة ، وان كان يمكن القول بصفة عامة أن الكنيسة أخذت تزداد قوة خاصة بعد الجدل الذى نشأ من حول الايقونات ، ويعكس الفن الامبراطورى فى الفترة الوسيطة هذا التغيير ، فلم يعد الامبراطور بعد الحرب الايقونية يظهر فى الصورة كاهنا وملكا شأن ملكى صادق Melchisedech(١٣) كما تنطق بذلك الفسيفساء الموجودة من

---

(١٢) انظر قبله ص ١٥٠ ·

(١٣) هو ملك شاليم (أورشليم) ، وكان معاصرا لابراهيم أبى الأنبياء ، واكتسب شهرة فى زمانه حيث كان يجمع بين الملكية والكهانة · وقد جاء

القرن السادس فى كنيسة القديس فيتـالى(١٤) San Vitale ، بل أصبح يقف جنبا الى جانب البطريرك كموسى وهارون · وقد تخلصت الامبراطورية بعد صراع مرير عبر القرون من المشاكل العقيدية الكبرى ، وفقدت الولايات الانفصالية الهرطوقية فى الشـرق من الامبراطورية وعلاها لواء الاسلام · ونلاحظ أن الفن الامبراطورى منذ القرن التاسع فصاعدا ، وكـذا ادابه ، يؤكدان على ابراز شخص الامبراطور فى مواكب النصر ، بقدر تصويره أمام الرب مسئولا قبل الجميع عن الحفاظ على الأرثوذوكسية ، الايمان القويم ·

ولما كان الامبراطور نائبا عن المسيح ، فقد أصبح لذلك مصدر السلطات أوتوقراطيا ، بمعنى أنه لم يكن هناك جهاز دستورى له فعاليته ، بحيث يمكن بواسطته مساءلته أو مناقشة سياسته أو حتى تنفيذ سياسة بديلة عنها ، ولم تجد دولة المدينة الاغريقية القديمة ، ولا النظم الغربية فى العصور الوسطى المتأخرة ما يقابلها فى بيزنطة · ولـكن الأوتوقراطية والطغيان كانا شيئين مترادفين ، وكان الحـاكم البيزنطى غارقا فى المسئوليات التقليدية لمنصبه الامبراطورى · حقيقة لقـد سادت الارادة الامبراطورية بصفة عـامة من الناحية العملية ، ولكن كانت هناك حدود واضحـة لايجوز للامبراطورية تخطيها ، والا كان يلقى بيديه الى التهلكة · ولعـله مما يجـدر ذكره أن الامبراطور لم يكن مقيـدا فقط بيمين التتويج ، بل كان شـأن الأدنياء من رعيته ، يخضع للحرم الكنسى اذا ما اكتسب اثما · ومن اوضح الامثلة على ذلك أن امبراطورا قويا مثل يوحنا تزيمسكس أيقن تماما انه من الضرورى النزول على تهديد البطريرك ، ولم يسعه الا أن يعدل سياسته تبعـا لذلك · وحتى فى أحلك الساعات التى كانت تمر بها بيزنطة لم يستطع الامبراطور أن يستميل الكنيسة والجموع للموافقة على اعادة الوحدة الكنسية مع روما ·

وقد ارتضى الحكام البيزنطيون مبادىء القانون الرومانى التى ورثوها، لقد كان الامبراطور تجسيدا للقانون او القانون يسعى على الأرض كما كان

ذكره فى الكتاب المقدس فى أكثر من موضع · أنظر سفر التكوين ، الاصحاح ١٤ ، الآيات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، مزمور داود ١١٠/٤ · المترجم ·

(١٤) أنظر بعده · المترجم ·

يسمى • وكان فض النزاع وحماية الفـــرد فى المجتمع بالوسائل السلمية ودون اللجوء الى العنف يعـد فى حد ذاته قيدا على الأوتوقراطية المطلقة • وكحراس على مجتمع داخـل اطار حضارى ، عهـــد الأباطرة الى لجـان متخصصة للتحقق من أن مجموعات القوانين قد برئت من التراكمات أو ما يكون قد شاب نصوصها ، وأنها خالية من التعقيدات التى تجىء بسبب توالى (وغالبا تضـارب) التفسيرات المتعلقة بالمواد الرئيسية • كما انهم وضعوا بعض التعديلات أو الاضافات حسبما تقتضيها حاجات الامبراطورية • ولم تنحصر اهم هذه الأعمال فقط فى مجموعة جوستنيان القانونية ، بل هناك ايضا مقننات اباطرة القرن الثـامن وأواخر التاسع وأوائل العاشر ، التى الحقت بمجموعات أخرى غير رسمية وكتيبات صغيرة مثل قانون الفـلاح Farmer's law الذى صدر ربما فى نهـاية القرن السابع ، وكتاب الوالى Book of the prefect الـذى صنف طوائف الحـــرفيين فى القسطنطينية فى بواكير القرن العاشر • وكذلك القواعد الكنسية التى وضعها فقهاء القانون الكنسى • أما العمل الذى ظهر فى مطلع القرن العاشر وسمى « التشريعات الامبراطورية Basilica فقد أصبح مؤخرا الصيغة النهائية لمجموعة القانون الرسمى • وقد صدرت هذه التشريعات باللغة اليونانية ، اللسان السائد فى الامبراطورية ، وأشرف عليها كل من باسل الأول وليو السادس ، وقد عملت الأجيال المتعاقبة على استخدامها واضافة التعليمات والشروح عليها بصفة دائمـــة •

والي جانب هذا التقدير والاهتمام بالناحية القانونية ، جرى الاهتمام أيضا بالمحاكم حيث تطبق هذه القوانين • وكان الاستئناف العـــالى يرفع للامبراطور فى مجلسه الامبراطورى ، كما كانت الأحكام المتعلقة بقضايا أمن الدولة من اختصاصه • وكانت القضايا ترفع وتناقش فى المحـاكم المحلية علمانيـة كانت أو اكليروسية تبعا لنوعية الخصوم والدعوى • ومـع بداية الاعتراف بالمسيحية ، اخذ الامبراطور يبـــدى اهتمامه بتعريف وتحـديد اختصـاص كل منهما • فاختصت المحـــاكم الكنسية عادة بالقضايا التى يكون المدعى عليه فيها من رجال الـدين ، كما تختص بنظر القضايا المدنية اذا كان طرفا النزاع فيها ايضا من بين الاكليروس • وحولت اليهـا كذلك

قضايا الأحوال الشخصية ، ويتضح نمو سلطان الكنيسة فى ازدياد الدور الذى تلعبه فى الناحية القضائية حتى انه بعد عـام ١٢٦١ أصبح الحـد الفاصل بين المحاكم الكنسية والمدنيـة أقـل وضوحا ، واعتمدت السلطة الامبراطورية كثيرا على رجـال الكنيسة ، مثـال ذلك أن العلمانيين ، والاكليروسيين فى نهاية العصور الوسطى كانوا يرسلون الى الخارج فى دورات قضائية ، كما أقيمت مؤخرا محـاكم استئناف محليـة فى مناطق مختلفة من الامبراطورية المبتـورة لتوفر على المتقاضين ماسوف يضيعونه من وقت ومال اذا ما استأنفوا قضيتهم فى العاصمة ٠

وكان الأوتوقراطور مسئولا عن سن السياسة وتوجيه الادارة ، بيـده الأمر ، يولى من يشاء ويعزل من يشـاء ٠ وكانت الوظيفـة تمنح بمرسوم امبراطورى ، وللتدليل على أن الامبراطور هـو مصدر هذه السلطات ، فقد كان يرمز لذلك بخلعة تشريفية ، غالبا فى عيد الفصح ، بالاضافة الى لقب تشـريفى يدل على المنصب الذى سوف يشغله هـذا الشخص فى مراسم البلاط ٠ مثل هذه الألقاب التشريفية كان لابد أن تمنح من قبل الامبراطور شخصيا ، فلقب كبير الموظفين magisater على سبيل المثال ، كان يحمل معه لفاعا أو عباءة مطرزة بالذهب ، ورداء تم نسجه بخيوط بيضاء مذهبة ، وحزاما مرصعا بالجواهر ٠ ولابد أن مراسم هذا شأنها كانت تساعد على زيادة اعتماد كبار الموظفين على الامبراطور ، الذى كان يقوم فى الحقيقة أيضا بدفع مرتباتهم فى أحـد الآلام Passion Sunday كما لاحظ المبعوث الايطالى ليوتبراند Liutprand أسقف كريمونا Cremona فى القـرن العاشـر ٠

اما السناتو كركن أساسى فى الحيـاة السياسية فقد توقف عن أن يصبح عاملا له أهميته فى الحكم ٠ ومع انه اثبت فى بعض الأحيان مقدرته على امتلاك زمام المبادأة ، كما حدث عند وفاة الامبراطور ليـو السادس عام ٩١٢ وخلال السنوات الأولى من عهد ابنـه القاصر قسطنطين ، الا أن ذلك كان أمرا خارجا عن المألوف ٠ جملة القول أن السناتو كان يتكون من أعضاء يتميزون فقط بالألقاب التشريفية دون أن تكون لهم مهام حقيقية ، اما مستشارو الامبراطور فلم تكن لهم الصـفة الرسميـة المألوفة ، ذلك انهم

كانوا يشكلون مجموعة صغيرة من الرجال الذين ارتبطت مراكزهم بالاختيار الامبراطورى ، ويمكن الاستغناء عنهم حسب ارادة الامبراطور ، على حين كان هناك بعض القـــدر من الدوام فى الفروع الدنيـا من الادارة المدنيـة والمحاكم • أما نظام جباية الضـرائب فقـــد ازداد رسوخا بمرور الأيام (كما يعلم الجميع) ومن المحتمل أن يكون قـــد تعرض لبعض التعديلات اما بالاستحسان الامبراطورى أو الوسائل الامبراطورية • وقد تمت الاغارة على سلطـة الحـــكومة المركزية ومواردها عن طريق منح الكثير من الاعفاءات exkousseiai لكبـار الملاك من العلمانيين ورجال الاكليروس ، واتخـذ هذا الاسلوب اشكالا شتى ، فقد كان على المالك أن يتولى بنفسـه مسئولية جمع الضرائب من مستأجريه ، وأن يرسل بها مباشـــرة الى خزانة الدولة المركزية ، وبهذا يمكنه تجنب الاستقبال المقيت لجباة الضرائب عند قدومهم الى ضيعته ، أو ربما يعفى من كل أو بعض الالتزامات الضرائبية ، كما كان يتمتع فى بعض الأحيـان باختصاصات قضائية تجاه مستأجريه • ومع نهاية القرن الحادى عشر عملت الهبة المعروفة بنظـــام « الميرة » Pronoia على اضعاف الادارة الامبراطورية الى اقصى حد(١٥) •

وقد بلغت الادارة المدنية البيزنطية حـدا بالغا من التعقيد ، ولكنهـا كانت ، على عكس الاعتقاد الشائع • تتميز بالكفاءة والمرونة • فقـــد كان نظـام الادارة يخضع بصفـة مستمرة للمتابعـــة الامبراطورية ، وتعرض لتغييرات جوهرية خلال التاريخ البيزنطى الطويل • وكان هذا النظام يتمركز فى القسطنطينية حيث توجد هيئة كبار الموظفين المدنيين الذين يتلقون أوامرهم من الامبراطور ، وبينما كان البعض مثـــل محافظ العاصمة يتمتع بمركز ممتاز ويؤدى واجبات واضحة محددة ، كان البعض الآخـر يشغل مناصب تتصل مباشرة بالبيب الامبراطورى • مثل كبير الأمناء Grand Chamberlain الذى كان بسبب ملازمته لشخص الامبراطور يتحمـــل تبعات ضخمة وغالبا ما يحظى فى الوقت ذاته بنفوذ كبير • وكانت هناك الوظائف المدنية العادية كتلك التى تتصل بالقضاء والمالية وما يتعلق بها من اقسام عددية ، فقد كان

---

(١٥) راجع ص ١٤٨ •

يوجد مثلا قسم مالى خاص مهمته توفير المعدات للجيش ، ولهـذا كانت له سلطة على المصانع فى الدولة ، وكانت منطقـة اشرافه الرئيسى هى حقول تربية الجياد فى آسيا الصغرى ٠

وتختلف الادارة المدنية فى القرن العاشر عنها فى أوائل القرن الرابع فيما يتعلق بالتفاصيل ، وجملة القـــول أن التغيرات كانت ترى فى كيفيـة توجيه هذه الخلايا الكثيرة من الوظائف الهامة ٠ وهكذا كنا نجـــد تمايزا فى الوظائف مع الاعتماد المتزايد على الامبراطور ، بحيث أصبحت السلطة المركزية أكثر دقة ، وأضحى كبار الموظفين أقل استقلالا ، وتلاشت اللامركزية التى كانت السمة الواضحة زمن النواب البرايتوريين Pretorian Prefects وان كان التهديد الكامن فى كبار القـادة العسكريين ، أو كبـــار الأعيان ما يزال ماثلا ٠

وشملت التغييرات أيضـا تنظيم الولايات ، فقد اقتضت الأحـــوال العسكرية فى القرن السابع أن تأخـــذ الأسـرة الهرقلية على عاتقها مهمة الاصلاح الأولى ، واستمر هـذا الاصلاح من بعد على عهود خلفائها(١٦) ، فتغير التصنيف الاقليمى للولايات الجـديدة التى عرفت بالثيمات themes تحت ادارة حاكم ، كان يسمى عادة « القـــائد » strategos جمع فى يديه السلطتين العسكرية والمدنية ٠ وقد تعرضت هـــذه الثيمات للتقسيم بصفة مستمرة ،و أيضا الاضافة ، كلما ضمت أرض جديدة ، أو الاشـــراف على الولايات التى فقدت وأعيدت ثانيـة ، على يد القادة البارزين فى الحقبـــة البيزنطية الوسيطة ٠ فلما انهارت الامبراطورية سنـة ١٢٠٤ كان لابد أن تطرأ تعديلات أشد عمقا وانتقلت الأقاليم فى الحقيقـة من يد الى اخـــرى بصورة متكررة حتى أن التنظيمات الادارية فى الولايات كانت تتجه الى أن تصبح مجـرد حبـر على ورق ٠ ومع ذلك فان نواة النظـام الادارى ظلت باقية ، وهى التى مكنت أسرة باليولوجوس من أن تبقى فى الحكم ما يقرب من قرنين ونصف من الزمان بعـــد التقسيم الـلاتينى الـــذى تعرضت له الامبراطورية ٠ وقـــد لعبت البيروقراطية اليونانية السائدة دورا بارزا فى تجميع الأجناس المختلفة التى كانت تحتويها بيزنطة ، ســـواء زمن مجدها

---

(١٦) انظر الفصل الحادى عشر ٠

وازدهارها ، أو حتى عندما كان قدرها الى زوال • هـذا التنظيم الادارى هو الذى مكن الامبراطورية من الدفاع عن حدودها أو توسيع دائرة هـذه الحـدود •

وكانت السياسة الخارجية تتركز كلهـا فى يد الامبراطور الذى كان يعتبر وزيرا للخارجية بارعا ،ويتضح هذا بصـورة تثير الدهشة فى الكتاب الذى وضع « عن الادارة الامبراطورية De Administrando Imperio وتناول بالتفصيل المبادىء الأساسية فى الشئون الخارجية • وقد صنف هذا الكتاب فى منتصف القـرن العاشر ليخصص لابن الامبراطور قسطنطين السابع ، وليس هناك شك فى انه قـد استخدم ايضا من جانب كبـار موظفى ادارة الخارجية • وكان واضحا انه لم يوضع للاستعمال العام ، ومن ثم لم يكتب منـه الا عـدد قليل جـدا من النسخ الخطية • ولا شك أن الاهتمامات الامبراطورية • والخلفيـة العريضة كان لها تأثيرها بطبيعة الحـال على مبادىء السياسة الخارجية ، من ذلك مثلا أن الامبراطور نقفور فوقاس الذى ينتمى لأسـرة ثرية فى آسيا الصغرى ، كان يبدى اهتماما زائدا باكتساب أراض جديدة على الجبهة الشرقية اكثر من اهتمامه بالدفاع عن الدانوب • بينما حرص قسطنطين التاسع ،وهو رجل يكره الحـرب ويعشق الدعة ، على أن يعيش بـكل الوسائل حيـاة متـرفة فى القسطنطينية • وغالبـا ما كانت نواحى القصـور عنـد امبراطور خامل ، أو وريث للعرش قاصر تعوض بكفاية على يد امبراطور شريك مقتدر حتى نهاية القرن العاشر بصفة خاصـة •

وكيفما كانت وجهات النظر الشخصية لـدى الأباطرة ، فان الحـدود الطويلة والتهديدات المستمرة من جانب الأعداء المجـاورين ، لم تكن تسمح لادارة الخارجية البيزنطية الا بوقت قليل تسترد فيه انفاسها اللاهثة ، فقد كانت الدبلوماسية سلاحها التقليدى المحبب اليها • وقد جرب هذا السلاح فى مناسبات عـديدة ، تنـاول كتـاب « عن الادارة الامبـراطورية » De Administrando Imperio الكثير منها بالشـرح والتوضيح • وفى القسطنطينية نفسها لم تترك فرصة واحدة تمر دون استغلالها فى التأثير على الزائرين والرسل • لقد كان الزائر يقف مشدوها أمام روعة مبانيها وقـوة

تحصينتها وثراء تجارها وحركة أسطولها ، ثم لا يلبث الزائر أن يفقد لبه أمام هذا الاستقبال الامبراطورى الرائع ، الذى لايكاد يفيق منه حتى يفجأه الامبراطور بهدية ثمينـة ولقب تشريفى عظيم • وكان هـذا كله يمول من حصيلة المدفوعات السنوية ، أو المنح الخاصة من أجل الحفاظ على العلاقات الودية القائمة ، أو اثارة عدو ضد آخر ، كما حـدث من تحريض البشناق ضد البلغار ، أو هؤلاء ضد الروس • وكان الثائرون واللاجئون السياسيون يجدون الترحيب الحار فى القسطنطينية لأسباب لاتخفى على أحـد • وبعد الحملة الصليبية الأولى ارتفع عدد الزيجات السياسية بين البيت الامبراطورى فى بيزنطة والعائلات الملكيـة الصقلبية او الغربية ، على خلاف ما كان سائدا فى القـرون الأولى للامبراطورية حسبما جـاء فى كتـاب « عن الادارة الامبراطورية » من التركيز على انه لا يليق بمن ولـدت فى الأرجـوان أن تقترن بغير بيزنطى • (وان كان هذا قد حدث بطبيعة الحال عند الاقتضاء) • وهكذا ، على الرغم من أن المبادىء الأساسية للدبلوماسية البيزنطية بقيت دون تغير ، الا انها كانت تتسم بالمرونة عند تطبيقهـا ، ووضعت السياسية بحيث تتمشى مع الظروف المتغيرة •

وكانت مسئوليـة تكوين الجيش وبناء الأسطول تقع هى الأخرى على عاتق الامبراطور ، فهو الذى يختار القادة العسكريين ، وأمراء البحر الذين يتولون قيادة الحملات العسكرية فى البر والبحر ، وان كان غالبا ما يتولى ، شأن باسل الثـانى وميخائيل الرابع ،أمر القيـادة بنفسه • وكان الجيش يعتبر حجر الزاوية فى امبراطورية يحيط بها الأعـداء من كل جانب ، لقـد كان موضعه من الدولة « موضع الراس من الجسد » • وقبل القرن الحادى عشر كان تجنيد القوات كلما أمكن ذلك من العناصر المحليـة خاصة الأرمن والايزوريين الذين أثبتوا كفاءتهم القتالية ، وابتداء من القرن السابع كان الجنود يحصلون على أجرهم فى شكل هبة وهى عبارة عن قطعة من الأرض يحوزها الجندى وراثيا مقابل الخدمة العسكرية ،ويتسلم الى جوارها مبلغا معينا من المال عن كل سنة أمضاها فى الخدمة العسكرية بحـد أقصى اثنى عشر عاما • وقد بذلت جهود امبراطورية كبيـرة لحماية هؤلاء الجنـود المزارعين ، غير أنه فى القرن الحـادى عشر بدا واضحا أن أعدادهم أخذت تتناقص ويعود ذلك فى الدرجة الاولى الى شراء كبـار الاعيان لاراضيهم

دفعة واحدة ، أو نتيجة للاغارات التركية المستمرة · ومنـــذ القرن الثانى عشر أخذت الناحية العسكرية شكلا اكثر أرستقراطية ، وربما اكثر اقطاعية ، مع ازدياد استخدام نظام « الميرة » Pronoia وكانت هذه الهبات تعد شيئا ثابتا أو محبوسا لايمكن التصرف فيه ، حيث تمنح الى كبـــار الاعيان فى مقابل الخـدمة العسكرية(١٧) · وقـــد عمم ذلك ايضا بالنسبة للجنـــود المحترفين ، الوطنيين منهم والاجانب · ولقد كان هذا امرا باهظ التكاليف ، ونتيجة لنضوب الموارد المالية كان الضباط فى بعض الاحيان يتقاضون هبات تخولهم الحق فى تحصيل الضرائب الامبراطورية من اقاليم أو ضياع معينة · ولكن هذه الوسيلة كانت مقيته لدى المواطنين حيث انها ادت الى الاستنزاف الكامل لتلك المناطق ·

وقبل أن تأخـذ الامبراطورية طريقهـا الى التـداعى ، كانت جيوش الولايات تتركز فى الثيمات ، واتخذت احتياطات خاصة من اجـــل مناطق الحدود ، التى كان يقوم بحمايتها والسيادة عليها سلسلة من سادة البر · ولدينا صورة عن الحياة فى هذه المناطق الشرقية فى القرن العاشر مبسوطة فى قصة ديجنيس اكريتاس ، بامه المسيحية وابيه الذى ارتد عن الاسلام ، والذى تتضح اعماله الخارقة ومغامراته فى ملحمـــة شعرية تتغنى بسير الابطال · وفى القسطنطينية ، كان حـراس القصـر ، الفرسان والمشـاة ، يعسكرون شانهم شان الحرس الامبراطورى الخاص · وكان هذا الاخير يتكون من عدد كبير من المرتزقة الاجانب · اما فى القرن الحـــادى عشر فقد ذاع صيت الحرس الخاص الذى عرف بالورنك(١٨) Varangian وضم مجندين من اقطـار بعيـدة ، وان كان يتشـــكل فى اساســـه من الجنود الروس والاسكندنافيين ، حتى اذا كانت نهاية القرن غدا جله انجلوسكسونيا ·

ونقف على التفاصيل التى تتعلق بالجيش ، فرسانه والمشاة ، امتعته

---

(١٧) انظر : P. Lemerle, Recherches sur le regime agraire a Byzance La terre militaire a l'epoque des Comnienes, in Cahiers de Civilisation Medievale 2 (1959) هـذا البحث يناقش هـــذه القضيـــة ، ومازال مسالة ال Pronoia قيد الدراسة والبحث ·

(١٨) راجع ص ١٥٢ المترجم ·

وتجهيزاته ، مدفعية الميدان المتحركة والات القتال ، من المصادر التى بين أيدينا خاصة تلك المؤلفات العسكرية المتعـددة ، وبلغ فن القتـال درجة عالية من الدقة والاتقان ، وأعطى اهتمام خاص للنواحى الدفاعية ، وبذلت الجهـود للمحافظة على الموارد بتجنب البـدء بالجهوم ، ودرست بعناية فائقة خطط العدو استعدادا للقتال فى حالة عدم امكانية تجنب المواجهة السافرة • ولاشك أن تفـوق الجيش البيزنطى كان من بين الأسباب التى جعلت بيزنطـة قادرة لفترة طويلة على الاحتفاظ بحدودها مصونة من عبث جيرانها • وكان جنوده يملأهم الحمـاس ليس فقط لاعتقادهم بانهم يؤدون ما عليهم من واجبات ، ولكن لايمانهم بانهم يحاربون من أجل القضية المسيحية ضـد الكافرين ، وسوف يجدون سعادتهم فى مملكة الله الآتية • وكان يرافقهم فى حمـلاتهم العسكرية منشدون Cantatores يثيرون حماستهم ، الى جانب جمـاعة من الاكليروس ، وكانوا يستقبلون يومهم بالصلاة وبها يودعونه ، صيحتهم فى المعركة « فلينتصر الصليب » ، يندفعون الى القتال بروح صليبية ، متطلعين لمقدم جند السماء خاصة اولئك القديسين المجاهدين مثـل القديس جورج St. George أو القديس ثيودور St. Theodore الذين يحاربون فى كنفهم وتحت رعايتهم •

والى جوار هذه القوة الحربية التى لاتقهر ، يحتل الاسطول البيزنطى مكانه • حقيقة انه لم يلق نفس القدر من الرعاية التى نالها الجيش ، ولكنه كان على أية حال يستطيع أداء القيام بدوره الملقى عليـه فى التصـدى لموجات الهجوم الاسلامى • وعلى غـرار الثيمات العسكرية كانت هنـاك ثيمات بحرية فى البحر الايجى والمناطق الساحلية فى جنوب وجنوب شرق آسيا الصغرى ، ثم أضيف اليها بعد ذلك الولايات الثغرية فى بلاد اليونان ، وكانت مهمتها تزويد الاسطول بالمجندين البحريين ومعداتهم • وقـد قام الاسطول البيزنطى بدور حاسم فى انحسار المـد البحرى العربى وحماية العاصمة فى القرنين السابع والثامن ، وفى استعادة بعض السـيادة على منطقة بحر ايجة زمن الاسرة المقدونية • وقد كان الامبراطور نقفور الثانى صادقا تماما فى الحقيقة عنـدما أكد فى عام ٩٦٨ لرسـول أوتو الاول ، الاسقف المتهور ليو تبراند أسقف كريمونا ، أنه هو وحده الذى أحرز التفوق البحرى • وتعتبر النار الاغريقية السلاح الفتاك لـدى الاسطول البيزنطى ،

وهى عبارة عن مادة ملتهبة يبـدو انها تتكون من عناصر مختلفة ، مثـل الكبريت ونترات البوتاسيوم وتقذف من عرادة باتجاه سفن الاعداء ٠

غير أن القدر السيء الذى صاحب بيزنطة ابتـداء من القرن الحادى عشر ترك بصماته على قوتها البحرية بدرجة لاتقـل عما حدث للجيش ٠ فقد افتقرت الدولة الى المواد الاساسية اللازمة لصـيانة الاسطول ، ولم تستطع أن تدخل ميدان المنافسة مع القوى البحرية الممثلة فى المدن الايطالية خاصة البندقية وجنوه ٠ ولما لزمت سفن الاسطول الساحل ولم تعد تمخر العباب ، انتقل بحارتها للخدمة فى الاسطول التركى او اشتغلوا بالقرصنة ، وقد حدث هـذا بصفة خاصة بعد عام ١٢٠٤ عنـدما اصبحت بيزنطة دولة صغيرة ٠ ولكن هـذا لا يمحو مطلقا ذلك الدور الفعال الذى لعبه الجيش والاسطول على السواء ، طوال مالايقل عن اربعة قرون ، منذ زمن الاسـرة الهرقلية حتى عهد باسل الثـانى ، فى مسـاندة الدبلوماسية البيزنطية والتصـدى للكافرين ٠

الفصل السادس

الكنيسة الأرثوذكسية

الحياة المسيحية والعلمانيون

الفصل السادس

الكنيسة الأرثوذكسية

الحياة المسيحية والعلمانيون

(١)

لم يستطع الاعتراف بالمسيحية من جانب قسطنطين العظيم فى بواكير القرن الرابع ان يمس الحقائق الجوهرية فى المسيحية او يبدل من طبيعة التكوين الكنسى المقدس ، وان كان فى الوقت ذاته قد احدث بعض التغييرات. فالامبراطورية الرومانية القديمة بعقائدها الدينية العديدة المتباينة قد حل محلها الآن امبراطورية رومانية مسيحية . وقد تعرضت الوحدة الامبراطورية فى الغرب فى اوائل العصور الوسطى الى التصدع ، ولكن على الرغم من الاختلافات السياسية واللغوية الا انه امكن قيام مجتمع يتبنى نمطا من الوحدة تقوم على اساس الايمان المسيحى المشترك . هذا هو مجتمع العصور الوسطى المسيحى الذى ضم اولا دويلات الغرب اللاتينى والامبراطورية البيزنطية فى حوض البحر المتوسط الشرقى وعالم اليونان ، ثم اضيف اليه بعد ذلك الشعوب الصقلبية بعد تحولها الى المسيحية . والى جوار ذلك كان هناك بعض البلدان المسيحية مثل ارمينيا واثيوبيا ، واقليات مسيحية تقيم وسط مجتمعات اخرى لاتدين بالمسيحية مثل الامبراطورية الفارسية والدولة الاسلامية فيما بعد .

وكانت الكنيسة المسيحية ، حتى قبل أن يسمح لشعبها بحرية العبادة فى سلام ، قد مكنت لنفسها فى الأرض عمقا واتساعا ، خاصة فى روما وانطاكية والاسكندرية ثم نظمت على عجل خلال القرنين الرابع والخامس متخذة من الحكومة الزمنية انموذجا يحتذى ، فانقسمت الى عدد من الأسقفيات تحت رعاية المطارنة ، وعلى راسها جميعا اسقفيات روما وأنطاكية والاسكندرية ، الكراسى الرسولية القديمة والتى كانت روما من بينها تحتل المرتبة الأولى . ولم تلبث اورشليم والقسطنطينية ان اخذت تفسح لنفسها

مكانا بين هذه الكراسى ابان تلك الفترة · وهكذا أصبح ماثلا للعيان خمس بطريركيات كبرى هى التى انقسم اليهـا العـالم المسيحى فى العصـور الوسطى · وكان لدى أورشليم دعـاوى خاصـة لهـذه المـرتبة العالية ، اما كنيسة القسطنطينية فلم تكن تستمد أهميتها فقط من وجودها الرسولى(١) أو موقفها البارز ابان فترات المقاومة التى مرت بها الكنيسة الأولى ، بل من اعتبارها مستقر الأباطرة ومقامهم والعاصمة الجـديدة · وقد تقرر هـذا الوضع فى المجمع المسكونى الذى عقـد فى القسطنطينية عـام ٣٨١ وكان من بين قوانينه الاعتراف بأن اسقف القسطنطينية يحتل المرتبة التالية مباشرة لأسقف روما ، وله نفس التقـدمة في الكرامة ، لأن القسطنطينية هى روما الجديدة · وفى ختام مجمع خلقيدونية Chalecedon الذى عقد سنة ٤٥١ ، وفى غيبة مندوبى روما ، أعيد تأكيد هذا القرار فى جلسة خاصة فيما يدعى قانون خلقيدونية الثامن والعشرين ، ورغم أن البابوية قد رفضت هذا القانون فى حينه ، الا أن الكنيسة الأرثوذوكسية نظرت اليه باعتبـاره سندا قانونيا لحقوقها · كما أنه قوبل أيضا بالاستنكار من جانب الاسكندرية وانطاكية ، ولكن الفتوحات الاسلامية ابتداء من القـرن السابع جردت هاتين المدينتين من كثير من نفوذهما ، فقـدر للقسطنطينيـة بذلك أن تصبح أهـم المراكز الأسقفية فى الشرق المسيحى ، وأن يكون لهـا أيضا تأثيرها الفعـال على الأقاليم الصقلبية فى الشمال ·

ومنذ القرن الرابع أخذت المشاكل الخاصة بالتنظيم الكنسى والعقيدة تناقش عن طريق الاجتمـاعات الكنسية التى يتمثل أعـلاها فى المجـامع المسكونية · وكان أول هذه المجامع هو ذلك الذى دعا اليه قسطنطين العظيم وعقد فى مدينة نيقية سنة ٣٢٥ ·وكانت الدعـوة توجه الى كل الأساقفة (أو من ينوبون عنهم اذا لم يتيسر حضورهم شخصيا) ، وتصبح مناقشات هذه المجامع ملزمة للكنيسة كلها وتتم هذه الاجراءات جميعها تحت الرعاية الامبراطورية ، وهى تصور التعاون الكامل بين الكنيسة والدولة · وتختتم الجلسات بالابتهالات من أجل الحكام الأرثوذوكس الذين كان لابد من توقيعهم

---

(١) راجع قبله · المترجم ·

على قوانين هذه المجامع ، وهذا الاجراء الأخير فى حد ذاته يعنى أن هذه القوانين سوف تحصل على تأييد السلطة الزمنية ·

وقد اعترفت كل الأسقفيات بالمجامع المسكونية السبعة الأولى · أما بعد القرن التاسع فلم تظهر الحاجة لعقد مثل هذه الاجتماعات العـــامة ، فقد انقضت تلك الفترة التى كان يتعين فيها البحث عن تعريف واضح ومحـــدد للايمان ، كما أن المشاكل المتعلقة بالتنظيم الكنسى أمكن علاجها على أسس اقليمية · ومع منتصف القرن الحادى عشر ظهرت هناك عقبـــة فى طريق مثل هذه المجامع التى تتسم بروح الأخوة ، ممثلة فى اتساع الشـــقاق بين الغرب اللاتينى والامبراطورية البيزنطية ، زاد من عمقه ما انتهى اليه أمر الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤ · فلما كانت العصور الوسطى المتأخرة أمست المشاكل التى تواجـــه الكنيسة ذات طابع مختلف تماما ، وان كانت النقطـــة الرئيسية فى أى مجمع عـــام هى ان كانت القسطنطينية ستجعل المناقشات « المسكونية » ممكنة بالموافقة على اعادة الوحدة الكنسية مع روما ·

ولاشك ان بزوغ نجم القسطنطينية كعاصمة للامبراطورية الرومانيـــة فى الشرق ، وأفول نجمى منافستيها أنطاكية والاسكندرية نتيجة وقوعها فى أيدى الكافرين(٢) · قد دعم دون ريب أهميـــة مركز بطريرك القسطنطينية · رأس الكنيسة البيزنطية ، الذى أقدم على اتخاذ لقب « مسكونى Oecumenical وان كان هذا فى الحقيقة لايعنى السيادة على الكنيسة بعامة(٣) ،وقد ازداد

---

(٢) انظر قبله حاشية ١٦ ص ١٤٧ · المترجم ·

(٣) كان يوحنـــا الرابع الصـــوام John the Faster بطريرك القسطنطينية (٥٨٢ ــ ٥٩٥) قد أقدم على اتخاذ لقب مسكونى Ecumenical حسبما جرى به التقليد منذ عهد سلفه الأسبق أكاكيوس (٤٧٢ ــ ٤٨٨) ولم يحتمل البابا فى روما هذا الاجراء · وكان عندئذ جريجورى الأول العظيم (٥٩٠ ــ ٦٠٤) الذى اتصف بالكبرياء والاعتزاز بنفســه وسلطان الكرسى الرومانى فوق ســـائر الكراسى الرسولية · ومن ثم كتب الى الامبراطور موريس ساخرا يقول : « من الأعماق أصرخ ·· واحسرتاه على الزمان · يالضيعة الأخلاق ، هذى أوروبا وقد طواها البرابرة ، وبادت المدائن وهوت الحصون واقفرت الأرض من ساكنيها ، وهجر الفلاحون الزروع ، والمشركون يعيثون فى الأرض فساد ، يهلكون الحـــرث والنسل · ورجال الرب الذين عليهم أن يخروا سجدا وبكيا ، راحوا يبحثون لأنفسهم فى أســـماء زائفة

سلطانه على حساب روما عندما أقدم الامبراطور ليو الثالث فى سنة ٧٣٢ على نقل الاشـراف على كنائس جنوب ايطاليا واليونان وأجزاء من البلقان الى بطريرك القسطنطينية · ولم تلبث العلاقات مع روما أن ازدادت توترا من جراء التحالف البابوى مع الحكام فى الغرب ، وما تبع ذلك من المبادرة البابوية بايجـاد امبراطور فى الغرب سنة ٨٠٠ · وقــد أصبح البطريرك البيزنطى على اتصال وثيق بالامبراطور ، فهو الذى يتلقى منه وثيقة ايمانه ، ويقوم بتتويجه ،ويقدم اليه النصيحة ، بل كان بمقدوره أن يوجه اليه اللوم والتحذير اذا دعت الضرورة · ولكن الأوتوقراطور كان الشخصية الأقوى ، فغالبا ما كان مسئولا عن اختيار البطريرك وقادرا على تدبير أمر استقالته أو عزله ، ومع ذلك فقد كان للبطريرك مكانته الخاصة فى دائرة هذا الترابط الوثيق بين الكنيسة والدولة ، وقد أخذ على عاتقه بعد سنة ١٢٠٤ مقاومة محاولات الأباطرة لاعادة الوحدة مع روما ، يشد من أزره فى ذلك العلمانيون والرهبان ورجال الاكليروس · وكان يعد مسئولا بصفة خاصة ، الى جانب مهامه الكهنوتية ، عن رعاية وحفظ التعاليم والتنظيمات المسيحية داخــل

عن خيلاء وغرور ··· لن يفلت من العاقبة ذاك الذى بغى وأساء الى الكنيسة المقدسة الجامعة ، ذاك الذى خلع على نفسه لقبــا يستعلى به على مجد امبراطوريتك » · غير أن الامبراطور موريس لم يلق بالا لهـذه الرسالة ، فلما قتل موريس وخلفه فوقاس كتب اليه جريجورى قائلا « الحمـد لله فى الأعالى ·· فلتفرح السماوات ، ولتزدد الأرض حبورا ، ولتشـرح صدور الناس لما قمت به من جليل الأعمال !! ولتعد آخر الأمر حرية كل انسان الى صاحبها فى كنف الامبراطورية التقية الورعة · أليس ثمـة فرق بين ملوك سائر الأمم وبين أباطرة الرومان · ان الملوك ليسوا الا سادة العبيد ، أما أباطرة الدولة الرومانية فانهم سادة الأحرار » · والمتأمل لهذه الرسالة يرى أن البابا قد أضفى على الامبراطور فوقاس صفات وألفاظا لاتتناسب مطلقا مع ما عرف عن هذا الامبراطور : وقــد عــد فوقاس خطاب البابا تكريما لشخصه فمنع بطريرك القسطنطينية من اتخــاذ لقب « مسكونى » واعتبر الكرسى الرسولى فى روما رأس جميع الكنائس ·

أنظر Nicene and post-Nicene Fathers, XII, 171, XIII,

و Vasiliev, op. cit. 1, pp. 173-174

وكذلك دكتور أسد رستم : كنيسة أنطاكية ، الجزء الأول ص ٤٣١ ــ ٤٢٣ · المترجم ·

الكنيسة ، وراح يباشر عمله أساسا من خلال المجمع الدائم فى القسطنطينية (Synodos endemousa) وذلك بعد أن هدأ الجدل العقيدى الساخن الذى شهدته المجامع المسكونية ، وكان هـذا المجمع الدائم يتكون أساسا من الأساقفة المقيمين فى العاصمة ، ولكن ابتداء من القرن العاشر كان يحضره المطارنة وكبار رؤساء الأساقفة • وفى هـذا المجمع تم اقرار المشاكل الخاصة بالطقوس الكنسية ، وربما وجدت أعياد جديدة ، وبحثت نقاط الجدل كمسألة الطقوس الخاصة على سبيل المثال ، وهل يسمح باقامتها أم لا • وأقيم الحد على الخطاة من رجال الكنيسة ، ذلك أن المجمع كان يتصرف كمحكمة للعدالة وكهيئة تشريعية سواء بسواء •

وعلى امتداد عمر الكنيسة الأرثوذوكسية الوسيطة عملت السلطتان الزمنية والكنسية معا ، كل منهما تكمل الأخرى ، كما يتضح ذلك تماما من الاطلاع على المثيل البيزنطى للقانون الكنسى المعروف فى الغرب • وتعرف اهم اجزائه الخاصة بالتنظيم الكنسى بـ « القوانين الكنسية تحت أربعة عشر عنوانا » وتتكون من تشريع صادر من الامبراطور والكنيسة ، وكذلك بعض المسائل الأخرى التى كانت لها اهمية خاصة • وينطبق الأربعة عشر عنوانا حقيقة على الجزء الأول الذى أعطى القواعد القانونية لموضوعات بوبت ما بين الايمان الأرثوذوكسى الى ادارة الاملاك الكنسية ، واتبعت بنصوص وردت كاملة شأن ما يسمى بالقوانين الخمسة والثمانين للرسل وبعض الفقرات الخاصة بآباء الكنيسة ، واختتمت بالقوانين الزمنية • وكانت هذه فى الأصل المجموعة الخاصة بيوحنا الأنطاكى الفقيه Scholasticus الذى أصبح أسقفا للقسطنطينية • وعلى أسس هـذا العمل وضعت « القوانين الكنسية تحت أربعة عشر عنوانا » فى القرن السابع ، وتمت الموافقة عليها فى المجمع الذى عقد بقاعة القبة Trullo (سـنة ٦٩١)(٤) والمجامع المتأخرة • وكانت ابان فترة العصور الوسطى تظهر دائما فى صورة متجددة

---

(٤) انظر قبله • المترجم •

من وقت لآخر ، وتم اخراجها أربع مرات كان آخرها على يد بالسامون(٥) Balsamon القانونى قرب نهاية القرن الثانى عشر ٠

وكان البطريرك يتربع على قمة السلطة فى الكنيسة البيزنطية ، يليه المطارنة الذين يشرفون على المطرانيات الكنسية ، التى انقسم كل منها الى عدد من الاسقفيات ، وكان الأساقفة الذين لايخضعون لأحد المطارنة يسمون كبار autacephalous رؤساء الأساقفة ٠ وفى البداية كان اختيار المطران يتم على يد البطريرك من بين ثلاثة مرشحين ، ثم أصبح هذا الاختيار من اختصاص المجمع الدائم فى القسطنطينية فيما بعد ٠ أما الاسقف فيختاره المطران من بين ثلاثة أشخاص يرشحهم مجمع المطرانية ٠ وكان الادعاء الامبراطورى بالتصديق على هذا الاختيار يلقى المقاومة . ولكنهم مع ذلك استطاعوا الاحتفاظ بالحق فى الترقية أو تخفيض المرتبة ، وذلك بتغيير وضع أحد كبار رجال الاكليروس ، وهكذا ربما وجد الأسقف نفسه مطرانا أو كبيرا لرؤساء الأساقفة ، دون اقامة أى اعتبار فى الغالب للنتائج العملية٠ وكان المطران يتمتع بحق الاشراف الكامل على مطرانيته ، ورغم انه كان يستطيع معاقبة الأساقفة الذين صنعوا الشر فى عين الرب ، الا انه كان حريصا على عدم الانتقاص من حقوقهم داخل اسقفياتهم ٠ ويشترط فيمن

---

(٥) يعتبر ثيودور بالسامون أشهر أساقفة كنيسة انطاكية فى أواخر القرن الثانى عشر (١١٨٥ ــ ١١٩٩) ، على الرغم من بقائه فى القسطنطينية طيلة هذه الفترة ، وهو أحد رجال القانون أيضا فى ذلك الزمان ، درس القوانين المدنية والكنسية وعمل على تجميعها وترتيبها منذ « التشريعات الامبراطورية » التى صدرت على عهد ليو السادس حتى زمانه ، وانتهى الى اصدار « دليل القانون Exegesis Canonum الذى حاول فيه التوفيق بين القوانين المدنية والكنسية ٠ ومن اشهر اقواله : « يجب أن ينظر الى الاباطرة والبطاركة بعين التقدير باعتبارهم معلمى الكنيسة حيث تم مسحهم بالزيت المقدس ٠ ولهذا فان الأباطرة قويمى الايمان بمقدورهم أن يعظوا رعية المسيح ، وأن يقوموا ، شأن القسيسين باحراق البخور كطقس من عبادة الله ، « ان سلطان الأباطرة ونشاطهم يغذى الجسد والروح ٠ أما سلطان البطريرك ونشاطه فانه يغذى الروح وحدها » ٠

أنظر Vasiliev, op. cit. II, p. 470

وأيضا دكتور أسد رستم ، كنيسة انطاكية ، الجزء الثانى ٢٧١ ــ ٢٧٧ ٠

المترجم ٠

يشغل مرتبة الأسقفية ألا تقل سنه عن خمسة وثلاثين عاما ، وأن يكون على قدر من الثقافة ، يحفظ المزامير عن ظهر قلب ، واذا كان قد تزوج فعليه أن ينفصل لتوه عن زوجته • وقد جرت العادة اخيرا أن يكون الأساقفة من بين الرهبان ، وكذلك الحال أيضا بالنسبة للبطريرك ، على خلاف ما كان يحدث من قبل ، عندما كان يجوز اختيـار رجل علماني يتمتع بثقافة عاليـة لمنصب البطريرك شأن فوطيوس ، وكان الأسقف مسئولا خـلال فترة أسقفيته عن جميع المسائيل الكنسية ، مثل النظام الأساسي لأكليروسـه ، أو ذلك الذى يختص بالأديرة ، الى جانب الرعاية الروحيـة وتبصير العلمانيين • وله بعض الاختصاصات القضائية اذا ما تورط اكليروسه فى أمر ما ، وربما دعى أيضا للتوسط بين العامة •

ويعـاون الأسقف فى أبروشيتـه اكليروس يضـم مختلف المراتب الكهنوتية ، أكثرهم أهمية يشغل وظائف خاصة تتعلق بعمـل الأبروشية أو أمورها الادارية ، وتوجد نفس هذه التنظيمات ، وان كان بشكل اكثر دقة ، فى الكنائس المطرانية • فقد كان لدى كنيسة أيا صوفيا • Hagia Sophia فى القسطنطينية ، « الكنيسة العظمى » كما كانت تسمى ، جهاز اكليروسى ضخم ، يحدد من وقت لآخر بجهود البطريرك والسلطة الامبراطورية ، وليس أدل على ذلـك من أنه فى عـام ٦١٢ قام البطريرك ، بمسـاندة التـأييد الامبراطورى ، بتخفيض جهازهـا الاكليروسى الى ثمانين قسيسا ، ومائة وخمسين شماسا ، وأربعين شماسة ، وسبعين من مساعـدى الشمامسة ، ومائة وستين قارئا ، وخمسة وعشرين مرتلا للقداسات ، وخمسة وسبعين حاجبا ، هذا بالاضافة الى عدد معين يسمح بزيادته • وكان (رفيق القلاية) Syncellus (٦) يعتبر خليل البطريك وموضع سره ، حيث كان البطريرك

---

(٦) كان هناك عدد من الوظائف يطلق عليها « وظائف خاصة » لم تكن لها أهمية ذات بال فى الادارة العـامة ، من بينهـا وظيفة رفيق القلاية Syncellus هذا ، الذى كان يعـد من كبـار رجال الأكليروس ، وغالبا ما يخلف البطريرك فى منصبه ، ويعين بمرسوم من الامبراطور بالاتفاق مع البطريرك • وكان له الاشـراف على كل الوظائف العـادية فى الحـكومة الكنسية ، ولعله يمكن اعتباره ضابط اتصال بين الامبراطور والبطريرك • أنظر Baynes & Moss, Byzantium, p. 290 وأيضا رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ١٠٣ ، ١٢٩ • المترجم •

يمثل الأب الروحي له ، وهو يحظى بنفس المكانة أيضا لدى الامبراطور ٠
وكثر عدد كبار الموظفين الذين يتقاسمون فيما بينهم ليس فقط الأعمال التى تخص كنيسة أيا صوفيا ، بل تلك التى تتعلق بالادارة البطريركية عامة ، ومن بينهم رئيس ديوان المحفوظات Chartophylax الذى يشرف على الأرشيف الأسقفى ، حتى غدا يجمع بين اختصاصات أمين المكتبة والسكرتير والقاضى ، ذلك أن عمله اتسع ليشمل الاشراف على الأكليروس ، والرسامة ، والانتخابات الأسقفية ، وسيادة كاملة على القضاء البطريركى ، وتتضح أهميته من موضعه فى القداس الكبير حيث كان يقف الى جوار الباب المقدس ، حتى اذا حانت لحظة التناول راح يدعو رجال الاكليروس بقوله « الا ايها القسيسون والشمامسة أقدموا وتناولوا ميلككم وربكم » وقد وجدت هذه المجموعة من كبار الموظفين نظيرا لها فى مجالس المطارنة والاساقفة داخل الكنيسة الارثوذوكسية ٠ وهم منا يقابلون الأربعة الكبار quattuor personae فى الكنيسة الانجليزية فى العصور الوسطى ، فقد كانت التنظيمات الكنسية تتسم بتشابه معين على مختلف المستويات وفى مختلف أجزاء العالم المسيحى ٠

وكان مسموحا بالزواج للغالبية العظمى من اكليروس الكنيسة الأرثوذوكسية ، فيما هم دون مرتبة الأسقفية ، ويشترط أن يكون ذلك قد تم قبل أن يرسم أحدهم مساعد شماس Sub-deacon ٠ ومن الواضح أنهم عملوا فى ميادين التجارة حتى حرم القانون الكنسى ذلك : ولكن ليس من الانصاف بطبيعة الحال أن نستنتج من أحكام المجالس الكنسية أن أغلب رجال الاكليروس كان يغشون الحانات أو يرتادون العروض المسرحية أو نوادى المراهنات ٠ ولكن غالبا ما كانت أوضاعهم على قدر كبير من السوء ، وقد مارس عدد كبير منهم العمل الزراعى فى الحقول شأن آباء الكنيسة فى الريف اليونانى فى أيامنا هذه ٠ وعندما تباع الأرض فانهم ينتقلون مع الضيعة مثل « المستاجرين التابعين » Paroikoi فى القرية ٠ ولعل هذه الطبقة من رجال الاكليروس كانت تعمل فى نوعين مختلفين من الكنيسة ، الابروشيه أو « العامة » Catholicon أو بمعنى آخر الكنيسة التى تخضع لرعاية أسقف له حق تعيين هيئتها الكهنوتية ، والكنيسة الصغيرة التى قد تكون ملحقة بالدير ٠ أو ربما تتبع شخصا معينا أو مجموعة من الأفراد

تكاتفت من اجل اقامتها • وفى بعض الأحيان كان القرويون يقومون بمساعدة النواة الصغيرة لمجتمع جديد فى بناء كنيسة الدير ، كمـــا يتمثل ذلك فى تجربة القديس دروثيوس St. Dorotheus فى آســيا الصغرى ابان القرن الحادى عشر • ويتضح من سير القديسين المختلفة والمصـــادر الأخرى ان احتياجات الريف والمدينة على السواء ، غالبا ما كان يحسب حسابها بوجه خاص فى المؤسسات الديرانية او الخاصـــة التى فاق عددهـــا الكنائس « العامة » •

ولم تكن الكنيسة تعانى الفاقة ، وقد حرصت التشريعات الامبراطورية على ان توفر فيما يتعلق بالنواحى التنظيمية ، الادارة الخاصـة بالاشراف على املاك الكنيسة • وكانت الادارة البطريركية تتمركز فى أيدى وزير للمالية Oeconomus • ويقوم الأساقفة فى داخل ابروشياتهم تعيين مسئول للمالية مهمته الاشراف على الأملاك التابعة للكنائس والمؤسسات الكنسية الخاصة ، أو الموجودة فى عهدة رجال الاكليروس للاشراف عليها • وفى بعض الأحيان كانت الأراضى الزراعية التابعة للكنيسة تمنح عن طريق الايجار ، وان كان الواقع يدل على ان الكنيسة غالبا ما تعرضت للخســـارة من وراء هـــذا الأسلوب • ولم يكن يجوز نقل املاك الكنيسة او تحويلها الى جهة اخرى حتى للاحتياجات الامبراطورية • وقد يلجأ الأباطرة فى بعض الأحيان الى تعيين العلمانيين مشرفين على احدى المؤسسات الديرانية حيث يسمح لهم بالمشاركة فى املاكها بشرط أن يوفر للرهبان ما يكفى لمعيشتهم ، وهو نظام كان يحمل فى طياته بذور سوء الاستغلال •

والى جانب الهبات والوصايا التى يمنحها او يتركها المؤمنون ، كان الأسقف يتسلم ضريبـــة Canonicon حددت واصبحت الزامـيــة فى القرن الحادى عشر ، وكان على القرويين أن يدفعـــوا جزءا منها نقدا ، والآخر عينا ، تبعا لعدد العائلات الموجودة فى القرية ، اما القس فيدفع قطعة ذهبية واحدة Nomisma فى السنة ، وكان على الأديرة هى الأخرى أن تقـــدم الضريبة ، اذا لم تبعث بها راسا الى البطريرك ، حيث انها وجدت على يديه وتخضع لسلطانه المباشر(٧) هذا بالاضافة الى بعض الضرائب الأخرى التى

---

(٧) مثـــل الأديرة التى كانت تعـرف بـ « الأديرة الصلبانيـة » Stauropegial. انظر بعــده •

كانت تقدم فى مناسبات معينة مثل رسوم الزواج ، وعند الرسـامة ، وان لم تكن من أجل الرسامة ذاتها ، كما أن بعض الهبات كانت قد أصبحت أمرا واقعا بحـكم العادة أو المراسيم الامبراطورية ، وأدينت السيمونية بشـدة (حتى أن أحـد رجـال الدين الكارهين للكنيسـة اليونانية الكاردينال ، همبرت(٨) . Humbert وجد شـيئا يمتدحه فى الكنيسة الارثوذكسية) وكان على الاسقف أن يقوم بالانفاق من دخله على رجال اكليروسه ، على عكس النظام الغربى الذى يقـوم على الرواتب الكنسية المنفصلة • كما أنه كان مسئولا عن الكنائس التى ليس لديهـا أملاك موقوفة • وفى العصـور الوسطى المتأخرة كانت هذه الكنائس العامة تمول أحيانا من دخول هبة معينة تؤجر لمن يقومون برعاية هذه الكنيسة •

(ب)

داخل هـذا الاطار عاشت الكنيسـة الارثوذكسية حياتها اليومية ، محتفظة بتقاليدها دون أن تنثلم حتى زماننا هذا • ولقد أظهرت الكنيسـة نفسها منذ البداية تقريبا فى صورة وريثة التقاليد اليونانية ـ الرومانية ، وتقاليد حوض البحر المتوسط الشرقى ، ومن ثم فقد حددت تعاليمها وفصلت قانون ايمانها ، وان كان ذلك غالبا ما جاء فى جو اتسم بالعنف والجـدل الطويل • وهكذا أرسيت منذ الأيام الأولى للكنيسة ، والامبراطورية البيزنطية

---

(٨) الكاردينال همبرت أحـد الرهبـان الكلونيين ، يعد من أشـد الكرادلة تحمسا لحركة الاصلاح الكنسي التي دفع عجلتها البابا جريجورى السابع • وقد نشر رسالة شهيرة ضد السيمونيين Three Books against the Simoniacs طالب فيها بأن لاتخضع أملاك الكنيسة أو تستغل من جانب العلمانيين • وقد جاء همبرت الى القسطنطينية مبعوثا من البابا ليو التاسع فى عام ١٠٥٤ ، على رأس وفد للالتقاء ببطريك القسطنطينية آنذاك ميخائيل كريولاريوس • الا أن سلوك الوفد وتصرفه العدائى وعلى رأسـه همبرت ، تجـاه البطريرك كان عاملا هاما من عوامل حدوث الشـقاق الأعظم بين الكنيستين سنة ١٠٥٤ •

انظر عن ذلك Z. N. Brooks, A history of Furope, p. 159
وأيضا Ullmann, op. cit. p. 132 و C.M.H. vol. V, pp. 28-29
و Thompson & Johnson, op. cit. p. 369 المترجم

المبكرة ، القواعد اللاهوتية المسيحية ، حتى اذا اقبل القرن التاسع كانت اشد الأخطار سوءا ، خاصة ذلك الجدال حول طبيعة الثالوث والمسيح ، قد انتهت ، وظهرت « كنيسة المجامع المسكونية السبعة » التى اقتنعت تماما برسالتها المقدسة فى حفظ ونشر الايمان الحق · وبالاشتراك مع بقية مناطق العالم المسيحى ، ثم الحفاظ على التراث اللاهوتى للكنيسة الأرثوذكسية فى كتابات الآباء وقوانين المجامع المسكونية التى تفسر الكتاب المقدس وأصول الطقوس الكنسية · وكانت أعمال الآباء اليونان ، خاصة فى القرن الرابع · منارة تضيء بصفة مستمرة ، تهدى رجال الكنيسة الحائرين وسط متاهات التحديات على امتداد أربعة قرون وينيف · ومنذ بدأ الجدال اللايقونى وحتى انتهى فى القرن التاسع ، تم تلخيص التعاليم الأرثوذوكسية ، واعيد ذكرها كما كانت ، على يد اخر الآباء اليونان يوحنا الدمشقى(John of Damascus فى مؤلفه « ينبوع المعرفة » Fount of Knowledge اكتمل بعرض للعقيدة عرف باسم « عن الايمان القويم De fide orthodoxa واستخدم فى ترجمة لاتينية فى الغرب ابتداء من القرن الثانى عشر · وغالبا ما يقال عن الكنيسة الأرثوذكسية ، شأن الامبراطورية البيزنطية ، أنها « محافظة » اكثر منها تقدمية · ولكن ذلك بعيد عن الصواب · فالتقاليد ، كى تبقى ، لابد أن تتطور وهى تنتقل من جيل الى آخر · وكانت بيزنطة امبراطورية مسيحية بكل معانى الكلمة ، فاهتمامها الزائد بالنقاش اللاهوتى لم يتوقف دفعة واحدة بعودة تقديس الصور وتوارى الجدل اللاهوتى الحاد خلف أسوارها · وليس هناك فترة من الفترات يمكن أن يقال فيها أن المسيحية لم تكن مسألة حية ، وكان الاهتمام البيزنطى بها مصحوبا بقدر كبير من النشاط الأدبى · وتركت التعقيدات الأرثوذوكسية مجالا فسيحا للنقاش والتطور والجدال على حد سواء · وقد استخدم الكنسيون والعلمانيون نظرتهم الانسانية ومعارفهم الكلاسيكية فى تفسير الكتاب المقدس وكتابات الآباء ، وساهمت الأجيال المتعاقبة بنصيب وافر من التعليقات والرسائل التى تدور حول نقاط معينة ، والعظات التى تتضمن موضوعات مختلفة ، فقد كانت الاهتمامات اللاهوتية البيزنطية متعددة · وفى القرن الحادى عشر ، وعلى

---

(٩) انظر قبله حاشية ١ . ٢ ص ١٣٧ المترجم ·

يد اللاهوتى الجديد سيمون Symeon ظهرت علامة على التطور فى ذلك النمط من الروحانيـــة الذى بلغ أوج ازدهــاره فى حـــركة الزاهـــدين الصامتين(١٠) hesychast التى شاعت فى القرن الرابع عشر · وقــد اثار « الزهد الصامت » hesychasm هذا جدلا لاهوتيا كبيرا ، ووضعت نسبيا وجهة نظر أعداء هذه الحركة وانصارها وجها لوجه فى كتابات كل من نيقفور جريجور(١١) Nicephoras Gregoras ويوحـنا كانتا كوزينوس John Cantacuzenus وأصبح الرجلان ، وقد كانا فى يوم ما صديقين ، متنافرين تماما الى الحد الذى لم يكن أحدهما يحتمل التحدث الى صاحبه · وكان هناك كثير من التيارات المتضـــاربة ، حتى أنه كان يصعب فى بعض الأحيان التفريق بين الفرق اللاهوتية والاحزاب السياسية ، ولكن الحركة رغم انها فتحت الباب لسوء الفهم ، الا انها كانت فى الحقيقة جزءا مكملا للروحانية الارثوذوكسية · ولاشك أن هــذا التطور المثمر يرتبط تماما بجبل آثوس Mt. Athos ، وهو دليل على المدى الذى وجدت به غاية بيزنطة النابضة بالحياة فى كنيستها وليس فى نظمها السياسية ·

---

(١٠) انظر قبله حاشية ١١ ص ٢٣٨ · المترجم ·

(١١) يعتبر من أشهر الدارسين والكتاب فى القرن الرابع عشر ، أو خلال القرنين الاخيرين من عمر الامبراطورية ، تلقى ثقافة عالية ، ونهل من الآداب الكلاسيكية ، وكان متحمسا لدراســـة الفلك ، حتى انه اقترح على الامبراطور اصلاح التقويم ، شارك بنصيب كبير فى الجدل الذى دار حول حركة الزهد الصامت ، بدأ أولا خصــــما عنيدا للراهب الكالابرى بارلام ، ثم تحول فيما بعد الى جانبه ، مما جر عليه اســـتياء الكثيرين واضطهاد السلطان التى زجت به فى السجن ، لينتهى حياته العاصفة هذه حوالى عام ١٣٦٠ · وقد ترك نيقفور جريجور مؤلفات عديدة فى موضوعات متباينة ، مما يدل على سعة اطلاعه وغزارة معرفته ، فكتب فى اللاهوت والفلسفة والفلك والتاريخ والبيان والنحو · على أن أهم أعماله على الاطلاق هو كتابه الكبير فى التاريخ الرومانى الذى يتناول الفترة الواقعة بين عامى ١٢٠٤ ، ١٣٥٩ ، وهى الفترة التى شهدت امبراطورية نيقية البيزنطية والامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ، وعهود آل باليولوجوس الأربعة الأوائل ، وعهد يوحنــا كانتا كوزنيوس

أنظر Vasiliev, op. cit. II, p. 690

وكذلك راجع Baynes & Moss, op. cit. pp. 210, 218, 225, 364

ودكتور أسد رستم : الروم ، الجزء الثانى ص ٢٦٧ · المترجم ·

وهناك مظهر آخر من مظاهر الحذر اللاهوتى للكنيسة الارثوذوكسية ، فالتقاليد المسيحية فى كل جوانبها كانت ترتبط بالايمان · ولتاكيد ذلك بصفة مستمرة ، كان لابد من تعهدها بالرعاية حتى لاتتسلل اليها الهرطقة · وكان على الكنيسة البيزنطية ، شأن الكنيسة الغربية ، أن تتعامل مع افراد ضلوا عن الطريق القويم ، غالبا عن غير عمد ، أو حركات شعبية كان من الصعب تماما القضاء عليها بعد أن اتسعت دائرتها لأسباب متعـددة · ولم تحرم الكنيسة بالتاكيد استخدام مؤلفات الكتاب الوثنيين ، ولكنها اذاعت أن هذه الأعمال يجب أن تقرأ بروية وحذر ، فقد كان من السهل على اى عقل نزق أو مرتاب أن يتخطى الحدود الفاصلة بين الفكرين ويجدها آراء مبسوطة لاتتفق مع التعاليم المسيحية ، حتى أن فوطيوس صرح فى لحظة شيطانيـة أنه قد يطرح قضـــايا غير أرثوذوكسية ليرى ان كان يستطيع الكشف عن أسقف يتظاهر بالعمل دون استعداد ثقافى ، بينما استعاض آخرون بصورة تلفيقية عن طريق اعتراف سطحى بالأرثوذوكسية ، ومن هؤلاء ميخائيل بسللوس فى منتصف القرن الحادى عشر · اما يوحنا الايطالى John Italus ، الذى كان تلميذا مخلصا لأفلاطون وأرســـطو ، والذى خلف بسللوس فى وظيفة أستاذ الفلسفة بجامعة القسطنطينية ، فلم يكن على قـــدر كبير من الذكاء · وقد جرت قصة ادانته بسبب آرائه الهرطوقية واستنكاره العلنى من فوق منبر ايا صوفيا ، على قلم اناكومننا ، ومع شيء من الرضى الاختيالى عن الصورة الأخرى التى ترسمها لرعاية ابيها للأرثوذوكسية · وتم لعنـة خطايا الايطالى فى « المجمعيات » Synodicon (وهى قائمة تضم الهرطقات التى يجب لعنها) التى تليت فى الصوم الكبير يوم الأحـــد الأرثوذوكسى Orthodoxy Sunday وقــد تملكه اليأس لأنه فشـل فى ادراك ان الأدب الكلاسيكى يعطى منهاجا ثقافيا ، ولكنه ليس ذلك المنهاج المسيحى الحق · وظلت بيزنطة حتى آخر ايامها تلقى العنت من مثقفيها ، الى زمن جمستوس بلثون(١٢) Gemisthus Plethon الذى عاد القهقرى الى الافلاطونية ·

---

(١٢) يعتبر الممثل الحقيقى للفلسفة فى عصر آل باليولوجوس . تلقى تعليمه الأول فى القسطنطينية ثم قضى الجزء الأكبر من حياته فى ميسترا التى كانت تمثل المركز الثقافى فى المودة ، وصحب الامبراطور يوحنا الثامن

غير أن الخطر الخبيث يكمن فى هرطقـــة لقيت رواجا كبيرا وهددت بتقويض مركز الكنيســة فى مناطق معينة · وكانت هذه الحركة ذات طبيعة ثنوية ، ولعلها ظهرت أصلا فى آسيا الصغرى التى كانت لزمن طويل موطنا لمثل هذه الهرطقات كالبيالصة Paulicians · وفى القرن العاشر تسرب أحد اشكال هذه الهرطقة الثنوية الى البلقان ، واشتقت اسمها من زعيمها الأب (القسيس) بوجوميل Bogomil وحـــوالى ذلك الوقت كانت بلغاريا فى طريقها الى الفناء داخل الامبراطورية البيزنطية ، وعندما تم الاستيلاء عليها نهائيا زمن باسل الثانى أوائل القرن الحـادى عشر ، زحفت هذه الهرطقة ذات المظهر الخداع الى أقوى قلاع الأرثوذوكسية · وقد كان خطرها مزدوجا ، فهو لايقتصر فقط على مهاجمـــة العقيدة المسيحية والتنظيمات الكنسية ، بل كانت له جوانبه الاجتماعية والاقتصـــادية والسياسية · وتحالفت فى بلغاريا على أية حال مع الشعور العدائى لبيزنطة ووجهت ضد ثروات ملاك الأراضى من العلمانيين والاكليروسيين على السواء · غير انها لقيت تحديا عنيفا من جانب أباطرة أسرة كومنين الذين عملوا بالتعاون التام مع الكنيسة· ولكن جذوتها لم تخمد تماما فى البلقان ، وظل البوجوميليون موجودين حتى الغزو التركى وبعده ، وماتزال قبورهم التى تجمع بين القبح والغرابة ترى

الى مجمع فيرارا ــ فلورنسة وادركته الوفاة فى ميسترا حوالى عام ١٤٥٠ ، قبل أن يشهد سقوط القسطنطينية الأخير · وقد نقل رفاته سنة ١٤٦٥ الى ريمينى Rimini (Ariminium) فى ايطـاليا ، بعد أن استطاع أحد الزعمـــاء العسكريين المحبين للاداب من عائلة مالاتستا Malatseta الاستيلاء على اسبرطة من أيدى الأتراك العثمانيين · ولما كان بلثون من أشد الدارسين اعجابا بافلاطون ، فقد سعى جاهدا من خلال أعماله لتبيان أهمية الفلسفة الأفلاطونية بالمقارنة الى الفلسفة الأرسطية ، وكانت العصـــور الوسطى ، وفى بيزنطة بصفة خاصة طوال عهدها وابان حركة الزهد الصامت بالذات قد شهدت صراعا فكريا محتدما بين الأرسطيين والأفلاطونيين وفى فلورنسة كتب بلثون رسالته عن « الاختلاف بين أرسطو وافلاطون » حاول فيها قدر طاقته أن يظهر فضـل فيلسوفة المحبب افلاطون على ارسطو · ولعل مكث بلثون فى فلورنسة يعد من أهم الأحداث فى تاريخ نقل جذور التعليم اليونانى الكلاسيكى الى ايطاليا ، خاصـــة احياء الفلسفة الأفلاطونية فى الغرب ــ المترجم ·

فى البوسنة Bosnia • وقد يقال أن هذه الهرطقة قد تركت بصماتها على جبل آثوس نفسه فى القرن الرابع عشر ، ولكن هذا الاتهام ربما كان جزءا من الحملة التى يشنها أعداء الزهد الصامت على هذا الجبل المقدس •

وبالاضافة الى ما كان يقوم به رجال الكنيسة الأرثوذوكسية من تعهد الحياة الدينية لشعبهم بالرعاية ، كانوا يدركون تماما مسئولياتهم تجـاه أصحـاب العقـائد الأخـرى • فقـد وضـع يويثميوس زيجابنوس(١٣) Enthymius Zigabenus بناء على رغبة الامبراطور الكسيوس كومننوس ، كتيبا يفند فيه المغالطات الدينية التى تحتوى عليهـا الهرطقات الكبرى ، متضمنا اليهود والمسلمين • أما يوحنا الدمشقى فينظر الى الاسلام باعتباره هرطقة مسيحية ، وكانت لديه المقدرة على كتابة رسالة ضده ، خاصة وانه يعرف العربية بما يتيح له أن يستخدم القرآن مباشرة فى تدعيـم حججه • وكانت الناحية الجدالية ضد كل شكل من اشكال الهرطقة توضـع فى أيدى اللاهوتيين الأريبين من العلمانيين ورجال الاكليروس ، وظلت قائمـة بصفة مستمرة حتى الأيام الأخيرة فى عمر الامبراطورية ، واتخذت خطوات ربما اكثر ايجابية فيما يتعلق بالمحاورات الشخصية التى حدثت بين الأسـاقفة وحاخامات اليهـود ، بين المسلمين والمسيحيين ، أو الارمن والارثوذوكس ومع انتشار الاسلام اقتسم الطرفان الساحة ، فقد كان لكل منهما اتباعه • وعندما وقع الاسقف جريجورى بالماس(١٤) Gregory Palamas أسيراً فى أيـدى العثمانيين فى منتصف القرن الرابع عشر ، ودخـل فى مناظرة مع المسلمين ، اعتقد أن الاسلام يتباهى بالاعداد الهائلة التى اعتنقته فى آسيا الصغرى • ويعتبر الانجاز الكبير للكنيسة الارثوذوكسية فى المجال التبشيرى،

---

(١٣) أحـد رهبان القسطنطينية على عهـد الامبراطور الكسيوس كومننوس ، الذين اشتهروا بدراسة اللاهوت ، وكان يعد من النحاة المعروفين ومن اشهر أساتذة البيان ، والمعلقين على كتب العهد الجديد ورسائل القديس بولس • وقد أبدى له الامبراطور رغبته فى أن يقـدم له عرضا وافيـا عن كل الهرطقات التى مازالت باقيـة ، خاصة معتقد البوجوميليين ، مفندا غوايتهم على أساس خروجهم عن تعاليم آباء الكنيسة • واستجابة لذلك كتب زيجابنوس رسالة عن « العدة العقائدية للايمان القويم » قـدم فيها كل البراهين المناسبة الدالة على خطأ الأفكار الهرطوقية • المترجم •

(١٤) انظر قبله حاشية ١١ ص ٢٣٨ • المترجم •

هو الذى تم فى عهودها الأولى بين جيرانها الوثنيين ، أو بشكل آخر عندما بذل رجال الكنيسة الذين لاحصر لهم جهودا جبـــارة فى تحويل الصقالبة والخزر الى المسيحية ، ومازال سمعة بعض الأفراد مثـل كيراس Cyril أو مثوديوس Methodius تتردد أصداؤها فى العالم المسيحى لما قاموا به ، وان ظل كثيرون منهم جنودا مجهولين ، أو مثل عم يوحنا رئيس أســاقفة يوخايتا(١٥) John of Euchaita الذى عمـل فى البلقان ، واكتشف أمره فقط بطريق الصدفة عن طريق ايماءة اليه موجـودة فى عظـة أو مرثية . وفى عمل تبشيرى من هـذا النوع وجـدت الكنيســة أرضـا بكرا تختلف تماما عن الحال عندما تكون العقـــائد المنافسة قد مكنت لنفسها فى اطار حضارة قديمة ، أو ربما أحد الفروع الهرطوقية للكيان المسيحى نفسه مثل الكنائس النسطورية والمونوفيزية .

وقـــد حرصت الكنيسة الارثوذوكسية على أن تظل متيقظة داخـــل الامبراطورية وأن لاتضيع أية فرصة تسنح لها لتحقيق غاياتها ، بالمناظرات العامة ، أو الدعاية الواسعة ، أو الحرب ضد المشركين وان كان هذا لايحول دون اللجوء الى الوسائل الدبلوماسية ، أو حتى الاعتراف بأسلوب مغاير للحياة خاصة مع القوى الشرقيــة ، وكانت القسطنطينية تنظر بعين الاعتبار الى فارس والعرب كقوى يحسب حسابها ، وقد كتب بطريرك القسطنطينية فى أوائل القرن العاشر الى أحد حكام المسلمين يقول « كما يسطع الكوكبان الدريان فى القبة الزرقاء ، كذا يعيش المسلمون والرومان ، ولذا يتعين أن تؤلف بيننا الصداقة رغم اختلافنا فى طرائق الحياة والدين(١٦) ولكن هذا النــوع من الاحاسيس لم يمنع قيـــام الحروب ، وان كانت الترتيبات تبيح للزائرين والتجار والمرتزقة من اتباع المعتقد الآخر ممارسة طقوس عبادتهم . وهكذا كان للعناصر اللاتينية كنائسها ، خاصـــة البنادقة والجنوية الذين

---

(١٥) انظر بعده .

(١٦) انظر Migne, Patrologia Graeca, vol. cxl. col. 28 B. المؤلفة . وقد وردت هذه العبارات ضمن الرسالة التى بعث بها نيقولا الصوفى Nicholas Mysticus بطريرك القسطنطينية الى أمير كريت « العظيم ، المحبوب » كما يصفه البطريرك . المترجم .

تكاثرت أعدادهم ابتداء من القرن الثاني عشر ، وحصلوا على أحياء خاصة بهم داخل المدينة أو عبر القرن الذهبي · وحتى الانجليز (الذين كان عدد منهم يعمل في الحرس الامبراطورى) استطاعوا أن يجدوا شــيئا خاصا لانفسهم في الكنيسة التي اقيمت في القسطنطينية على نفقة أحد اثريائهم في نهاية القرن الحادى عشر ، حيث تضاء المصـــابيح أمام ايقونات حامييها القديس نيقولا Nicholas والقديس اوغسطين St. Augustine رئيس أساقفة كانتربورى Canterbury

وهكذا نجد أن التسامح كان موجودا من الناحية العملية ، وان كان غالبا ما يختفى وراء العلاقات والاتجاهات الرسمية · ولعل من أوضـــح الأمثلة على ذلك الشعور العميق الحار الذي يظهر في الملاحظة التي ابداها اثنان من نبلاء العاصمة في تلك القصة التي تحكى عن العثــور على رداء العذراء وانتقاله الى القسطنطينية · وتوارثته العذارى عبر الاجيال داخل نطاق عائلة يهودية · وقد اهتدى الرحالة الى البيت الذي تقطن فيه هـــذه الأسرة في قرية صغيرة بمنطقة الجليل ، وتضرعوا الى تلك العائلة أن تخبرهم عن السر الحقيقي وراء القــوة الالهية التي تظلل هذه الدار ، قائلين « لأن الهنا والهكم واحد وهو نفس الرب(١٧) » · ولاشك أن كلمات على هـــذا النحو تعد دليلاً قاطعـــا على ان البيزنطيين لم يكونوا متعصبين البتة · والحقيقة أن اى مظهر من مظاهر التسامح كان أمرا مسلما به ، ولكن هــذا لم ينقص ابدا من حماستهم للأرثوذوكسية ·

(ج)

كان طبيعيا أن لا يشتغل الفلاح أو رجل المدينة ، أو ربة البيت أو الطفل بالمسائل الجدلية أو العقيدية ، رغم أن الحفاظ على الايمان الحق كان يثير اهتمامهم الى درجة كبيرة لا تقل عنها عند اللاهوتيين او رجال السياسة · وكان العلمانيون ، المثقفون منهم والحرفيون ، يشكلون ـ شـــأن الرهبان ورجال الاكليروس ـ جزءا من الكل المؤمن ، الذي تحرص الكنيسة في أهم خصائصها على أن ترعى حياتهم الروحية · وكانت احتياجاتهم الخاصــة

---

(١٧) أنظر N.H. Baynes, Byzantine Studies, p. 247.

داخل النطاق الأسقفى ، وغالبا ما تقوم الأديرة ، والنساك باتمام عمل رجال الدين وان كان نشطهم لا يعتبر جـزءا من المهام الملقاة على عاتق الابروشية تجاه رعاياها ، وعلى العلمانين ، الذين سبقوا الى الايمان بالمسيحية والذين ولجوها جديثا ، أن يلقنوا تعاليم دينهم على يد القسيسين ثم الأساقفة منذ حداثة اعمارهم ، ويتضح من القواعد المجمعية وبعض الشواهد الاخرى أن رجال الاكليروس كانوا يقومون بتعليم الصغار الكتاب المقدس والمعـــارف الأخـرى ، فاذا ما وجدوا منهم الرغبـة فى اثارة المتاعب كان من حقهم استخدام الضرب اذا أرادوا ذلك · أما مسئولية الأسقف فقد كانت مضاعفة تجمع بين وعظ اكليروسه وهداية شعبه · وقد أقر المجمع الذى عقد فى قاعة القبة Trullo سنة ٦٩١ أن يتم ذلك فى يوم الاحد من كل أسبوع وعلى امتداد الأسبوع كله اذا كان ذلك ممكنا · وقد أخذ هذا الالتزام مأخذ الجد · ويعتبر البيزنطيون اعظم كتاب العظات انتاجا ، وما زال لدينا الكثير مما خلفوه فى هذا المجال ، وفيها يقوم « الراعى والأب » بتفسير معنى أجزاء مختلفة من الكتاب المقدس ، وغالبا ما يتناول بالشرح والتوضيح تفاسير الآباء لفقرات معينة ، أو يتحدث عن الطقوس والأسرار المقدسة ، او الأهمية الخاصة لعيد أحد القديسين · هذه المهام يشترك جميع الاكليروس فى الاضطلاع بهـا ، ابتداء من الكاهن الصغير ، الذى يمثل اول درجات الســلم الكهنوتى الى البطريرك نفسه · وقد شارك الأباطرة بصورة عملية فى كتابة العظات التى تلقى فى الموظفين الكنسيين أو الامبراطوريين فى مناسبات معينة ، كما يحدث مثلا عند بداية الصوم الكبير ·

ويظهر الفهم العميق للايمان والحيـــاة التعبدية الكاملة فى كثير من العظات والكتابات الصوفية ، ولا نعرف على وجه التحديد كيف اكتسب معظم الرجال والنساء خبرة بعيدة فى هذا المجال ، ولكنهم كانوا جميعا يعيشون حياة أخوية من خلال الأسرار المقدسة ، وكان المسيحى الأرثوذوكسى يتلقى المعمودية بالكنيســـة ، ويزداد توثيقا بسر الروح القدس ، ويطهر اذا دعت الضرورة ، عن طريق الكفارة · ويستطيع أن يتبين من خلال بعض الطقوس المعنى الكامل للحياة المسيحية ، اذا شارك فى الطقس الرئيسى لهذه العبادة وهو الافخاريستا والقربان المقدس ، او كما اعتاد البيزنطيون أن يدعـوه « الطقس الالهى » · وراح الفن واللاهوت والموسيقى والشعر يتكاملون فى

تمجيد هذا الطقس ، فعبر الفنانون البيزنطيون عن ادراكهم للعالم الفوقى بتصوير المسيح والهيراركية العلوية بالفيسفساء أو الصـور الجصية على قباب وجدران كنائسهم حيث تبدو أجـرام السماوات وكواكبها فوق رؤوس العابدين فى قلب ذلك المبنى · بينما كانت الموسيقى البيزنطية ترتبط تمـاما بكلمات ذلك الطقس ، وقد أثريت هذه الموسيقى الكنسية بما اضيف اليها من ترانيم وتسابيح ، على حين ازداد شـعر الطقوس بمختلف طبقاته جـودة واتقانا(١٨) ، وغالبا ما كان يوزع ترتيليا بين مقدم مرتلى القداس والشعب وتضم فى نسيجها عظات ومزامير الخـدمة او الأجـزاء المختلفـة لذلك القداس ·

والقداس المستخدم فى الكنيسة اليونانيـة هو الذى كان موجودا فى كنيسة القسطنطينية ، اعنى أنه كان قائما على قداس القديس باسل وقداس القديس يوحنا ذهبى الفم St. John Chrysostom · ويبدأ القداس بالموعوظين Catechumens عندما يجرى « الدخول الأول Little Entrance مع انشاد التقديسات الثلاثة Thrice-Holy تتبعه الدروس والعظة · ثم يأتى بعد ذلك قداس الايمان مع الصلوات و « الدخول الكبير » Great Entrance قانون الايمان واحياء ذكرى الأحياء والأموات · ويعقب هذا المشهد الأخير وهو القربان المقدس · ويبدو واضحا أن القداس كان يجرى بصفة مستمرة · وقد كتب بالسامون Balsaman يقول انه كان على هؤلاء الذين يرغبون فى أن يحيوا حياة نقية طاهرة مداومة التناول ، سواء كانوا من الاكليروس أو العلمانيين ، رغم أن ذلك لم يكن قاعدة مألوفة ·

لقد تمكنت الكنيسـة من حيـاة الناس تماما ، فبركاتها كانت ترتجى لمختلف الأعمال · وكانت هناك طقوس خاصـة لمباركة أسـطول الصيد أو الحصـاد ، والماشية والدور ، كمـا كان للمدن والمزارات حماتها من بين القديسين ، ابتداء من « أم الاله » حامية العاصمة الى أصـغر ملاك حارس

---

(١٨) تمكن احد البحوث الأخيرة من تفسير الاشكال المختلفة للعلامات الموسيقية Notation البيزنطيـة الوسيطـة · ويمكننـا أن نسمع شـيئا من هـذا التقليد الباقى فى بـلاد اليونان أو محفوظا فى دير جروتافراتا Grottaferrata بالقرب من روما ·

وهو الذى خصه يوحنا اليوخايتاوى باحدى قصائده · هذه الرغبة ، شأن الاحترام البيزنطى للزاهد ، ذلك الرجل المطهر ، كانت متاصلة فى الايمان بقوة الشفاعة ومفهوم الارتباط التـام بين عالمى الظاهر والباطن · وهكذا فان أشد مظاهر الحياة الانسانية بسـاطة كانت تكرس لتستخدم بطريقـة صحيحة · وكان على العلمانيين ، بدرجة لاتقل مطلقا عن الرهبان أو رجال الاكليروس ، أن ينالوا العضوية الكاملة فى الكنيسـة التى كانت التجسيد الرمزى للمسيح · ولعل أروع صورة لهذا المعنى تلك التى رسمها نيقـولا كابسيلاس(١٩) Nicholas Cabasilas فى القرن الرابع عشر فيما كتبه « عن الحياة فى المسيح » On life in Christ حيث يقول ، « ليس من الضرورى أن تغدو الى البيداء لتجد هذه الحياة ، فقد غرسها العماد داخل كل مسيحى وغذتها الأسرار المقدسة وفى مقدمتها الطقس الالهى » ·

---

(١٩) من أشهر رجال اللاهوت والكتاب البيزنطيين فى القرن الرابع عشر ، ومَن أبرز المتصوفين فى الكنيسـة الشرقية ، لم يلق بَعدُ حظـه من الدراسة وما تزال معظم أعماله لم تر النورُ بعد · المترجم ·

الفصل السابع

عالم الرهبنـــة

منادات الروح

الفصل السابع

عالم الرهبنـــة

منــاداة الروح

ظهرت الرهبنة المسيحية أول أمرها في مصر في أخريات القرن الثالث وأوائل الرابع ، وهي أسلوب حيـاة ينتهج تطوعا من جانب نفر آثر أن يتبع تماما فرائض الانجيل وان يكبح شهواته وغرائزه ، حتى يغدو مهيئا لمعرفة الله في هذا العالم وليصبح رفيقا له في الحيـــاة الأبدية • وقهر الجســد لخلاص النفس على هذا النحو عرف منذ زمن بعيد ، ولكن الرهبانية ابتداء من القرن الرابع كانت ارتقاء خاصا لهذه الناحية داخـل اطار الكنيســة السيدية ، لعل ابرز ملامحهـا انسحاب الانسان من الحياة اليومية العادية في المحيط الأسرى ، ولا تهدأ الحرب أبدا ضـــد الشياطين الذين يحاولون غواية المسيحي الذى قطع على نفسه عهدا أن يسلك هذا الدرب متوحدا أو وسط جماعة •

وكان القديس أنطونيوس St. Antony أول الرهبان(١) يشاركه في ذلك

---

(١) ولـد انطونيوس عـام ٢٥١ لأسرة مصرية ثرية في بلدة « قمن العروس » من أعمـال محافظة بني سويف ، فلما بلغ العشــرين من عمره بعـد وفـاة والـدته ، تخلى عن أموالـه وممتلـكاته ووزعهـا على الفقراء ، وآثر حياة الاعتزال ، فاتجه الى الصـحراء وهو في الخامســة والثــلاثين من عمـره ، وكان قـد أمضى هـــذه الأعـــوام الخمســة عشر معتزلا ولكن بالقرب من المدينة • أما الآن فقد سلك سبيل البيداء الى جبل العربة على البحر الأحمر • غير انه توقف عند قلعة قديمة في صـدر الصحراء عند منطقة بسبير (مكان دير الميمون الآن في منتصف المسـافة بين أطفيح وبني سويف) وقد تكاثر مريدوه من حوله ، ولكنه ظل في معزل عنهم طيلة عشرين عاما ، حتى اذا كان عـام ٣٠٥ فتح لهم بابه وصـدره وكان ذلك بداية لنشأة الرهبانية بمفهومها المعروف في مصر ، وقـد خلد

آباء الصحراء فى مصر الـذين خلفوا وراءهم ديارهم وارتحلوا الى البيـد متوحدين ، فذاع صيتهم واجتذبوا اليهم عددا كبيرا من المريدين ، حتى أن « توحدهم » لم يكن دائما على النحو الذى تخيلوه ورغبوا فيه ٠ وقد تبلورت هذه الحركة فى مصر فى اتجاهين رئيسيين ، التوحـد والديرية ٠ وانتشر بشكل واسع نموذج حياة التوحد النسكية التى عاشها القديس أنطونيوس ، وان كان من الضرورى أن نتذكر أن المتوحدين لم يعيشوا دائما فى وحـدة كاملة ، فغالبا ما كان لهم تلاميذهم الذين يتحلقون من حونهم ، وتجىء البداية عادة عندما يلازم المريد ناسـكا يصبح بمثابة الأب الروحى له ٠ وكانت السيق(٢)Lavra هى النمط المعدل للحياة التوحدية ، وهى عبارة عن مجموعة

القديس أثناسيوس أسقف الاسـكندرية (٣٢٨ ـ ٣٧٣) ذكر أنطونيوس بكتابة تاريخ حياته Vita S. Antoni الذى كان له أكبر الأثر فى انتشار الرهبنة خارج مصر فى آسيا الصغرى وأوروبا ٠

أنظر ATHANAS. Vita S. Antoni in (Nicene and post-Nicene Fathers, IV, 195-221).

وأيضا RUFIN, historia Monachorum (P.L. XXI, 391-426)

وكذلك Artz, The mind of the Middle Ages, pp. 30-116

و Waddell, The desert Fathers, p. 2. sqq.

و Kidd, A history of theChurch, pp. 103-106

وأيضا Hardy, op. cit. pp. 37, 59, 74

و Budge, Stories of the Holy Fathers, pp. 51, 57

و Stanley, Lectures on the history of the Eastern Church, pp. 229 - 230.

وأنظر كذلك HIER, Vita Pauli "N.P.N.F. VI 299-303"

و SOZOM. hist. eccl. 1, 13, II, 14

و PALLAD. hist. Lusiaca, 32, 34 sqq.

و O'Leary, The Coptic Church and Egyptian monasticism, pp. 319 - 327.

وراجع كذلك للأب متى المسكين : الرهبنـة القبطية فى عصر القديس أنبا مقار ، ص ٤٣ ـ ٤٤ وللمترجم : الدولة والكنيسة ، الجزء الثالث : الفصل الخامس ، أيضا ، ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى ، ص ٣٣ ـ ٦٣ ٠ المترجم ٠

(٢) وهى من الكلمة اليونانية Laura بمعنى زقاق أو عطفة ٠
أنظر D.J. Chitty, The Desert a City, p. 15 (المؤلفة) وكان

من المريدين تقيم الى جوار راهب من اكثر الرهبان تجربة · ويلتقى هؤلاء النساك فى مناسبات معينة مثل قداسات يومى السبت والاحد · ويمثل هذا المظهر منتصف الطريق بين الناسك المتوحد والراهب الذى يعيش حيـــاة « مشتركة » ·

وقد ظهر الكينوبيون(٣) Coenobium او الدير حسب المفهوم الغربى ، فى مصر أيضا فى نفس الوقت مع الحياة النسكية · ومؤسس هذا النظـــام مصرى هوباخوم(٤) Pachomius وهو جندى وثنى اعتنق المسيحية ، تأكد

التجمع الرهبانى فى صورته الأولى البسيطة ، على النحو الذى عرف به على عهد القديس أنطونيوس ، يسمى لافرا ، وهى تأتى فى المخطوطات القديمــة باسم السيق وجمعها الأسياق · انظر الآب متى المكين : الرهبنة القبطية فى عمر القديس أنبا مقار · ص ٤٥ · المترجم ·

(٣) معناها الحرفى « حياة مشتركة » Koinos bios (المؤلفة) وهى من مقطعين Koinos اى مشترك و bios بمعنى حياة · وتعنى مؤسسة او مكان به قلالى كثيرة اصحابها متحدون فى نظام الحياة ، وهى ترادف فى المعنى الوصفى تماما كلمة Monastyrion المشتقة من كلمة Monaxein اى يعيش بمفرده او يحيا وحيدا · ومن ثم كانت كلمة موناستيريون تعنى مكانا يحيا فيه الناس حياة منفردة · وقد تطور معنى هـــذه الكلمة بحيث اصبحت تحمل معنى مغايرا يدل على الدير بوصفه الحالى ، اى جمـاعة يعيشون معا حياه مشتركة غير توحدية على الاطـــلاق · انظر الآب متى المسكين ، الرهبنة القبطية · ص ٤٤ ـ ٤٥ · المترجم ·

(٤) اذا كان القديس انطونيوس يعد رائد الرهبانية فى مصر ومؤسسها الحقيقى ، فان باخوم (٢٩٢ ـ ٣٤٦) يعتبر واضع اسس النظام الديرانى ، فقد استطاع أن يضع لهذه الحياة الرهبانية نظمها وطرائقها فى صـــورتها الجماعية ، وقد أورد المؤرخ الكنسى سوزومين تفصيلا كاملا للأسس التى كانت تقوم عليها العلاقات بين افراد الدير الباخومى فى طبانسين Tabennesi (قرب اخميم Panopolis) ويذكر أن باخوم قد قسم جماعته التى تحيط به والتى يبلغ عددها نحو الف وثلاثمائة الى أربع وعشرين مجموعة ، ميز كلا منها بحرف من الأبجدية اليونانية ، وقد تكاثر عدد الرهبان الطبانسيين بعد ذلك حتى بلغ الآلاف السبعة · ومن حـديث سوزومين نتبين أن النظام الباخومى كان يشبه الى حد كبير التشكيلات العسكرية فى دقتها وانضباطها ،

لديه بعد تجربة حيه عاشها من خلال التوحد ، أن هذا النسق يتطلب التزامات معينة تفوق احتمال الكثيرين ، ومن ثم عول على اقامة نظام لحياة نسكية مشتركة فى طبانسين Tabennisi على النيل فى أوائل القرن الرابع ٠ وسرعان ما نمت هذه الحركة حتى أن باخوم عند وفاته كان لديه عدد من الريدين يكونون احدى عشرة خلية (اثنتان منهم للنساء) ٠ وكان باخوم رأس هذه الجماعة والمشرف العام على تلك الخلايا ٠ وتتلخص المظاهر الرئيسية للحياة اليومية هنا فى أداء الصلاة والقداسات فى جماعة ، والتفكير والتعبد فى توحد ، والاكتفاء بأقل القليل من الطعام (وعادة ما كانوا يجتمعون تتناول الطعام سويا فى قاعة خصصت لذلك) ، والعمل اليدوى وانجاز الواجبات الادارية الضرورية ٠ غير انه كان هناك تباين داخل هذا الاطار ابان الفترة التجريبية وفى وقت لاحق ٠ ففى مصر ، خلال القرن الرابع ، لم يكن التطور الكامل للساعات القداسية (الدورة اليومية للخدمة الرهبانية) قد عرف ، على حين كان التناول يجرى فى ايام السبوت والآحاد ٠ ومع ذلك فان نواميس الحياة الروحية فى هذه الرهبانية المبكرة ، وقواعد السلوك الخارجى التى تميز الحركة الديرانية المتأخرة فى الكنيسة الأرثوذوكسية ، كان يمكن التعرف عليها انذاك ٠ ولامراء فى أن الروحانية الماثلة فى الرهبنة فى الشرق والغرب على السواء تستمد أصولها من كتابات الآباء المصريين مثل « إقوال الآباء » Apophthegmata Patrum أو حياة القديس انطونيوس the life of St. Antony وهما نموذج لما كتب بعد ذلك عن حياة القديسين ٠

وكانت الصفة المميزة لحياة الكينوبيون تتمثل فى الأداء اليومى والكامل للقداس الالهى من جانب جماعة تقدم الطاعة التامة لزعيمها الروحى ٠ ومع نهاية القرن الرابع كانت هذه الصفة قد استقرت فى كل مكان من العالم المسيحى ، خاصة حوض البحر المتوسط الشرقى ٠ وامتلأت القلالى والأسياق

ويعلق على ذلك بقوله « لقد كان جميع رهبان مصر ينظرون الى مجتمع طبانسين باعتباره الأم » ٠
أنظر PALLAD. hist. Laua. 32-34, SOZOM. hist. eccl. III, 14
المترجم ٠

والكينوبيونات برجال يبتغون خـــدمة الاله على هــذا النحو · ولا شك أن الديرانية والكنيســة تدين بصفة خاصــــة الى القديس باســــل العظيم(٥) St. Basil the Great أسقف قيسارية Caesarea فى آسيا الصغرى ، وأب الكنيسة فى القرن الرابع ، الذى أعطى للحيـــاة الديرانيـــة الجديدة نظامها ورســم لها طريقها · فقد كان باســــل ، على العكس من باخوم أو أنطونيوس ، رجلا متعلما قادرا على أن يفصل بوضوح آراءه عن الرهبنة ، رغم أنه لم يترك قانونا يمكن مقارنته بذلك الذى وضعه فى الغرب القديس بندكت(٦) St. Benebict النورسى Nursia ، أما ما يسمى « قانون » باسل فليس الا مجموعة من الاجابات على عدد من الاسئلة التى اثيرت حول

---

(٥) اسقف قيسارية كبادوكيا (٢٧٠ ــ ٢٧٩) ، واحد الكبادوكيين الثلاثة الاشهار آباء اللاهوت · يمثل الجيل الثانى المعتــــدل للنيقية ، بعد جيلها الأول المحافظ المتمثل فى أثناسيوس أسقف الاسكندرية ويوستاتيوس أسقف انطاكية · كان صديقا حميما للاسقف السـكندرى ، رغم اختــلاف وجهتى نظرهما ، ودارت بينهما مراسلات عديدة ، وكان كل منهما يحمــــل للآخر التقدير والاعجاب · وكان لباسل مواقف مشــــهودة مع الامبراطور فالنز الذى كان يدين بالمسيحية الآريوسية · كما أن باسل كان رائدا للرهبنة فى آسيا الصغرى · انظر عن ذلك التقديم الرائع الذى كتبه B. Jackson عن حياة باسل وأعماله فى Nicene and post-Nicene Fathers, VIII وايضا رسائل باسل الى اثناسيوس فى نفس المجلد ·
(Epp. LXI, LXVII, LXIX, LXXX, LXXXII)
وكذلك SOCRAT. hist. eccl. VI, 16
و SOZOM. hist. eccl. VI, 16 المترجم ·

(٦) ولد لاسرة ثرية ارستقراطية حوالى عام ٤٨٠ ، وجىء به الى روما ليتلقى تعليمه ، غير أن المجون الذى وجده بالمدينة جعله ينفر منها ، فهجرها ، ثم استقر بهالمقام فى النهايةعند كاسينو Cassino "Monte Cassino" فى منتصف المسافة بين روما ونابلى ، بحيث اقام هناك ديرا على اطـــلال معبد قديم للاله ابوللو · وكانت الديرانية الغربية فى القرن الخامس تعانى الانحلال ، من جراء الفشل الذى لحق محاولاتها الذهاب الى أبعد مما كانت عليه الرهبانية الشرقية ومن ثم عمل القديس بندكت على أن يضــــع نظاما ديرانيا يبتعد به عن التطرف ، حتى أصبحت الاديرة البندكتية فى القــرن السادس نواة سابقة لقريناتها الكلونية فى القرن العاشر ، فيما يتعلق بحركة الاصلاح الكنسى ·

حياة الرهبنة . وربما كان اعظم ما يقرره فى هذا المجال قوله بأن حيـــاة الكينوبيون تفضل حياة التوحد . ذلك انه كان يعتبر أن الانســان بمقدوره وسط الاخوة ان ينفذ الوصية الالهية بحبه لأخيه كحبه لنفســـه(٧) . ومن الممكن ان تكون مبادئه قد داخلها شىء من المبالغة بفعل كتابات المتأخرين ، فقد كتب عنه صديقه القديس جريجورى النازيانزى(٨) Gregory of Nazianzus مبينا انه تمكن ببراعة من التوفيق بين التوحد والحيـــاة المشتركة ، واقام القلالى للنساك الزاهدين بالقرب من التجمعات الكينوبيونية(٩) ومع هذا ، وسواء كان القديس باسل قد عزم على تحقيق ذلك او لم يدر بخلده ، فهناك حقيقة واضحة لا سبيل الى انكارها تؤكد استمرار ازدهار الحياة النسكية

انظر Thompson & Johnson, op. cit. pp. 203 sqq.
وايضا Stephenson, op. cit. pp. 73 - 76
وكذلك Strayer & Munro, op. cit. pp. 62 - 67
و Davis, op. cit. pp. 74, 79

(٧) انظر Longer Rule 7 « من الضرورى اسرة الرب أن تعيش بين من يتشابهون واياك ، اما التوحد فامر عسير وخطير » .

(٨) اسقف نازيانزا Nazianzus فى آسيا الصغرى ، (وهى التى اطلق عليها الرومان Diocaesarea) ، (٣٦١ ــ ٣٨٩) ، وهو شأن معاصره باسل اسقف قيسارية فلسطين ، احد الكبادوكيين الثلاثة آباء اللاهوت . وقد خلع عليه بالمجمع المسكونى الذى عقـــد فى افسوس سنة ٤٣١ لقب « العظيم » تلقى تعليمه فى الاسكندرية واثينا ، وكان صـــديقا لجوليان الذى اصبح امبراطورا فيما بعد (٣٦١ – ٣٦٣) . ولكنه وضع خطبتين قدحا فيه عندما اعلن الامبراطور جوليان اعتناقه للوثنية . وكان جريجورى كارها للمناصب الكنسية ، ومن ثم كثيرا ماتوارى هربا الى دير صديقه القديس باسل . غير انه فى عام ٣٨٩ دعاه الامبراطور ثيودسيوس الأول ليتولى كرسى اسقفية القسطنطينية ، بعد أن ظل خاضعا للسيادة الآريوسية قرابة أربعين سنة . غير انه لم يمكث فى هذا المنصب سوى عامين فقط ، ثم انسحب من العاصمة الى بلدته ابان انعقاد المجمع المســـكونى الثانى فى القسطنطينية . انظر المقدمة القيمة التى كتبها Browne & Swallow عن جريجورى واعماله فى Nicene and post-Nicene Fathers, vol. VII, pp. 187 - 203
وراجع اعماله فى نفس المجلد وفى P.G. XXXV, 531-720 (المترجم) .

(٩) انظر Greg. Naz. or. 43, 62 "on Basil"

والسيق فى الامبراطورية الرومانيـة فى الشرق جنبا الى جانب ، بل وفى بعض الأحيان كجزء من المؤسسات الكينوبيونية ٠

وعلى أرض فلسطين وسوريا نمت كل انواع الحيـاة الديرانية ، فقد مدت هذه الحركة الجديدة جذورها الى زمن بعيد ، وانتشرت بشـكل سريع حتى توقفت نتيجة الفتح العربى فى القرن السابع ٠ وكانت فلسطين بوجه خاص تربة خصبة بسبب ارتباطها الوثيق بالحيـاة الجسـدية للمسيح ، وها هى الآن تضيف الى ذلك ، بازدياد القلالى والأسياق والأديرة فيها ، عامل جذب للحجيج ، لما تزخر به من رهبـان مطهرين قادرين على منح البركات الخاصة والوصايا الروحية وكيف لا وقد صفت نفوسهم وشفت ٠ وعلى الرغم من وجود نمطى « الحياة المشتركة » Coenobia و « التوحد » anchorites الا أن نظام السيق كان سائدا ومع أن هذا النظام كان يسـمح بالمسئولية الفردية فى حدود معينة ، الا أنه فى الوقت ذاته كانت له ، شأن الكينوبيون ، قوانينه التى تتضمن الطاعة للزعيم الروحى ٠ وقـد ترك رهبان فلسطين ، مثلهم كمثل الرهبـان المصريين ، مجموعة من الكتابات تكشف عن التنوع الوفير فى حياتهم الرهبانية ، والنجاح الذى تحقق فى تبيان النظـام الملائم للمؤسسات المختلفة والمتوحدين ٠ وكشفت العزائم الرهبانة عن نفسها فى الأعمال الرائعة المتعددة لكتاب القرنين السادس وأوائل السابع ، مثل السير التى خلفها كيرلس البيسانى(١٠) Cyril of Scythopolis والمذكرات المختلفة التى وضعها يوحنا الملك(١١) John Moschus عن الحياة الروحية فى كتابه « مرج الروح » Pratum Spirituale أو « مرقاة الفردوس » Scala Paradisi ليوحنا السلمى(١٢) John Climacus ٠ وقد ترجمت هذه المؤلفات

---

(١٠) هو من اشهر كتاب الهاجيوجرافيا (سير القديسين) فى القرن السادس ، قضى أخريات حياته فى سيق القديس ساباس Sabas فى فلسطين وما تزال معظم كتاباته باقية الى الآن ٠ المترجم ٠

(١١) فلسطينى المولد ، عاش فى نهاية القرن السادس وأوائل القرن السابع ٠ قام برحلات عديدة زار فيها سكنى الرهبان فى فلسـطين ومصر وسوريا وآسيا الصغرى وجزر البحر المتوسط وبحر ايجة ٠ المترجم ٠

(١٢) عاش فترة طويلة من الزمن متوحدا على جبل سيناء ، ووضع كتابه « مرقاة الفردوس » قسمه الى ثلاثين فصلا هى المراقى التى يعلو فيها

اليونانية الى الصقلبية ، وبهذه الصـــورة انتقل ذلك التقليد الى البلقان وروسيا ، واستخدمت أيضا فى دوائر الرهبنة الأرثوذوكسية بعد أن ضاعت فلسطين من الامبراطورية ٠

وكانت آسيا الصغرى ، وبلاد اليونان ومنطقة الجزر وأجزاء من البلقان تعتبر القلب النابض للامبراطورية البيزنطية فى عصرها الوسيط ، وهنا لم يكن يخل اقليم واحد من الرهبان ٠ كما أن بيزنطة كان لها نفوذها الكبير على أديرة صقلية وجنوب ايطاليا حتى نهاية القرن الحادى عشر عندما استوطن النورمان هذه المنطقة ٠ ويعتبر القديس ثيودور الاستوديى أبرز آباء الديرانية فى الفترة البيزنطية الوسيطة ، فقد كان يعرف تماما حقيقة الشعور البيزنطى التقليدى ، ومن ثم عاد جهارا الى ما خلفه الأقدمون خاصـــة تلك الكتابات النسكية التى وضعها القديس باسل القيسارى ، وراح يقرؤها ويعيد قراءتها ، حتى دفعه ذلك الى القول بأن المسيح تحدث من خلال القديس باسل ٠ ولما كان ثيودور قد ولد فى منتصف القرن الثامن ، فقد عاش وعانى ذلك الزمن الذى شهد الصراع من حول الأيقونات ٠ وقد آوى الى أحـــد الأديرة فى بيثينيا بآسيا الصغرى ثم انتقل بعد ذلك الى دير ستوديوس فى القسطنطينية حيث أصبح مقدما للدير فى بواكير القرن التاسع ٠ ووقف يدافع ورهبانه باخلاص باعتباره زعيما روحيا ومصلحا ديرانيا ، فقد خلف عـــددا من الخطب التى عن التقـــديس التقليدى للايقـــونات ٠ على أن أهم ما يعنينـــا هنـــا عمله وجهها الى رهبانه وعظات تكشف بجـــلاء عن شخصية هاد ملهم لأجـــل « معاينة الاله » Visio Dei ٠ وتبين وصيته ورســـائله ، بل وتعاليمه النسكية ، مدى اهتمامه بنظام الحياة الديرانية ، والقـــواعد الصـــحيحة للقداسات ، وسمو التعقيدات ٠ وعلى هدى باسل ، نهج ثيودور ســـبيل الاعتدال فى ممارسة الرهبانيـــة ، وأكـــد بدوره الالتزام الكامل بالحيـــاة المشتركة ، موضحا مسئوليات مقدم الدير فى الناحيتين الادارية والروحية ٠

المرء روحيا الى الكمال المطلق ، ولقى هذا الكتاب ذيوعا بين رهبان بيزنطة ، وترجم الى السريانية واللاتينية واليونانية الحديثة والايطالية والاســـبانية والفرنسية والصقلبية ٠ المترجم ٠

وهكذا أضحى الدير الاستوديى ، فى الركن الجنوبى الغربى من القسطنطينية، تحت رعاية ثيودور ، واحدا من أهم الأديرة فى الامبراطورية ، قوة وثراء ، اليه يسعى أبناء البيت الامبراطورى ليتلقوا فيه تربيتهم الأولى ، ويقـــدم الهدى والرشد للمؤسسات الصغرى فى كييف بروسيا(١٣) ٠

وعند وفاة ثيودور الاستوديى فى منتصف القرن التاسع ، كانت المبادىء الأساسية لحياة الكينوبيون البيزنطى قد اتضحت تماما ٠ وقد يبـدو شيئا محيرا فى بعض الأحيـــان بالنسبة للمؤرخين الغربيين ، عدم عثورهم فى الكنيسة الشرقية على ذلك « النظم » التى تتسم بها الديرانية اللاتينية ٠ ومع ذلك فان العالم الأرثوذوكسى كان يحتوى على النموذج الذى يجمع بين المرونة والتنظيم ، رغم أن الحماســة للحياة الديرانية لم ترتبط أبـدا مع الشعور بالحاجة الى تحديد قانونى كمـــا هو حادث فى الغرب ٠ واذا ما فحصنا القـــواعد الكنسية ، والقوانين الامبراطورية ، ومواثيق تأسيس الأديرة ، وتعليقات رجـال القانون الكنسى ، والمصـــادر الأدبية وبصفة خاصـــة سير القديسين ، لاتضـــح لنا نـوع المؤسسة الكينوبيـــة فى الشرق ،

---

(١٣) أقيم دير ستوديوس فى القسطنطينية حوالى عام ٤٦٣ على يد أحد البطارقة الرومان ويدعى Studius ،الذى اثر الابتعاد عنروما وهىتعانى دوان الضعف وتنتظر السقوط فى أيدى الجرمان ، واتجه الى القسطنطينية ، حيث أقام بها كنيسة ليوحنا المعمدان ، وبنى الى جوارها ديرا ضخما حمل اسمه ٠ وقد اشتهر رهبان هذا الدير بـ « الساهرون » Akoimetoi لأنهم كانوا يواصلون أداء الخدمة الكنسية والقداسات بالليل والنهـار دون انقطاع ، بحيث كانوا يقسمون الى جماعات تتناوب ممارســة الطقوس تباعا بصفة دائمة ٠ وقد احتـــل ديرستوديوس ورهبانه مكانة مرموقة فى العاصـــمة والامبراطورية على السواء ٠ وكان على الامبراطور ان يسعى سنويا لزيارة الدير فى التاسع والعشرين من أغسطس ، أحد أيام عيد يوحنا المعمدان ٠ والى هـــذا الدير آوى كل من الامبراطور اســـحق كومننوس عام ١٠٥٩ والامبراطور ميخائيل السابع سنة ١٠٧٨ ٠ وكان كثير من الروس يقومون بزيارة الدير ، بل ان بعضهم فضل الاقامة فى هذا الدير ، وتدل شواهد أحد قبور القرن الرابع عشر على ذلك ٠ يضاف الى هـــذا أن شرف الدفن فى جبانة دير ستوديوس كان يمنح لبعض العلمانيين الذين أدوا خدمات معينة للدولة ، ومن بين هؤلاء البطريق بونوس snuog الذى أبلى بلاء حسنا فى

والتجربة الروحيـــة الغنية بنوعيها التوحدى والجمـــاعى ، وكيف اقتبس العالمان اللاتينى والصقلبى منها سواء عن طريق الترجمـة أو الاتصـــال الشخصى ٠

ومنذ البداية ، فان الرهبانية بوجودها داخل الاطار الكنسى على يـد آباء للكنيسة حكماء مثل القديس أثناسيوس والقديس باسـل ، قـد نظمت حسب مقتضى الضرورة عن طريق المراسيم الصادرة عن المجامع المسكونية أو المحلية ، والتشريعات الامبراطورية والقواعد الخاصة ٠ وكان من الأمور الجوهرية الحفاظ على السلطة الأبروشية ، وفى الوقت ذاته امتلاك ناصية هذه الطاقة الهائلة الكامنة فى قوة تلك البيوتات الروحية ، لتصبح طوع أمر الكنيسة ٠ وقد أظهر الرهبان خلال حمى الجدل الهرطوقى ، خاصة منــذ القرن الرابع حتى السابع ، أنهم يشكلون قوة تثير القلاقل داخل المجامع ، وأن يصبحوا مراكز مقاومة عنيفة فى اقاليمهم(١٤) ٠ وتحـــاول كثير من

الدفاع عن القسطنطينية عام ٦٢٧ عندما تعرضت للحصار المزدوج من جانب الفرس والآفار ، بينما كان الامبراطور هرقل خارج العاصمة لمحاربة الفرس فى ديارهم ٠

أنظر Millingen, Constantinople, pp. 151 - 155 المترجم ٠

(١٤) لعب الرهبان المصريون دورا كبيرا فى القرنين الرابع والخامس لتأييد كنيسة الاسكندرية ضد القسطنطينية ، كنيسة وحكومة ٠ ففى القرن الرابع ظهر دورهم واضحـا فى مناصـرة أنطونيوس لأثناسيوس فى بداية النزاع الآريوسى ، ثم قام الرهبان بحماية أثناسيوس أثناء هروبه المتتابع ، والذى بلغ ثلاث مرات ، ابان عهود الأباطرة قسطنطيوس وجوليان وفالنز ، وكان لهم الأثر فى صمود الأسـقف السـكندرى وعناده وتحديه لأباطرة الآريوسية ٠ وليس أدل على ذلك من أول عمل أقـدم عليه الامبراطور فالنز عقب وفاة أثناسيوس عام ٣٧٣ هو مهاجمة الأديرة المنتشرة من فم النيـل الى طيبة ، معتبرا اياهم حماة النيقية ٠ وقد حرص أسقفا الاسكندرية فى النصف الأول من القرن الخامس ، كيرلس وديوسقورس على اصطحاب أعداد كبيرة معهم من الرهبان فى مجمعى افســوس الأول والثانى ثم فى مجمع خلقيدونية (٤٣١ ، ٤٤٩ ، ٤٥١) ٠ لتأييد وجهة نظرهم ٠ راجع للمترجم « الدولة والكنيسة ــ الجزء الثالث ــ والجزء الخامس ٠

وأنظر PALLAD. hist. Lausiaca. وأيضا Budge, op. cit. p. 57

المراسيم التنظيمية التى صدرت عن المجامع الكنسية الأولى القضـــاء أو التخفيف من غلواء هذه الناحية ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك القانون الرابع من قوانين مجمع خلقيدونية Chalcedon (سنة ٤٥١) الذى بسط بوضوح أبعاد هذه المشكلة واقترح العلاج الملائم لها ٠

« هناك من يسلكون درب حياة رهبانية طاهرة نقيـة ، فلهم الاحترام اللائق والتقدير ٠ وهناك أيضا بعض يتخذ من الرهبانية ذريعة لاثارة القلاقل والاضطرابات فى الشئون الكنسية والمسائل السياسية ، ويتحلقون من حول المدائن هائمين بلا هدف ، بل وشرعوا فى اقامة أديرة لأنفسهم ، لهذا فقد تقرر أن لا يسمح لأحـد بتأسيس دير أو هيكل الا بعد موافقـــة أســقف المدينة ٠ كما تقرر أيضا أن يخضع الرهبان فى كل ناحية ، سواء فى المدن أو الاقاليم ، لسلطان الأسقف ، وأن يكرســوا أنفســهم لصمت تعبدى ، منصرفين بكليتهم الى الصـوم والصـلاة داخل تلك البقاع التى طلقوا من أجلها الدنيا ٠٠٠ » ٠

ومضى القانون بعد ذلك الى بيان أنه اذا دعت الضرورة الى قيـام الراهب بعمــل خارج ديره فليكن ذلك بتصريح أسقفى ٠ وقـد أكـدت التشريعات ، الكنسية والامبراطورية ، والتى صدرت فيما بعـد ، مسئولية الأسقف الكاملة ٠

وكانت هناك مشكلة أخرى ملحة تتركز فى ضمان استمرارية بقاء كل من هذه المؤسسات الرهبانية ٠ فأعاد التشريع ثانية مسألة الوقف المناسب ، بل وفى بعض الأحيان كان يضيق الخناق على اقامة أديرة جديدة ٠ ولا ريب فى أن اللايقونيين كانوا يمثلون عداء كاملا للأديرة ٠ حتى اذا منيت الحركة اللايقونية بالهزيمة ، جاء رد الفعل عنيفا الى الحـد الذى كان فيه على

وكذلك O'Leary, op. cit. p. 327 و Hardy, op. cit. p. 37, 74
و Stanley, op. cit. p. 329-30
و Kidd, A history of the Church, II, pp. 105-6
و Jones, Later Roman Empire, I, pp. 214-216
ودكتور أسد رستم : كنيسة أنطاكية ، جـ ١ ص ٣١٥ ٠
وانظر ATHANAS. ep. ad Dracontium المترجم ٠

مجمع القسطنطينية الذى عقد سنة ٨٦١ أن يحرم على الأساقفة اقامة الأديرة من دخول أبروشياتهم حتى لايترتب على ذلك انزال الضرر بكراسيهم الأسقفية · بينما كان بعض الافراد ينظرون الى الدير كعمل من أعمال البر ، ومن ثم كانوا ينفقون بسخاء · وفى بعض الاحيان كان بعض مؤسسى الأديرة يتعاملون مع المؤسسة الرهبانية كما لو كانت ملكا خاصا لهم ، فيبيعون جهرة أو يستخدمون ما كان قد خصص لاستخدامها ، ويعينون مرشحهم مقدما للدير · وهنا كان لابد أيضا من اتخاذ خطوات معينة فى محاولة لتجنب ما قد يصل بهذه الاديار الى مؤسسات دنيوية من الناحية العملية · فأعيد التأكيد من جديد على ابراز سلطة الأسقف فى هذا المجال ، وضرورة الاحتفاظ بترخيص التأسيس فى الأرشيف الأسقفى ، وعدم ترشيح مؤسس الدير لنفسه أو غيره كمقدم للدير دون موافقة الأسقف ·

ولم يحدث أن انتقص من حجم وقف الاديار ، وبعد انقضاء الحقبة اللاايقونية وحتى نهاية الامبراطورية ، أصبح واضحا أنه من المستحيل ، حتى مع التحريم الامبراطورى ، التحكم فى استمرار هبة الاراضى أو وقفها من أجل ذلك الغرض · وان كان الامبراطور نقفور الثانى فى القرن العاشر ، قد منع اقامة مؤسسات ديرانية جديدة وحرم وقف الأراضى على الاديار الا فى أضيق الحدود ، رغم أنه كان تقيا من الزاهدين ، راوديه نفسه ذات مرة الاعتكاف فى احدى صوامع الناسكين على جبل آثوس · واشار الى أن جوهر الرهبنة لا يمكن فى اقامة الابنية الرائعة واقتناء الضياع الواسعة ، بل فى محاولة الاقتداء بآباء الرهبانية الأوائل فى تقشفهم المقدس · وقد لقيت وجهة نظر نقفور التأييد من جانب بعض الأباطرة الذين جاءوا من بعد ونفر من رجال الاكليروس · ولكن الملكية الديرانية تعرضت لهزة عنيفة من جراء الفتح العثمانى ·

وقد تمخض عن ادارة الأمور الزمنية للحياة الرهبانية العديد من المشاكل ، يعود بعضها الى الرغبة فى ايجاد نظام معين يحظى بالاحترام على أوسع نطاق ، وبعض ثان الى أن الأديرة نفسها قد هوت من عليائها ، ذلك أنه على الرغم من الصيحات التى أطلقها دعاة الاصلاح ، العلمانيون منهم والكنسيون ، الا أن عددا كبيرا من الأديرة ظل يعمل على زيادة ملكيته ،

وربما كانت هذه الممتلكات من الاراضى مبعثرة ومتباعدة • وفى بعض الحالات كان يعين قيم Epitropus للاشراف على ادارة مثل هذه الامور • ثم ابتدع الامبراطور ورجال الكنيسة شيئا آخــر ، هو أن يمنح الدير بكل ممتلكاته كهبة Charisticum وكان هذا يعنى أن يعهـــد بالدير وممتلكاته الى حام Charisticarius يضطلع بادارة اراضية بما يحقق كفاية الجماعة من احتياجاتها اليومية والحفاظ على كيانها • وقد ترك ذلك بصماته ـ قدر المستطاع ـ على مجال التطور الاقتصادى للضياع الديرانية ، ولكن هذا النظام فى حد ذاته كان بابا ولجت منه الفوضى ، مما عرضــه بالتالى للنقد من جانب رجــال الدين • وان كان هذا النظـــام لم يحل دون رفض بعض مؤسسى الاديار ، بنوع خاص باصرار أن تمنح أديرتهم الى أى انسان أو تحت أى ظروف ، كما فعلت الامبراطورة ايرين سنة ١١١٨ • وعلى العموم فقد لقيت هـــذه التجربة القبول ، على أساس أن يبقى للدير سماته الرهبانية •

وليس ببعيـــد أن ينتمى مؤسسو الأديـــرة ، من العلمـــانيين أو الأكليروسيين ، الى طبقات متباينة ، وقد شهد القرن الحادى عشر القديس دروثيوس Dorotheus يقيم ديره فى آسيا الصغرى بمساعدة اثنين فقط أو ثلاثة من أصدقائه والقرويين ، ثم مالبث أن حصل بعد ذلك على التأييد والدعم الامبراطورى . وغالبا ما كان للدير حماته العديدون والمحسنون ، ومن الممكن أن تنتقل حقوق المؤسس الى آخرين عن طريق الارث أو الاتفاق أو البيع أو التوكيل • ويضـــم الدير على الأقل ثلاثة رهبان (وربما عمد المؤسس الى تحديد العدد) ،وتدون الهبات الخاصة به فى وثيقة تســمى « المختصر » brevion (١٥) وتودع فى دار المحفوظات الأسقفية • ويعتبر « المختصر » هذا جزءا من ميثاق التأسيس ، الذى يحتوى بالاضافة الى ذلك على رغبات المؤسس فيما يتعلق بالالتزامات الطقسية (كالصلاة من أجله واسرته ، وقواعد الصيام والاحتفالات الدينية بصفة خاصة) ، ويحدد الواجبات الخاصة التى يجب أن تلتزم بها الجماعة •

---

(١٥) مشـــتقة من breve Is وكانت اللاتينية هى لغـــة الادارة فى الامبراطورية الرومانية الشرقية فى أيامها الأولى •

وهنـــاك أنواع عديدة من المؤسسات الديرانية مثل الدير الاســقفى eparchial (١٦) الذى يخضع مباشرة لاشراف الأسقف • وقد حظيت بعض الأديار بامتياز خضوعها للسيادة الأســقفية المباشرة ، أو تحت السيادة الكنسية العليا فى حالة كنيسة مستقلة(١٧) ، وكانت أذديرة الامبراطورية « اديار امبراطوريتى » مستثناة من الخضــوع للسلطة المدنيــة أو الكنسية وغيرها عدا الامبراطور أو من يمثله(١٨) ، وقد حصلت مثل هذه الأديار ، سواء الامبراطورية منها أو التى أقامها آخرون ، على ذلك الامتيـــاز من الامبراطور نفســـه • وهكذا فان تلك الأديرة المستقلة استقلالا ذاتيـــا Outodespotai قد حظيت ، بمقتضى شروط تأسيسها ، بالتحرر من السيادة الامبراطورية أو البطريركية أو الأسقفية ، أو حتى سلطان أفراد معينين • وان كانت هناك بعض المظاهر الرسمية التى تتعلق باقامة الدير ، يأتى فى مقدمتها موافقــة الأسقف ، ثم التدشين الأسقفى الذى يجـــرى فى احتفال يليق بهذه المناسبة ، ويتبع ذلك تثبيت الصليب(١٩) عادة فى الموضع الذى سوف يقام فيه المذبح ، حتى اذا انقضت سنوات ثلاث اقيم احتفال مهيب وأعلن فيه الترتيبات التى أعدها المؤسس من أجل الحفاظ على الدير •

وقد أدت ضرورة اختبار النوايا ، والتخلص من الدوافع غير الحقيقية، وتأمين حقوق الآخرين ، الى أن تجعل من تنظيم الانخراط فى سلك الحياة الرهبانية مسألة جوهرية • ذلك أنه كان لابد من تحديد وضع العبيد ، فلم يكن من المسموح به اغراؤهم لهجران سادتهم ، اما الفارون فيمكن استردادهم خلال الأعوام الثلاثة الأولى التى تعتبر فترة اختبار (تبعا لما جاء فى النوفلا الخامسة من متجددات جوستنيان) ، أو حتى بعد ذلك حسبما ورد عند ليو

---

(١٦) مشتقة من eparch أو diocese

(١٧) كما فى قبرص حيث كان يوجد رئيس للاساقفة •

(١٨) قارن بما حدث على عهد الامبراطور نقفور الثانى فوقاس الذى تحدث عن « السيق Lavra الجديدة فى امبراطوريتى » ، فى ميثاق تأسيسه للسيق الكبير على جبل آثوس (ورغم انه ســـمى بالسيق ، الا انه كان كينوبيونا) •

(١٩) من هنا جاء مصطلح « صلبانية » Stauropegial رغم انه ينطبق أساسا على دير يخضع للسلطة البطريركية المباشرة •

السادس (نوفلا ١٠) • ولم يكن بمقدور طرف واحد أن يفض زواجا ، أو يفسخ خطبة • أما فى حالة دخول الزوجين درب الرهبنة ، فانه كان يتحتم ضمان اعالة ذويهم كالأطفال أو الآباء • وحسب قوانين المجمع الذى عقد فى قاعة القبة(٢٠) Trullo (٦٩١) تم السماح للعذارى بدخول الدير فى سن العاشرة ، رغم أن القديس باسل الكبير كان قد اقترح سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة ، وذكر ليو السادس (نوفلا ٦) انهن اذا دخلن الدير فى العاشرة من عمرهن بات عسيرا عليهن التخلص من ممتلكاتهن حتى سن متأخرة • وبمقتضى بعض التعهدات كان للدير الحق والارث الشرعى شأن الهبة غير المشروطة • أما ما كان قد أعطى للدير على سبيل الهبة ، سواء من الراشدين أو الآباء من أجل أطفالهم ، كان لابد أن يبقى حتى بعد أن يترك هؤلاء الأفراد الدير(٢١) • الا فى حالة واحدة وهى اذا كان الارتحال بسبب شكاية مقبولة ضد رئيس الدير •

وكانت المشكلة المزدوجة التى تواجه الدير فى ملكيته ونظامه ، تنشأ عندما ينتقل احد الرهبان من دير الى آخر ، وقد قرر جوستنيان أن تبقى الملكية من حق الدير الأول الذى ينتمى اليه الراهب • وفى الوقت ذاته فان مقدمى الأديرة كانوا يتعرضون للتوبيخ لسماحهم بحدوث ذلك العمل الذى يستوجب الادانة باعتباره مخالفا لنهج الحياة الرهبانية • وكان على الديرانية الشرقية أن تكابد أحيانا ذلك اللوم الناتج عن حالة التنقل هذه بعكس الاستقرار المكانى Stabilitas loci الذى ركز عليه باصرار القديس بندكت Benedict من نورسيا Nursia (رغم ما ذكره من أنه كان يضع فقط « القاعدة الأولية للمبتدئين » مشيرا الى أن المسألة لا تحتاج بالضرورة الى وثاق يمسك بخلق الراهب المتمرس) ، ولكن الشىء الذى لامراء فيه أن هذا التجوال لم يكن يحظى بالقبول من جانب السلطات الكنسية البيزنطية أو مؤسسى الأديرة العلمانيين • وقد كشفت القوانين المجمعية والقواعد

---

(٢٠) انظر قبله • المترجم •
(٢١) المجمع المسكونى السابع (٧٨٧) القانون رقم ١٩ •

الأسقفية والتعليقات التى وضعها فقيه القرن الثانى عشر بالســـامون(٢٢) Balsamon انه يمكن فقط ، بعد مراعاة التحفظات الضرورية ، انتقال راهب من دير الى آخر ، وفى هذه الحالة كان عليــه أن يحصل على موافقة رئيسه وأسقف الناحية ، ولأسباب وجيهة وصريحة · وكانت سيق جبل آثوس فى القرن العاشر تسمح لرهبانها بالذهاب الى اديرة أخرى أكثر قدرا ، وذلك بموافقة رؤسائهم السابقين ، اذا ما كان ذلك رغبة منهم فى السمو الروحى· وقد أعطى مجمع سنة ٨٦١ (القانون رقم ٤) للاسقف الحق فى نقل أى راهب من دير الى آخر اذا ما استشعر أن رغبته فى ذلك صادقة ·

ومنذ الأيام الأولى للرهبنة المصرية ، كانت هناك مرحلة لابد أن يجتازها أولئك الذين نذروا أنفسهم للحياة الرهبانية ، ورغم أن القديس باسل لم يحدد فترة زمنية محددة لهذه التجربة ، الا أنه كان يعتبرها مسألة جوهرية(٢٣) بينما حدد جوستنيان ثلاث سنوات للعبيد ومجهولى الهوية ، على حين جعل من حق مقدم الدير قبول الآخرين لحظة اقتناعه انهم قد أصبحوا لائقين ، (نوفلا ١٢٣) وقد سمح هذا التشريع بكل تأكيد بالانخراط على الفور فى سلك الرهبنة · أما مجمع القسطنطينية المنعقد فى سنة ٨٦١ ، فقد جعلهـا (فى القانون رقم ٥) ثلاثة أعوام للجميع على السواء ، وان كان قد استثنى من ذلك أولئك الذين كانوا يحيون وسط هذا العالم حياة القديسين الأطهار (وكانت ستة اشهر فقط كافية لهؤلاء) ، والمبتدئين (أو الآخرين) الذين كانوا يعانون أدواء المرض ويجب لذلك قبولهم دون ابطاء فى درب الرهبنة · وبغض النظر عن هذه الاستثناءات ، فان الواقع العملى فيما بعـد لم يكن يلتزم غالبا بهذه السنوات الثلاث ، اما بناء على توجيهات مقدم الدير فى بعض الأحيـــان ، أو تبعا لميثاق التأسيس فى أحايين اخرى · وطبقا لنمط typicon القديس اثناسيوس الذى وضع لسيق جبل آثوس ، كانت فترة الاختبار عاما واحدا · يحتوى كتاب الصلوات Euchologion على نظام كسوة الراهب أو الراهبة ، وتاريخ تصنيف هذا الكتاب غير معروف ، ولكن

---

(٢٢) أنظر قبله · المترجم ·

(٢٣) Longer rule 10

الطقسين البيزنطيين للرداء(٢٣) « الكبير » و « الصغير » وجدا فى مخطوطات سابقة تعود الى القرنين الثامن والتاسع ، وبينما ترتدى الكسوة الكبيرة من جانب الراهب القديم المجرب ، كانت الكسوة الصغيرة تدل على ابتداء الانخراط فى سلك الحياة الرهبانية · ويتم استقبال المبتدىء اذا كان قسيسا من جانب رئيسه ، فاذا كان دون ذلك جرت مراسم الاستقبال على يد القسيس فى حضرة الرئيس الذى يخضع له ذلك المبتدىء(٢٤) ·

وعلى رأس الكينوبيون يأتى المقدم (ويدعى غالبا الرئس hegoumenos أو الرئيس العام Kathegoumenos) ، وتختلف طرائق اختياره ، فربما عين بواسطة مؤسس الدير ، أو أسقف الناحية أو البطريرك · وفى بعض الاحيان كان يختار على يد الاخوة من بين عدد من المرشحين ، وغالبا ما كانت تفاصيل هذه الاجراءات تدون فى ميثاق التأسيس ، ككيفية الاقتراع · هل يجرى علانية أو فى سرية ، أو من له حق صوت التغليب اذا دعت الحاجة الى ذلك ، وكان من الضرورى أن تحصل عملية الاختيار على تأييد أسقف الاقليم أو البطريرك فى حالة الدير الصلبانى Stauropegial · وعادة ما كان مقدم الدير يحتفظ بمنصبه مدى الحياة ، ولكنه ربما يعتزل أو يعزل لدواع معينة · وهو بحكم وظيفته مسئول عن الأمور الروحية والزمنية للدير · فهو الذى يعين الرهبان الاحدث سنا تحت رعاية أب روحى وهو اكبر الرجال الذى يتولى مهمة تعليمهم وسماع اعترافاتهم ، وبمقدوره فقط أن يمنح الغفران اذا كان البطريريك أو العادة تسمح له بذلك · وفى بعض الاحيان ، كان رهبان العصور الوسطى يدعون ذلك اذا لزم الأمر بحكم فضيلة النعمة

---

(٢٣) وكان هذا الملبس Schema هو اللباس الأسود المميز للراهب والرمز الواضح للحالة الرهبانية · ولهذا فان مصطلح schematologion (حفلة التلبيس) يرد فى الجزء الخاص بالاحتفالات الديرانية فى كتاب الصلوات Euchologion وكانت كلمة Schema تستخدم فى بعض الاحيان للدلالة على « الأسلوب الرهبانى للحياة » · للحصول على ترجمة فرنسية لهذه المراسم · أنظر
E. Amand de Mendietta, La presqu'île des Caloyers île mont-Athos "Burges 1955" pp. 324 ff.

(٢٤) مجمع القسطنطينية سنة ٨٦١ (القانون رقم ٢) ·

الالهية Charisma وكان يعهد بالمهام القداسية الى مجموعة من الموظفين كل في اختصاصه ، فهم يوقظون الاخوة فى وقت مناسب ويتأكدون من أن أحدا لايغط فى نومه ، يثرثر أثناء القداسات ، ويشرفون على الطقوس والترانيم ، ويعنون بكتب الصلوات ٠

وفيما يتعلق بالادارة الداخلية ، كان الأويكونوموس يتولى الاشراف العام على ميزانية الدير ، ويتابع بمساعدة أعوانه كل ما يتصل بالنواحى المالية ، والأردية ، والطعام والشراب ٠ ويخصص الدخل للانفاق على المكتبة ونسخ الكتب وتطبيب المرضى ورعاية الغرباء والأخذ بيد ذوى الفاقة ٠ هذا الى جانب مسئوليات اضافية تقع على كاهل الجماعة نتيجة تكليف خاص ينص عليه ميثاق التأسيس ، كالانفاق على مستشفى أو دار للايتام ، أو توزيع الصدقات فى مناسبات معينة ٠ ويراعى بصورة دقيقة عند تحديد الاختصاصات أن يشارك الجميع فى الأعمال النمطية اليومية ٠ وقد أعطى ثيودور الاستوديى صورة حية عن الواجبات العديدة التى خصصها لرهبانه فى المصانع أو الحقول أو الدير نفسه ، وحدد معالم التعليم ونسخ الكتب ٠ وكانت القدرة على التفكير الواضح بالنسبة له ، كما عند القديس يوحنا الدمشقى St. John of Damascus ، تعنى الفهم العميق للكتاب المقدس وآباء الكنيسة والقوة الكبرى فى مواجهة الهراطقة ٠

وليس من الصعب استعادة تصور الحياة اليومية داخل أحد الأديرة الكبيرة والشهيرة مثل الدير الاستوديى ، أو دير القديس ماماس Mamas بالقسطنطينية تحت رعاية سيمون Symeon - حتى أدق التفاصيل عن قائمة الطعام الاستوديية ، والوجبات المعتادة لتسعة من الرهبان بقلنسواتهم حول كل مائدة ، وخزانة ثيابهم وأرديتهم التى يغيرونها مرة كل أسبوع ٠ وفوق هذا وذاك فان الحياة المشتركة كانت تتركز أساسا فى الخدمة ، تلك القداسات التى تؤدى فى كنيسة الدير فى أوقات متفرقة من الليل والنهار ، كانت تعرف بالساعات القداسية(٢٥) ، وهى تشتمل أساسا على الصلوات ،

---

(٢٥) صلوات منتصف الليل ، الفجر Orthros ، الساعة الأولى Prime ، الساعة الثالثة Terce ، الساعة السادسة Sext ، الساعة

والمزامير ، ودروس عن الكتاب المقدس ، والترانيم والأناشيد وكانت تتنوع تبعا للاوقات والفصول ، وعلى سبيل المثال فقد كان لعيد الفصح طقوسه الرائعة وترانيمه ، بينما يتم على مدار السنة من يوم الى آخر ، احياء ذكرى اناس ضمنوا بطهارتهم مكانا فى التقويم القداسى للكنيسة الشرقية شأن القديسين المحليين الذين حظوا بالاجلال فى اقاليمهم · ويعتبر القداس الالهى عصب هذه العبادة المشتركة · فاذا ماتساءلنا عما يمكن أن تعنيه هذه العبادة للراهب ، فان ذلك يتضح فى نوعية التعليم الموجه الى حياته الروحية، والذى يتم بصورة منتظمة داخل الجماعة الديرانية · وفى هذه التقارير التى تتناول التجارب الشخصية لأولئك الذين قطعوا شوطا بعيدا فى طريق الروح مثل ثيودور الاستوديى وسيمون اللاهوتى الجديد ·

وكان آباء الرهبانية الأرثوذوكس فى العصور الوسطى ، شأن أسلافهم فى بواكير المسيحية ، يعتبرون الكينوبيون بداية لمعظم الرجال ، فى الوقت الذى يذهب فيه قليلون الى أبعد من اعتباره الطريق القصير · وقد تعرض الهيكل الديرانى للكنيسة الشرقية لتغيير هائل خلال العصور الوسطى وما بعدها : ولعل جماعات النساك قد ائتلفت تحت رعاية أب بطريق الاختيار، غالبا ما كان يعرف بالمقدم Protos وفى القرن السادس كان هناك فى فلسطين رئيس واحد لجميع الكينوبيوات وآخر للاسياق · وكان لأديار جبل آثوس وجبل لاتروس Latros ، او جماعات متيورا Meteora فى تساليا Thessaly مقدموها · وفى بعض الاحيان كان يعهد الى احد الاديار بالاشراف على اديرة اخرى باعتبارها توابع له ، وغالبا ما كانت مجموعات القلالى Scetes او صوامع المتوحدين تخضع لواحد من الكينوبيوات ·

التاسعة None ، الغروب Vespers ، صلاة قبل النوم Compline (انتهاء العشاء Apodeipnon) ·

- انظر E. Wellesz, Byzantine Music ويتضمن مختصرا عن القداس البيزنطى ومحتوياته (مع البيبليوجرافيا) · وكان بعض الرهبان يتخلفون عن صلوات الثالثة والسادسة والتاسعة فى بعض أيام الأسبوع ، كما أن القائمين بنسخ الكتب فى دير ثيودور الاستوديى كانوا يعفون من ساعات معينة ·

ولم يؤد وجود الكينوبيون الى القضاء على السيق ، بل ظلت قائمة ٠ ومع العصور الوسطى المتأخرة تطور النظام الرهبانى الفريدidiorrhythmic ومازال بعض اديرة جبل اثوس تسير على نفس نهجه الى اليوم ٠ ويؤكد البعض أن هذا النظام يعود الى جبل اثوس نتيجة لما اعترى الحياة المشتركة من فساد وبنوع خاص بسبب الاضطرابات التى اجتاحت هذه المنطقة ابان الحرب الصليبية الرابعة أو اغارات « المغاور »(٢٦) Catalan وربما كان

---

(٢٦) هم جماعات من المرتزقة الأسـبان ، داع صيتهم فى النصف الأخير من العصور الوسطى ، وعرفوا بالجماعات القطالونية على الرغم من انهم يضـمون عناصر مختلفة الى جانب القطالونيين من ارغونة ونافار ، وجدوا انفسهم ولا عمل لهم بعد أن انتهت الحرب بين ارغونة وشارل الثانى كونت انجو فى اواخر القرن الثالث عشر ٠ فاختاروا من بينهم روجر دى فلور Roger de Flor زعيما لهم ، وهو ينتمى لأصل ألمانى ، وكان اسم عائلته Blum اى الزهرة Flower فنقلت الى الاسبانية على هذا النحو Flor ٠ وكان روجر فى اول الأمر جنديا فى فرسان الداوية ، ولكنه طرد لاختلاسه ولما كان الامبراطور البيزنطى اندرونيكوس الثانى يعانى من هجمات الاتراك العثمانيين ، فقد استنجد بروجر وجماعته ، فلبى روجر دعوته شريطة أن يحصل على لقب « الدوق الأعظم » Megadukas ويتزوج ابنة أخ الامبراطور ويتقاضى جماعته ضعف ما يتقاضاه المرتزقة العاديون : وهكذا أتى روجر وجماعته التى يبلغ عددها قرابة العشرة الاف الى القسطنطينية فى سـنة ١٣٠٣ ، ودخلوا على الفور فى نزاع مع الجنوية الذين احسـوا بضياع امتيازاتهم ، ومن ثم عمل الامبراطور على نقلهم الى اسيا الصـغرى حيث القلحوا فى التصدى للعثمانيين وفك الحصار عن فيلادلفيا Philadelphia الى الشرق من سميرنا Smyrna غير انهم عاثوا فى آسـيا الصغرى فسـادا فاستدعى الامبراطور روجر الى العاصمة ، فاحتل فى طريقـه غاليبولى ، وحصل من الامبراطور على لقب القيصر ، ولكنه لم يلبث أن قتل مع عدد = = كبير من جماعته فى ادرنة على يد ميخائيل التاسع ابن الامبراطور الذى كان مقيما هناك ، فانتقلت فلوله المتمركزة فى غاليبولى الى اوروبا وخربوا تراقيا ومقدونيا وحطموا اديرة جبل اثوس ، وبعد أن مكثوا قليلا فى تساليا ، استقر بهم المقام فى دوقية آثينا وطيبة ٠ التى كانت خاضعة للحكم الفرنسى منذ الحملة الصليبية الرابعة ، وظلت لهم السيادة هناك حتى عام ١٣٧٩ عندما قضى عليها الغزو النافارى ٠

هذا عاملا مساعدا ، ولكن بذور الرهبانية الفريدة idiorrhythmic كانت كامنة فى القلالى والأسياق الأولى · وكان الرهبان داخـــل هـــذا الدير الفريد idiorrhythmic يتجمعون فى « أسر » صغيرة ، كل منها تحت رعاية راع ، وللدير نوع من الملكية المشتركة تدار بواسطة اثنين او ثلاثة يختارون سنويا كقيمين opitropi وكان يسمح للافراد فى هذا النظام بحق التملك الخاص ، ويعيشون داخل « أسرتهم » عدا الوجبات المشتركة فى عيد الميلاد وعيد الفصح أو الاحتفال الخاص بالقديس الذى ينتمون اليه ، ولكن القداس كان يتلى فى الكنيسة المشتركة ·

ولقـد ابانت المصـادر الديرانية عن مـدى المرونة التى كانت عليها التنظيمات الأساسية ، كما اوضحت ايضا مظاهر التعاون المشترك فى الحياة الديرانية والنسكية · ولم يكن على الراهب البيزنطى عادة ان يفاضل بين طريقة وأخرى · فغالبا ما كان الرجال يتوقون الى سلوك درب حياة توحدية « بعيدا على الجبال او فى الكهوف ، قبل ان يتوفر الاستعداد لمثل هـــذه التجربة · ولدينا من القرن الحادى عشر القصة الشهيرة لذلك الأســقف اللاتينى الذى اتهم بارتكاب حادثة قتل غير عمدى ، وجاء بناء على ذلك ليكفر عن هذا الاثم فى الكنيسة الشرقية ، ولكنه نصح فى القسطنطينية بأن يعيش « متوحدا » داخل احد الكينوبيوات ، حيث ســيفيد كثيرا من قهر ارادته(٢٧) · وكانت الحيـــاة المشتركة هى البداية الطبيعية ، ثم يمضى الراهب بعد ذلك مع استحسان رئيسه ، الى ممارسة حياة نسكية أشد صعوبة يمكن بها حقا بلوغ أعلى مراتب السمو الروحى · وهكذا وجدنا ان كثيرا من الكينوبيوات كان يسمح لها بالانسحاب من الجماعة لهـذا السبب ، وفى بعض الاحيان لتعود فى وقت لاحق · وقد تخلى سيمون اللاهوتى الجديد عن

انظر Vasiliev, op. cit. II, pp. 604-608
وايضا D. Waley, Later Medieval Europe, pp. 199-200
وكذلك دكتور اسد رستم : الروم ، الجزء الثانى · ص ٢٢٣ ـ ٢٢٥ ·
المترجم ·

(٢٧) Nicetas Stethatus, vie de Synleon le Nouveau Theologien, ch. 52-54 (ed. and trans. I. Hausherr, Orientalis. Christiana VII, Rome 1928, pp. 68 ff.).

منصبه كمقدم للدير كي يعيش حياة توحدية · وهناك بالطبع أمثلة لرجال ونساء أصبحوا نساكا دفعة واحدة · وانتهج بعض من هؤلاء طرائق خاصة وانماطا رهبانية تثير الدهشة ، منهم أولئك الذين عرفوا بالعموديين وهم الذين أمضوا حياتهم فوق الأعمدة · ولم يكن ذلك يشكل خطورة بالغة على حياة الراهب كما قد ينصرف الذهن غالبا ، حيث لم يبد أن أحدا منهم قد تعرض للسقوط ، فقد كان هناك في بعض الأحيان اطار يحيط بقمة العمود ، أو حتى مجرد مأوى جزئي(٢٨) ، ويمكن بلوغ قمة العمود عن طريق سلم · هذا بينما عاش بعض آخر في الاشجار ، ولذا ذاع صيتهم باسم الشجريين ، بحيث وصف أحدهم بأنه كمن يسكن « في شجرة نوز كطائر مغـــرد » · وكانت خشـــونة الطبع من هذا النوع ، كمـــا بين ذلك يوحنـــا السلمي John Climacus وآخرون ، وراء معظم هؤلاء الرجال · كما أن كثيرا من التشريعات الديرانية كانت توجه الى التحكم في الفردية المفرطة ، التي يجب أن تكون مجرد عطاف للغفران الذاتي وتيه النفس · ومن ناحية أخرى فان أولئك الذين كابدوا مثل هـــذه المشقات حتى وافتهم آجالهم ، غدوا موضع الاحترام العميق ، ونالوا في حياتهم نعما جعلتهم ذوي مقدرة خارقة للطبيعة (Charismata) أهلتهم لاتيان المعجـزات والشفـاعة لاخواتهم المسيحيين ·

وعلى امتداد العصور الوسطى ، بقيت الرهبانية ، عنصرا مكملا للحياة البيزنطية · ورغم أن كثيرا من الأديرة والمتوحدين لم يعد لهم ذكرى سوى اشارة مختصرة في المزمنات أو الأدب ، فان عديدا أيضا من المراكز القديمة والأديرة مازال معلوما تماما ، وغالبا في المدن الكبيرة مثل القسطنطينية أو سالونيك وضواحيهما · فهناك في آسيا الصـــغرى ، ليس بعيدا عن بحر مرمره ، كان جبل أوليمبوس Mt Olympus بالقرب من بروسا Brusa ، مألوفا منذ أزمنـــة مبكرة ، تنتشر على منحدراته والى جواره الصـــوامع والأسياق والأديرة · وظل لفترة طويلة بعد تدهور هـــذه المؤسسات تحت الحكم التركي ، يعرف بـ « جبل الرهبان » · وتمتلىء آسيا الصغرى بكثير من هذه المراكز ، مثل جبل لاتروس Mt Latros في أقصى الجنوب ، أو أديرة

---

(٢٨) H.Delehaye, Les Saintes Stylites, p. CLVI كمثال مصغر في تقويم Menologion باسل الثاني ·

وصوامع كبادوكيا الشهيرة الآن بكنائسها المبنية من الصخر والمزينة بالفريسك • وكان لمنطقة جنوب ايطاليا وصقلية ايضا دورها فى الحركة الديرانية ، وقد ظلت بعض الأديرة فى صقلية قائمة بعد الفتح العربى » كما أنها لقيت التشجيع لفترة قصيرة من جانب النورمان •وقد ازدهرت الديرانية فى جنوب ايطاليا بصفة خاصة ، واضحت ملاذا للصقليين الذين هربوا اليها فرارا من العرب • ويأتى « الجبل المقدس » الكالابرى بين الجبال يعلو روسانو Rossano حيث ماتزال الى اليوم كنيسة صغيرة • وقد عاش القديس نيلوس St Nilus فى هذا الاقليم قبل أن يتجه الى الشمال ليؤسس دير جروتلفراتا Grottaferrata اليونانى قرب روما سنة ١٠٠٤ •

أما الجبل المقدس بلا منازع فقد كان جبل آثوس Mt Athos • وهو عبارة عن شبه جزيرة ناتئة داخل الحر الايجى بالقرب من سالونيك • وكان به جماعة من الناسكين فى القرن التاسع ، وفى عام ٩٦٣ اقام القديس اثناسيوس ، الأب الروحى وصديق الامبراطور نقفور فوقاس ، أول وأهم كينوبيون مستعينا فى ذلك بالعون الامبراطورى • حتى اذا كان منتصف القرن الحادى عشر راح يزخر بكل اشكال الحياة الرهبانية ، وان كان فى الحقيقة يعوزه النظام • واخذ جبل آثوس يسير قدما نحو ائتلاف الأديرة والاسياق والمتوحدين تحت رعاية آباء مختارين هم المقدمون • وقد حظيت المنطقة بالحماية الامبراطورية واصبحت محل التوقير العميق والتقدير ، واجتذب الجبل اليه الرهبان من كل انحاء العالم الأرثوذوكسى ، وكذا من الغرب • وقد ارتبطت بعض اديرته ارتباطا خاصا بعدد من الاقطار ، فقد كان افيرون Iviron مؤسسة جورجياوية (ايبرية) ، وخيلاندارى Chilandari صربيا ، وبانتليمون Panteleimon روسيا (حتى انه كان يسمى أحيانا الروسى) ، وفاتوبدى Vatopedi ارمينيا ، ولبعض الوقت كان هناك ديرسانت مارى الامالفى • ولا يعنى هذا أن الجبل المقدس لم يتعرض لفترات من الانحلال فى هذه المؤسسات الديرانية ، ولكنه فى الوقت ذاته كان قادرا على ان يترك بصمات مثله الرهبانية واضحة على أولئك الرجال الذين ارتحلوا الى مناطق يقيمون فيها أديرة أخرى مثل دير الكهوف الموجود فى كييف من القرن الحادى عشر باسم القديس انطونيوس ، أو الدير الصربى فى القرن الرابع عشر • والحقيقة أن الانحلال السياسى الذى عانته بيزنطة ،

صحيته قوة متزايدة للجبل المقدس ، ذلك انه منذ القرن الثالث عشر وماتلاه شهدت المنطقة حركة روحية نشطة بعيدة المدى ، تركزت فى حيـــاة مفكريه ومتامليه الذين عرفوا بالزاهدين الصامتين hesychasts · وكان بعض من هؤلاء لاهوتيـا ، كما أن بعضهم مارس احيـانا بعض الوظائف الكنسية ، تخص بالذكر منهم القديس جريجورى .الاماس(٢٩) St. Gregory Palamas الذى يعد من اشهر زعماء الزهد الصامت ، والذى أصبح رئيسا لأسـاقفة سالونيك ، وكذلك يوحنا السادس John VI الذى اعتزل العرش سنة ١٣٥٤ وغدا راهبا ، تسلط عليه التفكير فى الذهاب الى دير فاتوبدى على الجبـل المقدس (رغم أن قصده هذا لم يترجم الى واقع) · وقد كتب يقول ان رهبان جبـــل آثوس يشبهون « أطلس » لأنهم يحملون العـــالم كله على ظهورهم و « يتشفعون له عند الله »(٣٠) ·

ولا شك ان الرهبانية قد أسدت الى الدولة فى العصور الوسطى خدمات عدة فى مجالات شتى · ولم يكن عليها أن تزود الناحية الثقافية بنفس القدر الذى فعلته الديرانية فى الغرب ، ولكنها كانت حليفـــا هاما فى الميـــدان الاقتصادى · فقد ساهم الرهبان والأديرة فى رعاية وادارة ملاجىء الأيتام والمستشفيات ، واقاموا جمعيات للأمـور الجنائزية ، وهياوا اماكن الدفن تكريما للامبراطور أو مؤسسها او لمواراة جثمان احد الفقراء ، كما انهـا كانت ملجأ يهرع اليه من لحقهم الفشل السياسى ، ويلوذ به الآثمون · وقد تضمن كتاب الصلوات Euchologion صلوات خاصة تؤدى عند تلبيس التائبين الـــذين يؤتى بهم الى الدير ليكفروا عن اثامهم · ومن بين هؤلاء الأخيرين أشارت تشريعات جوستنيان والقانون الكنسى المتاخر الى زانيات ، وشماسات شغلن باعمال دنيوية معيبة ، ورهبان هاربين ، واكليروسيين ، ابتداء من الأسقف الى من هم دونه مرتبة ، يرتادون نوادى القمار او يغشون المسارح (ويزج بهؤلاء فى احد الأديرة طيلة ثلاث سنوات مع فقدان وظائفهم

---

(٢٩) انظر قبله حاشية ١١ ص ٢٣٨ المترجم ·

(٣٠) John Cantacuzenus. Hist. IV, 24 (vol. III, pp. 175-176, Bonn 1832).

الكهنوتية) (٣١) • وتزدحم المزمنات بأمثلة كثيرة لأناس فشلوا فى حياتهم السياسية ، واباطرة معزولين ، وملكات امهات غير مرغوب فيهن ، وقد دخل هؤلاء جميعا الأديرة ليمكثوا فيها فقط حتى تهدا وليرتحلوا عنها عندما تواتيهم الريح ، وان كان اغلبهم قد جاءه ليختفى فيه عن العالم طيلة محياه • وكان الأباطرة الذين يدركون أن ساعة وداعهم للدنيا قد دنت ، يخلعون باتضاع عباءتهم الامبراطورية ، ويتجهون الى احد الأديرة ، فرحين برحلتهم عن هذا العالم وهم يتدثرون بذاك الرداء الرهبانى البسيط •

غير أن الرهبانية لم تخل من النقائص ، ذلك أن انتشارها الواسع كان يعنى أن عليها أن تناضل من أجل الحفاظ على مستواها داخل اديرتها • يشهد على ذلك النضال الذى أبداه القديس سيمون اللاهوتى الجديد • فهو يقول مخاطبا رهبانه • انظروا •• ان هراطقة زماننا هذا هم أولئك الذين يعيشون الآن بيننا ولا يستطيعون الوصول الى ما كان عليه الآباء المقدسون » •

« خبرونى •• لماذا يعد ذلك ضربا من المستحيل ؟ وباى السبل اذن اضاء أولئك القديسون الأرض وغدوا مشاعل اشراق فى العالم كله ؟ لو كان ذلك مستحيلا ، لما استطاعوا اذن اليه سبيلا • لقد كانوا رجالا كما نحن ، ولم يكن لديهم اكثر مما نملك ، اللهم اذا استثنينا عزمهم من أجل الخير ، والغيرة ، والتواضع ، وحب الله • فهلا نلتم ذلك لأنفسكم ، عندها سوف تغدو ارواحكم ، التى هى الآن كالحجارة أو اشد قسوة ، ينبوع الدموع • وحتى اذا كنتم راغبين عن سلوك أصعب الدروب وأضيقها ، فلا اقل من أن تكفوا عن القول بأن ذلك يبدو مستحيلا »(٣٢) •

واذا ما اخذ النقد والهجاء من ناحية القيمة الظاهرية فقط ، فان ذلك لن يؤدى الى توضيح القوة الحقيقية للرهبانية • وقد كتب يوستاتيوس Eustathius رئيس أساقفة سالونيك فى القرن الثانى عشر نقدا لاذعا للرهبانية ، وغالبا ما يحتج بها البعض وكانها تشير الى حالة عامة فى هذا

---

(٣١) Nov. 123 and 134; Nomocanon VIII, 14 "G. A. Rhalles and M. Potles, Syntagma. vol. I, p. 161, Athens1858".

(٣٢) Catechesis 29, 164-73 اقتباس B. Krivocheine « أشد المتحمسين تعصبا » ، Ostkirch, Studien, IV "1955", pp. 122-3.

الشان • ففى بعض الأحيان قد يختار مقدمو الأديرة أناســا لا يستطيعون الحديث الا عن المسائل الزراعية ، ولكن هناك اكثر من دليــل على مراتب السمو التى يمكن ان يرتقى اليها رؤساء الأديرة وها هى عظات الآب سيمون وكتاباته الرمزية التى توالى تداولها منذ زمانه حتى أيامنا هــذه ، وظلت دائما ينبوعا يستشهد به ويقتبس منه فى دواوين الشعر ، وليست العظات الزراعية التى انتقدها رئيس الأساقفة يوستاتيوس • لقد كانت الروحانية واحدة من اهم القنوات التى جرت فيها التجارب الخلاقة البيزنطية • ولامراء فى ان ما كتبه رجال مثل جريجورى النيساوى Gregory of Nyssa وايفاجريوس البونطى Evagrius of Pontus ويوحنــا الســلمى John Climacaus وثيودور الاستوديى Theodore the Studite وكذلك سيمون اللاهوتى الجــديد ، والزاهدون الصامتون فى العصــور الوسطى المتاخرة ، وغير هؤلاء كثيرون ، لامراء فى أن أعمالهم تعد شاهدا حيا على النضال الدائب والكامن وراء تجربتهم الروحية • لقد كانت حياة هؤلاء الرجال لأطهار حربا مستعرة ،وحياة أول الرهبان أنطونيوس ترسم هذا السبيل • وهذا الضيق وذاك الكرب اللذان تتضح بهما كتابات سيمون ، وادراكه الحاد لتقصيره ، ليتناسب تماما مع تلك المرتبة السامية التى ارتقاها بنعمة من الله وفضل • ولم يكن هناك شىء يتسم بالسلبية حول هذا الصمت المقدس عند أولاء المتأملين العظام ، ولم يحدث أن فشل أحدهم فى تحقيق احتياجات الآخرين سواء بالصلوات متضرعا أو القدوة الحسنة أو التدخل المباشر • ولقد كان من أقل ما ناء به كاهل سيمون « حدبه الكامل ورعايته لكل الأخوة » الذين معه • كما ترك جريجورى بالاماس ديره فى جبل أثوس ليدافع علانية عن التجارب الروحية التى يمارسها الزاهدون الصامتون ، بينما أيد يوحنا الدمشقى John of Damascus وثيودور الاستوديى صراحة تقديس الايقونات وتحديا الأباطرة ، فلقد كانت الايقونية والزهد الصامت من الأمور التى ارتبطت ارتباطا عميقا بجذور الأرثوذكسية ، وتركزت الحيــاة الروحية لهؤلاء جميعا فى الحفاظ على الايمــان القويم • وهكذا لاغرابة اذا عرف الرهبان بانهم عمــد العالم البيزنطى • فهم انموذج العلمانيين ، والرحماء ساعة القحط ، والمطببون عند الطاعون ، والمخففون لمتاعب الانسان• لقد كان الفلاحون واهالى المدن على الســواء يتجهون بفطرتهم الى ذلك

الرجل المطهر « خليل الله ، الذى نال بفضل ورعه وتقواه طيلة حياته نعماء الاله » ، وكتب يوحنا اليوخايتاوى(٣٣) John of Euchaita فى السيرة التى وضعها عن أحد مقدمى الأديرة فى آسيا الصغرى فى القرن الحادى عشر «ان للقديس من القوة ما يمكنه من أن يفى بكل ما الناس اليه فى عوز»(٣٤) . لعل هذا هو الذى يعطى هذه المكانة الفريدة للرهبانية فى مجتمع الشرق الرومانى .

---

(٣٣) أنظر قبله .

(٣٤) Migne, Patrologia Graeca, 120 col. 1073, Life of st Dorotheus.

مراجع خاصة بالكنيسة والحياة الديرانية

— Cambridge Medieval History. vol. IV pt. 2. Cambridge 1967.

— Cavarnos (C.), Anchored in God. Athens 1959.

— Dawes (E.) — Baynes (N. H.), Three Byzantine Saints. Blakwell, Oxford 1948.

— Every (G.), The Byzantine Patriarchate 451 — 1204 (2nd ed.) London 1962.

— Fliche (A.) — Martin (V.), Histoire de L. Eglise, 21 tomes. Paric 1936 sqq.

— French (R.M.), The Eastern Orthodox Church. London 1051.

— Gill (J.), The Council of Florence (C.U.P. 1959).

— Hammond (P.), The Waters of Marah. the Present State of the Greek Church. London. 1956.

— Hussey (J.M.), Church and Learning in the Byzatntine Empire 867—1185 (O.U.P. repr. 1963).

— Monasticism and Spirituality (C.M.H. col. IV pt. 2.).

— Kadloubovsky (E.) — Palmer (G.E.H.), Early Fathers from the Philokalia and Writings from the Philokalia. London 1954.

— Lossky (V.), The Mystical Theology of the Eastern Church London 1957.

— de Meester (P.), De. Monachico Stato Iuxta Disciplinam Byzantinam. Vatican 1942.

— de Mendieta (E.A.), La presqu'ile des Caloyers : Le Mont-Athos. Bruges 1955.

— Nicholas Cabasilas, The Divine Liturgy, trans. by J. M. Hussey and P. A. McNulty. (S.P.C.K. 1960).

— Nicene and post—Nicene Fathers of the Christian Church, vol. IX, St. John of Damascus, Exposition of the Orthodox Faith (London 1899), vol. XIV. The Seven Ecumenical Councils of the Undivided Church (London 1900).

— Nicol (D.M.). Meteora, the Rock Monasteries of Thessaly London 1963.

— Orthodox Spirituality, by a Monk of the Eastern Church (S.P.C.K. 1945).

— Runciman (S.), The Eastern Schicm. Oxford 1956.

— Salaville (S.), An Introduction to the Study of Eastern Liturgis, trans. by J. M.T. Barton, London 1938.

— Sources Chretiennes, series (e.g. Maximus the Confessor, symeon the New Theologian). ed. par Lubac (S.J.) Danielou (S.)

— Ware (T.), The Orthodox Church. Pelican 1963.

— Wellesz (E.), A history of Byzantne Music and Hymnography (2nd ed., Oxford 1964).

— Zernov (N.), Eastern Christendom. London 1961.

الفصل الثامن

الحيـاة اليوميـة

الفصل الثامن

الحيـاة اليوميـة

ان التاريخ الاجتماعى والاقتصادى الدقيق للامبراطورية البيزنطية فى حاجة لمن يتعرض لبحثه (١) ٠ حقيقة هنـاك مادة وفيرة ربمـا بنى عليها روستوفتزف Rostovtzeft يوما ما تاريخه ، ولكن بغض النظر عن الكتابات اللاهوتية الخالصة والأعمال البلاغية ، فان معظم المصادر لا تمدنا بالكثير ٠ اما التفاصيل فقد نستطيع التقاطها من بين بعض الخطابات ضمن برديات الحقبـة المبكرة ، أو من سير القديسين ، أو النقوش والمزمنات ، أما فيما يتعلق بالفترة المتأخرة فنستقيها من مواثيق تأسيس الأديرة وامتيازاتها وسجلاتها ، وكتيبات مثل «كتيب الطوبجى» Gunner's Manual او التعليمات الخاصة بالتجارة فى الكتب التى تتناول الارشادات البحرية ووصف الموانىء ٠ غير أن أهـم البيانات وأكثرها قيمة نجدها فى مجموعات القوانين العامة والخاصـة ، فهى بطبيعتها غالبا ما تتضمن حالات الجور وخرق القـانون ، ولكنها فى الوقت ذاته تحتوى على الكثير من التفاصيل الشيقة التى تتناول مشـاكل الحياة الاجتماعية والاقتصـادية لكل عصر ، والتعويضـات التى تتناسب ونوعية الضـرار وفقدان العمل والعلاج الطبى الحـر والتنظيمات المعمارية الدقيقة خاصة الاضاءة ، وقنوات تصريف الأمطـار والميازيب ، وصيانة وسائل الترفيه العامة والخاصة ٠ وكان لأصحاب الاملاك الخاصة الحق فى

---

(١) بذل كل من L. Brehier و P. Kukules جهودا كبيرة لكسر الجمود حول دراسة مثل هذا الميدان ، رغم أن الوقت ربما لم يحن بعد لوضع كتاب فى مثل هذه الموضوعات حيث ماتزال المـادة الضرورية المتعلقة بذلك (مثل الوثائق والمسكوكات والأختام ، تمر بمرحلة التجميع ٠ ومع أنها تعتبر ناقصـة بالنسبة للحقبة المبكرة ٠ لكن العمـل المتأنى والتمحيص الدقيق لدارسين مثل Ostrogorsky و Dolger قد كشف عما يمكن أن تلقيه المصـادر المتأخرة من ضوء على المشاكل الاجتماعية والاقتصادية ٠

ان ينشئوا دورهم مطلة على البحر والحدائق أو الآثار العامة ، رغم أنه كان على الشخص الذى يدعى حق حيازة مثل هذه الآثار التاريخية ، مثل تمثال أخيل Achilles أو أجاكس AJax أن يبرهن أولا على مقدرة ثقافية كافية لتقدير قيمة هذه الآثار(٢) · وعلى نفس النحو يواجهنا النقص فى التفاصيل الخاصة بالنواحى الاقتصادية والادارية التى يجب أن تتوفر فى بعض المصادر الانجليزية مثل كتاب الروك(٣) Domesday Book أو حوار عن الخزانة Dialogue of the Exchequer او التنظيمات المحلية المتعلقة بالتجارة أو الصناعة فى بعض المدن مثل بريستول Bristol أو سوثهامبتون Southampton ولكن لو افترضنا أن التغيرات البيزنطية فى ملكية الأراضى والبناء الاجتماعى على أسس أقلمية لفترة طويلة ، لا يمكن استعادته الآن بصورة مقبولة · الا أنه من الممكن على الاقل الاشارة على نحو ما الى الحياة اليومية بمختلف مستوياتها ·

---

(٢) A Provincial Manual of Later Roman Law: the Calabrian Procheiron, renderd into English by E.H. Freshfield "Cambridge 1941", pp. 78 - 79.

(٣) حرص وليم الفاتح النورمانى بعد تثبيت أقدامه فى انجلترا ، بعد خمس سنوات من موقعة هاستنجز (١٠٦٦) ، ان يقوم باعداد مسح شامل لملكته الانجليزية الجديدة ، وجرى ذلك فى السنوات الأخيرة من حكمه · فقد أرسل مبعوثيه الى مجالس المائة فى كل مزرعة وضيعة حيث يلتقون هناك بشيوخ هذه المناطق ، الذين وجهت لهم الأوامر بتسهيل مهمة هؤلاء المبعوثين وأعطى هؤلاء أيمان الصدق فى كل المعلومات التى سوف يقدمونها · وعلى هذا النحو استطاع وليم أن يقف على اسم مالك الضيعةعلى عهد الملك ادوارد ، والمالك لها الآن ، وعدد الحيوانات ، وأعداد المحاريث الخاصة بالأراضى الملكية وتلك التى يمتلكها الأهالى ، وعدد الفلاحين أنصاف الأحرار ، وأولئك الذين يقيمون فى الأكواخ ، والأقنان والأحرار والمستأجرين، ومساحة الغابات والمراعى ، وعدد الطواحين ، وأحواض السمك ، وان كانت قد نمت أو توقفت · هذه المعلومات ضمنها مبعوثو وليم فى مجلدين ، كتبا على رقائق من الجلد ، وعرف هذا الكتاب باسم « الروك » . Domesday Book

أنظر Douglas, William the Conqueror, pp. 309-313-347-354

وكذلك F. Barlow, The Feudal Kingdom of England 1042-1216, pp. 98-99, 120-121 وأيضا C.M.H. vol. V, pp. 506-507 المترجم ·

كانت الأسرة هى محور الحياة العلمانية فى العصور الوسطى ، سواء بالنسبة للامبراطورية فى الشرق او الامبراطورية الرومانية الغربية · وينطبق هذا على مختلف المستويات من اكثرها غنى الى اشدها فاقة ، من البيت الامبراطورى الى احط الدور فى القرية · وقد استخدم الأثرياء العبيد والخصيان ، ورغم ان الكنيسة كانت تقاوم الرق الا انه ظل موجودا حتى فترة متأخرة جدا من الامبراطورية ، هذا على حين استطاع الخصيان الوصول الى مناصب مرموقة فى الوظائف الامبراطورية ، وكانت هناك مراكز معينة مقصورة عليهم · وقد حظى الزواج بالمرتبة الأولى فى التشريعات البيزنطية ، وركزت القوانين الكنسية والامبراطورية دائما على قدسيته · بينما قوبل الزواج للمرة الثانية بالامتعاض : حقيقة فقد سمح بالزيجة الثانية ، اما الثالثة فكانت تقع تحت طائلة العقاب ، على حين كانت الرابعة تجلب اللعنة · ولهذا كانت الصعوبات التى واجهت الامبراطور ليو السادس Leo VI ، الذى استطاع فقط ان يكون له وريث من حظيته التى جعل منها لذلك زوجته الرابعة ، رغم المعارضة الشديدة التى ابدتها الدوائر الكنسية · اما الطلاق فيمكن الحصول عليه لأسباب وجيهة ، وقد بدا من محاكمة Peira فى القرن الحادى عشر ، (وهى مجموعة من الأحكام والمناقشات حول قضايا متباينة اجراها القاضى يوستاثيوس الرومانى Eustathius Romaius وجمعها مؤلف مجهول) ، انه وان كان الطلاق شائعا ، وان يتم حتى بالتراضى بين الطرفين ، الا انه كان عندئذ عملا غير شرعى ، وكان للمرأة وضعها اللائق فى القانون البيزنطى ، فقد حفظ لها القانون حقها فى الصداق فاذا مات عنها زوجها ، اصبحت هى الوصية الشرعية على اولادها مادامت لم تتزوج ثانية . ونصت الاكلوجا على ان تباشر الأرملة السيادة على كل املاك زوجها المتوفى « باعتبارها راس الأسرة واهل الدار » واذا ما وقع الاختيار على الزوج ليرسم اسقفا ، فانه يستطيع تلقى هذه الرسامة فقط اذا وافقت زوجته بكامل ارادتها وحريتها على ان تهجره الى احد اديرة الراهبات والا كان عليه ان يتخلى عن هذه الوظيفة الكهنوتية الجديدة(٤) ·

---

(٤) نوفلا اسحق الثانى انجيلوس Isaac II Angelus سنة ١١٨٧ ·

ولا ينبغى ان يؤخذ التأكيد المستمر على انتهاج السلوك اللائق فى العلن باعتباره دليلا على ان حياة المرأة البيزنطية كانت بالضرورة من وراء حجاب ، فقد كان لسيدات البيت الامبراطورى مراكزهن المرموقة فى مراسم البلاط ، وادوارهن البارزة فى المسائل السياسية • فلقد راحت زوجة الامبراطور جوستنيان العظيم تنافح فى هوادة عن المنافزة ، واعيد الاحترام الأرثوذكسى للايقونات فى المرة الأولى على يد الامبراطورة ايرين ، وفى عام ٨٤٣ بمشيئة الامبراطورة ثيودورا ، وروت لنا انا كومننا كيف ان جدتها كانت تصرف الأمور كنائب على الامبراطور اثناء غيابه عن العاصمة ، وكيف ان زوجته ايرين كانت تصحبه فى حملاته العسكرية • اما نساء الطبقات الدنيا من المجتمع فكن يظهرن اتفاقا فى المصادر المعاصرة • وكانت ام بسللوس فى القرن الحادى عشر هى عماد اسرته ، والى جهودها يعزو هو فضل تثقيفه • وعن الحياة فى القرن السابع لا يتحدث مؤلف سيرة ثيودور السيكيونى(٥) Theodore of Sykeon عن والد القديس ، بل عن النساء فى ذلك البيت • والدته التى تملكها الغضب لأن ابنها لم يعد من المدرسة كى يتناول وجبة الظهيرة ، وجدته التى كانت تتعاطف مع ميوله النسكية ، وتتسلل خفية الى الكنيسة الصغيرة التى يأوى اليها لتقدم له قليلا من الفاكهة ايتبلغ بها ، أو شيئا من سلاطة الخضار ، وان كان هذا يحدث فقط فى أيام السبوت والآحاد »(٦) •

وبمقدورنا ان نتصور غالبا ما كان يفعله الناس ، وكيف كانوا يعيشون، ابتداء من الامبراطور حتى نهاية السلم الاجتماعى • فقد كانت السمة الجوهرية واحدة عند الجميع ــ العماد ، وأزمان التوبة ، واحتفالات

---

(٥) نسبة الى قرية سيكيون sykeon فى جالاتيا Galatia (غلاطية) بآسيا الصغرى ، وهو ابن غير شرعى لابنة احد اصحاب الحانات، سلك درب الرهبنة وذاع صيته فى أواخر القرن السادس وأوائل السابع • لما شاع حوله من اتيانه المعجزات وخاصة تصديه للارواح الشريرة التى تصيب فلاحى المنطقة بالأوبئة والطواعين •
انظر Jones, The decline of the Ancient World, p. 4 المترجم •

(٦) E. Dawes and N.H. Baynes, Three Byzantine Saints, p 98.

القداسات السنوية ، والصوم الكبير ، وذبيحة الفصح ، والحج سواء كان الى مدن معينـــة بعيدة ومقدسة كاورشليم ، او سياحة يوم من القرية الى ضـاحية جبلية حيث مزار احد القديسين المحليين ، وربما من ستيريس stiris عبر طريق البغال mule—track الى دير هوسيوس لوقا Hosios Lukas ثم تجيء بعد ذلك الدعوة الحتمية لكل انسان من ملك الملوك ورب الارباب ، فالارتحال عن هذا العالم ، وما يصحب ذلك من طقوس الوداع • على أن افخم المهرجانات هى التى كانت تتعلق بأسرة الامبراطور ، عندما تبـــدو العاصمة فى ثوب قشيب احتفالا بتناول أحد افراد البيت الامبراطورى سر المعمودية • أو عندما يلفهـا الحزن وينتحب اهلوها لموت واحد من العائلة الملكية • ويصف مرقس الشماس طقس العماد الذى جرى فى أوليات القرن الخـامس لولى عهـــد اركاديوس Arcadius ، الطفـــل ثيودوسيوس(٧) Theodosius حيث ازدانت القسطنطينية بابهى التعاليق من الديباج وكـل انواع الذهب والزخارف ، وازدحمت الطرقات بالأهالى وقد ارتسمت على وجهوهم علامات البشر والسرور ، وارتدى الموكب الى الكنيسة فى القصر الامبراطورى اردية بيضاء لاشية فيها ، وكانت الثلوج قد غطت بنقائها وجه الـكان ، يقـود الجمع البطارقة وعليه القوم يتبعهم الحرس الامبراطورى ، والكل يحمل بيمينه شموعا مضاءة ، فامست وكأن النجوم قد اخذت تتلألآ فوق سطح البسيطة • واذا بالطفل قد اقبل يتهادى ، يحمله بين ذراعيه نبيل ، والى جواره يخب ابوه فى خطو زاده تالقا عباءته الارجوانية ، ونفس تطفق بهجة وكبرياء •

ولم تكن انغام الفرح ورنات الاسى تختلف فى الاوساط العليا عنها فى الطبقات الدنيا ، فقد راحت انا كومننا تبكى اباها ، ويسللوس اخته • ولكن الحزن الذى جمع بينهما كان واحدا • ويعطينا بسللوس صورة حية عن حزنه العميق عندما آوى الى بيته ثانية ليجد اقاربه واصدقاءه ما يزالون عند قبر اخته التى توفاها الموت ، وحيث يعاودون البكاء ثانية فى اليوم السابع للوفاة حسب التقليد الوثنى ، تذكرة لمدى تأصيل تلك العبادة • والحقيقة أن الانسان

---

(٧) Life of Prophyry of Gaza, pp. 39-40 (ed. H. Gregoire and M. A. Kugener, Paris 1930, With French trans.).

حتى أيامنا هذه يستطيع فى تجواله حول منطقة البلقان وبلاد اليونان أن يلمح شيئا من عالم العصور الوسطى ، فها هو خروف الفصح يحمل من السوق الى البيت . معلقا حول العنق ، ويشوى على الفحم النباتى ، والشموع تومض « كأنها النجوم » فوق رابية ليكابتوس Lycabettus بينما جموع المصلين تغادر الكنيسة بعد أن باركها المسيح الحى فى الساعات الأولى من نهار يوم الفصح . أو فى جنوبى صربيا حيث مايزال الطعام والشراب يؤتى بهما الى الكنيسة ، بينما تقام الصلوات من أجل موتى كل عائلة عشية صلاة كل الأرواح . وفى صبيحة اليوم التالى يخرج نساء القرية وبناتها فى موكب كبير يحملن سلالهن وأطباقهن وزجاجاتهن من الكنيسة الى الجبانة عند التل وهناك يتناولن بعضا مما معهن ويتركن البعض الآخر على القبور . وهكذا نجد ذلك التقليد مازال باقيا .

وكانت هيئة المجتمع البيزنطى قد تحددت بصورة واضحة ، ولكن هذا التحديد لم يكن مانعا بحيث لايقبل الخروج عليه ، فقد كان يسيرا على ابن الفلاح ان يصبح امبراطورا ، واستطاعت ابنة حارس الخان ان تقفز الى العرش بالزواج من ولى العهد . كما انه بمقدور اى صبى ماهر أن يشق طريقه الى أعلى المناصب . وكانت العاصمة تمثل مركز الحياة الاجتماعية والامبراطورية خلال العصر الزاهر لبيزنطة ، « فالذى يمتلك القسطنطينية يسود الامبراطورية » . أما بعد عام ١٢٠٤ فقد أصبحت هناك مناطق اخرى تنافسها المكانة وتجذب اليها الانتباه مثل سالونيك Thessalonica وطرابيزون Trebizond ومسترا Mistra بنفس القدر الذى سنحت به الفرصة لبلاط امراء البلقان أو الأمراء اللاتين فى بلاد اليونان ومنطقة بحر ايجة ، أو حتى الدوائر العثمانية . وقد روعى تنفيذ المراسم الامبراطورية بدقة بالغة وابداع فى البلاط البيزنطى خلال العصر الذهبى للأسرة المقدونية فى القرن العاشر ، وبدت بعيدة الأثر بشكل واضح ، رغم الصورة الباهتة والمتعصبة التى رسمها ليوتبراند Liutprand فى سفارته الثانية فى القسطنطينية . ويعتبر « كتاب المراسم » Book of cermonies وصفا دقيقا لما كان عليه البلاط البيزنطى ، وقد اكد قسطنطين فى مقدمته أن تلك المراسم تعد المظهر الخارجى والتجسيد المرئى للتناغم والانسجام فى الداخل ، ونظاما للطقوس العامة يرفع من قدر العظمة الامبراطورية . وهذا

فى حد ذاته دليل على ما كان يعتبر لائقا ومناسبا بحيث تشارك الرعية فيه امبراطورها · وتذكر الرواية التى تتحـــدث عن استشهاد اثنين واربعين قديسا فى عمورية(٨) Amorium كيف أن الجلاد الأثيوبى تقدم شاهرا سيفه ، وراح الضباط يقـــدمون انفسهم كل حسب رتبته كما لو كان الامر احتفالا يجرى فى البلاط الامبراطورى ·

وتكشف المصادر الكثير من الجانب الشخصى فى حيـاة البلاط ، فقد كان للأباطرة أوقاتهم الخاصة التى يميلون فيهـا للاسترخاء ، « فهـــذان الزوجان الورعان » ، ألكسيوس كومننوس وزوجته يفضلان قراءة الأعمال اللاهوتية أثناء تناولهما وجبة الافطار ، وهذا العابس الفظ ، باسل الثانى كان يحمل بين جوانحه فى الوقت ذاته رقة ودعة تجاه زوى Zoe ابنـــة أخيه · وكانت المتطلبات الانسانية تترجم فى الواقع العملى بصـــورة دقيقة فى قاعات للصـــلاة صغيرة خاصـــة فى كنيسة اياصوفيا ، حيث تقـــدم للامبراطور والامبراطورة كل على حدة الخدمة الكنسية مع بعض المنعشات بعد القداس الذى يجرى فى الكاتدرائية ، وقبل الوداع الرسمى · ثم تأخـذ

---

(٨) ورثت الدولة الاسلامية العداء التقليدى الذى كان قائما بين الفرس والرومان، وذلك بعد زوال دولة فارس بيد المسلمين ، ولم تنقطع الحـــروب بين المسلمين والبيزنطيين · وفى عهـــد الامبراطور ثيوفيلوس قام الجيش البيزنطى بالتوغل فى آسيا الصغرى وتدمير زبطرة واحراقها · وقام الخليفة العباسى المتعصم بالرد على ذلك فى عـــام ٨٣٨ فزحف الى داخـــل آسيا الصغرى ،واستطاع الاستيلاء على قلعة عمورية الحصينة ، وفعل بالمدينة ما فعله ثيوفيلوس من قبل بزبطرة · وكانت عمورية هى مسقط رأس الأسرة الحاكمة فى القسطنطينية التى ينحدر منهـا الامبراطور ثيوفيلوس · وكان المعتصم ينوى الزحف بعد ذلك الى القسطنطينية ، غير أنه مالبث أن عاد مسرعا عندما علم بوجود مؤامرة للاطاحة به · وتربط الروايات اليونانية بين حصار عمورية والرواية التى شاعت عن اثنين وأربعين ضابطا من جيش ثيوفيلوس ، كانوا من بين الأسرى ورفضوا الدخول فى الاسلام ، فسيقوا الى نهر دجلة حيث قتلوا جميعا والقيت جثثهم فى النهر · وتضيف الأسطورة أن المياه حملت هذه الجثث ولم يبتلعها النهر ، وظلت طافيـة هكـــذا حتى انتشلها بعض المسيحيين ودفنوها فى جنازة مهيبة ، وقد خلد الشاعر العربى أبو تمـام انتصار المعتصم فى عمورية ببائيته الشهيرة · المترجم ·

الامبراطورة ووصيفاتها طريقهن الى غرفهن ، على حين يصطحب البطريرك الامبراطور الى الباب المؤدى الى البئر المقدسة(٩) · وهنا يقوم الامبراطور بتقديم اكياس الذهب الى رجال الاكليروس ، ويقوم البطريرك بوضع التاج على راسه ، وهو الذى كان قد خلعه عند دخوله الكنيسة · وكان للبطريرك ايضا قاعاته الخاصة فى الكاتدرائية ، وفى مكان اقامته المجاورة حيث يقدم الافطار ،وكان الامبراطور يشاركه هذه الوجبة فى بعض الأحيان ·

وكان الطعام الذى تقبل عليه أحسن الأسر حالا تتعدد اصنافه ، وكانت الأطباق الرئيسية على المائدة تتكون من الدجاج واللحوم · وقد كتب أحد المصريين فى زمن مبكر الى خولى ضيعته يقول « وقبل كل شىء ، فلتعد لنا خنزيرا سمينا ، وتأكد بنفسك أن كذلك وليس أعجفا هزيلا كالمرة الماضية »(١٠) · وفى الاسكندرية كانت المائدة البطريركية فى بواكير القرن السابع تحتوى على الحساء والخضروات والسمك والخمور والزيت(١١) · وكانت والدة القديس ثيودور السيكيونى تدير حانا ، يتولى امر الطعام فيه طباخ ماهر ذاع صيته بأطباقة الشهية ، ولما حاولت أن تغرى ابنها ليقبل على الطعام قدمت اليه أنواعا مختلفة من الطيور المسلوقة والمشوية وأرغفة من الخبز الأبيض(١٢) أما أشد الناس فقرا فقد كانوا يعيشون بشكل غاية فى البساطة · وقد اقام اطالياتس Attaliates أحد رجال القانون فى القرن الحادى عشر عددا من الأديرة ، حملها بواجبات معينة من بينها اطعام « اخوتى فى يسوع المسيح ، ذوى الفاقة » · وكان الطعام الذى يوزع على الأرامل والمسنين وذوى العاهات يتكون من الخبز والخمر · وفى كل يوم يتناول ستة من الفقراء وجبة فى الدير ، حيث يقدم لهم الخبز والخضروات المطهية طازجة أو يابسة ، واللحوم أو الاسماك ، وكل مايمكن تقديمه ، الى جانب أربع قطع نقدية نحاسية · وكانت قائمة الطعام الرئيسية فى الأديرة تتكون من الاسماك والخضروات ، وان كان هناك استثناء

---

(٩) هذا الأثر هو حافة البئر حيث التقى المسيح بالمرأة السامرية ·

(١٠) H.I.Bell, Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest "Oxford 1948", p. 97.

(١١) E. Dawes and N.H. Baynes, Three Byzantine Saints, p. 230.

ايضا من هذه القاعدة • فقد أبيح بصفة خاصة تقـنيم اللحوم للتخفيف عن بنات قسطنطين السابع اللائى دفعت بهن الى دير للراهبات قسـرا امـرأة اخيهن المقيتة عقب وفاة والدهن ، وقـد شارك سيمون اللاهوتى الجديد فى أكل حمامة بدلا من أن يسبب الحيرة والارتباك لزائر يشكو من اضطراب فى معـدته •

وفى امبراطورية كهـذه يغلب عليهـا الطابع الزراعى ، كان لابد أن تشكل الحاصلات الغذائية معظم الانتاج المحلى بحيث تختلف فى انواعها من أقليم الى آخر • وحيثما كان من السهل الحصول عليه ، فان الجبن الذى يقوم باعداده الرعاة الولاشيون Vlach كان شائعا • ولم يكن تزويد المـدن الكبيرة القليلة ، خاصة القسطنطينية ، بحاجياتها الأساسية ، مسألة سهلة فى جميع الأحوال ، ومن ثم فان الاهتمام الامبراطورى كان موجهـا بصفة أساسية الى توفير الغلال للعاصمة ويتضمن كتاب الوالى Book of the prefect فى القـرن العاشـر وصفا كاملا لواجبـات مختلف الطوائف الحرفيـة فى القسطنطينية(١٣) ، وفى مقدمتهـا تلك التى يتصل عملهـا بالمسائل التموينية مثل البدالين ، والخبازين ، والقصابين (بما فيها من لحم الخنزير) وقصابى الخنازير ، والسماكين • ويتم ضبط الأسعار بصـورة دقيقة على يد الوالى (أو المحافظ Eparch) وكانت عمليـة البيع والشراء تجرى فى صورة منظمة ، من ذلك مثلا أنه كان على السماكين أن يبتاعوا من على شاطىء البحر أو رصيف المينـاء من مراكب صيد الاسماك عند المرسى ويحظر عليهم تخفيض سعر السوق عن طريق الحصول على الاسماك رخيصة من القوارب فى عرض البحر • وكان يسمح للبدالين باقامة محلاتهم فى الميادين العـامة وشوارع المدينة ، اذا ماظلوا ملتزمين ببيع الحاجيات الأساسية التى تتضمن اللحـم ، والاسماك المملحـة ، والدقيق والجبن ، والعسل ، وزيت الزيتون ، وجميع أنواع الخضروات والزبد ، أما الحانات فكانت تبيع الخمور والمأكولات ، على أن لاتفتح أبوابها قبل الثامنة صباحا فى أيام الآحاد والأعياد الكبرى ، وعليها أن تغلقها فى الثامنة مساء ، وأن

---

(١٢) Ibid. p. 97.

(١٣) قام بترجمة هذا الكتاب E.H. Freshfield (Cambridge 1938)

تطفىء كل نيرانها ، بينما اختص الخبـــازون بتحذيرات جادة لتفـــادى الحرائق وكان من الأمور الجوهرية بالنسبة للمدينة أن هؤلاء جميعا ومعهم ديواناتهم لم يكونوا عرضة للاستدعاء لأداء أى نوع من الخدمات العامة ٠

وليس لدينا ما يمكننا على وجه اليقين من معرفة كيف كانت هـــذه التنظيمات تطبق فى القسطنطينية ، سواء فى بواكير القـرن العاشر أو فى اى وقت اخر ، ولكن هناك من الأدلة مايؤكد أن الدولة كانت تتحـــكم حتى القرن الثانى عشر فى الأسعار والارباح ٠ وكانت هذه الناحيـــة تاتى فى مقدمة اهتمامات الخزانة الامبراطورية اكثـر من المستهلك نفسه ٠ وقـــد تعرض نقفور الثـــانى للوم عنيف نتيجة اثرائه بسبب احتكار القمح زمن المجاعة ٠ وكان للمحاولات التى جـرت فى اخريات القرن الحـادى عشـر للافادة من احتكار الـدولة للحنطـــة ، آثارها الخطيرة ، وماحـــدث فى المدن الكبيرة الاخرى ، رغم أن بعض هـــذه المـدن ، خاصـة الاسكندرية وانطاكية ، انتقلت من تحت السيادة الامبراطورية الى أيدى العرب فى منتصف القرن السابع ٠ فى أوائل هـذا القـــرن اعترض أسقف الاسكندرية يوحنا على البطريرك نيقتاس Nicetas الذى أراد « تنظيم الســوق بما يكفل تحقيق الربح للدولة ، حيث أن الاسقف لن يتساح مع ذلك مطلقا لانه اخـــذ على عاتقه توفير السعادة للفقراء »(١٤) ٠

ولم يعد هناك فى الواقع شىء من القصور أو الأبنية الخاصـــة من العصر البيزنطى ، عدا ذلك الهيكل الذى يعود الى القــرن الرابع عشـر والموجود فى ميسترا على مرتفعات تايجتوس Taygetus ، وبعض أطلال القصر الامبراطورى فى القسطنطينية ، ومن الممكن استكمال هـذا النقص بالرجوع الى الفسيفساء والفريسك والمصادر الادبية ٠ فالقصر المقدس فى العاصمة كان بناء فسيحا بالغ التعقيد ليجىء مناسبا للحاشية الامبراطورية ، وكان متصلا بكاتدرائية اياصوفيا ٠ ثم تاتى بعد ذلك قصور العائلات الثرية على نمط مصغر ، بكنائسهـا الصغيرة وحدائقهـا ونسقياتها ٠ وتزدان من

---

(١٤) E. Dawes and N.H. Baynes, Three Byzantine Saints, p. 225.

الداخل بدوائر من الفسيفساء أو الفريسك · وقد ذاعت شهرة ما بقى من هذه من القصر الكبير لثباتها وواقعيتها(١٥) · أما الذين يلونهم مرتبة من الأثرياء فكانوا يقيمون فى شقق أو منازل · بل ان ميخائيل أطالياتس Michael Attaliates أحد أثرياء القرن الحادى عشر كان يمتلك عقارا استغله فى هذا السبيل · وكان من الطبيعى أن يكون لدى سراة القوم الشىء الكثير من الملابس ، وليس أدل على ذلك مما يحكيه ثيودور متوخيتس(١٦) Theodore Metochites فى القرن الرابع عشر عن دولاب زوجته وقد غص بالثياب · وكان ارتداء اللفاع الولاشى يعتبر أمرا مألوفا وشائعا فى القرن الثالث عشر · وخلال العصور الوسطى المتأخرة ، أضحت الطرز الأجنبية ، خاصة الايطالية والتركية ، هى الشائعة · فالعمامة التى تبرزها فسيفساء القرن الرابع عشر والخاصة بثيودور متوخيتس والموجودة فى الكنيسة التى جددها ثانية ، تعد تذكارا لذلك · وقد تملك الحزن جماعة المحافظين من أمثال معاصره الأصغر نيقفور جريجور(١٧) Nicephoras Gregoras لأن مختلف الطرز كانت أشبه شىء بمسبحة الدراويش ، بحيث كان يبدو مستحيلا التعرف على البيزنطى وسط ذلك الخليط الأجنبى المتلاطم فى العاصمة · أما الشئون المنزلية الأخرى كالغزل والنسيج ، وأدوات

---

(١٥) Illustrated London News, 12 March 1955.

(١٦) يرتبط ذكره فى الآداب البيزنطية بالدراسات الفيلولوجية ، غير أن ثقافته الواسعة ونشاطاته المتعددة ، تتعدى هذا المجال · كان شديد الاعجاب برجال العصر القديم مثل بلوتارخ وارسطو وبصفة خاصة أفلاطون · وقد عمل وزيرا للامبراطور أندرونيكوس الثانى فقد كان سياسيا موهوبا ، ترك بصماته الواضحة على شئون الدولة · وخلال الثورة التى أطاحت باندرونيكوس الثانى من على العرش فقد ثيودور منصبه وأدخل السجن ، ثم سمح له بعد ذلك ـ نظرا لسوء حالته الصحية ـ بالذهاب الى دير ضاحية القسطنطينية · وكان قد قام باعادة بناء هذا الدير والكنيسة الملحقة به ، عندما كان ما يزال له نفوذه ، وأمده بمكتبة وزينه بالفسيفساء التى مازالت قائمة حتى الآن ، حتى أن الكنيسة تعرف اليوم بجامع الفسيفساء · وقد مات ثيودور فى هذا الدير سنة ١٣٣٢ ·
أنظر Millingen, Constantinople, p. 149
وكذلك Vasiliev, op. cit. II, pp. 702-703 المترجم ·

(١٧) أنظر قبله حاشية ١١ ص ٢٦٤ · المترجم ·

المطبخ(١٨) والأطباق والقدور والمقلاوات فتظهر بوضـــوح فى الفريسك ، وبصفة خاصة تلك التى توجد فى الكنائس البلقانية ·وفى بعض الاحيان تفرج الحفائر عن بعض دفائنها ، كما حدث مثلا فى مكان السوق فى أثينا ، حيث عثر على أطباق تصور تصميمات بعض منها ما شاع عن تجوال روبين هود Robin Hood ، وديجنيس أكريتاس Digenis Akritas للبيزنطيين ، عـلى حين يبدو البعض الآخر وقـــد ازدان بأشياء اكثـر بساطة كأرانب منزلية صغيرة ، أو صبية يلعبون الكرة ·

وكان المجتمع البيزنطى يضم بين جنبيه الطرفين المتناقضين ـ الثـراء البالغ والفقر المدقع · وعند الدرك الأسـفل من السلم الاجتمـــاعى تمسى الحياة بئيسة مهلكة · وكان علاج ذلك الوضع يفوق طاقة المؤسسات الخيرية رغم انها كثيرة كثرة هؤلاء القوم · وتتضمن حيـاة القديس يوحنا المعطاء St. John the Almsgiver صورة أليمة عن حال الفقراء فى الاسكندرية عند بداية القرن السابع · وقد رفض الأسقف السكندرى يوحنا أن يلتحف بغطاء فاخر منحه اياه احد كبار الملاك ، كان قد ترامى الى سمعه أن الأسقف ينام تحت « لحاف ممزق بال » · وان كان قد قبل ، نتيجة الالحاح الشديد ، أن يضع هذه الهدية على فراشه لليلة واحدة فقط ، وهو ينتحب لأجل نفسه ·

> « ترى · · من ذا الذى سوف يقـول أن يوحنا المتضع ،
> كان يرقد تحت لحاف بلغت تكاليفه ٢٦ نوميزما Nomismata ،
> بينما تتجمد من البرد أطراف اخوة المسيح ؟ كم منهم تراه هناك
> تصطك فى تلك اللحظات اسنانهم ؟ وكم منهم لا يملك الا دثارا
> واحدا باليا ، يفترش نصفه ويلتحف بنصفه الآخر ، بيبت يرتعد
> وقـد انطوى على نفسه وكأنه كرة من خيط ؟ كم منهم ينام فى

---

(١٨) لعل من أطرف مايمكن ذكره فى هذا المجال ، ويوضح فى الوقت نفسه مدى التفاوت الحضارى بين الامبراطورية البيزنطية والغرب الأوروبى. هو أن استخدام الشوكة فى المجتمع الاقطاعى فى الغرب . قـــد انتقل من القسطنطينية فى القرن الحادى عشر الى البندقية . وانتشر منها الى بقيـة انحاء ايطاليا ثم تدريجيا عبر أوروبا الغربية ثم انجلترا · ولكنه ظل لفترة طويلة فى الغرب أمرا يدعو الى الاحتقار كنوع من التهذيب الصارم !!
أنظر Thompson & Johnson, op. cit. p. 315. المترجم ·

العراء عند الجبال بلا غذاء ولا ضياء ، وقد تكالبت عليه كرب الدهر من الجوع والزمهرير ؟ كم منهم تتوق نفسه الى ان يقتات بتلك الوريقات اليابسة للخضروات والتى تلقى من نافذة مطبخى ؟ كم منهم يشتهى أن يغمس كسرة الخبز التى بيده فى الحساء الذى يسكبه طباخى خلف مطبخى ؟ كم منهم يتمنى ان يشتم رائحة الخمر التى تصب فى زق خمرى ؟ كم من الغرباء كانوا هناك فى تلك الساعة يهيمون على وجوههم فى المدينة بلا مأوى ، بل ويرقدون فى ساحة السوق ، حيث تهطل الامطار فتغرق منهم الرؤوس والاجساد ؟ »(١٩) ٠

وقد بيع هذا الغطاء الثمين واشترى بثمنه مائة وأربعة وأربعون دنارا خشنا وزعت على المعدمين ٠

وكانت رعاية الفقراء واجبا مسيحيا ألقى على كواهل الجميع ، هذا الى جانب كونه التزاما خاصا بعالم الرهبنة ٠ فقد تضمن ميثاق تأسيس الدير الذى أقامه أطالياتس ، النص على أن يلتزم كل راهب بتقديم جزء ، حتى ولو كان صغيرا ، من وجبته الرئيسية الى أحد الفقراء ، والحقيقة أن الرهبان كانوا غالبا وراء خيرية العلمانيين ٠ فالتقى من بين هؤلاء الأخيرين ، والذى يقيم ديرا ، كان فى العادة يخصص بعض مؤونته من أجل ذوى الحاجة والفقراء والمرضى والمسافرين والحجاج ، على حين كانت المؤسسات الديرانية الثرية تنشىء ملاجىء اليتامى ، والمستشفيات والمضايف ٠ ولاشك ان أعظم الهبات فى هذا الميدان هى تلك التى منحها يوحنا كومننوس John Comnenus فى القرن الثانى عشر ؛ فقد قدم لاحد الأديرة كنيستين ، وجعل تحت رعايته ليس فقط دار استشفاء للرجال والنساء بل دور للمسنين والمصابين بالصرع ، واللقطاء واليتامى ، وأخرى للمجذومين ٠ وقد ابان ميثاق تأسيسه عن مراميه ، حيث كان عدد الاسرة فى المستشفى خمسين سريرا ، قسمت الى خمسة أجنحة هى الجراحة ، العلاج الطبى امراض النساء ، واثنان للحالات المرضية البسيطة ٠ ويشرف

(١٩) E. Dawes and N.H. Baynes, op. cit. p. 230.

على ذلك هيئة من الاطباء تتميز بالكفاءة والاقتدار (من بينهم طبيبة واحدة) . أما الغذاء الذى يقدم للمرضى فقد كان نباتيا ولكن بصورة معتدلة . يضاف الى هذا عيادة طبية وصيدلية للعلاج الخارجى . ولأبناء هيئة الأطباء مدرستهم الخاصة التى يتعلمون فيها أصول الطب ومبادئه الاولى . وكانت هذه المؤسسة بكل هذا الذى تحتويه تخضع لاشراف رئيس الدير ، رغم انه قد عهد بالكثير من هذه المسئوليات الى أحد الاخوة فى الدير . والتفاصيل التى وردت فى ميثاق تأسيس هذا الدير جديرة بالاعجاب حتى أن من يطالعها تبدو له وكأنها من بنات القرن العشرين أكثر مما عهدناه فى القرن الثانى عشر . وكانت مثل هذه المؤسسات الديرانية الكبيرة والثرية تقام فى داخل العاصمة أو قريبا منها ، وعلى أهالى المناطق القصية أن يعتمدوا على مساعدات أقل من التى تقدمها تلك الأديرة الضخمة ، خصصت حسبما تسمح به الظروف والامكانيات فى المناطق المجاورة . ومن الواضح أنه كانت هناك مساعدة طبية سريعة ومتاحة فى مختلف الأقاليم ، فقد اعتاد القديس ثيودور السيكيونى أن يوصى بالأطباء والجراحين فى الحالات المستعصية التى لم يكن بمقدوره أن يتولى علاجها بنفسه .

وكانت المدن الكبيرة مثل القسطنطينية وسالونيك وطرابيزون تعتبر مراكز صناعية وتجارية هامة . فقد كان للقسطنطينية صناعاتها الخاصة وبالذات الصناعات الحريرية والتطريز والعديد من المنتجات الكمالية الأخرى مثل الجوهرات او العاج أو الخزف التى ذاعت شهرتها . وكانت أنفس الخامات وأدق الألوان الأرجوانية تخصص فقط للاستخدام الامبراطورى ، سواء للثياب الرسمية الخاصة ، أو ترسل كهدايا ، وهو أمر نادر الحدوث ،الى بلاط احد الدول الأجنبية . وقد احتل تنظيم صناعة الحرير وتسويق خاماته مكانة بارزة فى كتاب الوالى ، Book of the Prefect ولم يكن الحظر المفروض على التصدير مجرد مسألة شكلية ، فقد اكتشف ليوتبراند مبعوث أوتو الأول جدية الأمر ، عندما تم تفتيش حقيبته بواسطة موظفى الجمارك وصودرت بعض مشترياته . وكانت هناك بعض المصانع الامبراطورية الخاصة فى القسطنطينية ، تقوم بتصنيع الأقمشة الحريرية لأسرة الامبراطور والبلاط وكبار رجال الدولة والكنيسة . ولما استطاعت الامبراطورية أن تحصل على دودة القز على عهد جوستنيان ، وأمكن

استخلاص الحرير الطبيعى ، لم تعد الامبراطورية تعتمد على استيراده من الصين • وقد تم انتاج الكتان كذلك وبيع للمصانع فى القسطنطينية ، شأن بعض أنواع الطيب والعطور ، رغم أن بعض هذه المنتجات كان يتم استيراده من الخارج •

وكان الكروم والزيتون يفيسان حاجة الاستهلاك المحلى فى الريف والمدينة على السواء • وفى أجزاء من بلاد اليونان ، ونجود آسيا الصغرى كانت تربى قطعان الماشية والأغنام التى تمثل مصدرا كبيرا للثروة • وهناك الخيول والجمال والمعز التى تمتاز بشعرها الطويل نتيجة تجوالهـا الدائم عبر مروج ووهاد تلك الضياع الواسعة التى تعتبر ثرواتها احدى الدعامات الأساسية للدولة ، مادامت تخضع لسيادة حكومة امبراطورية قوية • اما الحياة الريفية فى أحط مراتبها اتضاعا ، فيرسمها بوضوح ذلك التشـريع الذى عرف بـ « قانون الفلاح(٢٠) The Farmar's Law الذى يصـور مجتمع قرية تتكون من صغار الملاك الأحرار ، وهم الطبقة التى قوى مركزها نتيجة السياسة التى درجت عليها الامبراطورية منـذ القرن السابع ، والتى قامت على أساس منح الأراضى مقابل الخدمة العسكرية ، بحيث تنتقل الهبة من الأب الى اكبر الأبناء • وعلى الرغم من أن « قانون الفلاح » جاء مطابقا لهذا النمط من المجتمعات ، الا أن الكثير من التفاصيل حول الحياة الرعوية والزراعية لم تكن تعبر عن أوضاع المزارعين • وفى هذا القانون يبدو الفلاح مشغولا ، يساعده احيانا أحد العبيد أو عمال اليومية(٢١) ، فى اعـداد مزارع الكروم والتين وحقول القمح ،وتربية ماشيته ، وأغنامه وخنازيره ، وقد تضمن القانون العقوبات والقواعد لمواجهة كل الأمـور التى تطرأ ، كان

---

(٢٠) Translated by W. Ashburner, Journal of Hellenic Studies, 32 (1912) pp. 78 ff., and by E. H. Freshfield, Manual of Later Roman Law (Cambridge 1927).

(٢١) على الرغم من أن القديس فيلارنس St. Philaretes فى القرن الثامن قـد اضطر الى التخلى عمـا فى حوزته ، بحيث لم يبق له الا زوج من الثيران وحصان وحمار وبقرة وعجل ، الا انه ظل يحتفظ بعبد واحد وخادم واحـد Byzantion, 9 "1934", p. 115

يبيع أحد الرعاة خفية أحد الحيوانات ، أو الهجوم المباغت العرضي الذي تشنه الحيوانات المفترسة ، أو التصرفات الهوجاء لكلب الرعاة أو قطيع الخنازير ، الا أن هناك أخطارا كانت تفوق كل ذلك ، كأن تتعرض المحاصيل للتلف ، أو تهلك الماشية أو تطارد ، وبصفة خاصة على الحدود الشرقية لآسيا الصغرى حيث كانت غزوات الفرس والعرب والترك على التوالي (والمسيحيون في بعض الأحيان) تمثل تهديدا خطيرا ومستمرا · وقد سقطت بصورة حتمية كثير من الحصون الصغيرة الموجودة على الحدود في أيدى أعداء الامبراطورية ، ومع التقلص الذى اعترى هذه الجبهات كان من الطبيعي أن تضيع هذه الأبنية بشكل دائم · وفي أوقات الجفاف أو السيول ، أو اغارات الجراد ، أو أية آفات أخرى قد تلتهم المحصول ، كان من الصعب على الفلاح أن يفي بالتزامه تجاه جباة الضرائب · ومن ثم فان الفلاحين كانوا يلجأون في بعض الأحيان الى أحد الرجال المطهرين اذا كان يقيم على مقربة منهم · وقد أدت صلوات القديس ثيودور السيكيوني الى صرف الكارثة التى كان يمكن أن تحيق بالمحاصيل والتين ، بسبب الخنافس والجراد والدود والفئران النوامة (زغبة dormause) ، كما أبرأ الثيران والحيوانات الأليفة الأخرى · لقد كان الفلاح يعيش على هامش الحياة ، قلقا · وكان التنازل عن حريته مقابل التدني الى وضع المزارع المقيد بالأرض ، المكبل بالالتزامات المعينة تجاه ضيعة ما سواء كانت علمانية أو ديرانية ، يبدو غالبا الحل الوحيد لهذا الفلاح البسيط · ولكن الحال كان بخلاف ذلك في الأراضي الأكبر حجما ، حيث كان هناك بقية من الأرض يعول عليها عند الحاجة · ولقد ظلت الارض الزراعية واحدة من أحسن الاستثمارات أثرى بها الكثير من الاعيان الى أقصى حد ·

وكان للامبراطورية سواحلها الطويلة ، وجزرها العديدة ، مما دفع الكثيرين من البيزنطيين الى اكتساب أرزاقهم عن طريق البحر ، فعمل بعضهم بالصيد ، وآخرون بحارة في البحرية التجارية ، أو الاسطول الامبراطورى الى أن أخذت في الظهور الجمهوريات البحرية الايطالية منذ القرن الثاني عشر فصاعدا · ويعتبر القانون البحرى الرودوسي Rhodian Maritime law مجموعة من النظم التى وضعت من أجل سفن صغار التجار ، تصف الترتيبات الخاصة بالبحارة والمسافرين . فقد كان مسموحا ، على

سبيل المثال ،لكل راكب بمساحة معينة (فالمسافر الـــذكر له ثلاثة أضعاف ما تحتله المرأة من مكان) وكانت الاخطار التى يجب ان توضع فى الاعتبار كثيرة -كاشعال النيران ، أو الوقوع فى أيدى القراصنة ، او غرق السفينة • ولهـذا كان محظورا على المسافرين قطع الاخشاب ، او « قلى السمك على ظهر السفينة » ولن يسمح القبطان بشىء من ذلك »(٢٢) ، وعلى ذلك فقـد كان مسموحا لكل منهم بقدح من الماء ، كما انه كان باستطاعتهم الحصول على الطعام من الطباخ المشــرف على المقصف الصغير ، وللقبطان الحق فى أن ينزل المسافرين الى البر ، اذا كان من الضـرورى الاقلاع الى عرض البحر ، حتى يتفادى التعرض للقرصـنة • وفى بعض الأحيـــان كانت كل حمولة السفينـة او بعضها تطرح اذ ما اقتضى الأمـر ذلك • وكان من أهم سمات القانون البحـرى الرودوسى نظامه الخـاص بالتعويض المتبــادل والتأمين ، وهو يتضمن بعض مبـــادىء التأمين البحـــرى فى العصـــر الحديث(٢٣) ولـا كانت التجارة تعنى غالبا رحلة بحرية الى بعض الأمكنة ، وحركة التجارة البحرية تعد من الأنشطة المحـددة ، فقد سمح بذلك لرهبان جبـــل أثوس • ولاولئك الذين يعملون على أسـطول بطريرك الاسكندرية ، الذى جلب القصـدير من « الجزر البريطانيـة » فى القرن السابع او لتاجر بالارتحـال الى مكان قصى كالهـند أو الصين ، كما كشفت عنـــه الوثائق اليهودية الباقية(٢٤) •

ولقـد كان للبيزنطيين لهوهم ومسلياتهم ، قصورهم الآدمى ووهنهم • وكانت الحمـامات العـــامة تكاد تعادل الأندية ، حيث يلتقون ويتسامرون

---

(٢٢) قام E.T. Freshfield بترجمة القانون البحرى الرودوسى فى A Manual of Later Roman Law "Cambridge 1927" p. 206.

(٢٣) انظر E.H. Freshfield, op. cit. p. 60

(٢٤) انظر المقالة الرائعة التى كتبهـا S. D. Goitein تحت عنوان « من البحر المتوسط الى الهند » وثائق عن التجارة الى الهند وجنوب شبه الجزيرة العربية وشرق أفريقيا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر فى Speculum 29 "1954" pp. 181 ff. ورغم انهـــا تتنـاول فى الـــدرجة الأولى التجارة اليهودية من القـــاهرة ، الا أن هـــذه الوثائق تكشف عن « مظهر دولى » وتلقى ضوءا على تجارة العصـــور الوسطى مع الشـــرق الأقصى بصفة عامة •

على امتداد يومهم · وغالبـــا ما كانوا يجمعون بين عملهم ومسراتهم فى اسفارهم او أسواقهم الكبـرى · ويحرص البـائعون باستمرار على التردد على مزارات القديسين المحبوبين ، ويتم الاتفاق على تفاصيل العمـــل فى هذه الدور ، وفى بعض الأحيان ينسل الناس الى خارج الكنيسة قبل أن ينتهى القداس لاستكمال المباحثات فى الخارج (وفى احدى المرات كان هناك كثير من التشويش والبلبلة ، مما حدا بالبطريرك ايضـا الى الخـــروج ، قائلا انه باعتبـــاره راعيهم فان مكانه بينهم) · وكانت الخرافات والخزعبلات تجـد رواجا واسعا فى المـدن والقـرى على السـواء · وانتشرت الرقى والتمائم لدفع الأذى والشفاء من المرض ، بما فيها الوفائيات المسيحية لنفس الغرض · وقد كتب يوحنا الايطالى الى عميد كليـة الطب فى القسطنطينية يقول · انه لن تكون به حاجة الى العلاج العــادى ، او المطهرات ، او تغيير الهواء او ما شابه ذلك ، اذا ما لبس فقط وسام قسطنطين الذى ارسله اليه · وكان للقرى امراتها الحكيمة أو الساحرة · أما فى المجتمعات الأكثـر رقيا فكانت تعقد حلقات اشبه ما تكون بالمشاهد التمثيلية ، وكانت هناك تعليمات لتفادى اى ارتباك قد يحدث اذا ما تضرع الوسيط الى اله الشـر أو روح خبيثة ، او عندما تاتى الاجابة غير صحيحة · وعلى هـــذا النحو التفت بيزنطة اثر العالم القـــديم المتاخر فى الايمـــان بالسحر وممارسته · وكان واضحا أن هناك اهتماما كبيرا بالأنشطة الروحانية فى الأوساط الرومانية الشرقية · وتظهر تجارب العصور الوسطى مدى ما فيها من قسمات مشتركة كثيرة مع الابحاث الروحانية الحديثة(٢٥) وكانت الكنيسة تبدى باستمرار استياءها لمثل هذه الأنشطة ، بما فيها التنجيم · وقد هاجم يوحنا الدمشقى بقوة فى مؤلفه « ينبوع المعرفة » ادعاءات المنجمين ، واكـــد ان النجوم أو الأحوال الجوية ليست بقادرة على تحديد طبائع الانسان او ادارة شئوننا ·

---

(٢٥) المادة العلمية الخاصة بالعالمين اليونانى الرومانى والبيزنطى ، لم يكتشف الا البعض منها ، ولعـل من احسن المداخل الى هـــذا الموضوع المقالة التى كتبهـــا E. R. Dodds تحت عنـــوان « السـحر وعلاقته بالأفلاطونية المحدثة » Theurgy and its relationship to neoplatonism · فى Journ. Rom., stud. 37 "1947". pp. 55 ff.

« لقد خلقنا الله احرارا ، سادة افعالنا »(٢٦) ·

وقد حرم المجمع الخامس والسادس(٢٧) Quini-Sextum Concil المنعقد فى سنة ٦٩١ ، الاحتفالات الوثنية التى كانت تقام بمناسبة عيد اول مايو ، وعند حصاد الكروم ، وممارسة السنخر والشعوذة ، وان كان نجاح هذه الاجراءات أمرا ليس مؤكدا · ولعل الاحتجاجات المجمعية والكنيسة المتكررة تظهر المقاومة المنيدة التى بذلتها الخزعبلات والتقاليد الموغلة فى القدم ، من أجل البقاء ·· ولقد كان هذا واضحا بصفة خاصة فى الجزر ، التى حافظت باصرار على تقاليدها · وفولكلورها حتى ايامنا هذه تقريبا ·

وكانت اوقات البذر والحصاد لاتسمح الا بوقت قليل للراحة · وفى الريف ، ترتبط مسرات اهله بالفصول المختلفة ، كزمن حصاد العنب ، ويكتمل هذا بانواع التسلية الأخرى القادمة من خارج القرية كفرق الأكروبات التى تنتقل على الجمال ، او الحواة ، وربما ايضا مع المقلدين والمهرجين · اما المدن الكبيرة فقد كانت تفتقر الى اى شىء يمكن ان يقف على قدم المساواة مع الدراما الاغريقية القديمة او حتى دراما الأزمنة الحديثة · ولكن هناك عروض موسيقية محلية واستعراضات راقصة (وهى التى يفترض فيها أن الدوائر الكنسية لن تحضرها) · وقد حاول أحد بطاركة القسطنطينية فى القرن الثالث عشر (وهو الذى كان يتصف بطلعة تنحسية ـ كما حاول غيره ممن سبقوه ، التأكيد بان التمثيل فى يومى السبت والأحد مجلبة الشقاء · وكانت وسائل اللهو المفضلة ، ومباريات الكئوس ـ فى العصور الوسطى ، تتمثل فى سباقات الهيدروم فى القسطنطينية تحت رعاية البيت الامبراطورى · وهنا كانت الفرق المتنافسة تتلقى التأييد من مشجعيها وانصارها ، وعندما ينتصر المتسابق فان ذلك يفسر على انه

---

(٢٦) John of Damascus, De fide orthodoxa, c. 7 transl. Nicene and post Nicene Fathers "1899", p. 24.

(٢٧) عرف المجمع بهذه التسمية لأن قوانينه كانت تعتبر تتمة للمجمعين المسكونيين الخامس والسادس · (المؤلفة) ، راجع قبله · المترجم ·

انتصــار للامبراطور الذى لا يقهر ، والذى غالبا ما كان يشرف على السباق من المقصورة الامبراطورية ٠

وكما هو الحال فى أى زمان ، كانت الحيــاة اليومية البيزنطية تمتلىء بالكثير من الخزعبلات والسخافات والمنغصات ٠ ولــكن الصــورة العامة والبــارزة ، كانت شيئا بعيدا عن الانحطاط أو القنوط ٠ لقـــد كان الناس يسخرون من أطبائهم ورجال القـــانون فيهم والاكليروس ، ولكن سخريتهم اللاذعة هذه تفصح عن مدى احساسهم بالاطمئنان على تراثهم اكثر مما تشير الى عكس ذلك ٠ ولقد توفرت لديهم حتى القرن الثالث عشر افضل الخدمات الاجتماعيــة ، ســواء تلك التى تقدمهـــا الدولة أو التطوعية ، كما نعمت الطبقتان العليا والوسطى بأرقى مستوى من الحياة لم يتوفر لأحـــد فى أى مكان آخر من العالم المسيحى آنذاك ٠ أما حالات الفاقة فقد كان يتم الخلاص منهــا بادراك الأهــداف الالهيــة والسعى الى تحقيقها ، يشــهد على ذلك الاقتناع الكامل لدى أهل القرى فى وساطة أحــد القديسين ، ورغم ضرارة النزال الا أن المحن والبــلايا كانت تعتبر تجربة صحية مفيـــدة ٠ وقد كتب نقفور جريجور فى القرن الرابع عشر ، عندما كانت الامبراطورية تبتلى بما يفوق احتمالها ، « من النادر أن يبتسم الحظ لنا ، وحتى اذا جــــاءنا فانه سرعان ما يولى كما تذبل الزهور ٠ ولكنها ارادة الله التى توقع بنا القصاص العادل ، والا ربما غرتنا انفسنا ونسينا اننا الى الفناء سائرون »(٢٨) ٠

---

(٢٨) Nicephorus Gregoras, History XVI, 4 "vol. II, p. 819"

مراجع خاصة بالنواحى الاجتماعية والاقتصادية والحيـــاة اليوميـة

— Cambridge Economic History.
(vol. 1, 2nd ed. 1966), Agrarian Conditions by G. Ostrogorsky.

— Cambridge Medieval History.
(vol. IV, pt. II) ch. 22, Social Life by R. J. H. Jenkins.
——— ch. 28, Byzantine Science by K. Vogel.

— Diehl (C.), La Societe Byzantine a L'epoque des Comnenes (Paris 1929).

— Jeanselme (E.), et L. OEconomos, Les OEuvres d'Assiatance et Les Hopitaux Byzantins au Siecle des Comnenes, Communication faite au 1er. Congres de L'Histoire de L'Art de Guerir, Anvers 1920 (Anvers 1921).

— Ostragorsky (G.), Pour la L'histoire de la feodalite byzantine. Paris 1954.
Quelques problemes d'histoire paystnnerie byzantie. Brussels 1956.

— Rhodian Law, Farmer's Law, Book of the Prefect, and other legal Codes. by E.H. Frehfield. Cambridge 1927-31.

— Runciman (S.), Byzantine Civiliation, London 1933.

الفصل التاسع

التعليم والأدب

أوجه التـراث البيزنطى

الفصل التاسع

التعليم والأدب

اوجه التـراث البيزنطى

يعتبر المجتمع البيزنطى من المجتمعات المثقفة ، على الأقل فى مستوياته الوسطى والعليا · وهنا ايضا ، كما جرى بذلك التقليد السياسى والادارى ، لم يحدث انقطاع عن العالم اليونانى ـ الرومانى · ولقد ذهب كل من القديس باسل St. Basil والقديس جريجورى النازيانزى St. Gregory Nazianzus ، وهما من اهم عمد الكنيسة المسيحية · الى جامعة اثينا ، جنبـا الى جانب معاصرهم الوثنى جوليـان المـرتد Julian the Apostate وحوالى ذلك الوقت كان القديس يوحنا ذهبى الفم John Chrysostom يزمجر مبينا للآباء التربية السليمة للأطفال المسيحيين ، ولـكن مهما كانت الحيطـة التى اتخذها ليحول بكل جهده دون تدنيسهم بالعادات والسلوك غير المسيحيين ، الا انه لم يوص ابدا ان يظل ابناء المسيحية بعيدين عن الثقافة (الوثنية) · وهكذا فان الدولة البيزنطية فى عصرها الأول كانت وريثا واعيا للأدب والفكر ووسائل التعليم فى الامبراطورية الرومانية المتاخرة ، ومن ثم لم يكن عليها ان تبنى من جديد كما فعلت بعض الممالك الغربية الصغرى · وفوق هذا فانه فى القرن السادس عندما لم يكن لدى انجلترا وفرنسا الا القليل الذى يمـكن ان تقدماته ، ولم يكن لدى الكنيسة فيها شىء على الاطلاق ، كان الامبراطور البيزنطى يشـكل لجانا من المشرعين ، كان لعملها اثره الـكبير على مختلف المستويات فى كل البلاد الأوروبية تقريبا ، وينظم الأمور المتعلقة بطلاب مدارس القانون باساليب تكاد تطابق الحياة الجامعية الحديثة · وقد كتب بروكوبيوس Prcopius الذى كان سكرتيرا عسكريا خاصا لبليزاريوس Belisarius قائد جوستنيان ، مؤلفـات كثيرة وضخمة عن الحرب والسلام ، ولعـله اراد فى الوقت ذاته ان يخفف عن نفسه هذا العناء ، فوضع تقريرا خاصا عن معاصريه

(وفى مقدمتهم الامبراطور) لا نقول انه كان بعيدا عن الفطنة بقــدر ما كان عمــلا تشهيريا ، بحيث لم ينشر الا بعد وفــاته • ونظم رومانوس الملحن(١) Romanus the Melodus ، بما عرف فيما بعد بالنظم الجديد ، ترانيم كورالية ما زالت تستخدم الى اليوم ، لا يدانيها مثيل فى جمال النص والمحتوى • وكان بولس الصامت Paul the Silentiary يكتب باحدى بحور العالم القــديم قصائده الوصفية التى نظمها فى الكاتدرائية التى بنيتحديثا فى القسطنطينية، كنيسة الحكمة المقدسة ، اياصوفيا •

وعلى امتداد العصور الوسطى البيزنطية ، كما هو الحال فى العالم القــديم ، كانت التربية لذوى اليسار امــرا مسلما به ، ويستحث الكثيرون على الكتابة بطريقة جيدة وكذا الحديث ، وكان البنات شان البنين يتلقون التعليم ، حقيقة لم يكن عادة يذهبن الى الجــامعات ، ولكنهن يحصلن على مستوى عال من الثقافة ، خاصة فى العائلات التى كان بمقــدورها أن تقدم لبناتها معلمين خصوصيين • وكانت سكرتارية الامبراطور قسطنطين السابع تضم بنــاته المتعلمات ، وزوج المــؤرخ والجنــدى نيقفور بريانيوس(٢)

---

(١) ولد فى سوريا ، واختلف الدارسون حول انتمائه للقرن السادس أو القرن الثامن وان كان الرأى قد استقر اخيرا على ذيوع صيته فى القرن السادس ، بنــاء على ما امــكن استنتاجه من اشــاراته فى مؤلفــاته الى الامبراطور أنسطاسيوس الأول (٤٩١ ــ ٥١٨) • وقد انتقل من سوريا الى القسطنطينية وهو مازال شماسا ، وتفتحت عبقريتــه فى نظم الشعر الدينى والترانيم المسيحيــة ، حتى أن بعض الدارسين يعتبره أعظم الشــعراء البيزنطيين قاطبــة • ويطلقون عليه « بنــدار الشعر الايقاعى » و « دانتى الهللينيين المحدثين » •

انظر فى ذلك Baynes & Moss, op. cit. pp. 240-241

وكذلك Vasiliev, op. cit. I, pp. 122-123.

وايضا دكتور اسد رستم : الروم ، الجزء الأول ص ١٥٩ • المترجم •

(٢) عمل فى خدمة الكسيوس كومننوس وابنــه يوحنا ، ولعب دورا بارزا فى ادارة امــور الدولة على عهديها ، وتزوج من اناكومننا ابنــة الكسيوس ،وكان نيقفور ينتوى كتابة تاريخ عن الامبراطور الكسيوس غير أن الموت عاجله فحال بينه وبين بغيته ، غير أنه ترك تقريرا وافيا عن أسرة كومنين وكيف تم لألكسيوس اعتلاء العرش ، وهو يتناول الفترة بين عامى

Nicephoros Bryennius الى مؤلفة مثقفة هى الأميـرة انا كومننـا Anna Comnena وكانت ايرين Irene ابنة ثيودور متوخيتس ذات ذكاء حاد وبصيرة نافذة ، حتى أن معاصريها من الرجال شـهدوا بان أحاديثها كانت تعود بهم الى افلاطون وفيثاغورس • ولم تكن الثقافة قاصرة فقط على بنات الطبقة الراقية ، فقد كان هناك على سبيل المثـال نساء مثقفات ، مثل أم ميخائيل بسللوس فى القرن الحادى عشر ، وتلك الطبيبة التى جاء ذكرها مرتبطا بمستشفى يوحنا كومننوس فى القرن الثانى عشر •

وكان التعليم الابتدائى يتلقى فى المدن ، وأحيانا فى مدارس القرى ، كما حدث فى القرن السابع عندما ذهب القديس ثيودور السيكيونى الى ريف جالاتيا فى آسيا الصغرى • وكان ابناء العائلات الثرية يتعلمون على أيدى معلمين خصوصيين • أما المستوى الراقى من التعليم فقـد كان متاحا من مصادر مختلفة • وفى القرن التاسع الميـلادى ، نجـد أن ليـو Leo عالم الرياضيات ، بعـد أن انهى مرحلة التعليم الأولى فى القسطنطينية ، ارتحل الى جزيرة أندروس Andros ليـكمل تعليمـه على يـد مدرس للفلسفة والرياضيات ، حتى اذا عاد جعل من نفسه معلما خاصا فى القسطنطينية • ولقد كان من السهل غالبا العثور على معلم خصوصى من اجـل دراسة متقدمة رغم أن مثل هذه الدراسة لم تكن ذات سمعة طيبة • وقد قام يوحنا موروبوس John Mauropous فى أوائل القرن الحادى عشر بتعليم مجموعة متفرقة من الشباب ، شغلوا بعد ذلك مناصب مرموقة ، وكان يعلم حبـا فى مهنته ، ولم يطلب اجرا من اولئك الذين لم يكن باستطاعتهم تقديمه ، وجرى بذلك قلمه فى قصيدة تثير العواطف حول سنى عمره الأولى فى القسطنطينية • وفى بعض الأحيان كانت البداية تأتى فى بيوت من يهتمون بعملية التعليم ، وغالبا ما كان هؤلاء من الدارسين ذائعى الصيت •

١٠٧٠ ــ ١٠٧٩ ، وهو الى جانب ذلك يعد مصدرا هاما لهذه الفترة ، بهذا الضوء الذى يلقيه على سياسة البلاط الداخليـة ، والسياسة الخارجيـة للدولة ، وخاصة ذلك الخطر المتزايد للاتراك السلاجقة وتهديدهم لبيزنطة • المترجم •

وتاتى بعد ذلك الاكاديميات الشهيرة ذات السمعة الدولية ، وقد استمرت المدارس الكبرى فى العصـــر الكلاسيكى تؤدى دورها فى الفترة البيزنطية المبــكرة ، وفى مقدمتها مدارس أثينـــا والاسكنـــدرية وبيروت ، وان كانت القسطنطينية التى تأسست مؤخرا ، قد أخذت تزاحمها · وقد عمل قسطنطين على تشجيع التعـــليم فى عاصمته الجـــديدة · بحيث أصبح هنــــاك مركز للدراسات العليا خلال النصف الثانى من القرن الرابع ، ومالبثت الجامعة أن افتتحت رسميا عام ٤٢٥ على يد ثيودوسيوس الثانى · وقد أقيمت فى القاعة الكبرى على صـــرح الكابيتول ، وأصبحت على هـــــذا النحو تحت الاشراف الامبراطورى · وخصص للغة اللاتينية ثلاثة خطباء وعشرة من النحويين ، ومثل هؤلاء الأخيرين وخمســـة سوفسطائيين يعلمون باللغـــة اليونانية ، هذا بالاضافة الى أســـتاذ للفلسفة « واثنين لفقـــه القـــانون والشريعة » · وقد أغلقت جامعـــة اثينا على عهـــد الامبراطور جوستنيان ، وان كان هذا لايعنى توقف حركة التعليم هناك ، على حين انتقلت الاسكندرية وانطاكية وبيروت الى أيدى المسلمين · ولكن أعرافهم حملتها القسطنطينية التى بقيت أشهر مركز للدراسات اليونانية فى العصـــــور الوسطى ، على الأقل حتى عام ١٢٠٤ · وبمرور الزمن تناقص عـــــدد الكراسى الخاصة بالدراسات اللاتينية ، حتى اختفت تماما فى النهاية عنـــدما أهمل استعمال اللغة اللاتينية ، وتم فقدان النصف الغربى من الامبراطورية نهائيا · وكانت الجامعة هى ميدان التدريب على الوظائف المدنية والادارية ، وعادة ما كانت تتلقى الدعم المادى من الدولة ومن جهـــات أخرى كذلك ، وليس من اليسير أن نضع تصورا عاما لتاريخها بسبب قلة المصـــادر ، ولـــكن الواضح أنها ازدهرت فى القرنين الخـــامس والسادس بصفة خاصـــــة ، ثم عادت الى الانتعاش ثانية منذ منتصف القرن التاسع حتى نهـــاية القرن الثانى عشر ، وكان من أهم الوثائق التى وصلتنا كاملة ، لائحة كليـــة الحقوق التى وضعت فى سنة ١٠٥٤ ، عندما أعيد تنظيم الجامعة على يـــــد قسطنطين التاسع ، استجابة لرغبة مجمـــوعة من الأساتذة الغيورين وذوى النفوذ · وبعد عام ١٢٠٤ انتقل الاهتمام بها الى حد ما ، أولا الى نيقيـــة ، ثم الى البلوبونيز بعد ذلك حيث نجح علماء الدراسات الانسانية البيزنطيون فى اجتذاب وتعليم صغار الدارسين · وكان هناك أيضا ثمة مراكز أخرى مثـــــل سالونيك أو

طرابيزون حافظت على انشطتهـا الثقافيـــة · ومـــع ذلك ، فقـــد تمكنت القسطنطينية من أن تستعيد شيئا من تألقهـا السالف ، وذلك على عهـدى أندرونيكوس الثانى وكانتاكورزينوس · حيث تم انجاز عدد من الأعمال التى لا بأس بها ، وخاصة فى بعض العلوم ، بينما عكست المحـــاورات الدائرة والجدال وقع اللاهوت الغربى والديالكتيكية هنـاك على التقاليد الحماسية المحافظة للروحية الأرثوذوكسية ·

وعلى امتداد تاريخها الطويل ، حرصت بيزنطة على تكريم مدرسيها ، الخاص منهم والعام على الســواء ، معتبرة التعليم شيئا ساميا ، ليس فقط للأمراء الذين كان بالنسبة لهم امرا جوهريا ، « بل لكل الآخرين ·· جموع الرعية »(٣)وكانت انا كومننا تظهر احتقارها الشديد لأولئك الذين اخفقوا ، او لم يستجيبوا ، لبرامج التدريب على فن المحادثة او الـكتابة · وراحت تتساءل ، عندما سقط ليو اسقف خلقيدونية فى الهرطقة وسط دهشة الجميع ، « لقد كان عاجزا عن أن يضع تفسيرات او شروحا دقيقة ، او حتى اقنـاع الاخـرين بها ، وما ذلك الا لأنه لم يتدرب مطلقا على العلوم العقلية »(٤) · ولقد ظل البيزنطيون حتى النهاية ، يحتفظون بادراكهم الحيوى لقيمة التعليم ، حتى أن امبراطور نيقية فى القرن الثالث عشر ، ثيودور الثانى ، كان يقول ابان تلك الحيرة الحالكة التى وقعت فيها الامبراطورية بعد الحملة الصليبية الرابعة « مهما تكن متطلبات الحرب والدفاع ، فانه من الأمور الجوهرية أن نجـد الوقت لنغرس بذور بستان العلم » ·

ولقد تم الرضى بالتعليم البيزنطى عن أصوله الكلاسيكية ، فالتعليم الابتدائى كان يشمل على القراءة والكتابة ودراسة للأدب اليونانى القديم · وكان الاقتباس من هوميروس والاستشهاد به امرا بدهيا عند البيزنطيين كشأننا اليوم مع شكسبير · أما اساسيات الدراسة الابتدائية فكانت مقدمة لتدريب خاص فى الخطابة ، يتبعها دراسة للقانون أو الفلسفة على المستوى الجامعى ، بالاضافة الى مواد اخـرى كالطب والحساب والهندسة والفلك

---

(٣) Constantine VII, De Administrando Imperio (ed. G. Moravcsik and trans. R.J.H. Jenkins), p. 49.

(٤) Anna Comnena, Alexiad. V, 2 trans, E.A.S. Dawes, p. 119.

والموسيقى · ولم تكن الدراسات اللاهوتية المتقدمة من بين برامج جامعة القسطنطينية ، فقد كان هناك عدد من المدارس الكنسية ومن بينها الأكاديمية البطريركية فى العاصمة ، بفروعها الملحقة بالكنائس المختلفة هناك · وفى احدى هذه المدارس ، وهى الموجودة بكنيسة الرسل ، كان كيرلس رسول الصقالبة ، يعلم فى أيام فوطيوس Photius ورغم انه لم تكن هناك كراس للدراسة اللاهوتية فى الجامعة ، الا ان الأساتذة العلمانيين كانوا لاهوتيين اكفاء ، منهم فوطيوس نفسه وتلميذه ومعاصره ليو السادس ، أو مانويل الثانىManuel II فى اوائل القرن الخامس عشر ، ذلك أن الحد الفاصل بين مجالى الاهتمامات العلمانية والكنسية ، لم يكن له وجود ·

ومن السهل ان نجد أى نوع من النشاط الثقافى او الأدبى فى أى فترة من فترات التاريخ البيزنطى ، وان كان الكثير من هذه الأعمال مايزال غير مطبوع أو مكتشف ، وليس أدل على ذلك من أن وضع تاريخ دقيق للعلوم البيزنطية ، والتعليم والتطور التكنولوجى والمهنى ، لم يتم بعد ، والتعليق على تقدم الدراسات البيزنطية فى ميادين بعينها يعتبر شيئا فوق طاقة كاتبة هذه السطور · ربما كان هناك تطور فى الطب والجراحة ، حيث توحى كتابات اسكندر الترالى Alexander of Tralles فى القرن السادس ، وبولس الايجى Paul of Aegina فى أوائل القرن السابع ، أن بيزنطة كانت حلقة الاتصال بين مدرسة جالنوس Galenوالتقدم الأخير فى ايطاليا والعالم الاسلامى · ولكن الذى لاشك فيه انه كان هناك نشاط فى الرياضيات والفلك ، تدل عليه أعمال ليو عالم الرياضيات فى القرن التاسع ، أو اعادة الاهتمام ثانية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر عندما استخدم النظام البشرى الهندى (وقد ظهر ذلك للمرة الأولى فى بيزنطة فى مدرسة القرن الثانى عشر القائمة على أعمال اقليدس(٥) Euclid) ·ولقد كان الاهتمام قويا بالفلك بصفة خاصة ، وشجع على ذلك ايضا باعث آخر نبع من طرابيزون ، على اعتبار انها كانت على صلة بايران فى اخريات القرن الثالث عشر · وهناك فروع من الرياضيات كانت ترتبط تماما بالدراسات الفلسفية ،

---

(٥) للمزيد من المعرفة عن العلوم فى بيزنطة يفضل الرجوع الى الفصل الذى كتبه K. Vogel فى الطبعة المنقحة من Cambridge Medieval History, IV, pt. II

وقـــد نظر بعض الدارسين فى الحقيقة ، مثـــل ميخائيل بسللوس ، الى الرياضيات باعتبارها انموذجا رفيعا لأنها تمثل حلقة اتصال بين الموضوعات المادية والتفكير المجرد · وكان احياء الدراسة المتقدمة للرياضيات فى القرن الرابع عشر من بين ما يشكو من اهماله العلامة والسياسى تيودور متوخيتس، ذلك أنه لم يجـــد ســوى أجـزاء فقط من أعمـــال اقليدس ونيقوماخوس Nicomachus هى التى تدرس ، وهى التى كانت ذات صلة بالفلسفة ·

وكانت الفلسفة هى الأخـــرى ترتبط ارتباطا وثيقا باللاهوت ، ويعود ذلك بعض الشيء الى أن آباء الكنيســة الأوائل كانوا متضلعين من فـــكر العالم القديم · وعلى هـــذا النحو كان الجزء الأول من « ينبوع المعرفة » Fount to Knowledge الذى وضعه يوحنا الدمشقى فى القرن الثامن ، وهو كتيب فى التعاليم المسيحية ، يتحدث بصفة خاصة عن المنطق والميتافيزيقا عند ارسطو · وقد تنوعت الاهتمامات بالدراسات الفلسفية · وكان من الأمور المسلم بها انها تتطلب المزيد من حصانة الرأى ، كما أعلن ذلك أحد المتحمسين لها مثل يوحنا الايطالى الذى كلفه ذلك الشيء الكثير · ولقـد كان ينظر الى الفلسفة عموما على انها رياضة فـكرية يجب أن تدور فى فلك العقيـدة المسيحية ، ولكن المناهج والمحاورات الفلسفية كانت شيئا فائق القيمـــة ، خاصة ذلك الجدال اللاهوتى الذى شهدته الفترة المبـــكرة حتى أيام يوحنا الدمشقى · وهكـذا حفظت المبـــادىء والمؤلفـات الأساسية لتنتقل الى الغرب · وكان التاكيد على احيـاء العلم فى القسطنطينية منـــذ منتصف القـرن التاسع والقرون التاليـة انسانيا وادبيا أكثر منـــه فلسفيا ، حتى منتصف القرن الحادى عشر عندما قفز ارسطو وافلاطون ، وبصفة خاصـــة الافلاطونيون المحدثون الى المقدمة ، ليدرسوا بنهم وعزيمة على يـد ميخائيل بسللوس ، الذى شغل لفترة معينة رئاسة كليـة الفلسفة فى الجامعـة بعـد أن أعيـد تنظيمها · ورغم أن صديقه القديم يوحنا أكسيفيلينوس John Xiphilinus قد قال فى نغمة تحمل طابع التوبيخ أنه متعلق بأفلاطونه ذاك الى حـد كبير جدا ، الا أن بسللوس كان على استعداد للاعتراف بأن الفلسفة ، التـــاج الذى يزين مفرق الدراسات العلمانيـة ، لا يمكن أن تكون شيئا ذا قيمة فى حد ذاتها ، ولكنها مجرد اعداد للاهوت · وقد أدى هذا الاتجـــاه فى بعض

الاحيان الى احباط التفكير الفلسفى . وسواء تمخض هذا الاتجاه عن جديد أم لا ، فانه ما يزال من الصعب الحديث فى هذا الموضوع . وقد حفظ لنا الزمان العديد من الشـــروح والتعليقات على أعمـال أفلاطون وأرسطو أو بروكلوس Proclus فى أواخر القرن الخامس . ومن الممكن أن تبرهن هذه الأسفار الضخمة المتراكمة من القرون الوسطى على مـدى قيمتها فى تتبع تطور الفـكر الفلسفى فى الغرب . فمن المعروف أن توماس الأكوينى(٦) Thomas Aqunias قد اعتمد على شروح يوحنا فيلوبونوس John Philoponus لأعمال أرسطو ، ولـكن الكثير لم يعرف طريقه الى أنطباعة بعد ، وماتزال الفلسفة والعلوم البيزنطية تحتاج الى المزيد من البحث .

وكان الاهتمام بالأدب اليونانى القديم يعنى أن وقتا كبيرا كان مخصصا للأعمال الفيلولوجية والنصوص ، وكان معظم الجهد المبذول منصرفا الى

---

(٦) ولد فى أوائل سنة ١٢٢٥ ، فى مدينة Roccasecca بالقـرب من نابولى ، وهو ينتمى لاسـرة نبيلة ، والتحق فى صباه بدير جبـل كاسينو البندكتى ، ثم جامعة نابولى ، ثم اتبع أسلوب الرهبنة الدومينيكانية ، وأكمل تعليمه فى جامعة باريس ليحصل على اجازة اللاهوت سنة ١٢٥٦ ، وبعـد ثلاث سنوات عاد الى ايطاليا واستمر يدرس فى جامعاتها حتى أدركتـه الوفاة سـنة ١٢٧٦ . ويعتبر توماس الاكوينى أشهر آباء الفلسفة المدرسية المسيحية ، حيث جعل من الفلسفة الارسطية محور عمله ليطوعها لخـدمة العقيدة المسيحية ، حتى أضحت كتاباته بعد ذلك سلاحا قويا شهرته الكنيسة فى القرون التالية ضد الخارجين عليهما ، ابان رد الفعـل العنيف الذى تعرضت له الكنيسة فى عصـر النهضة . عن القـديس توماس الأكوينى وفلسفته ومؤلفاته .

انظر Gordon Leff, Medieval Thought (1958)

و Maurice de Wulf, Philosophy and Civilisation in the middle Ages (1953).

وكذلك H. Slesser, The middle Ages in the West. pp. 212-239

Knowles, op. cit. pp. 255-268

وراجع كذلك . يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصـر الوسيط ، ص ١٤٤ ـ ١٧٧ ، دكتور عبـد الرحمن بدوى : فلسفة العصور الوسطى . ص ١٣١ ـ ١٦١ ، عبده فراج : معالم الفكر الفلسفى فى العصور الوسطى ، ص ٢١١ ـ ٢٢٧ ، دكتـور حسن حنفى حسنين : نمـاذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط ، ص ٢٠٩ ـ ٢٨٣ . المترجم .

اعمال الاسناد ، والمعاجم ، والأجروميات ، ودوائر المعارف ، والشـــروح والتفسير ، ودواوين الشعر ، التى تحوى كنوز المعرفة ، والأعمال التاريخية والأدبية واللغوية · وماتزال شروح يوستاثيوس السالونيكى Eustathius of Thessalonica التى وضعها لهوميروس فى القرن الثانى عشر تستخدم حتى اليـوم من جانب المختصين بالدراسات الكلاسيكية · وتضم « مكتبة » فوطيوس ، الى جانب تعليقاته الذكية كلها بلا استثناء ، اقتباسات من كتب كان قـد قراها ، ولم يعد لهـا وجـود · ولم تكن مثل هذه الكتابات ابداعا ادبيا ، ولكنها كانت الوسائل الجوهرية والقطوف الدينية لشعب متعلم ·

ولقـــد ورثت بيزنطة أيضا عن اسلافها اهتماما كاملا بالبيان الذى صبغ كل نظمها التعليمية واعمالها الأدبية · ولا يخفى على احـد أن البيان هو الذى يهىء الكاتب أو الخطيب لتقديم عمله فى صورة لائقـة ومتناغمة ، ولاشك أن جذوره ، الأولى قـــد نبتت فى السفسطة الوثنية ابان الحقبـــة الهللنستية · وكان هنـــاك تيار متدفق من الأدب ، والكتـابات التقريظية ، والنصائح التهذيبية (منها مثلا انموذج الأمراء) والكتابات العرضية والخطب باختلاف موضوعاتها · ولم يجد الكتاب الذين يفتقـدون اصـــول البيان ، الا الاستياء ومن ثم جاءت أول ترجمة لحيـــاة القـــديس يوحانيكيوس St Joannicius فى القرن التاسع ، مخيبة لآمال المعاصرين لأنها كتبت بأسلوب ركيك يفتقد الانسجام ·

والحقيقة التى لامراء فيها أن هناك فارقا كبيرا بين اللغة المكتوبة ولغة الحديث ، فقـد شهدت القرون الأولى للميلاد اندماج اللهجات العديدة التى كانت سائدة فى العالم القديم فى لغـــة مشتركة Koine وهى التى كانت تستخدم فى العالم الهللنستى ، وهى تتميز بخصائصها الأتيكية ، وقد تعرضت لكثير من التغيير بما ادخل عليها ابان العصـور الوسطى ، لتشكل من بعد اصـول اللغة اليونانية الحديثـــة · ولم تكن الأوساط التعليمية البيزنطية تستخدم هذه اللغة الحية ، رغم كونها وطنية المولد · وعادت هذه الاوساط القهقرى الى اتيكا محاولة الكتابة بلغة ثوكيديدس Thucydides أو بعض الكتاب الآخرين فى العصر الكلاسيكى · ولاريب أن هذه الناحية كانت تمثل جزءا من كبريائهم واعتزازهم بانفسهم ، باعتبارهم حمـــاة بل واصحاب

الثقافة اليونانية القديمة ، وان كان ذلك قــد أدى الى نتائج سيئة ، فغالبا ما كانت كتاباتهم تمتلىء بالتعبيرات والمصطلحات القديمـة ، هذا بالاضافة الى الأخطـاء النحوية التى يقعون فيها عنـدما يخلطون دون عمـد بين الاستعمالين القديم و « الجديد » للغة · أما الكنيسة فلم تستخدم هذه اللغة الدارجة ، وان كان معظم أدبها قد كتب بأسلوب مبسط من هذه اللغة المشتركة Kione كشىء متميز عن الاتيكية القديمة ، واستطاعت أن تطـور لنفسها نسقا معينا ، وخاصة فى شعرها القداسى وأعمالها الرمزية · والحقيقة أنها لجأت فى بعض الأحيان الى استعمال الشعر الكمى الايقاعى الجديد · هذا على حين مالت أنواع الادب الاخرى تلقائية الى اللغة وطنية المولد ، حتى فى فترة مبكرة ، كما يتضح فى المزمنات ، بينما كانت حياة القديسين تكتب أحيانا بلغة أكثر بساطة ، وخاصـة فى النسخ الاصلية قبل أن تصاغ ثانية فى صورة أدبية واضحة ، وربما أيضا دبجت بعبارات أو فقرات مقتبسة من هوميروس أو بعض الكتاب العظام الاخرين · هذه الأعمال فى الحقيقة تقف على قدم المساواة مع قصصنا خاصة تلك التى تعود الى بواكير العصـور الوسطى ، كما أنها أمدتنا بمجموعة كبيرة من الروايات التهذيبية ، وقـد اختلطت مع التفاصيل البسيطة والليالى العربية الأسطورية ، وبنوع خاص فى الحكايات التى دارت حول الرجال الأطهار فى أقاصى المشـرق الذين ارتادوا أقطارا قصية حتى بلغوا شواطىء الكنج · ومنذ القرن الثانى عشر أخذت لغة الحديث تستخدم فى القصائد العلميـة والشعر الرومانسى · أما فى الولايات والجزر ، وبعيدا عن الدوائر الامبراطورية ، وجـد الخيـال اليونانى وحب القصـة المروية متنفسا له فى المواويل الشعبية والشـعر العامى ، وهو ما أبقى عليه الزمان ، ومع أن العلمية لم تستطع أن تزحزح الفصحى عن مكانها أبدا فى العصور الوسطى ، فقد كانت لغـة الحيـاة اليومية لليونان ، واستطاعت بعد مقاومة عنيدة أن تصبح فى النهـاية لغة اليونان الحديثة ·

وقد تعرض الأدب البيزنطى للنقد العنيف ، على أساس أنه يشتمل على أعمال بلاغية لفظية ، كتبت فى صورة تحاكى دون ابداع اليونانية الاتيكية · حقيقة أن معظم الأدب البيزنطى قد وقف عنـد المستوى العـادى وجاء مخيبا للآمال ، سواء ما كان منه بالفصحى أو العامية ، ولكن ذلك ليس شيئا خاصا

ببيزنطة • فلاشك ان النقاد وهم يكونون اراءهم هذه ، لم تذهب من ذاكرتهم تلك الفترة الزاهرة للأدب الكلاسيكى ، ومن ثم كانوا يتصورون ان تخرج لهم بيزنطة عظماء ، على غرار سوفوكليس Sophocles وارسطوفانيس Aristophanes ولكن لم يبد أن بيزنطة اظهرت اهتماما خاصا بالدراما الواقعية الدنيوية أو الدينية ، فقد اتجهت احاسيسها فى هذا الناحية الى التمثيل التقليدى الصامت والملاهى • أما انتاجها الأدبى فيتمثل فى نواح أخرى • ففى ميدان الشعر ، وبغض النظر عن القصائد العامية ، نجد عملا او اثنين من الأعمال التصويرية الطويلة ، كقصيدة المدح التى نظمها جورج البيسيدى George of Pisidia فى هرقل فى القرن السابع ، كما نستطيع ان نجد فى كل جيل تقريبا قصائد قصيرة من الوزن القديم ، تتناول الرثاء ، والنواحى التصويرية ، والشعر الغنائى ، وقصائد الحب • وقد انسمت هذه « المقاطع الشعرية(٧) » بالذكاء والملاحة فى صورها ومحتواها ، وهى غالبا ما تشبه تماما اشعار القرن السابع عشر • وربما عرفت قصائد الفروسية طريقها الى دواوين الشعر اليونانى ، ولعل أبرزها ملحمة ديجنيس اكريتاس Digenis Akritas الشهيرة ، والتى تعبر عن الحياة العنيفة والاستقلال التام والشاق لسادة البر ، وقد ولدت ونمت فى بوتقة الثقافة « الممتزجة » عند الحدود الشرقية ، والهبت خيال الأجيال التالية ، ودفعت عجلة المواويل الشعبية عند الصقالبة واليونان على السواء ، حتى اذا كانت العصور الوسطى المتأخرة ، ظهرت القصائد الرومانسية الطويلة فى اللغة الوطنية متأثرة بالفروسية الافرنجية والتواتر الملحمى اليونانى(٨) •

ولامراء فى إن بيزنطة قد برعت حقيقة فى ميدانين مختلفين تماما • التاريخ ، والكتابات التى تتصل بالعقيد المسيحية بصفة خاصة •

فالبيزنطيون كانوا بصفة دائمة على دراية تامة بماضيهم ، واصطبغ تفكيرهم بهذه المعرفة عن الاستمرار التاريخى • وقد شغف مؤرخو العصور

---

(٧) هكذا كانت تسمى فى العادة وان كانت الكلمة خادعة ، وقد استخدمت لتشمل مجالات واسعة من الشعر

(٨) الشعر البيزنطى شأن الهللنستى ، يحتاج الى أمثال F.J.E. Ramy أو Helen Waddell

الوسطى اليونان بمنهج وأسلوب أسلافهم وعلى رأسهم هرودوت Herodotus وثوكيديدس Thucydides، وتأثروا فى الفترة المتأخرة بأسلافهم المباشرين مثل مؤرخ القرن السادس أجاثياس Agathias ولم يكن التاريخ الذى يعتبر « أعظم ابداع للاغريق »(٩) مجرد خبــر يروى ، ولكنه ، كما كتب نيقفور جريجور ، « يهتم بالماضى والحاضر · وفعال بنى البشــر ، ووجهات نظر المثقفين تجاه طبائع الأشياء ، وخطأ وصواب هذه الآراء(١٠) · ولقد تعددت كيفية تدوين التاريخ البيزنطى ، حقيقة لم يستطع كتابهــا أن يحاكوا تماما مؤلفات ثوكيديدس أو اكسنوفون Xenophon ، ونــكنهم فى الوقت ذاته قدموا عددا من الأعمال يرقى الى الدرجة الاولى · فهناك مؤلفون مثل ليو الشماس(١١) Leo the Deacen وأنا كومننا فى الفترة الوسيطة ، ونيقفور جريجور ويوحنا كانتا كوزنوس فى القرن الرابع عشر ، قدموا تواريخ ذاتية دقيقة واضحة ، لاتخرج فقط الا عن مجتمع بلغ مرتبة عاليــة من الثقافة · والى جانب هــذا التواريخ بمعناها الحقيقى ، هنــاك المزمنات التى كتبت من أجل المحافل الشعبية · وتسجل هذه المزمنات أهم الاحـــداث فى تتابع زمنى ، مع اضافات كثيرة عن أهوال تثير العواطف ، وموضوعات أخرى

---

(٩) Nicetas Hhoniates, History (Bonn 1835), p. 768.

(١٠) Nicephorus Gregoras, Roman History, I, I (Vol. I, p. 4, Bonn 1823). cf. T.A. Hart, Nicephorus Gregoras : historian of the hesychast controversy, Journ. Eccles. History 2 (1951).

(١١) من أشهر المؤرخين الذين حفلت بهم الأســـرة المقدونية ، كان معاصرا لباسل الثانى ، وضع تاريخا تناول فيه الأحداث بين عامى ٩٥٩ ـ ٩٧٥ ، ويعتبر شاهد عيان للحرب البلغارية ، بالاضافة الى بعض المعلومات عن هجمات العرب والروس على الامبراطورية · وتعود أهمية «التاريخ» الذى وضعه ليو الشماس الى أنه يعد المصدر اليونانى الوحيـــد المعاصر للفترة الزاهرة على عهدى نيقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس ، وقـــد بدأ ميخائيل بسللوس تاريخه من حيث انتهى ليو الشـــماس وذكر ذلك فى أول سطور تاريخه » ·

أنظر Psellus, Chronographia, vol. I, I

وأيضــا Baynes, & Moss, op. cit. pp. 231-232

وكذلك Vasiliev, op. cit. I, p 364

وراجع دكتور أسد رستم : الروم ، الجــزء الثـــانى ، ص ١٠٠ ·

المترجم ·

حول احداث محببة الى الجموع • واذا كانت هذه المزمنات تعتبر انعكاسا للمزاج والعقلية المعاصرة الا انها ليست عملا ابداعيا كالتواريخ •

وكان الولاء الكامل للايمان المسيحى بمثابة الالهـام للفرع الآخر من الأدب الذى ارتقى فيه البيزنطيون الدرجات العـلا • وينقسم عملهم فى هذا الميدان الى مجالين مختلفين ، الكتابات اللاهوتية ، والكتابات القداسية ، وفى هذا المجال الأخير نجد اهتماما جديدا ، يظهر احيانا عنـد محاولة تطويع الصيغ الأدبية اليونانية للمتطلبات الخاصة للكنيسة •

ولا شك ان أعظم عمـل لاهوتى على الاطلاق هو ذلك الذى خلفه اباء الكنيسة الأول •وقد وجد هؤلاء الرواد عونا هائلا من المرونة التى تتسم بها اللغة اليونانية ، ومن ذلك الماضى العريق فى الفـكر الفلسفى ، فاستخدموا مايروقهم عند افلاطون وارسطو والرواقيين والأفلاطونيين المحـدثين ، فى محاولة لتصوير قدر الانسان فى الزمان والمكان بالنسبة للتجسد ، ولتحديد الطبيعة الالهية • واعتمادا على الأسس التى وضعها اباء الكنيسة الأول ، بنى اللاهوتيون البيزنطيون فيما بعـد بشـكل مستمر ، ما أصبح صرحا شامخا ،وان كان يوحنا الدمشقى يستطيع ان يقف على قـدم سـواء مع اثناسيوس وجريجورى اسقف نيسا ، اذا اتخذنا سلاسة الأسلوب والعمق معيـارا •

وفى عصر الآباء الأول ، قرب نهاية القرن الخامس ، كتبت المجموعة الديونيسية Corpus Dionysiacum على يـد ما يسمى زيفـا ديونيسيوس الأريوباجى(١٢) Pseudo — Dionysius the Areopagite • وهى وان كانت

---

(١٢) مؤلف مجهول عاش فى القرن السادس ، وخلع على نفسه اسم ديونيسيوس الأريوباجى تلميذ القديس بولس وأول اساقفة أثينا • وقد ولد فى سوريا الشمالية • واتخذ الأفلاطونية المحدثة منهاجا لفكره ، فلما تحول الى المسيحية حاول ان يمزج بين معتقده الفلسفى والعقيدة المسيحية وقد تبعه نفر كثير ، وظلت اراؤه مثارا للجدل والنقاش ما يقرب من عشـرة قرون •
انظر دكتور اسد رستم : كنيسة انطاكيـة ، الجزء الأول ص ٤١٧ — ٤١٨ •
وايضا
Baynes & Moss, op. cit. pp. 223-227-228.

تدين شأن الآباء لمصـادر غير مسيحية ، الا انها مدينـة بالشيء الكثيـر للافلاطونيين المحدثين وبصفة خاصة أفلوطين Plotinus ومع ذلك فقد لقيت القبول باعتبارها عمـلا لديونيسيوس الأريوباجى ، التابع الأمين للقديس بولس ·وقد قام ماكسيموس المعترف(١٣) Maximus the Confessor فى القرن السابع بوضع تعليق وتفسير شامل لها ، بحيث أصبح لها تاثيرها الهام على الروحية الأرثوذكسية المتأخرة ، رغم انهـا ليست الأثر الوحيد على الاطلاق ، وكان القلق يساور الرهبان البيزنطيين دائما من أجل الاهتداء الى تفسيرات وشـروح لذلك التيـه الذى اتسمت به العقيـدة المسيحية ، تجاه الالوهية ·ويعتبر سيمون اللاهوتى الجديد ، فى أوائل القرن الحادى عشر ، واحدا من أعظم الشخصيات الحيوية ، التى تركت بصماتها واضحة على معاصريه من العلمانيين ورجال الدين على السواء ، ويكشف عن ذلك بوضوح كتاباته · ولقد كانوا كذلك ذوى اهتمامات لغوية ، فقـد استخدم سيمون فى مؤلفه « حب الترانيم الالهية » Loves of the Divine Hymns حين يصف تجاربه الروحية الصادقة ويستخدم أسلوب الخمسة عشر مقطعا الخاص بالشعر السياسى الحـديث ، ولم يلجأ الى استخدام البحر الكمى

وكذلك Bury, op. cit. II, pp. 381-3.
و Chadwick, op. cit. pp. 207-210.
و Ware, op. cit. pp. 27 sqq. المترجم ·

(١٣) حرص الامبراطور هرقل ، بعد استعادة الاراضى التى استولى عليها الفرس ، على أن يحقق وحدة العقيدة داخـل الامبراطورية ، فانتهى بتأييد البطريرك سرجيوس الى اعلان مرسوم ايمان جديد يتضمن القـول بالمونوثلية Monotheletism (المشيئة الواحدة أو الارادة الواحـدة) فى المسيح مع وجود الطبيعتين · غير أن هذا المعتقد الجـديد لقى المعارضة الشديدة خاصة فى مصر والشام · وحتى فى القسطنطينية على يد ماكسيموس المعترف ، وكان يعمـل امين سـر لهرقل ، ثم ترك عمله لذلك والتحق بدير خريسوبوليس (اسكى دار) ، واصبح رئيسا له ·وهو يعد من اشهر رجـال اللاهوت فى القـرن السابع ، حيث كتب الكثير للرد على مذهب « المشيئة الواحدة » · وقد تعرض للاضطهاد فى عهد قنسطانز الثـانى فقطع لسانه ويده اليمنى ونفى الى لازقة فى القوقاز حيث مات هنـاك عـام ٦٦٢ · المترجم ·

القديم • وقد بلغت بعض كتاباته درجة رفيعة جداً فى نصها وموضوعها • وتكشف ترانيمه وعظاته عن الطبيعة الخلافة فى الفكر الدينى البيزنطى • والحقيقة أن كتابات على هذا النحو تبين فى وضوح مدى الاحساس الوجدانى الفياض ، الذى كان يعبر عنه أيضا أحايين أخرى فى أسلوب علمانى •

هذه الكيفية بعينها نجدها فى الطقوس الدينية ، سواء كان النص يستخدم فى صلاة عامة او فى أجزاء متفرقة من القداس • ففى سبيل التركيز على احكام العبادة ، فان الدين الأدبى أحيانا ما نضرب صفحا عن ذكره ، ذلك أن اجزاء كثيرة من القداس كتبت قبل العصر الوسيط مثل المزامير ويمكن القول بصفة خاصة ، أن ذلك التنوع الجمالى للترانيم التى كان يجرى اضافتها بصورة مستمرة ، على الأقل حتى نهاية القرن الحادى عشر ، يعتبر شاهد عدل على مدى ثراء اللغة اليونانية • وكشأن بعض الكتابات النسكية ، فان النظم القداسى لم تستخدم فى كتابته البحور الكمية الكلاسيكية الشائعة ، ولكن الأوزان الحركية والايقاعية ، وتأرجحت هذه الاشعار ما بين الشعر البسيط أو الترنيمة القصيرة ، الى العظات الترنيمية الروائية الطويلة Kontakia التى استقيت من المصادر السيريانية وقدمها رومانوس الملحن فى القرن السادس ، حتى وصلت فى النهاية الى مرتبة سامية ضمن الترانيم التسع • وبغض النظر عن تلك الترانيم التى ضمتها كتب القداسات ، وماتزال تستخدم حتى اليوم (غالبا فى شكل مقتضب) ، وهناك مجموعات استخدمت ككتب تكميلية غير رسمية للترانيم فى الاوساط الديرانية • وهذه ترنيمة الميلاد التى كتبها رومانوس « اليوم (تلد) العذراء ••• » Today the Virgin ، والتى تقول الاسطورة أن أم المسيح قد أوحت بها اليه على منبر اياصوفيا فى ليلة أحد أعياد الميلاد • او الترنيمة Akathistos لتكريم العذراء ، حامية القسطنطينية التى من المحتمل أن يكون رومانوس أيضا هو الذى كتبها ، تكشف عن ذلك التوتر الدرامى للرواية ، والسمة الانشادية الوجدانية للمديح ، مما وضع الترنيمة الروائية الطويلة Kontakia فى المقام الأول بين شعر العصور الوسطى •

وهكذا كان لبيزنطة روائعها الأدبية ، التى لم تكن تقل عن قريناتها فى الغرب · وعلى شاكلة الاقطار الغربية ، فقد كان لهـا ايضا لغــة للتعليم ولغة للعامة · وقد ووجه هذا الازدواج اللغوى فى العصور الوسطى بموجة من النقـد المفتعـل ، على أساس أنه كان عائقـا فى سبيل التطـور الأدبى الحديث ، ولكن الحقيقة ، أن هذا ربما يعــود بصورة مباشــرة الى تلك الظروف السياسية السيئة التى مر بها اليونان بعد عام ١٤٥٣ ، وزاد الطين بلة تلك المقاومة الحديثـة المشئومة ، التى قامت فى وجه استخدام اللغــة بكل تضميناتها السياسية · ولكن عددا قليلا من النقاد تصدى لهذه المقاومة بشدة محاجين بأن بيده(١٤) Bede لم يكتب باللغـة الأنجلوسكونية ، ولا كتب الاكوينى Aquinas بالايطالية ، كما انه من غير المقبول أن نبــدى ذلك الاستياء لأن يوحنا الدمشقى أو يوحنا كانتا كوزينوس لم يكتبا بالعامية · ولا شك أن مرتبة الفخار التى خلعتهـا بيزنطة على التراث الكلاسيكى ، فى التربية والتعليم على السواء ، تأكدت بصــورة واضحــة من استخدامهم

---

(١٤) يعد آخـر الدارسين والمؤرخين والشـعراء الذين ينتمون الى العصر القديم · واذا كانت قائمة هؤلاء تفتح بالفيلسوف الرومانى بوئثيوس، وتتضمن ازيدور الأشبيلى وجريجـورى التورى ، فانهـــا تنتهى بالانجـلو سكسونى بيده ، أمضى معظم حياته فى صومعته داخل دير جارو Jarrow البندكتى ، وكان شعاره كما حدث عن نفسه « التعلم أو التعليم أو الكتابة » ، ولم يحد عن ذلك مطلقا خلال عمره الطويل (٦٧٢ ـ ٧٣٥) · وقــد ذاعت شهرته بفضل تعليقاته الرائعة التى كتبها على الكتاب المقــدس » وحاسته التاريخية الفريدة ومنهاجه العلمى الذى اتبعه فى الكتاب الذى وضعه عن التاريخ الكنسى لانجلترا Ecclesiastical History of England والذى اعتمد فيه اعتمادا كاملا على مصادر تاريخية قديمة فقدت فيما بعــد ، أو على المشاهـدة والتمحيص كما يتمثل فى الفترة التى تحـدث فيهـا عن وصول القديس أوغسطين الى انجلترا حتى سنة ٧٣١ ·

أنظر W.P.Ker, The Dark Ages, pp. 95-98.
وكذلك Laisaner, Thought and Letters in Western Europe. pp. 156-166
وأيضا C.M.H.I, pp 302 sqq, 11, p 574.
و Thompson & Johnson, op. cit. pp. 219, 226-7.
و Stephenson, op. cit. pp. 143-144.

وراجع دكتور نظير سعداوى : تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى ص ٤٣ · المترجم ·

للمكتبات في كل انحـــاء الامبراطورية ، فى الأكاديميات والمـدارس ، فى الكنائس والأديرة وبيوت الطبقة الراقية · وهكذا فان تراث العالم القـديم بفروعه المختلفة فى المعـرفة النظرية والتطبيقية ، كان متاحا ويمثل اهميـة خاصة للشرق الرومانى ، والى حد ما جيرانه · ولم يكن لدى المسلمين أى مانع يحول دون الافادة من هذا التراث وان كانوا قد اعتمدوا فى ذلك على مصـادر غيـر صـادقة · وكان على الصقالبـــة حتما مقضيا أن يتصلوا اتصالا وثيقا بالحضارة اليونانية · أما اللاتين ، فانهم تمكنوا من خـلال ترجمات الرواد الأوائل ، ثم عن طريق صقلية وايطاليا واسبانيا بعد ذلك ، واخيرا منطقة بحر ايجة نفسها ، من تكوين معارفهم عن التراث اليونانى حتى اذا ما وقعت بيزنطة فيمـا بعد فى أيدى المسلمين ، قام الغـرب يؤدى دورها ·

مراجع خاصة بالأدب

— Anna Comnena, Alexiad, trans. E. A. S. Dawes (London repr. 1967).

— Brehier (L.), Le Monde Byzantin, vol. III, La Civilisation.

— Cambridge Medieval History IV, pt. 11, ch. 27 (F. Dolger on Byzantine Literature).

— Dawkins (R. M.), The Greek Language in the Byzantine Period, (in Byzantium, ed. by N.H. Baynes and H. St. L. B. Moss).

— Digenes Akrites, trans. J. Mavrogordato (O. U. P. 1956).

— Michael Psellus, Chronographia, trans. E.R.A. Sewter (London 1955 and Penguin 1966 under the title : Fourteen Byzantine Rulers).

— Wellesz (E.), Le Monde Byzantin, vol. III, La Civilisation.

الفصل العاشر

الفن البيزنطى

الفصل العاشر

الفن البيزنطى

تمتد جذور الفن البيزنطى ، شأن التاريخ البيزنطى أيضا ، الى العالم اليونانى - الرومانى ، المتمركز فى حوض البحر المتوسط الشرقى · وقـــد تحـــددت أهم سمات هـــذا الفن بعاملين رئيسيين ، المسيحية والتقاليـــد الامبراطورية ، وان كانت تفاصيله الدقيقـة وخصائصـه المميزة لأساليبه ، تعود فى الغالب الى ما وراء الأفكار والمناهج بين بيزنطة وجيرانها الشرقيين القريبين ، وتمثل ذلك بصورة واضحة فى مجال الفن عنه فى ميدانى الأدب أو الادارة ·

ولقد عانى الفن البيزنطى بصفة خاصة آنفا من سوء التقدير الذى لقيه تاريخ بيزنطة وحضارتها · ومازال هناك الى اليـــوم عائقان يحولان دون فهم ما أصبح مسلما به على واحـد من أعظم منجزات بيزنطة فى العصور الوسطى · وتقدير قيمة الفن البيزنطى ليس مجرد مسألة شخصية فحسب ، بل انه يتضمن معرفة بالتقاليد المختلفة والمصطلحـات الفنيـــة ، والاطار التاريخى الذى تطور فيه هذا الفن · وفوق هذا وذاك ، فان المعرفة المصدرية بمعظم الآثار مازالت بعيـدة عن متنـاول الكثيرين · ويستطيع القـــارىء المتخصص أن يحصل على كثير من التفاصيل التى لابأس بهـــا من قراءته لتاريخ بسللوس ، حتى من الترجمة · ولكن الصور التى تطابق الأصـــل لايمكنها أن تنقل بدقة كاملة توزيع الضـــوء على سطح فسيفسائى منحن ، وقليلون هم الـــذين يستطيعون أن يقيموا فى ظـــلال كنيســـة المارتورونا Martorona فى بالرمو Palermo أو كنيسة دافنى Daphni قرب أثينا ، يدرسون فسيفساءها التى تتغير من ساعة لأخـــرى بتغير الضـــوء(١) ·

---

(١) من المتيسر معرفة تفاصيل كثيرة عن النواحى الفنية التى تضمنها هذا الفصل ، والنتائج التى تم استخلاصها من الكتب التى صدرت مؤخرا

وأكثر من هذا كله ، أن هذه الآثار الباقية على قلتهـا وندرتها ، تكشف عن ذلك الانتاج الفنى الضخم عبر فتـــرة طويلة من الزمن ، حتى على الرغم من أن الاكتشافات الاثرية المثيرة مايزال يجرى العمل فيها ، مثل الفسيفساء التى تم اكتشافهـا فى كنيســة أياصوفيا فى القسطنطينية ، أو الرســـوم الحائطية الموجودة فى كنيسة صغيرة على التلال المقدونية(٢) ·

ولاشك أن التبـاين الواضح بين فن المعمار فى البارثنون Parthenon على الاكروبول Acropolis الأثينى ، وكاتدرائية أياصوفيا فى القسطنطينية ، أو بين الصورة القديمـــة المنحوتة لأبوللو ، وفسيفساء المسيح ضابط الكل فى قبة احدى الكنائس البيزنطية ، كتلك التى توجد فى دافنى Daphni ، يعكس اختلاف الاسلوب والاقتضاء عند كل من العالم القديم والامبراطورية البيزنطية · وقد وقع هـــذا التحول خلال الزمن الذى شغلته الامبراطورية الرومانية المتأخرة · وقبل أن يغدو قسطنطين العظيم ، فى وقت ما ، مسيحيا ، كان هنـاك عاملان على جانب كبير من الأهميـــة بالنسبة للفن البيزنطى ، قد اتضحا بالفعل ؛ فالصور الفنية كانت تستخدم على نطاق واسع لتبجيل الامبراطور · ويتأرجح هـــذا ما بين روعة الرواية المنسابة على عمود(٣)

حول هذا الموضوع ، وهى موجودة فى قائمة المراجع وتعطى صـــورة لكل شىء تقريبا جاء ذكره فى هذا الفصل ·

(٢) أدين بهذه المعلومة لـ Dr Kosic of Skopje

(٣) أقيم عمـود تراجان بين مكتبتى الدراسات اليونانية واللاتينية ، فى الطرف الشمالى من السوق فى روما ،و يرتكز على قاعـدة ضخمة زينت ثلاثة من أوجهها بتماثيل منحوتة ، أما الوجه الرابع فكان يوصل الى سلم مكون من ١٨٥ درجة رخامية · على حين نجـد طول قطر جذع العمود من أسفل اثنتى عشرة قدما وارتفاعه سبعا وتسعين ، ويقوم فى أعـلاه تمثال لتراجان يمسك بيده كرة أرضية ، وقد زينت الكتل قبل تثبيتها فى مواضعها بنقوش بارزة تمثل حروب تراجان فى داكيا Dacia · وتعد هذه النقوش أروع ما وصلت اليه الواقعية وفن النحت التاريخى فى العالم القـديم فلم يهدف من ورائها الى الجمال أو انماط فن النحت اليونانى ، بل الى أن ينقل للرائى صورة واضحة للافراد الأحياء وسط مناظر الحـرب وضوضائها · بحيث يمكن أن تتبع فى الألفى صورة المنقوشة على المائة والأربع والعشرين

تراجان ، الذى مايزال قائما فى روما ، الى الأساطير والوجوه المنقوشـه على العملة والمداليات التى صممت لتصل الى أكبر عدد من المواطنين · ولما لم يعد الناس يبتهجون لاقتدارهم وابتداعهم ، بل يتحركون اما بدافع التشاؤم الميت أحيانا ، أو تحت تأثير الحب العميق للوطن من اجل حيـاة متجددة خارقة للطبيعة أحايين أخرى ، سواء تحقق ذلك بأساليب وثنية أو مسيحية ، فانهم كانوا على استعداد لأن يروا فى الفن وسيطا ، لابد أن تتمثل فيه القيم الأساسية لعالم خيالى رائع ·

استمر الاستخدام اليونانى ـ الرومانى للفن ، نعنى الفن فى خـدمة الحاكم ، سائدا خلال الفترة البيزنطية الوسيطة ، فقوس النصر الذى أقيم من أجل الامبراطور قسطنطين فى روما ، واللوحة الفسيفسائية لجوستنيان فى كنيسة سان فيتالى San Vitale فى رافنا Ravenna، تمجد الاوتوقراطور Autocrator (الحاكم المطلق) نائب المسيح ، والعظمة الفائقة للبانتوقراطور Pantocrator (المقتدر) ، الذى احتلت فسيفساؤه أبرز مكان فى قبـاب الكنائس البيزنطية ، لتذكر الناس دائما بالمكانة السامية لممثل المسيح على الأرض ·

وقد ازدانت جدران القصـر الامبراطورى بالفسيفساء ، التى تسجل الانتصارات الامبراطورية (رغم اننا نتعرف عليها الآن من المصادر الأدبية فقط) ، وشاركتها فى ذلك التحف العاجيـة والعملة وحتى المنسوجات ·

لوحة ، فتوح داكيا خطوة خطوة ، كخروج الكتائب الرومانية وعبورها نهر الدانوب واقامتها للمعسكرات ، ثم المعركة مع العـدو واختلاط الحـراب والسهام والمناجل والحجارة ، واشعال النيران فى احـدى قرى داكيـا ، ومايتعرض له الأسرى من الجانبين من معاملة ، وغير ذلك مما يتصل بهذه الحوادث وتحقيق نفس التأثيرات التى تنتظرها اليوم من عرض أحد الأفلام السينمائية · ورغم أن هـذا الأسلوب الفوتوغرافى فى الفن لم يكن يلقى قبولا فى البداية ، الا انه كان تبشيرا بظهور الأسلوب الملحمى وهو أسلوب الفن المسيحى والغربى · انظر : ول ديورنت : قصة الحضـارة ، المجلد الثالث ، الجزء الثانى · ص ٣٩٨ ـ ٤٠٠ · أرنولد هاوزر : الفن والمجتمع عبر التاريخ ، الجزء الأول ص ١٣٢ · المترجم ·

واستمرت بعض الملامح والموضوعات الوثنية تتمثـــل فى مشاهد أسطورية ترسم على القبـور ، أو العلب المصنوعة من العاج ، أو حتى فى الكنائس ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك رب نهر الأردن ، الذى رافق يوحنـا المعمدان John the Baptist ، كما تبرزها الصور الفسيفسائية من القرنين الخامس والسادس فى الأماكن التى يتم فيها تلقى سـر المعمودية فى رافنا ٠ ولاشك أن كثيرا من سمات وطرز ووسائل الفن فى الامبراطورية المتأخرة ، قـد جاءت بالفعل من الشرق الى العـالم اليونانى ـ الرومانى ٠ وهكــذا فان بيزنطة ، بغض النظر عن الاتصال المباشر بجيرانها ، قد ورثت من روما فنا يحتوى على العناصر الشرقية واليونانية معا ٠

وكانت هناك فى العالم الهللنستى ، انماط ومدارس فنيـــة مختلفة ، كالمدرسة السكندرية بتأكيدها على الواقعية والابعاد الثـــلاثة ، أو مدرسة آسيا الصغرى وسوريا وتركيزهما على صــــورة البعدين الرمزية المعلقة كما لو كانت فى هيئة سرمدية Sub apecie aeternitatis ٠

هذان النمطان من التعبير يمكن تبينهما فى فسيفساء القرنين الرابع والخامس فى ايطاليا ٠ ففى كنيسة العذراء الكبرى(٤) Maria Maggiore فى روما ، توجـد فى فناء الكنيسة فسيفساء تعود الى أواخر القرن الرابع ، وتتكون من صورة صغيرة تحكى قصصا من العهد القـديم ، كقصة موسى ويوشع ، وابراهيم ويوسف ٠ ولما كانت قد نقلت عن الصورة الموجودة فى خطية الترجمة السبعينية Septuagint (الترجمة اليونانية للعهد القديم فى صورته العبرية) ، فانها لم تهيأ بالدرجة الـكافية للاستخدام على الآثار كما أنها جاءت صغيرة جدا حتى أصبح من الصعبرؤيتها بسهولة ٠ويستطيع

---

(٤) سميت بالكبرى لأنها تعـد أكبر الـكنائس التى شيدت من أجـل العذراء ، وتعرف أيضا بالبازيليكا الليبرية Liberiana نسبة الى ماتذكره الاسطورة من أن العـذراء تجلت للبابا ليبريوس فى الخـامس من أغسطس عام ٣٥٢ ومعه البطريق الرومانى يوحنا ، وأمرتهما ببناء كنيسة فى الموضع الذى سوف تتساقط فيه الثلوج فى اليوم التالى ٠ غير ان الابحاث التاريخية تشير الى أن هذه الكنيسة انشئت على يد البابا سكستوس Sixtus III الثالث حوالى عام ٤٣١ ٠ المترجم ٠

المنظـــار المزدوج فقط أو استخـــدام السقالات أن يكشف عن الاستعمال الرقيق للألوان ، الذى يعتبر صالحا جدا لكتاب أكثر منه لجدران كنيسة. وقد صورت المناظر بدقة فى أسلوب طبيعى ، روعى فيـــه البعد والعمق ، وعلى العكس من ذلك نجد فناء كنيسة القديس أبوللينار S. Apollinare Nuovo فى رافنا والتى تعود الى القرن السادس ، قـد ازدانت جوانبه بالقديسين والشهداء ، ولايجىء ذلك مقسما فى مناظر طويلة ، بل يظهر فى أقسام ذلك الموكب الطويل ، وقسمات الوجوه ، التفضيل الآسيوى المتباين للتصوير ذى البعدين والاقل طبيعية • ويمكن ملاحظة هذين الاتجاهين فى الفن البيزنطى على امتداد عمر الامبراطورية الطويل(٥) •

وبالمقارنة الى ما سبق فان ما نعلمه قليل عن الأبنية العامة البيزنطية ، ومابقى منهـــا ليس كثيرا ، بغض النظر عن الخزانات الجوفية ، والأطلال مثل برج سرأى تفكور Tefkour Serai فى القسطنطينية (وهو الذى تختلف الآراء فى تحديد تاريخه ،ويميل جرابار Graber الى القول بأنه يعود الى الفترة الباليولوجية) ، أو القصـر الامبراطورى الذى بنى فى القرن الرابع عشر على منحدرات ميسترا Mistra فى البلوبونيز • وقـد كشفت أعمال التنقيب التى جرت فى القسطنطينية ، عن جزء من القصر الكبير ، يحتوى

---

(٥) لعله مما يجب تنبيه القراء اليه ، أنه ليس من السهل دائما ادراك المعنى الخفى للتصوير البيزنطى (والرومانى المتأخر) بل وحتى الأخصائيون والخبراء قد يصبحون فى حيـرة من أمرهم • ومن أوضح الأمثلة على ذلك الفسيفساء الارضية الموجودة فى احدى كنائس نيقوبوليس Nncopolis فى بلاد اليونان ، والتى تعود الى القرن السادس ، وتصور منظرا حلويا ومشاهد من الحياة الريفية ، مثل صيد الأسماك أو الطيور أو القنص • وفى واحـدة من هذه الفسيفساء توجد صورتان كبيرتان بنوع خاص لصيادين • وهنـاك نقش واحـد يمكن للبعض أن يرى فيه خريطة للارض والمحيط ، بينما قد يرى فيه المتخصصون تصويرا للجنـة ، أما ما يظهر على انه منظر صيد فيدتمل انه يمثل الفردوس ، بينما يمكن تفسير الصيادين على أنهما يمثلان أخنوخ Enoch واليشع Eligah بما يرمز الى ذلك الصراع الابدى بين الفضيلة والرذيلة ، قارن E. Kitzinger, "Studies on Late Antique and Early Byzantine Floor Mosaics", Dumbarton Oaks Studies 6 (Cambridge, Mass. 1951).

على فسيفساء أرضية ، ربمـــا يرجع تاريخه الى منتصف القرن الخامس ، مع صور طريفة عن الحياة اليومية ، منها صـورة صبى يوشك أن يوقع فى الفخ أحـد الأرانب البرية ، الذى يقضم بغير حـذر عنقودا من العنب ، أو صورة لبغـل جامح ، يقـذف بكل العنف الى الأرض براكبـه وحزمتين من العصى ٠

أما الآثار التى ماتزال باقيـة على نطاق واسع فهى الكنـائس ، التى أقيمت لتبقى ، مابقى الايمان الذى بنيت من أجله ٠ وقـد تبع الاعتـراف بالمسيحية فى القرن الرابع ، وماتبعه من انتشار لها وارتقاء فى الامبراطورية ، اعادة بنـاء عدد كبير جداً من الكنـائس والأديرة ٠ وأدى ذلك الى فرض التزامات معينة على المهندسين المعماريين والفنانين ، وبالأحرى لأن الكنيسة المسيحية لقيت عونا سخيا من الجميع على السواء ، ابتداء بالامبراطور الذى يستطيع اقامة وزخرفة كاتدرائية ، وانتهاء بذلك القروى البسيط الذى يشارك فى تأسيس دير جديد ، أو كنيسة صغيرة قريبا منه ٠ والى جانب التطـور الذى شهدته خدمة القداس الكنسى ، والطقوس الدينية ، سار أيضـا ليس فقط النشاط المعمارى ، بل انتاج المنسوجات وصناعة الميناء والتحف العاجية والمعدنية ٠ والحقيقة أن أهتماما كبيرا قد وجه الى كل الفنون التى تستخدم اما فى تزيين الكنائس من الداخل ، أو لاضفاء الصفة الجمالية على الأدوات اللازمة لاتمام القداس ، كملابس الاكليروس الرسمية أو الاوانى المقدسة ٠ ولكن الشىء الذى يفوق هذا كله ، هو استخدام الدخلات الحائطية لاغراض الشرح والتفسير كشىء متميز عن مجرد التزيين ٠ ومن هـذه الناحية فان فن الكنيسة الغربيـة فى العصور الوسطى يغاير فن كنيسة بيزنطة فى نفس الفترة ؛ أحدهما قصد به اثارة مشاعر الرائين ، والاخر جاء ليكون تفسيرا للايمان المسيحى ٠ بل ان من الممكن أن نذهب الى أبعد من ذلك لنؤكد أن الفن البيزنطى يعد جزءا من عمل شعب الكنيسة فيما يتصل بالعبادة ٠

وتعتبر الفترة الممتدة من القرن الرابع الى السادس هى فترة تشكيل فن العمارة البيزنطى . فالأبنية التى كانت قائمـة ، مثل البازيليكا الهللنستية ، أعدت لتلائم الاستخدام المسيحى ، فقد كانت البازيليكا المسيحية تحتوى على فناء atrium وجناح narthex ثم البلاطة المركزية ، وهى الجـزء الرئيسى

فى الكنيسة الذى تدفــه الاعمدة بحيث تصنع ممرين جانبيين ، وينتهى عند الجهــة الشرقية بحنية توضع حولهــا مقاعد مخصصة لرجال الاكليروس ، وامامها يوجد المذبح الذى يقام فوق ماخلفه الشهداء ٠ ويقــــوم فى البلاطة المركزية منبر للوعظ يرتقيه الكاهن بصعود عــدة درجات ، اما السقف فكان مسطحا ٠ وتعتبر كنيسة العذراء الكبرى S. Maria Moggiore انموذجا لهــــذا النوع من الكنائس ٠ أو بقايا كنيسة العذراء القديمة S. Maria Antiqua او كنيسة سان كلمنت(٦) San Clemente العليا ، التى تحمــل بعض سمات الكنيسة الاولى التى بنيت مكانها ، اشبه شىء بخيمة العرش ٠ ونجــد هذا الطراز من الكنائس المسيحية الأولى موجودا أيضــا فى بلاد اليونان (ممثلا فى كنيسة القديس ديمتريوس St. Demetrius فى سالونيك ، وقد أعيد بناؤها بعد أن تناولتها يد التدمير فى الحربين العالميتين) ، وكذلك فى منطقة البلقان والمناطق الساحلية لآسيا الصغرى ٠ وقــد شيدت بعض الكنائس الاولى على مسقط دائرى ، وحولت فى بعض الأحيان الى اضرحة ومزارات ، مثل كنيسة سانتا قسطانزا S. Costanza فى روما ٠ والتى تعود الى القرن الرابع ، والتى ربما أعدت كى تصلح لاجراء طقس العماد المسيحى ٠

أما الفن المعمارى المميز لبيزنطة بصفة خاصة ، فهو بناء القباب والعقود على مسقط مربع ٠ وكانت القبــاب شائعة فى فارس وأرض الجزيرة ، حيث تندر الأخشاب ،ويصبح الآجر هو الوسيلة الطبيعية فى البناء ٠ وقد اقيمت على مساحة مربعة بواسطة حنيات معقودة أو حنيات ركنيــة ٠ واستخدم البيزنطيون هذا النمط من الأبنية ، ولكنهم اضافوا اليهــا ابتداعهم الخاص باقامة قبة فوق هذا المربع ٠ وهى عبارة عن نتوء أو سطح منحن فوق الزوايا الأربع للمربع ٠ وقد خلعت هذه القباب والعقود على البنــاء هيئـــة صليب

---

(٦) تحمل هــــذه الكنيسة اسم البابا كلمنت الذى يأتى ترتيبه الثالث على كرسى القديس بطرس فى روما ٠ وهى تعد من أروع الكنائس الرومانية فى العصر الوسيط ٠ بنيت فى القرن الخامس ، ثم دمرها النورمان عنــدما اقتحموا روما عام ١٠٨٤ بناء على دعوة البابا جريجورى السابع ابان نزاعه مع الامبراطور هنرى الرابع ، ثم أعيد بناؤها بعد ذلك سنة ١١٠٨ على عهد البابا باسكال الثانى على نفس الاكمة التى كان يقوم عليهــا البناء القديم ٠ المترجم ٠

يونانى ، (أعنى صليبا ذا اذرع متساوية) ، من الخـارج ، على الرغم من أن المسقط الأفقى كان مربعا • ومن ثم فقد أطلق على هـــذا الطراز من البناء اسم « القبة المصلبة » وعند نهاية الطرف الشرقى ، تقوم الحنية الرئيسية ، بحيث يتاخمها من كل جانب اثنان أصغر منها ، ويطلق على الحجرتين اللتين شكلتا نتيجة هذا البناء ، غرفتا الأوانى المقدسة وملابس الكهنة (Sacristry) diaconicon والمائدة المقدسة Prothesis (وهى التى تستخدم فى الجزء الأول من الصلاة الجماعة) • أما فى نهاية الناحية الغربية فيوجد عـــادة جناح ولكن دون فناء • وقد خلت حوائط الكنائس البيزنطيـــة من الخـــارج ، من التزيين الفياض بالصور المنحوتة والزخارف التى وجدت فى كنائس الغرب • وكانت الكنائس البيزنطية تبنى فى الغالب من الآجـــر الكالح دون طلاء ، ونوافذها صغيرة • وفى بعض الأحيـان كان الآجـر المصقول يستخدم فى الزخرفة ، وربما نجد مثالا لذلك فى الكنائس التى ماتزال باقيـة فى جنوب ايطاليا أو شمالى بلاد اليونان• وان كنا نجد أحيانا أنهذه الحوائط قد ازدانت من الخارج بالفريسك ، كبعض الكنائس الموجـــودة فى كاستوريا Castoria أو القريبة منها • ولكن زخرفة هذا النوع من الكنائس ، كانت تستبقى كالعادة للداخل ، حيث يكون لها أهمية خاصة •

وكان النحت نادرا ، وقد أصبح واضحا بعد الجدل الذى دار من حول الايقونات ،أنه لم يعد يستخدم للاعمـال التذكارية • ويعتبر التقليد الشرقى الذى جـرى باستخـــدام النحت فى بروز بسيط ، موروثا عن الامبراطورية الرومانية ، حيث كان يستخدم لزمن بعيد فى أغراض مختلفة ، مثل التصوير الروائى على الأعمدة وأقواس النصر • وتظهر المنحوتات والملامح البارزة ، التى تجمع بين العناصر الهللنستية والشرقية ، بشـــكل واضح فى كل من الفنين ، العلمانى والمسيحى ، فى الامبراطورية البيزنطية • وقـد وجدت على التوابيت Sarcophagi والعاجيات • وقـــد استخدم النحت بكثـرة لتزيين الكنائس من الداخل • على الأعمدة أو المنبر • أو جوانب المحراب أو جدار الرواق • وتوضح تيجان الأعمدة كيف أن هذا النوع من الزخرفة قد أخـذ يتجه الى الشـكل المسطح بدلا من البارز ، وخير الأمثلة على ذلك أن سمات أوراق الأقنتا Acanthus (شوكة اليهود) لم تعد بارزة ، بل أصبحت أكثر فى طبيعة التصميم الزخرفى • وقـد استخدم أسلوب الكشط Champleve

الخاص بعمل التجاويف فى الرخام ، وملئها بمادة سوداء مختلفة عنـه كما تظهر فى دافنى وميسترا · ويمكن أن نجد شيئا من هـذا النوع أيضا فى الرواق المجاور لكاتدرائية مونريالى Munreale حيث طعمت الأعمدة الرشيقة بأعمال فسيفسائية ، جنبا الى جانب أعمدة أخرى زينت بمناظر منحوته ·

وقد بلغ الفن البيزنطى أعظم مراتب ارتقائه فى الزخرفة الداخليـة ، حيث كانت الفسيفساء أو الفريسك هـو الوسائل المستخدمة ، وقـد اعتمد فنانو الفسيفساء على مكعبات صغيرة من الزجاج او الرخـام لتصوير المشاهد والصور ، وكانت فى العادة مغايرة للارضية المذهبة · وقـد تنوعت أحجام هذه المكعبات التى تحشى القاعدة الجصية ، تبعا للتأثير المطلوب ، وهى توجد تقريبا فى كل ما تدركه الحواس ، فى المواد على اختلاف انواعها ، بما فيها الخزف والذهب والفضة · ولاشك أن هذا الأسلوب كان صالحا بصفة خاصة للسقوف المنحنية فى العمارة البيزنطية · وقـد عرف الفنانون والصناع كيف يحصلون فعلا على الاحساس الصادق من جانب العـابد ، اذا ماراح يتأمل هذه الفسيفساء على مسافة معينة فى وسط الكنيسة · ويمكن أن نقف على درجة اللون والشـكل والصناعة من الصور التفصيلية الدقيقة التى أخرجت لبعض الفسيفساء ، مثل صور جوستنيان وثيودورا فى كنيسـة سان فيتالى فى رافنا(٧) ، أو الصـور الامبراطورية التى تعود الى القرنين الحـادى عشر والثانى عشر ، والموجودة فى أيا صوفيا بالقسطنطينية(٨) ولكن التأثير الذى يبتغيه الفنـان من موقع الصـورة الفسيفسائية على النفس ، لا يتحقق الا بالوقوف فى الكنيسة وتأمل الفسيفساء ، فى درجات الضوء المتباينة ، أو عندما توقد الشموع من أجل القـداس · أما الأسلوب الآخـر للزخرفة الحائطية فهو الفريسك (الرسم على حائط من الجص) · وكان هـذا النوع اقل تكلفـة من الفسيفساء ، ومن ثم استخدم على نطاق واسع فى العصور الوسطى المتأخرة ، عنـدما تقلصت مساحة الامبراطورية ، وانخفضت بالتالى مواردها المالية · ولكن هذا لايعنى انه لم يوجـد فى فترة مبكرة ، وان كان

---

(٧) A. Grabar, Byzantine Painting (Skira series), or the relevant Batsford Iris Colour Books.

(٨) T. Wittemore, The Mosaics of Haghia Sophia at Istanbul, vol. III (O.U.P. 1942).

فى صـــورة بدائيـــة ، كما يتمثل فى الفن الشائع فى كنـــائس كبادوكيا Cappadocia وآسيا الصغرى Asia Minor كما نجـــد فى روما أيضا نماذج ماتزال باقيــة ، وتعود الى فترات تاريخية مختلفة ، توضح أسلوبى التصوير اللاتينى واليونانى (أعنى فى الكنيســة الأولى للقـــديس كلمنت أو كنيسة العذراء القديمة فى السوق الرومانى Forum Romanum) .

ولم يبق فى الامبراطورية البيزنطية الا القليل نسبيا من آثار القرون من السابع الى التاسع • ويعود ذلك جزئيا الى الغزوات الاسلامية ، ولكن السبب الرئيسى فى ذلك كان الجدل الذى دار من حول الايقونات فى القرنين الثامن والتاسع • وقد اقترنت اللعنة التى حلت بأى تصوير للأشخاص فى الكنيسة ، بتحطيم أو تشويه الفن الكنسى الذى خرج على القاعدة الأساسية • وبانتصار الايقونات والعودة الى تقديسها ، وانتهاء الجـدل اللاهوتى العميق ، دخلت بيزنطة فترة من المد المظفر فى النواحى المـادية والثقافية على السواء • ولم يـكن الفن استثناء من ذلك هو الآخـر • وتشير المصادر الأدبية الى التطور الجديد للايقونوجـرافيا Iconography ، كالوصف الخـاص بأبنية باسل الأول • واذا كانت الآثار الخاصة بالحقبة المقدونية لم يعد لها وجـود ، فان الزخرفة الفسيفسائية ،التى تعـد واحـدة من أعظم منجزات الفن البيزنطى يمكن رؤيتها فى أبهى صورها فى كنائس القرن الحادى عشر ، خاصة كنائس هوسيوس لوقا Hosios Lokas ودافنى فى بلاد اليونان ، والكنيسة الجديدة Nea Moni فى جزيرة خيوس Chios وقد اتبع الفنانون والصناع المنهاج الايقونوجرافى المتفق عليـــه ، وكان هدفه الأساسى لاهوتيـا ، حيث يهتم بعقيـدة التثليث ، وخـلاص العـالم بواسطة الاله الابن ، وكان للشخصيات الرئيسية أماكنها الخاصة فى الكنيسة ، فالمسيح ، ضابط الـكل يحتل القبة ، بينما تقوم العذراء فى العقد الرئيسى • وهناك فى القبة أمام العقد بصور عرش خال ، « والعرش المهيـا للتجلى Hetimasia ، ويضم الأدوات التى استخدمت فى عذاب المسيح ، ويرمز الى مجىء المسيح الأول ورجعته ، أما فى المحراب ، فيـرى المسيح والملائكة وهم يباركون القـــداس ، على حين يختص الفقهاء بالاحتفالات أو الاعياد الكنسية الكبرى ، مثل الميلاد ، والصلب ثم رقاد (أو موت) العذراء • بينما يحتوى الجناح على مشاهد من حيـاة العذراء ، وما تبقى بعد ذلك من فراغات على الجدران وفى القبة ، فيحتله

الرسل والشهداء والأنبياء والقديسون ، فى ترتيب هيراركى · وقد يحدث فى بعض الأحيان خروج على هذا الالتزام ، بناء على المتطلبات المحلية · وكان القديسون المحاربون يوضعون فى مكان بارز فى المناطق الفاصلة المتنازع عليها ، فهذان هما القديسان ثيودور St. Theodores وديمتريوس St. Demetrius مازالا يقفان موقفهما فى الفريسك الموجودة فى الكنائس المقدونية · ولسبب يسهل ادراكه ، يحتل أحد رجالات القرن العاشر ، القديس لوقا الاستيرى St. Luke Stiriotes ،وضعا هاما نسبيا فى كنيسة الدير المقام بين الجبال التى تشرف على قريته استريس Stiris فى فوكيس Phocis .

هكذا نجد الكنيسة البيزنطية من الداخل تستحضر العالم ، الكون · بقبة هى السماء ، بنطاقها الأعلى حيث المقتدر · والفردوس فى الأوسط ، والأرض نطاقها الدانى · ولاشك أن رقة الاخراج عند فنانى الفسيفساء كانت شيئا رائعا : فقد استطاعوا ببعد نظرهم ، وتطويعهم للمادة التى بين أيديهم ، وحسن استخدامهم للأسطح المنحنية ، أن يجسدوا شخصيات الهيراركية السماوية حتى ليشعر العابد ، وقد رفع رأسه الى أعلى يتأملها فى الكنيسة ، انها حقا على قيد الحياة ، « ففى بيزنطة ، لايقف الرائى على مسافة معينة من الصورة ، بل ينغمر فى عبير قدسيتها ، وتقبل الصورة بدورها تشاركه المكان انى خطا »(٩) ·

أما فى الايقونوجرافيا فان هذا الاسلوب يتغير قليلا ، وان كان هناك اختلاف كبير فى التصميم والتنفيذ ، فمشهد الصلب فى دافنى (١١٠٠) بكل ما فيه من قمع وكرامة ، يكاد يشبه النحت الملون ، ويعكس التأثير الكلاسيكى ،ويبدو قائد المائة فى مشهد الصلب الموحود فى خيوس (١٠٥٠) شخصية « شرقية » فظة عصبية ، فى الوان زاهية ، بعيدة كل البعد عن تقاليد الفن المألوف الموجودة فى بعض الأعمال التصويرية الديرانية · وجملة القول ، ان دافنى كانت تتميز باتجاه انسانى ساد فى القرن الثانى

---

(٩) Otto Demus, Byzantine Mosaic Decoration, p. 4 وهو الذى ادين له بالكثير ·

عشر ، وان كنا نجـد بعضا من أعظم الاعمــال فى الفسيفساء والفريسك موجودة خارج الاراضى البيزنطية ، مثل مملكة النورمان فى صقلية ، ومنطقة البلقان • ولعل العصر الزاهر للفن البيزنطى يتمثل تماما فى فريسك نيرزى Nerezi (١١٦٤) المقدونية ، وهى الآن احـدى القرى الاسلاميـة ذات الأهمية ، تبعد حوالى اربعة أميال عن سكوبجى Skopje • وتعتبر صورة العذراء وهى تحتضن جسد المسيح المسجى Pieta ، الموجـودة بهـا ، لا يفوقها أى من قريناتها •

ويتمثل الفن البيزنطى فى الفترة الواقعة ما بين نهاية القرن التاسع ، واحتلال القسطنطينة سنة ١٢٠٤ ، ليس فقط فى الأعمال التذكارية ، بل فى نواح عديدة وصغيرة ، ثم انجازها فى الغالب من أجل الخبراء والمختصين فى داخل الامبراطورية أو خارجها ، مثل الكتب المصـورة ، وعلب الحلى العاجية ، أو الأعمال الخزفية أو المنسوجات •

وكانت دار النسخ Scriptoria هى مركز المطبوعات البيزنطية ، حيث يتم نسخ المخطوطات باليد ، ومن بين أقدم الخطيات نجد الكتب « الأرجوانية » التى يتأرجح تاريخها ما بين نهاية القـرن الخامس الى السادس ، وتحتوى على أجزاء من الكتـاب المقدس كتبت بالفضـة على جلد أرجوانى • ومن المحتمل أن تكون هذه المخطوطات المصورة الدقيقة المتقنة ، قد انجزت تحت رعاية أحد النبلاء أو الاثرياء • ولم يكن النص فقط ، بل الصـور أيضا ، يتم نسخها ، وهكذا نجد أن نسخة القرن التاسع الخاصة برحلات قوزماس ملاح الهند(١٠) Cosmas Indicopleustes تكرر ثانية الصور المصغرة للنسخة

---

(١٠) ولد قوزماس فى مصر ، وعلى الأرجح فى الاسكندرية ، واشتغل بالتجارة ، فارتحل الى شواطىء البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء والحبشة وربما سيلان أيضا • ثم سلك فى نهـاية الأمر درب الرهبانية وحصل على لقبه هذا « ملاح الهند » لسفره الى الهند بحرا كما يظن • وقد اشتهر أمر قوزماس بسبب ذلك الكتـاب الذى وضعه عن « الطبوغرافيا المسيحية » فى منتصف القرن السادس ، وهو يتضمن معارف جغرافيـة هامة عن البحر الأحمر والمحيط الهندى ، والصلات التجارية بين الهند والصين ، والى جوار ذلك الكثير من الحقائق التاريخية ، فهو يعطينا صورة صادقة لبعض النقوش

الأصلية (التى وضعها قوزماس بنفسه) ، وهناك نسخ من القـــرن التاسع او العاشر ، لأجزاء من الكتاب المقدس بعهديه القـــديم والجديد ، او كتاب المزامير الذى يبدو واضحا انه يخص « عائلة » تنحدر من اصل قديم جداً • وتتنوع انماط هذه الصورة ، فبعضها ، مثل كتاب المزامير الموجود فى باريس مثلا ، تحمل ســمات سكندرية ، ترى فى الأرضية الريفيـــة ، وفى تجسيد المعانى المجردة والعناصر الرمزية ، بينما تظهر الأخرى ميــلا شرقيا يتمثل فى الألوان السخية والملامح الزخرفيــة المعقــدة • وهنـاك بعض الخطيات التصويرية التى لاتنتسب الى هــذه الكتابات الأرستقراطية ، فقد جاءت فى نمط ، فكه بل وحتى قدحى ،وقدمت للاستهلاك الشعبى • واستخدم الخصوم السياسيون والعقائديون هــذه الناحية فى شن حملات التشهير العنيفة ضد بعضهم ، ففى احد كتب المزامير مثلا ، والذى ربمــا نسخ فى زمن محنـــة الايقونات والموجــودة فى دير ستوديوس فى القسطنطينية ، رسم اعـــداء الأيقونات وهم يصلبون المسيح • وتبرز بين الحين والآخـــر مشاهد تثير الدهشة من الحياة اليومية ، وخطوط بألوان مغـــايرة فى صـــور مصغرة لأنواع مشابهة ، كالتصوير غير العادى فى الفن واللون للراهب جيمس • الكوكينوبافى James of Kokkinobaphus لعظات حول العذراء ، او ذلك الكاريكاتير الصغير المعبر (تماما كما نراه فى أسلوب المجـــلة الانجليزية المســـماه punch فى خطيـــة مدريد الخاصـــة بتاريخ سكيليتزيس(١١) . Scylitzes

---

الهامة فى النوبة وعلى شواطىء البحر الأحمر • ووصفا دقيقا لقصر ملك الأحباش فى مملكة اكسوم • ونعرف من كتابه ايضا مـــدى ما كانت تمثله جزيرة سيلان من اهميـــة استراتيجية ، حيث كانت تعتبر مركزا للتجارة العالمية بين الصين من ناحيـــة وشرق أفريقيا وفارس وبيزنطة من ناحية اخـــرى •

انظر Vasiliev, op. cit. I, pp. 1631165

وكذلك Baynes & Moss, op. cit. pp. 239-240

وأيضا Bury, op. cit. II, pp. 319-321

وراجع C.M.H. vol. I, p.581 المترجم •

(١١) احد كتاب المزمنات فى القرن الحادى عشر ، وقد وضع تاريخا تناول فيه الفترة من ٨١١ حتى منتصف القرن الحادى عشر • المترجم •

وتتضح تقاليد بيزنطة ودهاؤها ابان فترات تارخها الزاهرة ، فى مجالات أخرى من الفن • فقد كان البيزنطيون أساتذة فى فن الفصوص المتحاجزة Cloisonne ، كما كان لهم مكانتهم الفريدة فى التزيين بالمينـاء • وتحتفظ كنيسة القديس مرقس فى البندقية ببعض من أجمل هذه الأعمال ، ويعتبر ما انتجه الصاغة كهذا الذى مازال بين أيدينا ، على درجة واحدة من الرقى ، وقد كان واضحا أن نحت تمثال دقيق من العاج ، لايمكن أن ينظر اليه بارتياب ، واتخذت العاجيات سبيلها فى اتجاهين : دينى ودنيوى(١٢) • يتمثل أولهما فى مجموعات من اللوحات ذات الورقات الثلاث triptychs أو صناديق لحفظ الآثار المقدسة ، وينقش عليها موضوعات دينية • على حين كانت العاجيات الدنيوية تدور حول أشياء كمالية ، كصناديق الجواهر ،وتزين بروايات من الميثولوجيا ، أو مشاهد لقنص أو مطالب الحياة اليومية الأخرى ، اما العبقرية البيزنطية فى التصميم والتلوين فتعكسها بوضوح المنسوجات ، التى كانت تستخدم فى الكنيسة كاردية لرجال الاكليروس ، وسجوف • وقد وصف بولس الصامت Paul the Silentiary فى صورة بليغة ستائر خيمة العرش فى أيا صوفيا • وكانت مثل هذه المواد تعتبر جزءا من أثاث البلاط الامبراطورى أو بعض الأسر الثرية • وقد وجد البيزنطيون سوقا رائجة فى الخارج ، وحملت تصميماتهم ملامح الفن البيزنطى المتنوعة الى مختلف أجزاء العالم المتحضر •

ومما لاريب فيه أن الاقتصاد البيزنطى قد أصيب بهزة عنيفة ، من جراء ذلك الانحلال التدريجى الذى دهم الامبراطورية فى أعقاب احتلال القسطنطينية سنة ١٢٠٤ • وكان لذلك أيضا أثره على الفن • فقد ندرت الأعمال الفنية الدقيقة ، مثل الخطيات المزخرفة باهظة التكاليف • واستخدم الفريسك بصفة عامة فى الكنائس بدلا من الفسيفساء الاكثر تكلفة • ومع ذلك فقد استمر النشاط الفنى والادبى على السواء فى الازدهار . وظلت مظاهر التطور التى شهدها القرن الثانى عشر ، تسير قدما فى الفترة التى أعقبت سنة ١٢٠٤ • وكانت معظم المراكز النشطة فى العصور الوسطى

---

(١٢) بعض هذه التحف العاجية موجودة فى متحف فيكتوريا بلندن •

المتأخرة فى مواقع متقدمة نسبيا ، مثـل ميسترا فى البلوبونيز أو طرابيزون والمنـــاطق الاخـــرى ذات المعتقد الارثوذكسى كالبلقان وروسيا • ويعتبر التصوير الدينى على الجدران ، أروج أعمـــال هـــذه الفتـرة ، خاصة فى البلقان فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر • ورغم أن الكنائس المختلفة تظهر مدى التمايز فيها بينها ، الا انه كان هناك على العموم اتجاه للابتعاد عن الفن المعنوى الذى ســاد فى القـــرن الحـــادى عشر الى تفسير أكثر انسانية • واذا كانت ملامح منهج فن التصوير فى بيزنطة العصور الوسطى قد بقيت ، فانه بمجىء القـــرن الرابع عشر أخذت الحوائط تميل الى الامتلاء بالمشاهد (كما هو واضح فى كنيسة القديس كلمنت، الاوخريدى St. Clment of Ochrida [فى بلغاريا] ومهما بلغت روعة وأصالة كنائس سوبوكانى Sopocani أو ميلسوفو Milesovo فى صربيا ، والتى تعود الى القرن الثالث عشر ، أو دير الضاحية Chora (حاليا جامع القريه Kariye Djamii) فى القسطنطينية ، فان هذا الامل ،على عكس قرينـه المعاصر فى الغرب ، ظل بعيد المنال • وربما كان هـذا التوقف يعود الى حـــد ما الى التقليدية الأرثوذكسية التى دعمت الاحداث التاريخية ، كما أنه كان أيضا بكل تأكيد احد نتائج الفتح العثمانى •

مراجع خاصة عن الفن والعمارة

— Datton, (O.M.), East Christian Art: a survey of the Monuments (Oxford 1925).

— Demus (O.), Byzantine Mosaic Decoration (London 1938).
— The Mosaics of Norman Sicily (London 1950).

— Diez (E.) & Demus (O.), Byzantine Mosaics in Greece: Hosios Lucas and Daphni (Cambridge 1931).

— Dumbarton Oaks Papers, Contain Valuable reports (with excellent illustrations) on work in progress in Constantinople (notably Hagia Sophia and Kariye Djamii) and elsewhere, as well as studies on more specialised aspects of Byzantine Art.

— Grabar (A.), Byzantine Painting (Skira Series, Geneva 1953).

— Hamilton (J.), Byzantine Architecture and Decoration, 2nd ed. (London 1966).

— Iris Colou Book : Early Christian Mosaics, introduction by W. F. Volbach (Batsford 1943).
— Byzantine Mosaics, introduction by P. Meyer Batsford 1952).

— Jackson (T. G.), Byzaine and Romanesque Architecture, 2nd ed., 2 vols. (Cambridge 1920).

— Mathew (G.), Byzantine Aesthetics (London 1963).

— Millet (G.), L'Ecole grecque dans L'Architecture byzantine (Paris 1916).

— Simpson (F. M.), History of Architecture Development, vol. II, Early Christian, Byzantine and Romanesque. New edition by C. Stewart (London 1954).

— Stewart (C.), Byzantine Legacy (London 1947).

— Talbet Rice (D.(, Byzantine Art (Pelican 1954).

— The Art of Byzantium (New York 1962).

— Art of the Byzantine Era (London 1963).

— Whittemore (T.), The Mosaics of Haghia Sophia at Istanbul, I—IV (O. U. P. 1923—1952).

— Yugoslavia: Mediaeval Frescas, preface by D. Talbot Rice, introduction by S. Radojcie (Unesco World Art Series, New York 1955).

الفصل الحادى عشر

بيزنطة وجيرانهـا

الفصل الحادى عشر

بيزنطة وجيرانهـــا

كان الموقع الجغرافى وحـــــده كافيا كى يحتم على بيزنطة أن تلتقى كل صباح بأولئك الـــذين كانت طرائق حياتهم ونماذج تفكيرهم ، تغاير ما كانت عليه هى تماما • وقد اختلفت الصعاب التى واجهتها ، والفرص التى سنحت لها فى الشرق عنها فى الشمال والغرب •

وكان الاتصال بالشرق أمرا تقليديا ، والتقدير (فى العصور الوسطى على أية حال) متبادلا • وكان لـــكل من العالم اليونانى ـ الرومانى وعالم الشرق الأوسط ، حضارته المعترف بها وان كان التنافس قائم بينهما • ولاشك أن المسلمين قد أفادوا كثيرا من أساليب الحياة التى وجـــدوها فى الولايات البيزنطية التى فتحوها أو من مصادر المعرفة اليونانية الكامنة عند أبوابها • ولم يكن ما أفاده البيزنطيون أقل من ذلك • ولعل أوضح الأمثلة على هـــذا الاخصاب المتبـــادل يتمثل بوضوح فى الرهبانية البيزنطية وحياة قديسيها • وقد خلا تاريخ القديسين البيزنطيين غالبـــا من العناصر الهللينة ، وشهدت الأفكار تبادلا مستمرا نتيجة لبعض العوامل ، كالمراكز الديرانية التى تضم رهبانا يتحدثون لغات متفرقة ، أو الجاليات الشرقية الموجودة داخل العالم المسيحى ، كما فى بيت المقدس والقسطنطينية وجبل آثوس • أو فى قيـــــام أقاليم الحدود (مثـــل جورجيا أو أرمينيا) ، حيث كانت الكنائس المختلفـــة تمارس ما يعتبر من المفضل وصفه بأنه حكم مشترك •

وفى الشمال ، فى البلقان ، فيما وراء الدانوب وفى منطقـــــة البحر الأســـود ، كانت الاتصالات مسألة لا يمكن تجنبها منـــــد البداية ، كما أن العلاقات قامت على أسس متباينة تماما • وكانت الهجرات الصقلبية والهونية تمثل تهديدا خطيرا ودائما • ولكن بيزنطة استطاعت هنا ، فى الشمال ، أن تقدم واحـــدا من أعظم وأوضح منجزاتها ، حيث تمكنت من استيعاب أعـــداد

هائلة من الغزاة البرابرة ، خاصــة فى منطقة البلقان والثيمات الاغريقية ، على الرغم من أن الدارسين مازالوا يتناقشون حول كم من الدماء الصقلبية مزجت فى عملية توطينهم منطقة البلوبونيز فى العصـور الوسطى المبكرة . ومن ناحية اخرى ، كان هناك مجموعة من القبائل التى لم تتمكن الامبراطورية من ابقائها خارج البلقان ، أو اذابتها داخـــل ولايات الامبراطورية ، وكانت هذه القبائل قادرة على انماء نفسها الى درجة الاكتمال ، وتطوير اماراتها خلال العصور الوسطى تحت وصاية القسطنطينية ، شأن صربيا وبلغاريا .

أما فيما يختص بالغـرب المسيحى فقـــد كان الوضع يختلف تماما ، ومتغيرا بدرجة كبيرة على امتداد العصـور الوسطى . ومهما يكن من أمر الادعاءات التى أثارتها القسطنطينية من الامبراطورية العا. . .
المباشرة مع الغرب منذ القرن الخامس حتى الحادى عشر ، كانت أقل مما هى عليه مع الشمال أو الشرق ، ولم يكن للغرب فى أوائل العصور الوسطى حضارة يمكن أن تقارن بحضارة بيزنطة أو الحضارة الاسلامية ، فقد كان منطقة تتميز بقلة الكثافة السكانيـة والبدائيـــة المفرطة . وليس بخاف أن ايطاليا كانت تمثل منتصف الطريق . كما أنها كانت تخضع بصورة جزئية للسيادة البيزنطية ، وقـد أصبحت ادعاءات السيادة على ايطاليا والأدرياتى مشكلة امبراطورية ، الى حـــد الصراع بين القسطنطينية والكارولنجيين . غير أن الحال مالبثت أن تغيرت بشكل جوهرى بسبب توسع الغرب وارتقائه. وبصفة خاصة نتيجة الغزو النورمانى لصقلية وجنوب ايطاليا فى القـــرن الحادى عشر ، والحركة الصليبية الغربية التى تم القيام بها تحت رعاية بابوية تتميز بالقوة والحيوية المتجددة ، ونمو الحياة المدنية فى ايطاليا مع الأنشطة الاقتصادية المتزايدة . وعنـــدما بدا أن الهجرات الصقلبية وغيرها كانت تمكن لنفسها فى أرض البلقان ، وجدت القسطنطينية نفسها وقـد أحيط بها من الشرق والغرب على يد الاتراك واللاتين . وقد أدى نمو الأمة ودولة المدينة فى الغرب ، كالملكة المسكوفية Moscovite فى الشمال ، وامارة آل عثمان فى آسيا الصغرى ، والممالك الصقلبية فى البلقان ، الى أن تشهد الدبلوماسية البيزنطية المتأخرة تعقيدات لم يكن لها ما يناظرها فى الفتـــرة المبكرة من تاريخها .

وعلى العكس من الخلفية عن مشاكل الحـدود والتغير الدبلوماسى ، فان تأثير نظام الدولة البيزنطية يجب أن يوضع فى الاعتبار ٠وليس من الصعب ادراك أن المجموعات الأقـل تطورا تحمل فى أعناقها دينا كبيرا بصـورة مباشرة للقسطنطينية ، وأن هيئتهم قد تحـددت الى درجة بعيدة باتصالهم بهـذا الجـار القريب ٠ ومهما تكن التفسيرات ، مع التسليم بأن تطور بنـاء المجتمع قد قام فى جوهره على اسس وطنية ، فانه من الصعب أن ننكر أن هذه الدويلات التى تشكلت خلال العصـور الوسطى ، مثـل الصـرب أو البوسنة Bosnia أو بلغاريا (وكانت هذه الأخيرة قد ظلت منذ القرن الحادى عشر حتى نهاية الثانى عشر جزءا من الامبراطورية البيزنطية) ، أو كييف ٠ وأخيرا المملكة المسكوفية ، وروسيا ، قد أخذت الكثير من حنكة جارتها ، خاصة فى النواحى السياسية والادارية ٠

وفوق هـذا وذاك ، فان الكنيسة الأرثوذكسية ، بغض النظر عما كان عليها أن تقدمه من جانبها ، فانها كانت دليلا واضحا على اسلوب الحيـاة البيزنطية ٠ ولم تكن السنة المسيحية بالصوم والأعيـاد على مدارها تتعلق فقط باحتياجات كل فرد على حـدة ، بل كان ينظر اليهـا على أنهـا المظهر الخارجى الذى يعبر عن فحوى الامبراطورية المسيحية ٠ فالله عندما ارتضى أن يظهر نفسه متجسدا فى الزمان والمكان ، قدس مسرى التاريخ ، واستطاع العالم المسيحى أن يصبح انعكاسا على أرض مدينة السماء Civitas Caelestis وكان للامبراطور وموظفيه ، والبطريرك واكليروسه أماكنهم المحـددة فى كل مظاهر الخـدمة الكنسية للقـداس السنوى ٠ وتظهر الاجابات والهتافات مدى الأهمية البالغة التى تتعلق بالمنصب الامبراطورى ، وكان هذا التصور الدقيق عن الدولة المسيحية ، مع الارتباط الوثيق بين القس والحاكم ، الذى ترك بصماته واضحـة على الشعوب الصقلبيـة ، يتمثل فى طرائق حياتهم ابان العصور الوسطى ٠والحقيقة التى لامراء فيها أن بيزنطة كانت تتصور امبراطورا واحدا فقط ، وان كان من الممكن وجود عديد من الافراد البرزين يعملون تحت امـرته ٠ وفى وقت معين بدا لاحـدى الممالك الصقلبيـة أن المسئوليات الامبراطورية الرومانية والمسيحية قد ألقيت اليها ، عندما احتل الأتراك القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، وتزوجت صوفيا Sophia احدى أميرات أسرة باليولوجوس من ايفان Ivan الموسكوفى ٠

ولم يكن التصور البيزنطى للتقليد الامبراطورى الرومانى ، باعتباره ذا مغزى خاص ، قاصرا فقط على البلدان التى مكنت الكنيسة الأرثوذكسية لنفسها فيها ، ففى العصور الوسطى المبكرة أبقت روما الجديدة ، القسطنطينية ، على مفهوم الامبراطورية بالنسبة لدنيا المسيحية فى الشرق والغرب على السواء ، وكان هذا بالنسبة للمسيحى ، يمكن تصوره كفكرة على طراز الامبراطورية الرومانية التى أعاد تشكيلها قسطنطين العظيم • ولم تساعد التطورات السياسية فى العصور الوسطى ، فيما أصبح يعرف بالنصف الغربى pars Occidentalis على اعادة بناء عالم قسطنطين ، ولاحتى محاولة محاكاة رومان القسطنطينية من جانب الامارات الصلقبية • ولم يحاول أمراء الغرب أبدا من جانبهم احياء ما كان فى بادىء الأمر تحت حكم شارلمان ، يبدو أقل بكثير من لقب « الامبراطور » ، وما أصبح من بعد على عهد الأباطرة الأتوويين ، يرتبط بحقوق معينة فى أراضى ايطاليا وبرجنديا والمانيا ، وأدى ظهور امبراطورية غربية فى العالم اللاتينى ، وهى التى عرفت بالامبراطرية الرومانية المقدسة ، الى أن تصبح فى السنوات الأخيرة موضع جدال • ولكن لاشك فى أن الغرب اللاتينى يحمل فى عنقه دينا مبدئيا للشرق ، أو بمعنى آخر ، ذلك الطريق الذى ساعدت من خلاله الاتصالات المتنوعة بين بيزنطة والغرب على بعث واكمال التصور الغربى للمنصب الامبراطورى •

وقد ورثت الأقطار اللاتينية والصقلبية أيضا ـ وان كان بدرجة متفاوتة ـ المبادىء الفقهية الرومانية كما فسرها البيزنطيون • وكان نقل أعمال جوستنيان التشريعية ، أو المقننات الرومانية الشرقية فى العصور الوسطى المتأخرة ، يعتبر خدمة عظيمة وأساسية أدتها الامبراطورية على درجة عالية من التنظيم ، وقد أفادت بلدان أوروبا وعالم البحر المتوسط ـ بطرق مختلفة ـ من مثل هذه المصادر والخبرات • وليس بخاف على أحد مدى ما لقيته مجموعة القانون المدنى Corpus Juris-Civilis لجوستنيان فى الغرب من قبول • وان كانت المجموعات الأخرى التى صدرت زمن الأباطرة البيزنطيين المتأخرين ، مثل المراسيم الامبراطورية Basilica ، قد حظيت بنصيب أقل من الذيوع ، ويعود ذلك بصورة جزئية الى قلة الدراسات التى أجريت حولها • وقد اعتمدت الشعوب الصقلبية اعتمادا كبيرا على المجموعة

التشريعية البيزنطية ، بل انهم احتفظوا باجـزاء منهـا مترجمة ، وربما كان الدليـل الذى يشير الى استمرار استخدام القـانون البيزنطى فى جنوب ايطاليا ، اقل من المتوقع ؛ فالدليل الكالابرى المختصر عن القوانين الريفية والمدنية ، الذى صنف على عهد باسل الثانى من « المختارات » Ecloga زمن ليو الثالث ، والوجيز فى القانون Procheiros Nomos الـذى وضـع ابان حكم باسل الأول ، هذا الدليل الكالابرى استخدم من جانب أمراء النورمان فى القرن الثانى عشر ، ثم تم تنقيحه فى عهد روجر الثانى Roger II • ولاشك أن أى فحص يمكن اجراؤه للمختصرات القانونية المعمول بهـا ، ليس فقط فى منطقة البلقان ، بل فى مناطق أبعـد من ذلك ، كجنوب ايطاليا أو فلسطين وسوريا ، سوف يكشف (كما فى البلقان) اما عن البنـاء المتأنى الذى تم بمساعدة النظرية والتطبيق البيزنطيين ، أو (كما فى جنـوب ايطاليا) عن الاستخدام المستمر والتكييف لما ظل فترة طويلة جزءا من قانون الأقاليم •

ومن الممكن كذلك أن نعرف شيئا ما عن مبـادىء الحكم البيزنطى فى نواح أخرى عديدة ، ويتضح هذا من كتابين صنفا فى منتصف القرن العاشر على يد الامبراطور الانسـانى قسطنطين السابع ، اولهمـا عن المراسم De Cerimoniis الذى نظم مظـاهر الحيـاة اليوميـة فى الـدوائر الامبراطورية البيزنطية ، وقـدم انموذجا يحتـذى لبـلاط الملوك والأمـراء الآخرين • والثانى عن الادارة الامبراطورية De Administrando Imperio ليعلم القيصر الصغير حنكته الامبراطورية ، ويشرح لنـا ــ بدرجة لا تقل عما يقدمه له ــ قواعد السياسة الخارجيـة البيزنطية • كما أن المعلومات التى يتم الحصول عليها من وزارة الخارجية ، ومن اقسام الادارة المختلفة ، ومن الدبلوماسيين وحكام الولايات ، لاتكشف فقط عن النظام البيزنطى ، بل تبين بعض الوسائل والقنوات التى انسابت من خـلالها المعرفة بالحضارة والحكومة البيزنطية الى البلاد الأخرى •

وكانت هنـاك صـلات كثيرة غيـر رسمية بين الغـرب الأقصى والقسطنطينية ، خاصة منذ القرن الحـادى عشر فصاعدا • فقبل أن يحل عام ١٢٠٤ كانت انجلترا قـد اصبحت على علاقة ببيزنطة عن طريق تجنيد الحـرس الامبراطورى الخـاص . وروابط المصاهرة • وهنـاك اشـارات

معاصرة عن « المحاربين حاملى الباط » الذائعى الصيت والذين عرفوا باسم « الورنك »(١) Varangian . وأن لم تكن من قبيل الثناء بصفة دائمة ، كما حدث عندما قدم رئيس رهبان باطموس Patmos فى سنة ١٠٨٨ شكاية ضد اسكان الفرق العسكرية ، ومن بينهم « أولئك الجنود الانجليز » . ويتضح الرضى البيزنطى عن هذا المصدر الذى يتم منه تجنيد الحرس الامبراطورى فى تاريخ يوحنا كيناموس(٢) John Cinnamus الذى وضعه فى أخريات القرن الثانى عشر ، حيث يتحدث عن « الجنس البريطانى الذى عمل فى خدمة الأباطرة الرومان لزمن طويل » ، كما تفصح الرسالة الودية التى بعث بها أحد أباطرة القرن نفسه ، مانويل كومننوس Manuel Comnenus الى ملك انجلترا هنرى الثانى Henry II والتى حفظها روجر الهوفيدى(٣) Roger of Hoveden عن التقدير الكثير لسجايا هؤلاء الجنود . فقد كتب مانويل بعد الهزيمة التى لقيها البيزنطيون على يد الأتراك فى اسيا الصغرى سنة ١١٧٦ : « لقد غمرنا السرور اذ رأينا بعض كبار نبلائكم معنا .. ومن ثم قدرنا أنه يجب أن نطلعكم باعتباركم صديقنا العزيز المحبوب ، ولأنكم قد ارتبطتم بعظمتنا الامبراطورية بروابط الدم » . ذلك أن زوجة

---

(١) انظر قبله حاشية ١٩ ص ١٥٢ . المترجم .

(٢) هو أحد المؤرخين الذين عاصروا الفترة الكومننية . وضع تاريخا يتضمن عهدى يوحنا ومانويل ، أى ابتداء من عام ١١١٨ حتى سنة ١١٧٦ ويعتبر تاريخه هذا تكملة للالكسياد الذى كتبته أناكومننا عن أبيها الامبراطور الكسيوس كومننوس . وكان كيناموس هذا من أشد المتحمسين للامبراطورية الرومانيــة (البيزنطية) ، لا يقبـل مطلقا ادعاءات البابوية أو الامبراطورية الألمانيــة . كما انه كان من أكثـر النـاس اعجابا بهيرودوت واكسنوفون ، كما تأثر فى كتاباته بالمؤرخ بروكوبيوس القيسارى . المترجم .

(٣) أحد مؤرخى القرن الثانى عشر ، كان مقربا من البلاط الانجليزى، وعمل قاضيا ومستشارا ، كما عمل أيضـا راعيا لكنيسة فى هويدن . وقد مكنته صلاته الوثيقة بالبـلاط ان يكون على مقربة من مجريات الاحداث ، خاصة وأنه صحب ريتشارد الأول ملك انجلترا فى حملته الصليبية الى بلاد الشام .

انظر F. Heer, The Medieval World, p. 280.
وكذلك Barlow, op. cit. p. 328
وأيضـا Mund, Europe in the High Middle Ages 1150-1309, p. 15.
المترجم .

مانويل الثانية كانت تنتمى لأسرة صليبية غربية ، فهى مارى صاحبة انطاكية ، ابنة ريموند كونت بواتييه Raymond of Poitiers ، عم اليانور اميرة أكويتانيا Elenor of Aquitaine زوجة هنرى الثانى ، ومن ثم كان أولاد هنرى وأولاد مانويل أبناء خؤوله ، كما أن تقارير هنرى تعكس هى الأخرى ذلك الارتباط الودى بين العائلتين • وتشير سجلات الخزانة الى العديد من وجوه الانفاق الخاصة باستضافة سفراء امبراطور القسطنطينية ، وكذلك بعض البنود فى كشوف الحسابات تتعلق بارسال مجموعة من كلاب الصيد الانجليزية الى مانويل الذى كان صيادا متمرسا • وكان أمرا عاديا وجود مثل هذه الأشارات التى تحمل طابع الود والمجاملة فى كل فترة من الفترات ، ولكن مع هذا الاقرار الكامل بروابط الدم ، فان اخريات القرن العاشر قد شهدت ابتعادا واضحا عن سياسة المنع التى عرفها القرن العاشر ، ودونت فى كتاب الوجيز فى الأدارة حول مسألة الزواج الامبراطورى • ورغم أن الامبراطورية لم تحد مطلقا عن النظرية التقليدية الخاصة بالسمو العالمى ، الا أن الظروف السياسية قد أجبرت العالم البيزنطى على أن يعدل من موقفه تجاه « البرابرة » •

ومع ذلك ، فهناك مجال واحد فقط سار فيه عالما اللاتين واليونان بمعزل عن بعضهما متباعدين • فلم يتوفر للمسائل العقيدية نفس الحالة التى كانت عليها العلاقات الدبلوماسية والممارسة الادارية ، ذلك أن الصدع الهائل الذى يفصل بين المسيحى والمسيحى يعود بصورة جزئية الى ذلك التعصب الدينى الشديد عند كل منهما ، ولكن السبب الرئيسى يتمثل فى الأحداث السياسية التى تركت اثرها العميق على السياسة الكنسية • فقد شهدت العصور الوسطى المبكرة قيام الخلافات اللاهوتية والتنظيمية بين الكنائس اليونانية واللاتينية ، غير أن العامل الحاسم كان فى الغالب يتركز فى اهتمام روما بالنشاط التبشيرى فى بعض الميادين التى كانت تعد مجهولة الى حد ما ، او الحاحها من أجل استعادة سيادتها الكنسية على جنوب ايطاليا والليريا ، والتى كانت قد فقدتها بانتقال كنائس هاتين المنطقتين الى رعاية بطريريك القسطنطينية عام ٧٣٢ • ولم يقدر للمفاوضات التى دارت بعد سنة ١٢٠٤ ، فى العصور الوسطى المتأخرة ، من أجل اعادة الوحدة بين الكنيسيين ، أن تنجح . وكان السبب فى فشلها منذ البداية تلك الكراهية

العامة عند البيزنطيين تجاه أولئك الافاقين اللاتين الذين نهبوا الامبراطورية الشرقية ٠

غير أن هناك ناحية أكثر ايجابية فى العلاقات القائمـــة بين الكنيسة الارثوذكسية والعالم المجـاور لها ٠ واصبحت هـــذه الناحية فى سماتها الرئيسية أمرا مسلما به وان كانت التفاصيل ماتزال تضــاف الى معارفنا تباعا ٠ فقد لعبت القسطنطينية دورا كبيرا فى المجال التبشيرى ، حيث أمتد نشاطها الى مساحة واسعة تشمل الشرق وروسيا والبلقان ووسط أوروبا ٠ ولعل كيرلس Cyril ومثوديوس Methodius المبشرين البيزنطيين فى القرن التـاسع ، فى مورافيـا Moravia لم تكن سريعــة الزوال كما يفتـــرض احيانا(٤) وهناك من الأسباب ما يدعو الى الاعتقاد بأن الثقـافة الصقلبية ـ البيزنطية ، بما فيها القداس الصقلبى ، قد مكنت لنفسها قرابة قرنين من الزمان (العاشر والحادى عشر) ، كما وجدت آثار الطقوس الشرقيـــة فى بوهيميا بعد ذلك بزمن متأخر ٠ وبنفس القدر من الاهتمام وعلى نفس المنوال، جاءت نتائج الابحاث الهنغارية التى اجريت للتعرف على الأصول البيزنطية للكنيسة المجرية(٥) ٠ وقد تأكدت الآن بصـــورة واضحة ، تلك الجهـــود التبشيرية الجادة التى بذلتها الكنيسة الشرقية بين القبائل التركية والهونية فى العصور الوسطى المبكرة ، خاصة منـذ القرن الساس وما تلاه ، وأدت هذه الجهود ،وكذلك الصلات التى كانت قائمة مع الصقالبـة ، الى ادخال المجيار فى المسيحية قبل أن يصلوا الى هنغاريا ٠ وما ان قدموا اليها حتى وجدوا روما وبيزنطة يستبقان ، وفوق هذا ، فانه رغم القرار الذى اتخذه الملك ستفن فى صالح الغرب ، الا أن هناك من الأدلة مايثبت استمرار التأثير اليونانى على الارض الهنغارية ٠ ولم يكن هـذا أمرا يثير الدهشـة نظرا للصلات السياسية والعائلية الهنغارية مع القسطنطينية ٠ وقد شهد القرنان

---

(٤) قارن ٠ Dumbarton Oaks Papers XIX (1965). حيث توجـد أوراق تتناول عـدة نواح تتعلق بالبعثات التبشيرية البيزنطية الى الصقالبة وضعها G. Ostrogorsky و G. C. Soulis و Obolensky وأيضا A. Dostaal ٠

(٥) انظر بصفة خاصة ما كتبه G. Moravesik and M. Gyoni

الحادى عشر والثانى عشر اقامة بعض الاديرة اليونانية فى هنغاريا ، كانت خاضعة فيما عدا فترة قصيرة من القرن الثالث عشر ، لسيادة بطريرك القسطنطينية · ومازلنا نجد فى هنغاريا مجموعة من الاساطير والروايات التى تعود الى اصول بيزنطية ، واماكن تتصل اسماؤها بقديسين بيزنطيين ، كما ترجمت فى اوائل القرن الثانى عشر كتابات يوحنا الدمشقى John of Damascus عن الايمان الأرثوذكسى – De Fide Othodoxa واعمال ماكسيموس المعترف Maximus the Confessor .

وكان من الطبيعى أن يتبع نشاط القسطنطينية التبشيرى ، الاندماج الادارى والتمكين للمؤسسات الكنسية ، واذا كان الأمر فى هنغاريا ومورافيا وجنوب ايطاليا ، (وهى المناطق التى لم يكن يطلب الى بيزنطة بدهيا أن تقوم فيها بعمل رائد) ، يجرى مشاركة مع الكنيسة الكاثوليكية ، بل فى الجزء الأكبر اخيرا ، خضوعا لها ، فان الحياة المسيحية فى الأقاليم الأخرى التى تحولت الى هذه العقيدة على يد القسطنطينية ، وكانت تقليدا للنمط الأرثوذكسى ·لقد كانت الكنيسة بأبروشياتها واسقفياتها ومطرانياتها تحت رعاية كبير المطارنة · تخضع فى النهاية لبطريرك القسطنطينية : وكانت الهيئة الكهنوتية العليا للاكيروس ، تعين أحيانا من بين رجال الكنيسة البيزنطيين ،وبصفة خاصة فى روسيا والبلقان · وكانت الحياة الرهبانية بشكلها الديرانى والتوحدى تنمو بصورة حماسية كما لو كانت على الأرض البيزنطية ومن البدهى فى عالم الرهبنة ، أن يحيا الراهب المتضع حياة عالمية· ومن ثم فقد كان هناك فى بولندا وروسيا والأديرة الشرقية رهبان من جبل اثوس للاقامة أو الزيارة واناس من كل انحاء العالم المسيحى · ولم يكن الأمر مقصورا فقط على الافادة من تجربة الحياة العملية فى المراكز الأولى ، بل ان ترجمات الأعمال الكلاسيكية للديرانية اليونانية ، قدمت الى اتباع الكنيسة الأرثوذكسية النائين المحدثين ، معارف يونان العصور المبكرة والوسطى · وتقاليد الديرانية الشرقية · وهكذا كانت سيرة الراهب المصرى انطونيوس فى أوائل القرن الرابع ، أو الروايات التى دارت فى القرن السابع حول جوديان Judaean ، والتى انجزت زمن كيرلس البيسانى Cyril of Scythopolis ، تقرا فى ترجمة صقلبية قديمة داخل اديرة بلغاريا او روسيا فى زمن امراء كييف · وعلى ذلك فلم يكن القديس باسل والقديس

ثيودور الاستوديى وحدهما أصحاب الاثر الأكبر فى الرهبنة ، الأرثوذكسية فى العصور الوسطى ·

اما عناية الكنيسة الأرثوذكسية وحكمتها فى اعـداد الاطار القداسى لظاهر العبادة اليومية (رغم عدم ضرورتها فى اللغـة اليونانية) ، واضفاء المزيد على الأعمال الأساسية لكبـار اللاهوتيين والآباء الروحيين للكنيسة المسيحية ، تحتاج فيجملتها الى تعليق · كما أن بيزنطة قدمت أيضا الموسيقى التى كانت تعتبر جزءا مكملا فى العبادة العامة سواء فى الابروشية أو كنيسة الدير · وقد تركت الموسيقى البيزنطية اثرها الواضح فى بلغاريا ، التى نقلت فى القرن التاسع عن القسطنطينية قداساتها وترانيمها ، ثم نقلتها الى الروس فى القرن العاشر(٦) ·

ولاشك أن الفن والعمـــارة يعتبران من الموضــوعات الضخمة التى يصعب تناولها هنـــا ، وان كان من السهل الاشارة الى الخطوط العريضة التى يعمل فيهـــا الدارسون · فقوانين النقـــد الصحيحة تنطبق على الفن والعمارة الاقليمية ، كذلك على التصميمات والأعمال الفنيـة التى يمكن أن تصف بطبيعتها على أنها مخطوطات ومسكوكات ونقوش عاجية « سياحة » ، أو ذلك النوع من المادة التى وجـدت فى انجلترا هى سفينـــة سوتون هو Sutton Heo المطمورة ، وتحلل أوتوديموس Otto Demus فى دراســـات رائعة متتالية ، فن التصوير ، ويقدر القيمة الحقيقية لنكنيك العمل الفسيفسائى فى بلاد اليونان وايطاليا وصقلية ، مبينـا مدى ماتدين به البندقية وصقلية لايقونوجرافيا التقليد القداسى البيزنطى ، وللصناع المهـرة الذين انجزوا هذا العمل ، والذين يمكن رؤية أعمالهم الى الآن فى أديرة دافنى أو هوسيوس لوقا أو كيفالى Cephalu [فى صقلية] ·

وتعتبر الأشكال الفنية بطبيعتها عالمية اكثر منها وسيطا أدبيا · ولقد كانت كتابات البيزنطيين تتداول بصفة عامة فى المناطق التى كانت اليونانية

---

(٦) كتبت المخطوطات المتعلقة بهـذه الناحية فى الشـــكل الصقلبى القديم ، أعنى البلغـارى القديم الذى اصطلح على العـــلامات الموسيقية البيزنطية ·

ماتزال سائدة فيها ، أو من خلال الترجمة · ولكن يجب أن نعيد الى الأذهان ثانية ، أننا لم نذهب أبعد من مجرد البدء فى استكشاف المدى الذى وصلت اليه الآداب والفلسفة والعلوم والدراسات الغيبية البيزنطية فى الحياة الثقافية والعامة للعالم المجاور لبيزنطة · وفى بعض النواحى ، خاصة الفلسفة والعلوم ، فان معلوماتنا مازالت قليلة حتى عن طبيعة التطور داخل الامبراطورية · ولكن الهدية القيمة التى قدمتها بيزنطة للشرق والغرب على السواء والتى تتمثل فى المنطق الارسطى ، وتصور الفكر المجرد ، يجب التأكيد عليها · وقد بدا لائقا ليوحنا الدمشقى ، أن يبدأ كتابه عن الايمان المسيحى بفصل فى المنطق ، الذى كان يمثل جزءا من خلفيته الهللينية ، ولم ينسه حتى على الرغم من أنه كان يعيش فى عالم اسلامى · فهذه المدركات الأرسطية ، الصيغ المجردة ، رغم انها لم تبد متناغمة مع بعض أساليب التفكير الاسلامى الشرقية ، الا أنها تركت بصماتها أيضا على التفكير الاسلامى فى العصور الوسطى · أما عند النهاية الأخرى للسلم ، فهناك الكثير من العادات الشعبية بل وحتى التافهة ، التى انتقلت الى البلاد الصقلبية ، وفى بعض الأحيان الى أصقاع بعيدة مثل انجلترا ، كالحكايات والمواويل والتنبؤات والتعاويذ والرقى التى تستخدم ضد الأمراض البسيطة، مثل الأرق وفصد الأنف والصداع ·

كان من غير المألوف بصورة واضحة ، انه بعد عام ١٢٠٤ ، عندما تمكن اللاتين من امتلاك مناطق هامة من الامبراطورية البيزنطية ، وعندما أصبح واضحا أن الهوة الموجودة بين الكنائس اليونانية واللاتينية لا يمكن اجتيازها ، أن يقدم المسيحيون الشرقيون والغربيون على معرفة آداب بعضهم البعض ·

وكان تحويل الحملة الرابعة عن غرضها ، وتوجيهها لاحتلال الامبراطورية المسيحية ، قد قوبل بما يستحقه ، تماما من الادانة · ولكنها فى الوقت ذاته جمعت ، بما لايدع مجالا للشك ، بين الشرق والغرب بطرق مختلفة فى احساس أكثر بهجة ؛ فتزاوجت العائلات اللاتينية مع البيزنطية ، ونبت أبناؤهم فى بلاد اليونان · وها هو وليم فيلهاردوان William of Villhardouin حاكم امارة آخايا Achaea فى القرن الثالث عشر ، يوفد

يحيا وهو طفل فى قلعة أبيـه فى كالاماتا Kalamata بالبلوبونير ، ويتكلم اليونانية بطلاقه · وقـد تعلم الحكام اللاتين لبــلاد اليونان كيف يعرفون ويقدرون قيمة امجادها ، وغير ذلك فقـد ذاعت شهرة آثارها فى العالم الخارجى ، فقد كتب بدور الرابع Pedro IV ملك ارغونة Aragon فى سنة ١٣٨٠ يقول ان الاكروبول Acropolis ، قلعــة الستينيين [الاثينيين] the Castell de Cetines كما كانت تسمى فى الوثائق القطالونية ، تعتبر « أثمن جوهرة فى العالم ، النموذج الذى ليس بمقدور أى ملك فى العالم أن يحاكيه »(٧) · ولم تؤد الممارسة الشخصية للاتين فى منطقة بحر ايجة الى معرفة قيمــة الفن اليونانى البيزنطى ، بل الوقوف على التقاليد الأدبيــة الثقافية لكل من العالمين · ونحن نسعى بصفـة دائمة للتعرف على هـــذه التيارات المتداخلة ، فالبيزنطين يقبلون بنهم على القـــديس أوغسطين أو القديس توماس الاكوينى فى الكتابات المترجمة ،وكذلك كان اللاتين يقرأون أيضا هوميروس مترجما ، وعلى هـذا النحو تعلم الطرفان الى حد ما كيف يفهم كل منهما الآخر ، على عكس ما حدث فى القرن الحادى عشر ، عندما بدا أن بسللوس، لايعرف الفرق بين قيصر وشيشرون ·

ولقـد كانت هناك طرائق لا نهاية لها للاتصـــال بين بيزنطة والعالم المجاور لها الذى اقتبس واستعار منها بدرجة كبيرة · وكان تأثير بيزنطة على جيرانها مباشرا وغير مباشر · فليس لأحد أن ينكر فضلها فيما قدمته للعالم الحديث من كتابات اليونان الأقدمين · ولا يقل عن ذلك اهمية بالنسبة للحضارة المسيحية ، ذلك الدور الرائد الذى قامت به بيزنطة عن طريق علماء اللاهوت الذين يتحدثون باليونانية ، خلال فترة التكوين من القرن الرابع ، الى السابع وأدى ذلك أيضا فائدة جليلة للغرب عن طريق الترجمة · ولقـد كان ذلك عطاء « يونانيا » خالصا · تمتد جذوره الى الاقتدار الهللينى على

---

(٧) اقتبسها K. M. Setton, Catalan domination of Athens 1311-1388 (Cambridge Mass 1948), p. 187. وكلمة Cetines هى التصحيف اللاتينى للتعبير الشعبى Athens صيغة "eis Athenas" ·

التفكير الواضحة ، وانصهر فى بوتقة الامبراطورية الرومانية الشرقيـــة ، التى كانت الامبراطورية اليونانية فى العصور الوسطى . لقد قامت الثقافة اليونانية فى العصر الوسيط على الحياة الاغريقية القديمة ، ولكنها كانت شيئا حيــا وأساسيا ، قادرة على التعبير عن نفسها بأسلوب العصر الذى كانت تحياه .

تم بحمــد الله

مراجع عن الفصل الاخير

Baynes (N.H.) & Meyendorff (B.), The Byzantine Inheritance in Russia, in Byzantium (ed. N.H. Baynes & H. St. L.B. Moss).

Dolger (F.), Byzanz und die Europaische Staatenwelt (Ettal 1953).

Dumbarton Oaks Papers XVIII (1964), XIX (1965).

Dvornik (F.), Les Slaves, Byzance et Rome (Paris 1026). The Making of Central and Eastern Europe (London 1949).

Huxley (M.), Root of Europe, Studies in the Diffusion of Greek Culture (London 1952).

Obolensky (D.), Russia's Byzantine Heritage, Oxford Slavonc Papers, vol. I (1950).

Peeters (P.), Le Trefonds Oriental de L'Hagiographie Byzantine (Brussels 1950).

المصــادر والمراجع

التى اعتمد عليها المترجم فى التقـديم والتعليق

اولا ـ المصـــــادر

AMMIANVS MARCELLINVS :
Res Gestae. trans. by John C. Rolfe in 3 vols. London 1935.

ATHANASIVS : De decretns Nicaenae Synodi Contra Arianos : Nicene IV 2, 150 - 172 (=P.G. XXV, I, 415 - 476).
— Deposittio Arii = Nicene IV 2, 69 - 71 (=P. G. XXV, I, 691 - 695).
— Epistola ad Dracontium : Nicene IV 2, 557 - 560 (=P.G. XXV 524 - 533).
— Historia Arianorum ad Monachos : Nncene IV 2, 270-302 (=P.G. XXV 696 - 796).
— Vita S. Antoni : Nicene IV 2, 195 - 221 (=P.G. XXVI 835 - 976).

AVGVSTINVS :
Civitate Dei, trans. in 2 vols. by Marous Dods. Edinburgh 1949.

EINHARD :
The Life of Charlemagne, thans. by Lewis
Thorpe, in Tow Lives of Charlemagne. Penguin Book 1969.

EVSEBIVS :
Vita Constantini : Nicene I 2, 473 - 580 (=P.G. XX 905-1232).

HIERONIMVS :
Vita S. Pauli Primi erimitae : Nicene VI 2, 299-303 (=P.L. XXIII 17 - 28).

HILARIVS :
De Synodie seu Fide Orientalium : Nicene IX 2, .4 -2 9 (=P. L. X 471 - 546).

LACTANTIVS :
De mortibus Persecutorum : Ante Nicene
Fathers ed. by A. Roberts & J. Donaldson.
Michingan S. d (VII 301 - 3222 = P. L. VII 2, 189 -276).

Nicene and Post Nicene Fathers of The Christian

Church. ed. by Philip Schaff & Henry Wace. Michigan 1891 sqq.

PALLADIVS :

Historia Lausiaca. trans. by Budge (in Stories of the Holy Fathers). London 1934.

PSELLVS, M:

Chronographia. trans in (Fourteen Byzantine Rulers) by E.R.A. Sewter. Penguin Book 1966.

RVFINVS :

Historia Monachorum (P. L. XXI. 391 - 462).

SOCRATES :

Historia Ecclesiastica : Nicene II 2, 1 - 178 (=P. G. LXVII 29 - 842).

SOZOMENVS :

Historia Ecclesiastica : Nicene II 2, 239 - 427 (=P. G. LXVII 843 - 1630).

THEODORETVS :

Historia Ecclesiastica : Nicene III 2, 33 - 159 (=P. G. LXXXII 3, 881 - 1280).

ثانيا ـ المراجع

(أ) المراجع الاوروبية

Academy of Sciences of the U. S. S. R. Institute of history : A short history of the U. S. S. R. trans. from Russian by George H. Hanna. Moscow 9615.

Acton (Lord) :
Essays on church and state, ed., and introd. by Douglas Woodruff. London 1952.

Artz (F. B.) :
The mind of the Middle Ages, 200 - 1500, an historical survey. New York 1953.

Barlow (F.) :
The Feudal kingdom of England 1012 - 1216 London 1974.

Barry (W.) :
The Papal monarchy from St. Gregory the Great to Boniface VIII. New York 1906.

Baynes (N. H.) & &Moss (H. St. L. B.) :
Byzantium, an introduction to East Roman Civilization. Oxford 1969.

Boak (A. E. R.) :
A history of Rome to 565 A. D. London 1955.

Brooke (Ch.) :
Europe in the central Middle Ages, 962 - 1154. London 1966.

Ghooke (Z. N.) :
A history of Europe 911 - 1198. London1966.

Browne (Gh. G.) & Swallow (J. A.) :
Prolegomona (GREGORIVS NAZIANZENVS, Orationes et epistolae) : Nicene VII 2, 187 - 202.

Bryce (J. A.) :
The holy Roman Empire. London 1950.

Budge (E. A. W.):
Stories of the Holy Fathers London 1934.

Burckhardt (J.) :
The age of Constantie the Great, trans. by Moses Hadas, U. S. A. 1949.

Bury (J.B.) :
Hisory of the Later Roman Empire, 2 vols. London 1931.

Cambridge Medieval History, 8 vols. Cambridge 1964.

Cantor (N. F.) :
Medieval history - New York 1964.

Chadwick (H.) :
The early Church - London 1974.

Copleston (F.) :
A history of Philosophy. Medieval philosophy, pt. 1. New York 1962.

DANTE :
The divine Comedy, 3 vols. trans by Dorothy L. Sayers. Penguin Book 1972.

Dawson (Ch.) :
Religion and the rise of Western Culture. New York 1958.

De Wulf (W.) :
Philosophy and civilization in the Middle Ages, New York 1953.

Dictionary of Christian biography. 4 vols. ed. by W. Smith & H. Wace. London 1977.

Dictionnaire de theologie Catholique. 15 toms. Paris 1923.

Douglas (D.) :
William the Conqueror. London 1969.

Duchesne (M.L.) :
Histoire anciene de l'eglise. 3 toms. Paris 1911.

Dudley (D. R.) :
The Civilization of Rome. New York 1962.

Ganshof (F.) :
Feudalism. London 1976.

Gibbon (E.) :

Decline and Fall of the Roman Empire, ed. in 7 vols. by J. B. Bury. London 1909.

Gwatkin H.M.) :

— The Arian Controversy. London 1914.

— Arianism (in C. M. H. vol I).

Hardy (E. R.) :

Christian Egypt : Church and People, Christianity and nationalism in the Patriarchate of Alex. New York 1952.

Haskins (Ch.) :

The Normans in European history. New York 1966.

Hay (D.) :

Europe in the fourteenth and fifteenth centuries. London 1971.

Heer (F.) :

The Medieval World, trans. from the German by Janet Sondheimer. New York 1963.

Hefele (C.J.) :

History of the Councils of the Church, trans. from the German in 5 vols. and ed. by W.R. Clark. Edinburgh 1972.

Hodgett (G.A.) :

A Social and economic history of Medieval Europe. London 1972.

Hughes (Ph.) :

A history of the Church, vol. 2. London 1948.

Jackson (B.) :

Prolegomena (BASILIVS of Cappadocia. opera omnia) Nicene VIII 2, 13 - 77.

Jones (A.H.M.) :

—,The decline of the Ancient World. London 1975.

— Later Roman Empire, 3 vols. Oxford 1964.

— Constantine and the Conversion of Europe. London 1948.

Ker (W.P.) :

The Dark Ages New York 1958.

Kidd :

A history of the church to A.D. 461, 2 vols. Oxford 1922.

Knowles (D.) :
The evolution of Medieval thought. Hong Kong 1976.

Laistner (M.L.W.) :
Thought and letters in Western Europe. New York 1957.

Lamber (W.) :
The Cannons of the first four general Councils of the Church and those of the early Local Greek Synods, London. S. D.

Latourette (K.S.) :
— A history of Christianity. London 1955.
— A history of the expansion of Christianity. 7 vols. New York 1937 sqq.

Leff (G.) :
Medieval thought from S. Augustine to Ockham. Penguin Gook 1958.

McGiffert (A.C.) :
Prolegomena and notes (EVSEBIVS. hist. eccl.) : Nicene I 2, 3-72.

Millingen (A.V.) :
Constantinople, London S.D.

Mundy (J.) :
Europe in the high Middle Ages London 1973.

Neale (J.M.) :
A history of the Holy Eastern Church, Patriarchate of Alexandria. 2 vols. London 1847.

Nender (A.) :
— Lectures on the history of Christian Dogmas, 2 vols. London 1882.
— General history of the Christan religion and Church trans from the German by Joseph Tarrey, 9 vols. London 1851-1858.

The New Schaff-Herzog encylopedia of religions Knowledge 13 vols. Michigan 1957 sqq.

O'Leary (De L.) :
The Coptic Church and Egyptian monsaticism (in Legacy of Egypt).

Oman (Ch.) :
The Dark Ages: European history 476-918. London 1928.

Ostrogorsky (G.) :
History of the Byzantine State, trans. by Joan Hussey. Oxford 1956.

Painter (S.) :
A history of the Middle Ages 384 - 1500 New York 1954.

Percival (H. R.) :
The Seven ocumenical councils (Nicene XIV 2).

Pirenne (H.) :
A history of Europe London 1951.
Economic and social history of Medieval Europe. London 1972.

Rand (E. K.) :
Founders of the Middle Ages New York 1957.

Richardson (E. C.) :
Introduction (EVSEBIVS, vita Const.) Nicene, I 2, 411 - 469.

Runciman (S.) :
A history of the Crusades, 3 vols. London 1951.

Scott (M.) :
Medieval Europe. London 1975.

Slesser (H.) :
The Middle Ages in the West, London S.D.

Stanley (A. F.) :
Lectures on the history of the Eastern Church. London 1864.

Stephenson (C.) :
Medieval history. New York 1962.

Strayer (J.) & Munro (D.) :
The Middle Ages 395 - 1500 New York 1970.

Thompson (J.W.) & Johnson (E.N.) :
An introduction to Medieval Europe 300-1500. New York 1965.

Toynpee (A.) :
A study of history. vol. IV. London 1939.

Ullmann' (W.) :
A short history of the Papacy in the Middle Ages London 1974.

Ure (P.N.) :
Justinian and his Age. Penguin Book. 1951.

Vasiliev (A.A.) :
A history of the Byzantine Empire. Madison and Milwauke 1964.

Vinogradoff (P.) :
Feudalism (in C.M.H. vol. III).

Waddell (H.) :
The desert Fathers. London 1946.

Waley (D.) :
Later Medieval Europe from St. Louis to Luther. London 1976.

Ware (T.) :
The Orthodox Church. Penguin Books, 1967.

(ب) مراجع عربيـة ومترجمـة

ابراهيم العدوى (دكتور) :

الأمويون والبيزنطيون ٠ القاهرة ١٩٦٣ ٠

ابراهيم نصحى (دكتور) :

تاريخ الرومان ٠ جزءان ٠ بيروت ١٩٧٣ (منشورات الجامعة الليبية ببنغازى) ٠

ابن شداد (بهاء الدين) :

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ٠ تحقيق دكتور جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٦٤ ٠

اسحق عبيد (دكتور) :

- الدولة البيزنطية فى عصـــر آل باليولوغوس ١٢٦١ ــ ١٢٨٢ ٠ (منشورات جامعة بنغازى ــ طبعة بيروت ــ بدون تاريخ) ٠
- الفرسان والأقنان فى مجتمع الاقطاع ٠ بنغازى ١٩٧٥ ٠
- روما وبيزنطة ٠ القاهرة ١٩٧٠ ٠
- الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ٠ القاهرة ١٩٧٢ ٠

أسد رستم (دكتور) :

- كنيسة مدينة الله أنطاكيـة العظمى ، ٣ اجـزاء ٠ بيروت ٠ بدون تاريخ ٠
- الروم ٠ جزءان ٠ بيروت ٠ ١٩٥٥ ٠
- حرب فى الكنائس ٠ بيروت ٠ ١٩٥٨ ٠

السيد الباز العرينى (دكتور) :

الدولة البيزنطية ٠ القاهرة ١٩٦٥ :

أومان (ش) :

الامبراطورية البيزنطية ، ترجمــة دكتور مصطفى طه بدر · القاهرة ١٩٥٢ ·

باركر (ارنست) :

الحروب الصليبية ، ترجمة دكتور السيد الباز العرينى · القاهرة · ١٩٦٠ ·

بينز/(نورمان) :

الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة دكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد · القاهرة ١٩٥٧ ·

توينبى (أرنولد) :

الفكر التاريخى عند الاغريق من هومير الى عصر هراكليس · ترجمة لمعى المطيعى · القاهرة ١٩٦٦ ·

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :

– العرب والروم واللاتين فى الحـــرب الصليبية الأولى · القاهرة ١٩٦٧ ·

– العدوان الصليبى على مصر : هزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور · القاهرة ١٩٦٩ ·

جيبون (ادوارد) :

اضمحلال الامبراطورية الرومانيــة وسقوطها (ترجمة للمختصر الذى نشره فى الولايات المتحدة الأمريكية فى ثلاثة أجزاء D. M. Low سنة ١٩٦٠ ، ترجم الجزء الأول محمد على أبو درة ، والثانى نجيب اسكندر ، والثالث دكتور محمد سليم سالم) · القاهرة ١٩٦٩ ·

حسن حبشى (دكتور) :

الحرب الصليبية الأولى · القاهرة ١٩٥٨ ·

حسن حنفى حسين (دكتور) :
نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط : أوغسطين ، انسلم ، توماس الاكوينى · القاهرة ١٩٦٩ ·

حسن محمود (دكتور) وأحمد الشريف (دكتور) :
العالم الاسلامى فى العصر العباسى · القاهرة ١٩٦٦ ·

ديفز (ر· هـ· س) :
شارلمان ، ترجمة دكتور السيد الباز العرينى · القاهرة ١٩٥٩ ·

ديل (شارل) :
البندقية جمهورية أرستقراطية ، ترجمة دكتور أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر · القاهرة ١٩٤٨ ·

ديورنت (ول) :
قصة الحضارة (ترجم من هذه الموسوعة الى العربية حتى الآن سبعة مجلدات فى خمسة وثلاثين جزءا) · القاهرة ١٩٥٦ ـ ١٩٨١ ·

رأفت عبد الحميد (دكتور) :
الدولة والكنيسة · الجزء الثانى : قسطنطين · القاهرة ١٩٧٤ ·
الدولة والكنيسة · الجزء الثالث : أثناسيوس · القاهرة ١٩٧٧ ·

رنسيمان (ستفن) :
الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز جاويد · القاهرة ١٩٦١ ·

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :
الحركة الصليبية · جزءان · القاهرة ١٩٦٣ ·

عبد الرحمن بدوى (دكتور) :
فلسفة العصور الوسطى · القاهرة ١٩٦٢ ·

عبد اللطيف أحمد على (دكتور) :
التاريخ الرومانى · عصر الثورة من تيبريوس جراكوس الى اكتافيانوس أغسطس · بيروت ١٩٧٣ ·

عبد المنعم ماجد (دكتور) :

الناصر صلاح الدين الأيوبى · القاهرة ١٩٥٨ ·

عبد النعيم حسنين (دكتور) :

سلاجقة ايران والعراق · القاهرة ١٩٧٠ ·

عبـده فراج :

معالم الفكر الفلسفى فى العصور الوسطى · القاهرة ١٩٦٩ ·

فرجيليوس :

الانيادة · ترجمة دكتور عبد المعطى شعراوى وآخرين · الجزء الأول القاهرة ١٩٧١ ·

فينوجرادوف (ب) وكوبلاند :

الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوروبا ، ترجمة دكتور محمـد مصطفى زيادة · القاهرة ١٩٥٨ ·

كلارى (روبرت) :

فتح القسطنطينية · ترجمة دكتور حسن حبشى · القاهرة ١٩٦٤ ·

كوبلاند :

القنية والاقطاعية (فى تاريخ العالم الذى أشرف على نشره سيرجون هامرتن · المجلد الخامس) · القاهرة بدون تاريخ ·

كولنجرود (ر · ج) :

فكرة التاريخ · ترجمة محمد بكير خليل · القاهرة ١٩٦٨.

متى المسكين (الأب) :

الرهبنة القبطية فى عصر القديس أنبا مقار · القاهرة ١٩٧٢ ·

محمد مصطفى زيادة (دكتور) :

حملة لويس التاسع على مصر · القاهرة ١٩٦١ ·

موس (هـ) :

ميلاد العصور الوسطى · ترجمة عبد العزيز جاويد · القاهرة ١٩٦٧ ·

نظير حسان سعداوى (دكتور) :

- التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى · القاهرة ١٩٥٧ ·
- تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى · القاهرة ١٩٥٨ ·

هارثمان (ل · م) وباراكلاف (ج) :

الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى · ترجمة وتقديم دكتور جوزيف نسيم يوسف · القاهرة ١٩٧٠ ·

هاوزر (أرنولد) :

الفن والمجتمع عبر التاريخ · جزءان · ترجمة دكتور فؤاد زكريا · القاهرة ١٩٧١ ·

يوسف كرم :

تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط · القاهرة بدون تاريخ ·

للمؤلف

- ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى كتاب روز اليوسف يناير ١٩٧٤
- الدولة والكنسية - الجزء الثانى « قسطنطين » الطبعة الثانية دار المعارف . القاهرة ١٩٨٢
- الدولة والكنيسة - الجزء الثالث « أثناسيوس » الطبعة الثانية دار المعارف - القاهرة ١٩٨٣
- الدولة والكنيسة - الجزء الرابع « ثيودوسيوس وأمبروز » الطبعة الأولى دار المعارف - القاهرة ١٩٨٣
- كنيسة بيت المقدس فى العصر البيزنطى . بحث منشور فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية العد ٢٥ سنة ١٩٧٨
- « ميخائيل بسللوس » من خلال كتابه « التاريخ الزمنى » بحث منشور فى مجلة كلية الآداب - جامعة صنعاء العدد الثانى سنة ١٩٧٩
- الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب فى العصور الوسطى . بحث منشور فى مجلة ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط العدد الثانى سنة ١٩٨٣
- المشكلة الإيطالية فى السياسة الألمانية فى العصور الوسطى بحث منشور فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية العدد ٣٠ سنة ١٩٨٤
- السمو البابوى بين النظرية والتطبيق . بحث منشور فى مجلة ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط العدد الثالث سنة ١٩٨٤

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

الصفحة

رقم الإيداع		١٩٨٤ / ٥٧٩٣
الترقيم الدولى	٣-٠٨٠-١٠-٢-٠٢-٩٧٧	ISBN

٣/٨٤/٥٦

دار روتابرينت للطباعة ـ القاهرة

Bibliotheca Alexandrina
0339633
١٢٢١٩١ / ٠٢

م
٤٢٠